



وقف لله تعالى  
ولا يجوز بيعه

مَدَارِجُ السَّالِكِينَ  
بَيْنَ مَسَارِلِ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِلَيْكَ نَسْتَعِينُ  
الجزء الثاني



حَقُوقُ الطَّبِيعِ كُفُو ظَمًا

الطَّبَعَةُ الْأُولَى

هـ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٤٤٤٠

ISBN: 978-977-430-224-4

القسطاوي

للطباعة والتجليد

٠٢٠١٣١٩٩٩٥٥٥

وقف الله تعالى  
ولا يجوز بيعه

# مَدَارِكُ السُّنَنِ الْكَبِيرَةِ

بَيْنَ مَنَازِلِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

( طَبْعَةٌ مُحَفَّظَةٌ تَمَّ فِيهَا اسْتِدْرَاكُ قُرَابَةِ سَبْعِينَ سَطْرًا مِنْ طَبْعَةِ الْفِقْهِ )

تَأَلَّفَ

شَرِّحَ الدِّينَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ قَيْمٍ الْجَوْزِيَّ

تَحْقِيقَ

عَبْدَ الْعِزِّ بْنِ نَاصِحِ الْجَلِيلِيِّ

المجلد الثاني

وقف لله تعالى  
ولا يجوز بيعه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





## فصل [منزلة الإنابة]

قد علمت أن من نزل في منزل التوبة، وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام؛ فإن التوبة الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها، ولكن لا بد من إفرادها بالذكر والتفصيل؛ تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل التوبة نزل بعده منزل الإنابة.

وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها؛ فقال: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥) ﴿هود: ٧٥﴾.

وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة؛ فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ

بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا﴾ إلى أن قال: ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٨) ﴿ق: ٦٠-٨﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ

يُنِيبُ﴾ (١٣) ﴿غافر: ١٣﴾.

وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الروم: ٣١] الآية.

ف«مُنِيبِينَ» منصوبٌ على الحال من الضمير المستكن في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ لأن هذا

الخطاب له ولأمته؛ أي: أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه، نظيره قوله: ﴿بِأَيِّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾

[الطلاق: ١].

ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله: ﴿فَطَرَّ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]؛ أي: فطرهم منيبين

إليه، فلو خلوا وفطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تحوّل وتغيّر<sup>(١)</sup> عما فطرت عليه، كما

قال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفُطْرَةِ - وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى الْمِلَّةِ - حَتَّىٰ يُعْرَبَ عَنْهُ لِلسَّانَةِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) في «غ» والمنار: (وتغيير).

(٢) البخاري في الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي، وباب: ما قيل في أولاد المشركين (١٣٥٨)، ورواه مسلم في القدر، باب:

كل مولود يولد يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

وقال عن نبيه داود: ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ﴿٢٤﴾ [ص: ٢٤].

وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة، فقال: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِمُنْفِقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ﴿٣٦﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِظٍ ﴿٣٧﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٨﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴿٣٩﴾ [ق: ٣١ - ٣٤].  
وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة؛ فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر: ١٧].

\* و«الإنابة» إنابتان:

﴿إنابة لربوبيته﴾: وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامٌّ في حقِّ كلِّ داعٍ أصابه ضرٌّ، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حقِّ هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آيَنَّا لَهُمْ ﴿٣٨﴾ [الروم: ٣٣]؛ فهذا حالهم بعد إنابتهم.

﴿والإنابة الثانية﴾: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة.

وهي تتضمن أربعة أمور:

- محبته.

- والخضوع له.

- والإقبال عليه.

- والإعراض عمَّا سواه.

فلا يستحقُّ اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم، والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الرجاع إليه كلِّ وقتٍ، المتقدم إلى محابته.

□ قال صاحب «المنازل»: «الإنابة في اللغة الرجوع، وهي هاهنا الرجوع إلى الحقِّ.

وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحقِّ إصلاحًا، كما رجع إليه اعتذارًا، والرجوع إليه وفاءً، كما رجع إليه عهدًا، والرجوع إليه حالًا، كما رجع<sup>(١)</sup> إليه إجابةً.»

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمَّة ذلك رجوعه إليه

(١) في «غ» والمنار: (رجع).

بالاجتهاد، والنصح في طاعته، كما قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ [البقرة: ١٦٠].

فلا تنفع توبة وبطالة، فلا بد من توبة وعمل صالح؛ ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخل عن معصيته، وتحل بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً، فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً.

والدين كله عهد ووفاء؛ فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته، فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل، وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء، فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم، ومدح الموفين بعهده، وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيْرِيَهٗ أَجْرًا عَظِيْمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١].

وقال: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق. وأخبر النبي ﷺ أن من علامات التفاق «العذر بعد العهد»<sup>(١)</sup>.

فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به، كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده؛ فالإنابة لا تتحقق إلا بالتمزام العهد والوفاء به.

وقوله: «وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ حَالًا، كَمَا رَجَعْتَ إِلَيْهِ إِجَابَةً»؛ أي: هو سبحانه قد دعاك فأجبته به: لبنيك وسعديك. قولاً، فلا بد من الإجابة حالاً تصدق به المقال؛ فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها، وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابةً بالمقال، فارجع إليه إجابةً بالحال.

(١) كما في قوله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». رواه البخاري في الإيمان، باب: علامة المنافق برقم (٣٤)، وطرفه في (٢٤٥٩)، ورواه مسلم في الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٨).

قال الحسن: «ابن آدم، لك قول وعمل، وعملك أولى بك من قولك، ولك سريرة وعلائية، وسريرتك أملك بك من علائيتك».

## فصل

□ قال: «وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحًا بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات، والتوجه للعترات، واستدراك الفائتات».

والخروج من التبعات: «هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله، وأداء الحقوق التي عليه للخلق».

\* والتوجه للعترات يحتمل شيئين:

كـ أحدهما: أن يتوجه لعثرته إذا عثر، فيتوجه قلبه وينصدع؛ وهذا دليل على إنايته إلى الله، بخلاف من لا يتألم قلبه، ولا ينصدع من عثرته؛ فإنه دليل على فساد قلبه وموته.

كـ الثاني: أن يتوجه لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر، حتى كأنه هو الذي عثر بها، ولا يشمت به؛ فهو دليل على رقة قلبه وإنايته.

واستدراك الفائتات: هو استدراك ما فاتته من طاعة وقربة بأمثالها، أو خير منها، ولا سيما في بقية عمره، عند قرب رحيله إلى الله؛ فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها<sup>(١)</sup>، يستدرك بها ما فات، ويحيي بها ما أمات.

## فصل

□ قال: «وإنما يستقيم الرجوع إليه عهدًا بثلاثة أشياء: بالخلاص من لذة الذنب، وترك الإسهابنة بأهل الغفلة؛ تخوفًا عليهم، مع الرجاء لنفسك، وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة».

إذا صفت له الإنابة إلى ربّه تخلّص من الفكرة في لذة الذنب، وعاد مكانها ألمًا وتوجعًا لذكره،

(١) يقصد بـالله أن بقية عمر المؤمن هو أنفس ما يكون بحيث لا يعادله قيمة ولا ثمن من قيم الدنيا وأثمانها.

والفكرة فيه، فما دامت لذّة الفكرة فيه موجودةً في قلبه فإنابته غير صافية.

فإن قيل: أيُّ الحالين أعلى: حال من يجد لذّة الذنب في قلبه، فهو يجاهدها لله، ويتركها من خوفه ومحبتّه وإجلاله، أو حال من ماتت لذّة الذنب في قلبه، وصار مكانها ألمًا وتوجّعًا وطمأنينةً إلى ربّه، وسكونًا إليه، والتذاذًا بحبّه، وتنعمًا بذكره؟

قيل: حال هذا أكمل وأرفع، وغاية صاحب المجاهدة أن يجاهد نفسه حتّى يصل إلى مقام هذا ومنزلته، ولكنه يتلوه<sup>(١)</sup> في المنزلة والقرب ومنوطً به.

فإن قيل: فأين أجر مجاهدة صاحب اللذّة، وتركه محابّة الله، وإيثاره رضا الله على هواه، وبهذا<sup>(٢)</sup> كان النوع الإنساني أفضل من النوع الملكي عند أهل السنّة، وكانوا خير البريّة، والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفي منها، فبينهما من التّفاوت ما بين درجة المعافي والمبتلى.

قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثمّ اللوم عليه والتّدم منه، ثمّ الطمأنينة إلى ربّها والإقبال بكلّيّتها عليه، وهذه الحال أعلى أحوالها وأرفعها، وهي التي يشمّر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله؛ فهو بمنزلة راكب<sup>(٣)</sup> القفار، والمهامه<sup>(٤)</sup> والأهوال ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برويته والطّواف به، والآخر بمنزلة من هو مشغولٌ به طائفًا وقائماً، وراكعًا وساجدًا، ليس له التّفات إلى غيره، فهذا مشغولٌ بالغاية، وذاك بالوسيلة، وكلّ له أجرٌ، ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بونٌ.

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبوديّة والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله، وإن كان أكثر عملاً، فقد عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيّة أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فما سبق الصّدّيق رضي الله عنه الصحابة بكثرة عمل، (وقد كان فيهم)<sup>(٥)</sup> من هو أكثر صيامًا وحجًا وقراءةً وصلاةً منه، ولكن بأمرٍ آخر قام بقلبه، حتّى إنّ أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلّا أمامه.

ولكنّ عبوديّة مجاهد نفسه على لذّة الذنب والشّهوة قد تكون أشقّ، ولا يلزم من مشقّتها تفضيلها في الدّرجة، فأفضل الأعمال الإيمان بالله، والجهد أشقّ منه، وهو تاليه في الدّرجة، ودرجة الصّدّيقين أعلى من درجة المجاهدين والشّهداء.

(١) في «غ» والمنار: (تاليه).

(٢) في «غ» والمنار: (ولهذا).

(٣) في «غ» والمنار: (مرتكب).

(٤) المهامه: جمع مهمه، وهي المفازة البعيدة الأطراف. انظر: «الصّحاح» للجوهري (٦/٢٢٥٠).

(٥) في «غ» والمنار: (وفيه).

وفي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ الشُّهَدَاءَ فَقَالَ: «إِنَّ أَكْثَرَ شُهَدَاءِ أُمَّتِي لِأَصْحَابِ الْفُرْشِ، وَرَبُّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفِّينِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِنَبِيِّهِ» (١).

## فصل

\* ومن علامات الإنابة:

ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النعمة، ولكن ارج لهم الرحمة، واخش على نفسك النعمة، فإن كنت لا بد مستهيناً بهم ماقماً لهم لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله؛ فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم - بل تفریطهم - وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، ويبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني - لم يجد بداً من مقتهم، ولا يمكنه غير ذلك ألبتة، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقديره، وكان على بصيرة من ذلك كان لنفسه أشد مقتاً واستهانةً، فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة: فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس، ولعل أكثرها أو كلها أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله! كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه! وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبتة، وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا (٢) إلا أهل البصائر وأطبأء القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل، وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١/٣٩٧)، وضعفه أحمد شاكر في «شرح المسند» رقم (٣٧٧٢).

(٢) في «غ» والمنار: (هذا من هذا).

الأعمال إلى قلبه لاستتار وأشرق، ورأى الحقَّ والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثمَّ بين القلب وبين الرَّبِّ مسافةً، وعليها قطعٌ تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجابٍ وإدلالٍ، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعلل خفيَّة لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمَّال، إذ لو رأوها وعابنوها لوقعوا فيما هو أشدُّ منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل؛ وخمود العزم، وفتور الهمة.

ولهذا لما ظهرت «رعاية»<sup>(١)</sup> أبي عبد الله الحارث بن أسيد المحاسبِي واشتغل بها العبَّاد عطَّلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة، والطَّيب الحاذق يعلم كيف يطبُّ النفوس، فلا يعمر قصرًا ويهدم مصرًا.

## فصل

□ قال: «وإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ الرَّجُوعُ إِلَيْهِ حَالًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِالْإِيَّاسِ مِنْ عَمَلِكَ، وَبِمُعَايِنَةِ اضْطِرَّارِكَ، وَشَيْمِ بَرَقِ لُطْفِهِ بِكَ».

الإيَّاس من العمل يفسَّر بشيئين:

- أحدهما: أنَّه إذا نظر بعين الحقيقة إلى الفاعل الحقِّ، والمحرِّك الأوَّل، وأنَّه لولا مشيئته لما كان منك فعلٌ؛ فمشيئته أوجبت فعلك لا مشيئتك - بقي بلا فعلٍ؛ فهاهنا تنفع مشاهدة القدر، والفناء عن رؤية الأعمال.

- والثَّاني: أن تياس من النَّجاة بعملك، وترى النَّجاة إنَّما هي برحمته تعالى [وعفوه]<sup>(٢)</sup> وفضله، كما في الصَّحيح عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»<sup>(٣)</sup>.

فالمعنى الأوَّل يتعلَّق ببداية الفعل، والثَّاني بغايته ومآله.

وَأَمَّا مُعَايِنَةُ الْاضْطِرَّارِ: فَإِنَّهُ إِذَا أَيَسَ مِنْ عَمَلِهِ بِدَايَةً، وَأَيَسَ<sup>(٤)</sup> مِنَ النَّجَاةِ بِهِ نَهَايَةً - شهد به في

(١) يقصد كتاب «الرعاية لحقوق الله» للحارث المحاسبِي المتوفى سنة (٤٣٠هـ)؛ وهو كتاب مطبوع.

(٢) في طبعة الفقي والمنار: (وعمله) والصواب ما أثبتته بين المعكوفتين، وهو المثبت في نسخة «غ».

(٣) سبق تخريجه (١١٢/١).

(٤) جملة: (أيس) غير موجودة في «غ» والمنار.

كُلُّ ذَرَّةٍ مِنْهُ ضَرُورَةٌ تَامَّةٌ إِلَيْهِ، وَليست ضرورته من هذه الجهة وحدها، بل من جميع الجهات، ووجهات ضرورته لا تنحصر بعددٍ، ولا لها سببٌ، بل هو مضطرٌّ إليه بالذات، كما أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ غَنِيٌّ بِالذَّاتِ؛ فَإِنَّ الغِنَى وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لِلرَّبِّ، والفقر والحاجة والضرورة وصفٌ ذاتيٌّ للعبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفٌ ذَاتٌ لَا زِمَّ أَبَدًا      كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

وَأَمَّا شِيمٌ بَرَقَ لَطْفُهُ بِكَ: فَإِنَّهُ إِذَا تَحَقَّقَ لَهُ قُوَّةٌ ضَرُورِيَّةٌ، وَأَيْسَ مِنْ عَمَلِهِ وَالنَّجَاةُ بِهِ - نَظَرَ إِلَى الطَّافِ اللهُ وَشَامَ بَرَقَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ فِيهِ وَمَا يَرْجُوهُ وَمَا تَقَدَّمَ لَهُ لَطْفٌ مِنَ اللهِ بِهِ، وَمِنَّةٌ مِنْهَا عَلَيْهِ، وَصَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَيْهِ بِلا سَبَبٍ مِنْهُ؛ إِذْ هُوَ الْمُحْسِنُ بِالسَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ، وَالْأَمْرُ لَهُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، وَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

## فصل

### [ منزلة التذُّكر ]

ثمَّ ينزل القلب منزل التذُّكر وهو قرين الإنابة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [١٣] ﴿غافر: ١٣﴾.

وقال: ﴿تَبَصَّرَ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [٨] ﴿ق: ٨﴾.

وهو من خواصِّ أولي الألباب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [١٦] ﴿١﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [٦٦] ﴿١﴾ [البقرة: ٦٦].

والتذُّكر والتفكير منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكيره على تذُّكره، وبتذُّكره على تفكيره، حتَّى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم.

قال الحسن البصري: «مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّى نَطَقَتْ».

□ قال صاحب «المنازل»: «التَّذَكُّرُ فَوْقَ التَّفَكُّرِ؛ لِأَنَّ التَّفَكُّرَ طَلَبٌ، وَالتَّذَكُّرَ وَجُودٌ».

يريد أَنَّ التَّفَكُّرَ التماس الغايات من مبادئها، كما قال: «التَّفَكُّرُ تَلَمُّسُ البصيرة لِاستِدْرَاكِ البُعْية».

(١) هذه الآية غير موجودة في نسخة «غ» والمنار، وكذلك جملة (وقال تعالى) التي بعدها.



وأما قوله: «التَّذَكُّرُ وَجُودٌ». فلائِه يكون فيما قد حصل بالتَّفَكُّر، ثمَّ غاب عنه بالنِّسيان، فإذا تذكَّره وجدَه فظفر به.

والتَّذَكُّرُ تَفَعُّلٌ مِنَ الذِّكْرِ، وَهُوَ ضِدُّ النِّسيانِ، وَهُوَ حُضُورُ صُورَةِ المَذْكُورِ العِلْمِيَّةِ فِي القَلْبِ، وَاخْتِيَارُ لَهُ بِنَاءِ التَّفَعُّلِ لِحُصُولِهِ بَعْدَ مَهْلَةٍ وَتَدْرُجٍ، كَالتَّبَصُّرِ وَالتَّفَهُّمِ وَالتَّعَلُّمِ.

فمنزلة التَّذَكُّرِ مِنَ التَّفَكُّرِ مَنْزِلَةٌ حُصُولِ الشَّيْءِ المَطْلُوبِ بَعْدَ التَّفَتُّيشِ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ آيَاتُ اللَّهِ المَتَلَوَّةِ وَالمَشْهُودَةِ ذِكْرِي، كَمَا قَالَ فِي المَتَلَوَّةِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤].

وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ٤٨].

وقال في آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ

فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَشْبَتْنا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ بِهَيْجِجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٦-٨].

فالتَّبَصُّرَةُ آلَةُ البَصْرِ، وَالتَّذَكُّرَةُ آلَةُ الذِّكْرِ، وَقَرْنَ بَيْنَهُمَا وَجَعَلَهُمَا (١) لِأَهْلِ الإِنَابَةِ؛ لِأَنَّ العَبْدَ إِذَا أَنَابَ إِلَى اللَّهِ أَبْصَرَ مَوَاقِعَ الآيَاتِ وَالعَبْرَ، فَاسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى مَا هِيَ آيَاتٌ لَهُ، فَزَالَ عَنْهُ الإِعْرَاضُ بِالإِنَابَةِ، وَالعَمَى بِالتَّبَصُّرَةِ، وَالعَفْلَةُ بِالتَّذَكُّرَةِ؛ لِأَنَّ التَّبَصُّرَةَ تَوْجِبُ لَهُ حُصُولَ صُورَةِ المَدْلُولِ فِي القَلْبِ بَعْدَ غَفْلَتِهِ عَنْهَا، فَتَرْتِيبُ المَنَازِلِ الثَّلَاثَةِ أَحْسَنُ تَرْتِيبٍ، ثُمَّ إِنَّ كَلَامًا مِنْهَا يُبَيِّنُ صَاحِبَهُ وَيَقْوِيهِ وَيُثَمِّرُهُ.

وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ سَهِيدٌ ﴿٦٧﴾﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ:

- رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ؛ فَذَلِكَ الَّذِي لَا قَلْبَ لَهُ، فَهَذَا لَيْسَتْ هَذِهِ الآيَةُ ذِكْرِي فِي حَقِّهِ.
- الثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ مُسْتَعِدٌّ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُسْتَمِعٍ لِلآيَاتِ المَتَلَوَّةِ الَّتِي يَخْبِرُ بِهَا اللَّهُ عَنِ الآيَاتِ المَشْهُودَةِ إِمَّا لَعَدَمِ وَرُودِهَا، أَوْ لَوْصُولِهَا إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ قَلْبَهُ مَشْغُولٌ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَهُوَ غَائِبٌ القَلْبِ، لَيْسَ حَاضِرًا، فَهَذَا أَيْضًا لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرِي مَعَ اسْتِعْدَادِهِ وَوُجُودِ قَلْبِهِ.
- وَالثَّلَاثُ: رَجُلٌ حَيٌّ القَلْبِ مُسْتَعِدٌّ، تَلَيْتَ عَلَيْهِ الآيَاتِ، فَأَصْغَى بِسَمْعِهِ، وَأَلْقَى السَّمْعَ وَأَحْضَرَ قَلْبَهُ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهَمٍ مَا يَسْمَعُهُ، فَهُوَ شَاهِدُ القَلْبِ، مَلَقِ السَّمْعِ، فَهَذَا القِسْمُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ

(١) فِي «ع» وَالمَنَارِ: (وَجَعَلَا).

بالآيات المتلوّة والمشهودة.

- فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

- والثاني: بمنزلة البصير الطّامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

- والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توشّطٍ

من البعد والقرب؛ فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاءً لما في الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النّظم على ما قرّرت؟

قيل: فيها سرٌّ لطيفٌ، ولسنا نقول: إنّها بمعنى الواو، كما يقوله ظاهرية النّحاة.

فاعلم أنّ الرّجل قد يكون له قلبٌ وقادٌ، مليءٌ باستخراج العبر، واستنباط الحكم؛ فهذا قلبه

يوقعه على التّدكّر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نورٍ، وهؤلاء أكمل خلق الله،

وأعظمهم إيماناً وبصيرةً، حتّى كأنّ الذي أخبرهم به الرّسول ﷺ مشاهدٌ لهم، لكن لم يشعروا

بتفاصيله وأنواعه.

حتّى قيل: إنّ مثل حال الصّديق ﷺ مع النّبي ﷺ، كمثّل رجلين دخلا داراً، فرأى أحدهما

تفاصيل ما فيها وجزئياته، والآخر وقعت يده على ما في الدّار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته، لكن علم أنّ

فيها أموراً عظيمةً، لم يدرك بصره تفاصيلها، ثمّ خرجا، فسأله عمّا رأى في الدّار، فجعل كلّما أخبره

بشيء صدّقه؛ لما عنده من شواهد، وهذه أعلى درجات الصّدقيّة، ولا تستبعد أن يمنّ الله المنان على

عبدٍ بمثل هذا الإيمان<sup>(١)</sup>؛ فإنّ فضل الله لا يدخل تحت حصرٍ ولا حسابٍ.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نورٌ من البصيرة ازداد بها نوراً إلى نوره، فإن لم

يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السّمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التّدكّر أيضاً؛ ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا

وَإِبْلُ فَطَلُّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، والوابل والطلُّ في جميع الأعمال وآثارها وموجباتها.

وأهل الجنّة سابقون مقرّبون، وأصحاب يمينٍ، وبينهما في درجات التّفصيل ما بينهما، حتّى إنّ

شراب أحد النّوعين الصّرف يطيب به شراب النّوع الآخر ويمزج به مزجاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ

أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، فكلُّ مؤمنٍ

يرى هذا، ولكنّ رؤية أهل العلم له لونٌ، ورؤية غيرهم له لونٌ آخر.

(١) جاء في حاشية المنار قوله: (كأن المصنف قدس الله روحه يعرض بنفسه وهو أهل للصّدقية رحمه الله تعالى، ولا

ننسى أن صدّقنا دون صديق الصحابة، وشهيدنا دون شهيدهم، وصالحنا دون صالحهم، قد يتحد المقام وتختلف

فيه الأقدام كما يدل عليه لاحق الكلام).

□ قال صاحب «المنازل»: «أَبْنِيَةُ التَّذْكَرِ ثَلَاثَةٌ: الْإِنْتِفَاعُ بِالْعِظَةِ، وَالِاسْتِبْصَارُ بِالْعِبْرَةِ<sup>(١)</sup>، وَالظَّفَرُ بِثَمَرَةِ الْفِكْرَةِ».

### \* الانتفاع بالعظة:

هو أن يقدر في القلب قاذح الخوف والرَّجاء، فيتحرَّك للعمل، طلباً للخلاص من الخوف، ورغبةً في حصول المرجوِّ.

و«العِظَةُ»: هي الأمر والنهي المعروف بالترغيب والترهيب.

والعظة نوعان: عظةٌ بالمسموع، وعظةٌ بالمشهود.

- فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرُّشد، والنصائح التي جاءت على لسان الرُّسل<sup>(٢)</sup> وما أوحى إليهم، وكذلك الانتفاع بالعظة من كلِّ ناصح ومرشدٍ في مصالح الدِّين والدُّنيا.

- والعظة بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، ومجاريه، وما يشاهده من آيات الله الدالَّة على صدق رسله.

وأما استبصار العبرة<sup>(٣)</sup>: فهو زيادة البصيرة عمَّا كانت عليه في منزل التَّفكُّر بقوة الاستحضار؛ لأنَّ التَّذْكَرَ يعتقل المعاني التي حصلت بالتَّفكُّر في مواقع الآيات والعبر، فهو يظفر بها بالتَّفكُّر، وتنصقل له، وتنجلي بالتَّذْكَرَ، فيقوى العزم على السَّير بحسب قوَّة الاستبصار؛ لأنَّه يوجب تحديد النَّظر فيما يحرك المطلب<sup>(٤)</sup> إذ الطَّلَب فرع الشُّعور، فكلمًا قوي الشُّعور بالمحجوب اشتدَّ سفر القلب إليه، وكلمًا اشتغل الفكر به (ازداد الشُّعور به والبصيرة فيه)<sup>(٥)</sup>، والتَّذْكَرُ له.

### \* وأما الظَّفَرُ بِثَمَرَةِ الْفِكْرَةِ:

فهذا موضعٌ لطيفٌ.

وللفكرة ثمرتان:

- حصول المطلوب تامًّا بحسب الإمكان.

- والعمل بموجبه رعايةً لحقِّه.

(١) في «غ» والمنار: (للعبرة).

(٢) في «غ» والمنار: (يد).

(٣) في «غ» والمنار: (للعبرة).

(٤) في «غ» والمنار: (الطلب).

(٥) في «غ» والمنار: (ازداد الشُّعور والبصيرة به).

- فَإِنَّ الْقَلْبَ حَالِ التَّفَكُّرِ كَانَ قَدْ كَلَّ بِأَعْمَالِهِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ، فَلَمَّا حَصَلَتْ لَهُ الْمَعَانِي وَتَحَمَّرَتْ فِي الْقَلْبِ، وَاسْتَرَاحَ الْعَقْلُ عَادَ فَتَذَكَّرَ مَا كَانَ حَصَلَهُ وَطَالَعَهُ، فَابْتَهَجَ بِهِ وَفَرِحَ بِهِ، وَصَحَّحَ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ مَا كَانَ فَاتَهُ فِي مَنْزِلِ التَّفَكُّرِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِ فِي مَقَامِ التَّذَكُّرِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى مِنْهُ، فَأَخَذَ حَيْثُ نَزَّ فِي الثَّمَرَةِ الْمَقْصُودَةِ، وَهِيَ الْعَمَلُ بِمُوجِبِهِ مِرَاعَاةً لِحَقِّهِ؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ هُوَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ النَّافِعِ، الَّذِي هُوَ ثَمَرَةُ التَّفَكُّرِ.

وَإِذَا أُرِدْتَ فَهْمَ هَذَا بِمِثَالِ حَسِّيٍّ: فَطَالِبُ الْمَالِ مَا دَامَ جَادًّا فِي طَلْبِهِ، فَهُوَ فِي كِلَالٍ وَتَعَبٍ، حَتَّى إِذَا ظَفَرَ بِهِ اسْتَرَاحَ مِنْ كَدِّ الطَّلَبِ، وَقَدِمَ مِنْ سَفَرِ التَّجَارَةِ، فَطَالَعَ مَا حَصَلَهُ وَأَبْصَرَهُ، وَصَحَّحَ فِي هَذَا الْحَالِ مَا عَسَاهُ غَلَطَ فِيهِ فِي حَالِ اسْتِغَالِهِ بِالطَّلَبِ، إِذَا صَحَّحَ لَهُ وَبَرَدَتْ غَنِيمَتُهُ لَهُ أَخَذَ فِي صَرْفِ الْمَالِ فِي وَجْهِ الْإِنْتِفَاعِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

## فصل

□ قال: «وَأِنَّمَا يُنْتَفَعُ بِالْعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: شِدَّةِ الْإِفْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ، وَتَذَكُّرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ».

إِنَّمَا يَشْتَدُّ إِفْتِقَارُ الْعَبْدِ إِلَى الْعِظَةِ وَهِيَ التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيْبُ إِذَا ضَعُفَتْ إِيَابَتُهُ وَتَذَكَّرَهُ، وَإِلَّا فَمَتَى قَوِيَتْ إِيَابَتُهُ وَتَذَكَّرَهُ لَمْ تَشْتَدَّ حَاجَتُهُ إِلَى التَّذَكُّرِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، وَلَكِنْ تَكُونُ الْحَاجَةُ مِنْهُ شَدِيدَةً إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

والعظة يراد بها أمران:

- الأمر والنهي المقرونان (١) بالرغبة والرَّهبة.

- ونفس الرغبة والرَّهبة.

فالمُنِيبُ الْمُتَذَكِّرُ شَدِيدُ الْحَاجَةِ إِلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْمَعْرُضُ الْغَافِلُ شَدِيدُ الْحَاجَةِ إِلَى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، وَالْمَعَارِضُ الْمُتَكَبِّرُ شَدِيدُ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَجَادَلَةِ.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

الْحَسَنَةِ وَجَدَلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

(١) في «غ» والمنار: (المقرون).

أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة؛ إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.  
وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان؛ إذ ليس كل موعظة حسنة.  
وكذلك الجدل قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك.  
وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه، فيكون مأمورًا  
بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين والكلمات، التي هي أحسن شيء  
وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب.  
والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

وأما ما ذكره بعض المتأخرين: أن هذا إشارة إلى أنواع القياسات فالحكمة هي طريقة البرهان،  
والموعظة الحسنة هي طريقة الخطابة، والمجادلة بالتي هي أحسن طريقة الجدل.  
- فالأول: بذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضى إلا بالبرهان، ولا يتقاد إلا له، وهم خواص  
الناس.

- والثاني: بذكر المقدمات الخطابية التي تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة وهم الجمهور.

- والثالث: بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذي يندفع بالجدل، وهم المخالفون.

فتنزيل القرآن على قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم، وذلك باطل قطعاً من وجوه  
عديدة ليس هذا موضع ذكرها، وإنما ذكر هذا استطراداً لذكر العظة، وأن المنيب المتذکر لا تشتد  
حاجته إليها كحاجة الغافل المعرض؛ فإنه شديد الحاجة جداً إلى العظة ليتذکر ما قد نسيه، فينتفع  
بالتذکر.

وأما العمى عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته؛ لأن النفوس مجبولة  
على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواءً  
لمرض به مثله، والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه، بل الطبيب المذكور عندهم أحسن حالاً من هذا  
الواعظ المخالف لما يعظ به؛ لأنه قد يقوم دواءً آخر عنده مقام هذا الدواء، وقد يرى أن به قوة على  
ترك التداوي، وقد يقنع بعمل الطبيعة وغير ذلك، بخلاف هذا الواعظ؛ فإن ما يعظ به طريق معين  
للنجاة لا يقوم غيرها مقامها، ولا بد منها، ولأجل هذه التفرقة قال شعيب رضي الله عنه لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ  
أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَلَكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال بعض السلف: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُقْبَلَ مِنْكَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ فَإِذَا أَمَرْتَ بِشَيْءٍ فَكُنْ أَوَّلَ الْفَاعِلِينَ  
لَهُ، الْمُؤْتَمِرِينَ بِهِ، وَإِذَا نَهَيْتَ عَنْ شَيْءٍ، فَكُنْ أَوَّلَ الْمُتَنَهِّينَ عَنْهُ».

وقد قيل:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ غَيْرُهُ  
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ مِنَ الضَّنَى  
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ  
ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَاهَا عَنْ عَيْبِهَا  
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَى  
هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ  
وَمِنَ الضَّنَى تُنْسِي وَأَنْتَ سَقِيمٌ  
عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَمِيمٌ (١)  
فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ  
بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمِ

فالعمى عن عيب الواعظ من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه، ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن

به، وخافه ورجاه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال: ﴿سَيَذَكَّرُ مِنْ خَشْيِ﴾ (١٠) [الأعلى: ١٠].

وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ خَشْيِهَا﴾ (٤٥) [النازعات: ٤٥].

وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥) [ق: ٤٥]، فالإيمان بالوعد

والوعيد وذكره شرطاً في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر، يستحيل حصوله بدونه.

□ قال: «وإنما تُسْتَبْصِرُ الْعِبْرَةَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِحَيَاةِ الْعَقْلِ، وَمَعْرِفَةِ الْأَيَّامِ،  
وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَعْرَاضِ».

إنما تتميز العبرة وترى وتحقق بحياة العقل، والعبرة هي الاعتبار.

وحقيقتها: العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله؛ فإذا رأى من قد أصابته محنةً وبلاءً لسبب

ارتكبه، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.

وحياة العقل: هي صحة الإدراك، وقوة الفهم وجودته، وتحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به،

وهو نورٌ يخصُّ الله به من يشاء من خلقه، وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه ووجوده

وعدمه يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم، ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين.

ومن تجربات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنْتَ» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

(١) في «غ» والمنار: (عظيم).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه شديد اللهج بها جدًا. وقال لي يوماً: «لِهَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ - وَهُمَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ - تَأْتِيْرٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاةِ الْقَلْبِ». وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم.

وسمعه يقول: «مَنْ وَاطَبَ عَلَى أَرْبَعِينَ مَرَّةً كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ سُنَّةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ». حصلت له حياة القلب، ولم يمته قلبه». ومن علم عبوديات الأسماء الحسنی والدعاء بها، وسرَّ ارتباطها بالخلق والأمر، وبمطالب العبد وحاجاته عرف ذلك وتحققه؛ فإنَّ كلَّ مطلوبٍ يُسألُ بالمناسب له، فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك.

### وأما معرفة الأيام:

- فيحتمل: أن يريد به أيامه التي تخصه، وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان، ويعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة، كل نفسٍ منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء، فليس لهذه الأيام الخالية (قطُّ نسبة<sup>(١)</sup>) إلى أيام البقاء، والعبد منساقٌ زمنه، وفي مدَّة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم، وهي كمدَّة المنام لمن له عقلٌ حيٌّ وقلبٌ واع، فما أولاه ألا يصرف منها نفساً إلا في أحبِّ الأمور إلى الله، فلو صرفه<sup>(٢)</sup> فيما يحبه وترك الأحبَّ لكان مفرطاً، فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟! فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربُّه؟! فالله المستعان ولا قوة إلا به<sup>(٣)</sup>.

- ويحتمل أن يريد بالأيام: أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ [إبراهيم: ٥].

وقد فسرت أيام الله بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي، فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد، والثاني تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تعمُّ النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه. وسميت هذه النعم والنعيم الكبار المتحدّث بها أياماً لأنها ظرفٌ لها؛ تقول العرب: فلان عالمٌ بأيام العرب وأيام الناس؛ أي: بالوقائع التي كانت في تلك الأيام، فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

(١) في «غ» والمنار: (نسبة قط).

(٢) جملة: (إذا صرفه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) جملة: (ولا قوة إلا به) غير موجودة في «غ» والمنار.

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراضك: وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء؛ فإن أتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصدُّ عن أتباع الحق، ويضلُّ عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة، والعبد إذا أتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأئى له الانتفاع بالتذكُّر، أو بالتفكُّر، أو بالعظة؟!

## فصل

□ قال: «وَأِنَّمَا تُجَنَّتِي ثَمَرَةُ الْفِكْرَةِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِقَصْرِ الْأَمَلِ، وَالتَّأْمُلِ فِي الْقُرْآنِ،

وَقِلَّةِ (١) الْخُلْطَةِ وَالْتَّمَنِّي وَالتَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ وَالشَّبَعِ وَالْمَنَامِ».

يعني: أن في منزل «التذكُّر» تجتنى ثمرة «الفكرة»؛ لأنه أعلى منها، وكلُّ مقام تجتنى ثمرته في الذي هو أعلى منه، ولاسيما على ما قرره في خطبة كتابه «أن كلَّ مقامٍ يُصَحِّحُ مَا قَبْلَهُ».

\* ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنى بثلاثة أشياء:

- أحدها: قصر الأمل.

- والثاني: تدبُّر القرآن.

- والثالث: تجنُّب مفسدات القلب الخمسة (٢).

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرِّحيل، وسرعة انقضاء مدَّة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعثه على معافصة (٣) الأيام، وانتهاز الفرص التي تمرُّ مرَّ السحاب، ومبادرة طيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثُّه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة، فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدٌ من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرةً، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصائبها (٤) صاحبها، وإنها لم يبق منها إلا كما بقي من يومٍ صارت شمسها على

(١) كلمة: (وقلة) هي مضافة لكل الكلمات بعدها؛ أي: وقلة الخلطة وقلة التمني، وقلة التعلق بغير الله، وقلة الشبع

والمنام، وهذا يتضح معنى السياق، والله أعلم.

(٢) وهي: الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام.

(٣) المعافصة: المدافعة.

(٤) الصباية - بضم الصاد المهملة -: البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء، ويتصائبها - بتشديد الباء -؛ أي: يشرها.



رءوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلةً، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقاءها كمسافرٍ خرج صاحبه يتلقاه، فكلُّ منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٥ - ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوُّهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قَلَّ إِن لَّيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٣، ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فُهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَّيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَّيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه: ١١٣، ١١٤].

وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشَّمس على رءوس الجبال، فقال: «إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَىٰ مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَىٰ مِنْهُ»<sup>(١)</sup>.

ومرَّ رسول الله ﷺ ببعض أصحابه، وهم يعالجون خصًّا لهم<sup>(٢)</sup> قد وهى، فهم يصلحونه، فقال «مَا هَذَا؟». قالوا: خصُّ لنا قد وهى فنحن نعالجه. فقال: «مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ هَذَا»<sup>(٣)</sup>.

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالآثار.

(١) الترمذي في الفتن، باب: ما أخبر النبي ﷺ بما هو كائن إلى يوم القيامة مطولاً برقم (٢١٩١)، وقال: حسن صحيح. وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» برقم (٣٨٥).

(٢) الخصُّ: بيت من شجر أو قصب. قاله في «اللسان».

(٣) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٥)، وقال: حسن صحيح. ورواه ابن ماجه في الزهد، باب: في البناء والخراب (٤١٦٠)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٥٦).

## فصل

\* وأما التأمل في القرآن:

فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر؛ قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاتِ أَمْ عَلَّ قُلُوبِ أَفْضَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: «نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ؛ فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا».

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل<sup>(١)</sup> وجمع فيه<sup>(٢)</sup>، الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذاقيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلها، وتتل في يده<sup>(٣)</sup> مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيّد بنيانه وتوطّد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرّفه ذاته، وأسماء وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرّفه النفس وصفاتها، ومفاسدات الأعمال ومصحّحاتها، وتعرّفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه. وبالجملة: تعرّفه الربّ المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرّفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

(١) في «غ» والمنار: (التأمل له).

(٢) كلمة: (فيه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) قال الفقي في الحاشية: تل الشيء في يده: وضعه فيها. وقال في «اللسان»: تل يتل ويتل: إذا صب، وتل يتل: إذا سقط.

فهذه ستة أمورٍ ضروريٌّ للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها.  
فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيّبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميّز له بين الحقّ والباطل في كلِّ ما اختلف فيه العالم؛ فتريه الحقّ حقًّا، والباطل باطلاً، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرّق به بين الهدى والضلال، والغيّ والرّشاد، وتعطيه قوّةً في قلبه، وحياةً وسعةً وانسراحاً ومهجةً وسروراً؛ فيصير في شأنٍ والناس في شأنٍ آخر.

فإنَّ معاني القرآن دائرةٌ على التّوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما يُنزّه عنه من سمات النّقص.

وعلى الإيمان بالرّسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلّة صحّة نبوتهم، والتّعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم.

وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلويّ والسّفليّ، وما يختصُّ بالنوع الإنسانيّ منهم، من حين يستقرُّ في رحم أمّه إلى يوم يوافي ربّه ويقدم عليه.

وعلى الإيمان باليوم الآخر، وما أعدّ الله فيه لأوليائه من دار النّعيم المطلق التي (لا يشعرون فيها بألم)<sup>(١)</sup> ولا نكدٍ وتنغيص<sup>(٢)</sup>، وما أعدّ لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرورٌ ولا رخاءٌ ولا راحةٌ ولا فرحٌ، وتفاصيل ذلك أتمّ تفصيل وأبينه.

وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشّرع والقدر، والحلال والحرام، والمواظع والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تُنهض العبد إلى ربّه بالوعد الجميل، وتُحدّره وتُخوّفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثّه على التّصمّر والتّخفّف للقاء اليوم الثّقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السّبيل، وتصدّه عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدیاد من النّعم بشكر ربّه الجليل، وتبصّره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعدّها فيقع في العناء الطّويل، وتثبت قلبه عن الزّیغ والميل عن الحقّ والتّحويل، وتسهّل عليه الأمور الصّعب والعقبات الشّاقّة غاية التّسهيل، وتناديه كلّما فترت عزماته وونى في سيره: تقدّم الرّكب وفاتك الدّليل، فاللّحاق اللّحاق، والرّحيل الرّحيل، وتحذو به وتسير أمامه سير الدّليل، وكلّما خرج عليه كمينٌ من كمانن العدو، أو قاطعٌ من قطع الطّريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

(١) في «غ»: (لا يشوبها ألم).

(٢) في «غ»: (ولا تنغيص).

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

وبالجملة: فهو أعظم الكنوز، طَلَّسَمَه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه.

نَزَّهُ فُوَادِكَ عَنْ سَوَى رَوْضَاتِهِ  
وَالْفَهْمُ طَلَّسَمٌ لِكَنْزِ عُلُومِهِ  
لَا تَخْشَ مِنْ بَدَعٍ لَهُمْ وَحَوَادِثٍ  
مَنْ كَانَ حَارِسُهُ الْكِتَابَ وَدِرْعُهُ  
لَا تَخْشَ مِنْ شُبُهَاتِهِمْ وَاحْمَدُ إِذَا  
وَاللَّهِ مَا هَابَ امْرُؤٌ شُبُهَاتِهِمْ  
يَا وَبِحَ تَيْسٍ ضَالِعٍ يَبْغِي مُسَا  
وَدُخَانَ زَبَلٍ يَرْتَقِي لِلشَّمْسِ يَسُ  
وَجَبَانَ قَلْبٍ أَعْزَلَ قَدْرَامَ يَأُ

فَرِيَاضُهُ حِلٌّ لِكُلِّ مُنَزَّرِهِ  
فَأَقْصِدْ إِلَى الطَّلَّسَمِ تَحْظُ بِكَنْزِهِ  
مَا دُمْتَ فِي كَنْفِ الْكِتَابِ وَحِرْزِهِ  
لَمْ يَخْشَ مِنْ طَعْنِ الْعَدُوِّ وَوَحْرِهِ  
مَا قَابَلْتِكَ بِبَصْرِهِ وَبِعِزِّهِ  
إِلَّا لِضَعْفِ الْقَلْبِ مِنْهُ وَعَجْزِهِ  
بِقَّةَ الْهَزْبِ بِرِ بَعْدُوهِ وَبِجَمْرِهِ  
تُرُّ عَيْنَهَا لَمَّا سَرَى فِي أَرْه  
سِرُّ فَارِسًا شَاكِي السَّلَاحِ بِهِزِّهِ

## فصل

وأما مفسدات القلب الخمسة فهي التي أشار إليها: من كثرة الخلطة والتَّمَنِّي، والتَّعَلُّقُ بغير الله،

والشُّبُع، والمنام، فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

فنذكر آثارها التي اشتركت فيها، وما تميَّز به كلُّ واحدٍ منها.

اعلم أنَّ القلب يسير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحقِّ ونهجه، وآفات

النَّفْس والعمل، وقطَّاع الطريق بنوره وحياته وقوَّته، وصحَّته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبية الشواغل والقواطع عنه.

وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعمور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن لم تصمَّه وتبكمه وتضعف

قواه كلَّها، وتوهن صحَّته وتفترَّ عزيمته، وتوقف همَّته، وتنكسه إلى ورائه.

ومن لا شعور له بهذا فميَّت القلب، وما لجرحٍ بميَّت إيلاَم، فهي عاقبةٌ له عن نبل<sup>(١)</sup> كماله،

(١) في «غ» والمنار: (نيل)، ولعلها هي الصواب.

قاطعةً له عن الوصول إلى ما خلق له، وجعل نعيمه وسعاده وابتهاجه ولذته في الوصول إليه. فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الآخِرَةِ».

وقال بعض العارفين: «إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ أَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ».

وقال بعض المحبين: «مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه أو نحو هذا من الكلام.

وكل من له قلبٌ حيٌّ يشهد هذا ويعرفه ذوقاً. وهذه الأشياء الخمسة قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة<sup>(١)</sup> له أمراضاً وعللاً إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها. \* فأما ما تؤثره كثرة الخلطة:

فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتاً وتفريقاً، وهماً وغمماً، وضعفاً، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه الله والدار الآخرة؟! هذا؛ وكم جلبت خلطة الناس من نعمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بليّة؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟! وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضرّ من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودّة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حققت الحقائق عداوة، ويعص المخلط<sup>(٢)</sup> عليها يديه ندماً، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿١٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا حَلِيلًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

(١) في «غ» والمنار: (محدثة) بدون الواو.

(٢) في «غ» والمنار: (المخالط) ولعلها هي الصواب.

وقال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوآدون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامةً وحرزاً وألماً، وانقلبت تلك المودّة بغضاً ولعنةً وذمّاً من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حرزاً وعذاباً، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزية، إذا أخذوا وعوقبوا، فكل متساعدين على باطل متوآدين عليه لا بد أن تنقلب مودّتهما بغضاً وعداوةً.

### \* والضابط النافع في أمر الخلطة:

أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة، والأعياد والحجّ، وتعلّم العلم، والجهاد، والنصيحة، ويعتزلهم في الشرّ، وفضول المباحات؛ فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشرّ، ولم يمكنه اعتزالهم فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم؛ فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوّة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عزٌّ ومحبةٌ له وتعظيمٌ، وثناءٌ عليه منهم ومن المؤمنين ومن ربّ العالمين، وموافقتهم يعقبها ذلٌّ وبغضٌ له، ومقتٌ، وذمٌّ منهم ومن المؤمنين، ومن ربّ العالمين. فالصبر على أذاهم خيرٌ وأحسن عاقبةً، وأحمد مآلاً.

وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعةً لله إن أمكنه، ويشجّع نفسه ويقوّي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطانيّ القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياءٌ ومحبةٌ لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثّر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فليسلّ قلبه من بينهم كسلّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه؛ لأنّه قد أخذ قلبه من بينهم، ورفق به إلى الملاء الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقّه على النفوس، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريقًا ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبةٌ صادقةٌ، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها، ولا ينال هذا إلا بعدةً صالحيةً ومادةً قوّةً من الله عزّ وجلّ، وعزيمةً صادقةً، و فراغٍ من التعلّق بغير الله تعالى، والله تعالى أعلم.

## فصل: المفسد الثاني من مفسدات القلب

ركوبه بحر التمني، وهو بحرٌ لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما<sup>(١)</sup> قيل: إنَّ المُنَى رأسُ أموالِ المفاليس، وبضاعة ركباه مواعيد الشياطين، وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأمانى الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كلِّ نفسٍ مهينةٍ خسيسةٍ سفليةٍ، ليست لها همّةٌ تنال بها الحقائق الخارجيّة، بل اعتاضت عنها بالأمانى الذهبية، وكلٌّ بحسب حاله: من متمنٍّ للقدرة والسُّلطان، وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للسُّوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها، والتدّ بالظفر بها، فبينما هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقربّه إلى الله، ويدنيه من جواره.

فأما نبيُّ هذا إيمانٌ ونورٌ وحكمةٌ، وأمانى أولئك خدعٌ وغرورٌ.

وقد مدح النبيُّ ﷺ متمني الخير، وربّما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربّه، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقّه، وقال: «هُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ»<sup>(٢)</sup>.

وتمنّى ﷺ في حجة الوداع أنّه لو كان تتمّع وحلّ ولم يسقِ الهدى<sup>(٣)</sup>، وكان قد قرن، فأعطاه الله ثواب القرآن بفعله، وثواب التمتع الذي تمنّاه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين.

## فصل: المفسد الثالث من مفسدات القلب

التعلق بغير الله تبارك وتعالى، وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

(١) كلمة: (كما) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (١٨٩٤).

(٣) يقصد ما أخرجه مسلم من قوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسقِ الهدى ولجعلتها عمرة» وهو جزء من حديث جابر الطويل في الحج، باب: حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

فليس عليه أضرُّ من ذلك، ولا أقطعُ له<sup>(١)</sup> عن مصالحه وسعادته منه؛ فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله بِعَبَادَتِهِ بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممَّن تعلق به وصل؛ قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۗ كَلَّا ۗ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۗ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

فأعظم النَّاس خذلانًا من تعلق بغير الله؛ فإنَّ ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم ممَّا حصل له ممَّن تعلق به، وهو معرَّضٌ للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثُل المستظلِّ من الحرِّ والبرد بيت العنكبوت أو هن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشُّرك وقاعدته التي بني عليها التَّعلق بغير الله، ولصاحبه الذَّمُّ والخذلان؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۗ﴾ [الإسراء: ٢٢]؛ مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك؛ إذ قد يكون بعض النَّاس مقهورًا محمودًا كالذي قُهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي قُهر وتسلَّط [عليه]<sup>(٢)</sup> بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكَّن ومُلك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أبدأ الأقسام الأربعة، لا محمودٌ ولا منصورٌ.

## فصل: المفسد الرابع من مفسدات القلب: الطَّعام

\* والمفسد له من ذلك نوعان:

كـ أحدهما: ما يفسده لعينه وذاته كالمحرَّمات، وهي نوعان: محرَّماتٌ لحقَّ الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذي النَّاب من السِّباع والمخلب من الطَّير، ومحرَّماتٌ لحقَّ العباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه، إمَّا قهْرًا وإمَّا حياءً وتذمُّمًا.

(١) في «غ» والمنار: (ولا أقطع له عن الله تعالى وأحجب له).

(٢) موجودة في جميع النسخ؛ ولعل الصواب -والله أعلم- (حذفها) حتى يستقيم المعنى المراد وهو الموافق للمنصور المذموم، ولو بقيت لما كان بينها وبين التي قبلها فرق، ويحذفها يكون الفعل قهر وتسلط مبني للمعلوم.



والثاني: ما يفسده بقدره وتعدي حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط؛ فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يترقها ويوسعها، ومن أكل كثيراً شرب كثيراً، فنام كثيراً، فخر كثيراً، وفي الحديث المشهور: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لَقِيمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَعْلًا فَتُلْتُ لَطَعَامِهِ، وَتُلْتُ لِشَرَابِهِ، وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ»<sup>(١)</sup>.

ويحكي: «أَنَّ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ عَرَضَ لِيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: هَلْ نِلْتَ مِنِّي شَيْئًا قَطُّ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنَّهُ قُدِّمَ إِلَيْكَ الطَّعَامُ كَيْلَةً فَشَهَيْتُهُ إِلَيْكَ حَتَّى شَبِعْتَ مِنْهُ، فَنِمْتَ عَنْ وَرْدِكَ، فَقَالَ يَحْيَى: اللهُ عَلَيَّ أَلَّا أَشْبَعَ مِنْ طَعَامٍ أَبَدًا. فَقَالَ إِبْلِيسُ: وَأَنَا اللهُ عَلَيَّ أَلَّا أَنْصَحَ آدَمِيًّا أَبَدًا».

### فصل: المفسد الخامس: كثرة النوم

فإنه يمت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل، ومنه المكروه جدًّا، ومنه الضارُّ غير النَّافع للبدن.

وأنتفع النوم: ما كان عند شدَّة الحاجة إليه، ونوم أوَّل اللَّيْلِ أحمد وأنفع من آخره، ونوم وسط النَّهار أنفع من طرفيه، وكلَّما قرب النوم من الطرفين قلَّ نفعه، وكثر ضرره، ولاسيما نوم العصر والنوم أوَّل النَّهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصُّبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمَةٍ، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزيَّةٌ عظيمةٌ، حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالعودة عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس؛ فإنه أوَّل النَّهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسَم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النَّهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطرِّ.

وبالجملة: فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف اللَّيْلِ الأوَّل، وسدسه الأخير، وهو مقدار ثمان ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطَّبيعة انحرافًا بحسبه.

(١) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣١٨)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (١٩٣٩).

ومن النَّوم الَّذي لا يَنْفَع أَيضًا: النَّوم أوَّل اللَّيْلِ، عقيب غروب الشَّمْسِ، حتَّى تذهب فحمة العشاء، وكان رسول الله ﷺ يكرهه (١)؛ فهو مكروهٌ شرعًا وطبعًا.

وكما أنَّ كثرة النَّوم [مورثة] (٢) لهذه الآفات، فمدافعته وهجره مورثٌ لآفاتٍ أخرى عظام؛ من سوء المزاج وبيسه، وانحراف النَّفس، وجفاف الرُّطوبات المُعينة على الفهم والعمل، ويورث أمراضًا متلفَةً لا يَنْتَفِع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلَّا بالعدل، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظّه من مجامع الخير، وبالله المستعان.

## فصل

### [منزلة الاعتصام]

ثمَّ ينزل القلب منزل الاعتصام.

وهو نوعان: اعتصامٌ بالله، واعتصامٌ بحبل الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

والاعتصام: افتعالٌ من العصمة، وهو التَّمسُّك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف؛ فالعصمة: الحماية، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سُمِّيت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السَّعادة الدُّنيويَّة والأخرويَّة على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلَّا لمن تمسَّك بهاتين العصمتين.

فأمَّا الاعتصام بحبله: فإنَّه يعصم من الضَّلالة.

والاعتصام به يعصم من الهلكة.

فإنَّ السَّائر إلى الله كالسَّائر على طريقٍ نحو مقصده، فهو محتاجٌ إلى هداية الطَّرِيق، والسَّلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلَّا بعد حصول هذين الأمرين له؛ فالدَّلِيل كفيلاً بعصمته من الضَّلالة، وأن

(١) يقصد ما أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب: ما يكره من النوم قبل العشاء (٥٦٨) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها.

(٢) ما بين المعكوفين مثبت من «غ» والمنار وفي طبعة الفقي: (مورثة) وهي خطأ كما هو ظاهر.

يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي<sup>(١)</sup> بها تحصل له السلامة من قطع الطريق وآفاتهما. فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية وأتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلثم بها في طريقه؛ ولهذا اختلفت<sup>(٢)</sup> عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: «تَمَسَّكُوا بِدِينِ اللَّهِ».

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هُوَ الْجَمَاعَةُ».

وقال: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّهَا حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَإِنَّ مَا تَكَرَّهُونَ فِي الْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ خَيْرٌ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الْفُرْقَةِ».

وقال مجاهد وعطاء: «بِعَهْدِ اللَّهِ».

وقال قتادة والسُّدِّيُّ وكثيرٌ من أهل التفسير: «هُوَ الْقُرْآنُ».

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَعِصْمَةٌ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ مَنْ تَبِعَهُ»<sup>(٣)</sup>.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ في القرآن: «هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَخْتَلِفُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ»<sup>(٤)</sup>.

وقال مقاتل: «بِأَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَلَا تَفَرَّقُوا كَمَا تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى».

وفي «الموطأ» من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضِي لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضِي لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَأَنْ تَتَّصِحُوا مِنْ وِلَاةِ اللَّهِ أَمْرَكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ،

(١) كلمة: (التي) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (اختلف).

(٣) جزء من حديث رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «فضائل القرآن» ت: أحمد الخياطي (١/٢٤١)، وعزاه إلى الدارمي (٢/٤٤٣)، قال بشير عيون: وفي إسناده أبو إسحاق الهجري وهو لين الحديث يرفع الموقوفات فيحتمل أن يكون وهم في رفع هذا الحديث «بتصريف يسير».

(٤) جزء من حديث طويل رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا وأوله: «ألا إنها ستكون فتنة...» الحديث. رواه في فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن (٢٩٦)، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» (٥٥٤).

وإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»<sup>(١)</sup>. رواه مسلمٌ في «الصَّحِيحِ».

□ قال صاحب «المنازل»: «الْإِعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللَّهِ هُوَ الْمَحَافَظَةُ عَلَى طَاعَتِهِ، مُرَاقِبًا لِأَمْرِهِ».

ويريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها، لا لمجرد العادة، أو لعلَّه باعثة سوى امتثال الأمر.

كما قال طلق بن حبيب في التَّقْوَى: «هِيَ الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَتَرْكُ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، تَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ».

وهذا هو الإيمان والاحتساب المشار إليه في كلام النَّبِيِّ ﷺ كقوله: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا»<sup>(٢)</sup>.

و«مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ»<sup>(٣)</sup>.

فالصَّيَامُ والقيام هو الطَّاعَةُ، والإيمان: مراقبة الأمر، وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الأمر لا شيء سواه، والاحتساب: رجاء ثواب الله.

فالاغتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل، والله أعلم.

## فصل

وأما الاعتصام به: فهو التَّوَكُّلُ عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه؛ فإنَّ ثمرة الاعتصام به هو الدَّفْعُ عن العبد، والله يدافع<sup>(٤)</sup> عن الَّذِينَ آمَنُوا، فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كلُّ سببٍ يفضي به إلى العطب، ويحميه منه، فيدفع عنه الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ، وكيد عدوِّه الظَّاهِرِ والباطِنِ، وشرِّ نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشَّرِّ بعد انعقادها، بحسب قوَّةِ الاعتصام به وتمكُّنه، فتفقد في حقِّه أسباب العطب، فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.

(١) رواه مسلم في الأفضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥).

(٢) البخاري في الإيمان، باب: صوم رمضان احتسابًا من الإيمان (٣٨).

(٣) البخاري في الإيمان، باب: قيام ليلة القدر من الإيمان (٣٥).

(٤) في «غ» والمنار: (يدفع).

## فصل

□ وأما صاحب المنازل فقال: «الاعتصام بالله: الترقى عن كلِّ موهوم».

الموهوم عنده ما سوى الله تعالى.

والترقى عنه: الصعود من شهود نفعه وضره وعطائه ومنعه وتأثيره إلى الله تعالى، وهذه إشارة إلى الفناء.

ومراده: الصعود عن شهود ما سوى الله إلى الله.

والكمال في ذلك: الصعود عن إرادة ما سوى الله إلى إرادته.

والإتحادي يفسره بالصعود عن وجود ما سواه إلى وجوده، بحيث لا يرى لغيره وجوداً ألبتة، ويرى وجود كلِّ موجودٍ هو وجوده، فلا وجود لغيره إلا في الوهم الكاذب عنده.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: اعْتِصَامِ الْعَامَّةِ بِالْخَبْرِ، اسْتِسْلَامًا وَإِذْعَانًا، بِتَصَدِيقِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَتَعْظِيمِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَتَأْسِيسِ الْمُعَامَلَةِ عَلَى الْيَقِينِ وَالْإِنْصَافِ».

يعني: أنَّ العامَّة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله، استسلامًا من غير منازعة، بل إيمانًا واستسلامًا، وانقادوا إلى تعظيم الأمر والنهي والإذعان لهما، والتصديق بالوعد والوعيد، وأسسوا معاملتهم على اليقين، لا على الشك والتردد، وسلوك طريقة الاحتياط، كما قال القائل:

رَعِمَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّيِّبُ كِلَاهُمَا      لَا تُبَعَثُ الْأَجْسَادُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا  
إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ      أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

هذا طريق أهل الريب والشك؛ يقومون بالأمر والنهي احتياطًا، وهذه الطريق لا تنجي من عذاب الله، ولا تحصِّل (١) لصاحبها السعادة، ولا توصله إلى المأمن.

وأما الإنصاف الذي أسسوا معاملتهم عليه فهو الإنصاف في معاملتهم الله ولخلقه.

فأما الإنصاف في معاملة الله: فأن يعطي العبودية حقها، وألا ينازع ربه صفات إلهيته التي لا تليق بالعبد ولا تنبغي له من العظمة، والكبرياء، والجبروت.

(١) في «غ» والمنار: (يحصل).

ومن إنصافه لربه: ألا يشكر سواه على نعمه وينساه، ولا يستعين بها على معاصيه، ولا يحمد على رزقه غيره، ولا يعبد سواه، كما في الأثر الإلهي: «إِنِّي وَالْحِنَّ وَالْإِنْسَ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ؛ أَخْلُقُ وَبُعْدُ غَيْرِي، وَأَرْزُقُ وَيُشْكِرُ سِوَايَ»<sup>(١)</sup>.

وفي أثر آخر: «ابن آدم، ما أنصفتني، خيري إليك نازل، وشركي إلي صاعد، أتحبب إليك بالتعم وأنا عنك غيبي، وتتبعض إلي بالمعاصي وأنت فقير إلي، ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح»<sup>(٢)</sup>.  
وفي أثر آخر: «يا ابن آدم، ما من يوم جديد إلا يأتيك من عندي رزق جديد، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح، تأكل رزقي وتعصيني، وتدعوني فأستجيب لك، وتسالني فأعطيك، وأنا أدعوك إلي جنتي فتأبى ذلك، وما هذا من الإنصاف»<sup>(٣)</sup>.

وأما الإنصاف في حق العبيد: فإن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به. ولعمر الله هذا الذي ذكر أنه اعتصام العامة هو اعتصام خاصة الخاصة في الحقيقة، ولكن الشيخ ممن رفع له علم الفناء فشمّر إليه، فلا تأخذه فيه لومة لائم، ولا يرى مقاماً أجلاً منه.

## فصل

□ قال: «وَاعْتِصَامُ الْخَاصَّةِ بِالْإِنْقِطَاعِ، وَهُوَ صَوْنُ الْإِرَادَةِ قَبْضًا، وَإِسْبَالُ الْخُلُقِ عَلَى الْخُلُقِ بَسْطًا، وَرَفْضُ الْعَلَانِي عَزْمًا، وَهُوَ التَّمَسُّكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى». يريد انقطاع النفس عن أغراضها من هذه الوجوه الثلاثة، فيصون إرادته، ويقبضها عما سوى الله سبحانه.

وهذا شبيه بحال أبي يزيد فيما أخبر به عن نفسه لما قيل له: «مَا تُرِيدُ؟ فَقَالَ: أُرِيدُ أَلَّا أُرِيدَ». الثاني: «إِسْبَالُ الْخُلُقِ عَلَى الْخُلُقِ بَسْطًا». وهذا حقيقة التصوف<sup>(٤)</sup>. فإنه كما قال أبو بكر الكتاني: «التَّصَوُّفُ خُلُقٌ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الْخُلُقِ زَادَ عَلَيْكَ فِي التَّصَوُّفِ».

(١) عزاه في «الجامع الصغير» للحكيم الترمذي والبيهقي، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٣٧١).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) هذه كلمة أعجمية، وليست بعربية ولا إسلامية، فهي أولاً -هندية- ثم يونانية... ومن حاول الدفاع عن الصوفية أو تقسيمها إلى قديمة وحديثة، فإنما ذلك عن دراسة سطحية، وإلا فهي والفلسفة صنوان أو شيء واحد... (الفقي) باختصار.

فإنَّ حسن الخلق وتزكية النَّفس بمكارم الأخلاق يدلُّ على سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه وسجيَّته، وفي هذا الوصف يكفُّ الأذى، ويحمل الأذى ويوجد الرَّاحة، ويدير خدَّه الأيسر لمن لطم الأيمن، ويعطي رداءه لمن سلبه قميصه، ويمشي ميلين مع من سخَّره ميلاً، وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه وأغراضها<sup>(١)</sup>.

وأما رفض العلائق عزماً: فهو العزم التَّامُّ على رفض العلائق، وتركها في ظاهره وباطنه. والأصل هو قطع علائق الباطن، فمتى قطعها لم تضرَّه علائق الظَّاهر، فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لم يضرَّك ولو كثير، ومتى كان في قلبك ضرَّك ولو لم يكن في يدك منه شيءٌ. وقيل للإمام أحمد: «أَيُّكُونُ الرَّجُلُ زَاهِداً وَمَعَهُ أَلْفُ دِينَارٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، عَلَى شَرِيْطَةٍ أَلَّا يَفْرَحَ إِذَا زَادَتْ وَلَا يَحْزَنَ إِذَا نَقَصَتْ»<sup>(٢)</sup>.

ولهذا كان الصَّحابة أزهَّد الأُمَّة مع ما بأيديهم من الأموال. وقيل لسفيان الثوري: «أَيُّكُونُ ذُو الْمَالِ زَاهِداً؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ كَانَ إِذَا زِيدَ فِي مَالِهِ شَكَرَ، وَإِنْ نَقَصَ شَكَرَ وَصَبَرَ».

وإنما يحمد قطع العلائق الظَّاهرة في موضعين: حيث يخاف منها ضرراً في دينه أو حيث لا يكون فيها مصلحةٌ راجحةٌ، والكمال من ذلك قطع العلائق التي تصير كلاليب على الصَّراط تمنعه من العبور، وهي كلاليب الشَّهوات والشُّبهات، ولا يضرُّه ما تعلق به بعدها.

## فصل

□ قال: «واعتصامُ خاصَّةِ الخاصَّةِ: بالإتصال، وهو شُهودُ الحقِّ تفرّيداً، بعد الاستحذاءِ له تعظيماً، والإشتغالِ به قرباً».

لَمَّا كان ذلك الانقطاع موصلاً إلى هذا الإتصال كان ذلك للمتوسِّطين، وهذا عنده لأهل الوصول.

(١) هذه هي الرهبانية التي كرهها وحذر منها رسول الله ﷺ وهي - عند الصوفية - تقوم على زعم التخلص من سنن الله في الجبلات والطباع البشرية وتبديلها، ثم تجر إلى الإباحية اعتماداً على عقيدة الحلولية الاتحادية. (الفقهي).

(٢) لعله ﷺ يقصد فرح الأشر والبطر، أما فرح المؤمن بالنعمة ليقدرها ويشكرها بحسن وضعها في موضعها فمن محاب الله ومراضيه، فلا يمكن أن يكره ذلك الإمام أحمد.

ويعني ب: «شُهُودِ الْحَقِّ تَفْرِيدًا»: أن يشهد الحق سبحانه وحده منفردًا، ولا شيء معه؛ وذلك لفناء الشاهد في الشهود، والحوالة في ذلك عند القوم على الكشف.

وقد تقدّم أنّ هذا ليس بكمالٍ، وأنّ الكمال أن يفنى بمراده عن مراد نفسه، وأمّا فناؤه بشهوده عن شهود ما سواه فدون هذا الفناء في الرتبة كما تقدّم.

وأما قوله: «بَعْدَ الْإِسْتِحْذَاءِ لَهُ تَعْظِيمًا». فالشيخ لكثرة لهجه بالاستعارات عبّر عن معنى لطيفٍ عظيمٍ بلفظة «الْإِسْتِحْذَاءِ» التي هي استفعالٌ من المحاذاة، وهي المقابلة التي لا يبقى فيها جزءٌ من المحاذي خارجًا عمّا حاذاه، بل قد واجهه وقابله بكلّيته وجميع أجزائه<sup>(١)</sup>.

ومراده بذلك: القرب، وارتفاع الوسائط المانعة منه، ولا ريب أنّ العبد يقرب من ربه، والرّب يقرب من عبده.

فأما قرب العبد: فكقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ﴿١٦﴾ [العلق: ١٩].

وقوله في الأثر الإلهي: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا»<sup>(٢)</sup>.

وكقوله: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث الصحيح: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ»<sup>(٤)</sup>.

وفي الحديث أيضًا: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»<sup>(٥)</sup>.

وفي الحديث الصحيح لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي ﷺ في السفر، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبِعُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ؛ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَيَّ

(١) قال الشيخ رشيد: «هذا التفسير للاستحذاء لم نجده في معاجم اللغة كـ«لسان العرب»، و«القاموس» و«شرح»، بل المعروف فيها أن معنى استحذاء فلان فلانًا: طلب منه أن يلبسه حذاء، كاستطمه واستكساه، وأظن الاستحذاء في كلام الهروي بالخاء المعجمة وهو الخضوع والانكسار لله تعالى، وإنما تكلف المصنف له هذا التفسير لأنه وجد نسخ المنازل تذكر الاستحذاء بالمهمله». اهـ.

ثم علق الفقي بقوله: (مختصرًا): ويصح كلامه إذا كان الصوفية يلتزمون المفردات والأساليب العربية، لكنهم لا يلتزمون ذلك، والشيخ ابن القيم رحمه الله أحصر على أن يكون بيده نسخة دقيقة صحيحة من «المنازل».

(٢) رواه البخاري في التوحيد، باب: ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه (٧٥٣٦).

(٣) جزء من الحديث القدسي: «من عادني لي وليًا...»، وقد سبق تخريجه (٢٥٨/١) بدون قوله: «في يسمع، وبني يبصر...» الحديث، وهذه الزيادة ضعيفة رواه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (١/٢٦٥).

(٤) الترمذي في الدعوات، باب رقم (١١٩) رقم (٣٥٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٨٣٣).

(٥) سبق تخريجه (١/٢٨٤).



أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»<sup>(١)</sup>.

فعبّر الشيخ عن طلب القرب منه ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذي لا تقرّ عيون عابديه وأوليائه إلا به بالاستحذاء.

وحقيقته: موافاة العبد إلى حضرته وقدامه، وبين يديه، عكس حال من نبذه وراء ظهره، وأعرض عنه ونأى بجانبه، بمنزلة من ولّى المطاع ظهره، ومال بشقه عنه.

وهذا الأمر لا يدرك معناه إلا بوجوده وذوقه، وأحسن ما يعبر عنه بالعبارة النبوية المحمدية، وأقرب عبارات القوم أنه التّقريب برفع الوسائط التي بارتفاعها يحصل للعبد حقيقة التّعظيم؛ فلذلك قال: «الاستحذاء له تعظيماً».

ومن أراد فهمَ هذا كما ينبغي فعله بفهم اسمه تعالى «الباطن» وفهم اسمه «القريب» مع امتلاء القلب بحبه، ولهج اللسان بذكره، ومن هاهنا يؤخذ العبد إلى الفناء الذي كان مشمراً إليه، عاملاً عليه. فإن كان مشمراً إلى الفناء المتوسط، وهو الفناء عن شهود السّوء، لم يبق في قلبه شهوؤٌ لغيره ألبتة، بل تضحلّ الرّسوم وتفنئ الإشارات، ويفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل، وفي هذا المقام يجب داعي الفناء طوعاً وربةً لا كرهاً؛ لأنّ هذا المقام امتزج فيه الحبُّ بالتّعظيم مع القرب، وهو منتهى سفر الطالبيين لمقام الفناء.

وإن كان العبد مشمراً<sup>(٢)</sup> للفناء العالي، وهو الفناء عن إرادة السّوء لم يبق في قلبه مرادٌ يزاحم مراده الدّينيّ الشّرعيّ النبويّ القرآنيّ، بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرّبّ هو مراد العبد، وهذا حقيقة المحبة الخالصة، وفيها يكون الاتّحاد الصّحيح، وهو الاتّحاد في المراد، لا في المرید، ولا في الإرادة.

فتدبّر هذا الفرقان في هذا الموضوع الذي طالما زلّت فيه أقدام السّالّكين، وضلّت فيه أفهام الواجدین.

وفي هذا المقام<sup>(٣)</sup> حقيقة: يفنى من لم يكن إرادةً وإيثاراً، ومحبةً وتعظيماً، وخوفاً ورجاءً وتوكلًا، ويبقى من لم يزل، وفيه ترتفع الوسائط بين الرّبّ والعبد حقيقةً ويحصل له الاستحذاء المذكور مقرونًا بغاية الحبّ، وغاية التّعظيم.

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب: ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٢٩٩٢)، ورواه مسلم في الذكر والدعاء، باب:

استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤).

(٢) في «غ» والمنار: (وإن كان هذا المشمر).

(٣) في المنار: (الباب).

وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء في المحبة طوعاً واختياراً لا كرهاً، بل ينجذب إليه انجذاب قلب المحبّ وروحه، الذي قد ملأت المحبة قلبه؛ بحيث لم يبق فيه جزءٌ فارغٌ منها إلى محبوبه، الذي هو أكمل محبوبٍ وأجله<sup>(١)</sup> وأحقه بالحبّ.

وهذا الفناء أوجبه الحبُّ الكامل الممتزج بالتعظيم والإجلال والقرب، ومحو ما سوى مراد المحبوب من القلب، بحيث لم يبق في القلب إلا المحبوب ومراده، وهذا حقيقة الاعتصام به وبحبله، والله المستعان.

وأما قوله: «وَالْإِشْتِغَالُ بِهِ قُرْبًا»؛ أي: يشغله قرب الحقّ عن كلّ ما سواه، وهذا حقيقة القرب؛ ألا ترى أنّ القريب من السلطان جدًّا، المقبل عليه، المكلم له لا يشتغل بشيءٍ سواه البتّة؟ فعلى قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به، والله أعلم.

## فصل

### [ منزلة الفرار ]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الذاريات: ٥]: «مَنْزِلَةُ الْفِرَارِ».

قال الله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وحقيقة الفرار: الهرب من شيءٍ إلى شيءٍ، وهو نوعان: فرار السعداء، وفرار الأشقياء.

فرار السعداء: الفرار إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأما الفرار منه إليه ففرار أوليائه.

قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]: «فَرُّوا مِنْهُ إِلَيْهِ، وَاعْمَلُوا

بِطَاعَتِهِ».

وقال سهل بن عبد الله: «فَرُّوا مِمَّا سِوَى اللَّهِ إِلَى اللَّهِ».

وقال آخرون: «أَهْرَبُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَى ثَوَابِهِ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ».

(١) في «غ» والمنار: (وأجمله).

□ وقال صاحب المنازل: «هُوَ الْهَرَبُ مِمَّا لَمْ يَكُنْ إِلَى مَنْ لَمْ يَزَلْ، وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: فِرَارُ الْعَامَّةِ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ عَقْدًا وَسَعْيًا، وَمِنَ الْكَسَلِ إِلَى التَّشْمِيرِ جِدًّا وَعَزْمًا، وَمِنَ الضَّيْقِ إِلَى السَّعَةِ ثِقَةً وَرَجَاءً».

يريد بـ«مَا لَمْ يَكُنْ» الخلق، وبـ«مَا لَمْ يَزَلْ» الحق.  
وقوله: «فِرَارُ الْعَامَّةِ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ عَقْدًا وَسَعْيًا».

الجهل نوعان:

- عدم العلم بالحقِّ النَّافِعِ.

- وعدم العمل بموجبه ومقتضاه.

- فكلاهما جهلٌ لغَةٌ وعرْفًا وشرعًا وحقيقَةً.

قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿لَمَّا قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿أَلَنْخِذْنَا هُزُؤًا﴾﴾ [البقرة: ٦٧]

أي: من المستهزئين.

وقال يوسف الصِّدِّيق: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ [يوسف: ٣٣] أي:

من مرتكبي ما حرَّمت عليهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال قتادة: «أَجْمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ كُلَّ مَا عَصَى اللَّهُ بِهِ فَهُوَ جَهَالَةٌ».

وقال غيره: «أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ أَنْ كُلَّ مَنْ عَصَى اللَّهُ فَهُوَ جَاهِلٌ».

وقال الشاعر:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا      فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

وسمِّي عدم مراعاة العلم جهلاً؛ إمَّا لأنَّه لم ينتفع به، فنزل منزلة الجهل، وإمَّا لجهله بسوء ما

تجني عواقب فعله.

فالفرار المذكور هو الفرار من الجهل: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقادًا ومعرفةً

وبصيرةً، ومن جهل العمل إلى السَّعي النَّافِعِ، والعمل الصَّالح قصدًا وسعيًا.

قوله: «وَمِنَ الْكَسَلِ إِلَى التَّشْمِيرِ جِدًّا وَعَزْمًا»؛ أي: يفرُّ من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل

والتَّشْمِيرِ بالجِدِّ والاجتهاد.

والجدُّ هاهنا<sup>(١)</sup> هو صدق العمل، وإخلاصه من شوائب الفتور، وعود التَّسْويف والتَّهْوَانِ، وهو

(١) في «غ» والمنار: (هو هاهنا).

تحت السنين وسوف، وعسى، ولعل، فهي أضربُ شيءٍ على العبد، وهي شجرةٌ ثمرها الخسران والتدائمات. والفرق بين الجِدِّ والعزم: أن العزم صدق الإرادة واستجماعها، والجِدُّ صدق العمل وبذل الجهد فيه، وقد أمر الله ﷻ بتلقي أوامره بالعزم والجِدِّ، فقال: ﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]. وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال: ﴿يَبْحِثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٣] أي: بجِدِّ واجتهادٍ وعزم، لا كمن يأخذ ما أمر به بتردُّدٍ وفتورٍ.

وقوله: «وَمَنْ الضِّيقِ إِلَى السَّعَةِ ثِقَةً وَرَجَاءً».

يريد: هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتربه في هذه الدَّار من جهة نفسه، وما هو خارجٌ عن نفسه ممَّا يتعلَّق بأسباب مصالحه، ومصالح من يتعلَّق به، وما يتعلَّق بماله وبدنه وأهله وعدوِّه، يهرب من ضيق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى، وصدق التوكُّل عليه، وحسن الرِّجاء لجميل صنعه به، وتوقُّع المرجوِّ من لطفه وبرِّه، ومن أحسن كلام العامَّة قولهم: لا همَّ مع الله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال الربيع بن خثيم: «يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَى النَّاسِ».

وقال أبو العالية: «مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ».

وهذا جامعٌ لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة؛ فإنَّ الله يجعل للمتَّقِي من كلِّ ما ضاق على النَّاس واشتدَّ عليهم في الدنيا والآخرة مخرجًا.

وقال الحسن: «مَخْرَجًا مِمَّا نَهَا عَنْهُ».

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافي من يثق به في نوائبه ومهمَّاته، يكفيه كلُّ ما

أهمُّه، والحسب الكافي؛ ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] كافيًا لله.

وكلِّما كان العبد حسن الظنِّ بالله، حسن الرِّجاء له، صادق التوكُّل عليه - فإنَّ الله لا يخيب أمله

فيه ألبتَّة؛ فإنَّه سبحانه لا يخيب أملَ أمل، ولا يضيع عملَ عامل.

وعبر عن الثقة وحسن الظنِّ بالسَّعة؛ فإنَّه لا أشرح للصَّدر ولا أوسع له - بعد الإيمان - من ثقته

بالله ورجائه له وحسن ظنِّه به.

## فصل

□ قال: «وَفِرَارُ الْخَاصَّةِ مِنَ الْخَبَرِ إِلَى الشُّهُودِ، وَمِنَ الرُّسُومِ إِلَى الْأَصُولِ، وَمِنَ الْحُظُوظِ إِلَى التَّجْرِيدِ».

يعني: أنهم لا يرضون أن يكون إيمانهم عن مجرد خبر، حتى يترقوا منه إلى مشاهدة المخبر عنه، فيطلبون الترقّي من علم اليقين بالخبر إلى عين اليقين بالشهود، كما طلب إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه؛ إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظْمِنُ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فطلب إبراهيم أن يكون اليقين عياناً، والمعلوم مشاهدًا، وهذا هو المعنى الذي عبّر عنه النبي ﷺ بالشك في قوله: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»<sup>(١)</sup> حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم، حاشاهما من ذلك، وإنما عبّر عن هذا المعنى بهذه العبارة. هذا أحد الأقوال في الحديث.

وفيه قول ثانٍ: أنه على وجه النفي؛ أي: لم يشك إبراهيم حيث قال ما قال، ولم نشك نحن، وهذا القول صحيح أيضًا؛ أي: لو كان ما طلبه للشك لكننا نحن أحقّ به منه، لكن لم يطلب ما طلب شكًا، وإنما طلب ما<sup>(٢)</sup> طلبه طمأنينةً.

فالمراتب ثلاثٌ: علم يقين يحصل عن الخبر، ثم تتجلى<sup>(٣)</sup> حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر، حتى يصير العلم به عين يقين، ثم يباشره ويلاسه فيصير حق يقين، فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين، فإذا أزلت الجنة للمتقين في الموقف، وبرزت الجحيم للغاوين، وشاهدوهما عيانًا، كان ذلك عين يقين، كما قال تعالى: ﴿لَرَوُوتَ الْجَحِيمَ ۖ ثُمَّ لَرَوُوتَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧]. فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فذلك حق يقين، وستزيد ذلك إيضاحًا إن شاء الله تعالى إذا انتهينا إليه.

(١) البخاري في الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ رقم (٣٣٧٢)، ومسلم في الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة رقم (١٥١).

(٢) جملة: (طلب ما): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (يتجلى).

وأما قوله: «وَمِنَ الرُّسُومِ إِلَى الْأُصُولِ».

فإنه يريد بالرُّسوم: ظواهر العلم والعمل، وبالأصول: حقائق الإيمان ومعاملات القلوب، وأذواق الإيمان ووارداته، فيفتر من إحكام العلم والعمل إلى خشوع السر للعرفان؛ فإن أرباب العزائم في السير لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها، ولا يعتدون إلا بأرواحها وحقائقها، وما يثبت لهم التَّعَرُّفُ الإلهيُّ، وهو نصيبهم من الأمر.

والتَّعَرُّفُ الإلهيُّ لا يقتضي مفارقة الأمر، كما يظنُّ قَطَاعُ الطَّرِيقِ وزنادقة الصُّوفِيَّةِ، بل يستخرج منهم حقائق الأمر، وأسرار العبوديَّةِ، وروح المعاملة، فحظُّهم من الأمر حظُّ العالم بمراد المتكلِّم من كلامه، تصريحاً وإيماءً، وتنبهها وإشارةً، وحظُّ غيرهم منه حظُّ التَّالِي له حفظاً بلا فهم ولا معرفة لمراده، وهؤلاء أحوج شيء إلى الأمر؛ لأنَّهم لم يصلوا إلى تلك التَّعَرُّفات والحقائق إلا به، فالمحافظة عليه لهم علمًا ومعرفةً وعملاً وحالًا ضروريَّةٌ، لا عوض لهم عنه البتَّة.

وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة، وقطاع الطريق من المنتسبين إلى طريقة القوم.

فإنَّهم لمَّا علموا أنَّ حقائق هذه الأوامر هي المطلوبة أرواحها، لا صورها وأشباحها ورسومها، قالوا: نجمع هممنا على مقاصدها وحقائقها، ولا حاجة لنا إلى رسومها وظواهرها، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره؛ وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وأرواحها، فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك، وهممهم أعلى، وأنَّهم المشتغلون باللُّبِّ وأولئك بالقشر، فتركَّب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيلٌ.

وجملة الأمر: أنَّ هؤلاء عطَّلوا سرَّه ومقصوده وحقيقته، وهؤلاء عطَّلوا رسمه وصورته، فظنَّوا أنَّهم يصلون إلى حقيقته من غير رسمه وظاهره، فلم يصلوا إلا إلى الكفر والزندقة، ووجدوا ما علم بالضرورة مجيء الرُّسل به، فهؤلاء كفَّارٌ زنادقةٌ منافقون، وأولئك مقصِّرون غير كاملين، والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أنَّ الأمر متوجِّهٌ إلى قلوبهم قبل جوارحهم، وأنَّ على القلب عبوديَّةً في الأمر كما على الجوارح، وأنَّ تعطيل عبوديَّة القلب بمنزلة تعطيل عبوديَّة الجوارح، وأنَّ كمال العبوديَّة قيام كلِّ من الملك وجنوده<sup>(١)</sup> بعبوديَّته، فهؤلاء خواصُّ أهل الإيمان وأهل العلم والعرفان.

(١) يريد بالملك القلب وبعنوده الأعضاء كما جاء في الحديث: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». (الفيحي).

## فصل

□ قوله: «وَمِنَ الْحُظُوظِ إِلَى التَّجْرِيدِ».

يريد الفرار من حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها؛ فإنه لا يعرفها لا المعتنون بمعرفة الله ومراده، وحقه على عبده، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهما، ورُبَّ مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها، ويفرون إليه منها، يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم. وبالجملة: فالحظُّ ما سوى مراد الله الدِّينِيِّ منك كائنًا ما كان، وهو ما يبرح<sup>(١)</sup> بين حظٍّ محرَّم إلى مكروه إلى مباح إلى مستحبٍّ، غيره أحبُّ إلى الله منه، ولا يتميِّز هذا إلا في مقام الرُّسوخ في العلم بالله وأمره، وبالنفس وصفاتها وأحوالها.

فهناك تتبيَّن له الحظوظ من الحقوق، ويفرُّ من الحظِّ إلى التجريد، وأكثر النَّاس لا يصلح لهم هذا؛ لأنَّهم إنَّما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه، وأمَّا تجريد عبادته على مراده من عبده:

فَتِلْكَ مَنْزِلَةٌ لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ	سِوَى نَبِيِّ وَصِدِّيقٍ مِنَ الْبَشَرِ
وَالرُّهُدُ زُهْدُكَ فِيهَا لَيْسَ زُهْدُكَ فِي	مَا قَدْ أُبِيحَ لَنَا فِي مُحْكَمِ السُّورِ
وَالصَّدْقُ صِدْقُكَ فِي تَجْرِيدِهَا وَكَذَا الـ	إِخْلَاصُ تَخْلِيصُهَا إِنْ كُنْتَ ذَا بَصَرِ
كَذَا تَوَكُّلُ أَرْبَابِ الْبَصَائِرِ فِي	تَجْرِيدِ أَعْمَالِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْكَدْرِ
كَذَاكَ تَوْبَتُهُمْ مِنْهَا فَهُمْ أَبَدًا	فِي تَوْبَةٍ أَوْ يَصِيرُوا دَاخِلَ الْحُفْرِ

وبالجملة: فصاحب هذا التجريد لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله، ولا يفرح بما حصل له دون الله، ولا يأسى على ما فاته سوى الله، ولا يستغني برتبة شريفة وإن عظمت عنده أو عند النَّاس، فلا يستغني إلا بالله، ولا يفتقر إلا إلى الله، ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله، ولا يحزن إلا على ما فاته من الله، ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله، واحتجاب الله عنه، فكلُّه بالله، وكلُّه لله، وكلُّه مع الله، وسيره دائمًا إلى الله، قد رفع له علمه فشمر إليه، وتجرَّد له مطلوبه فعمل عليه، تناديه الحظوظ: إليَّ، وهو يقول: إنَّما أريد من إذا حصل لي حصل لي كلُّ شيء، وإذا فاتني فاتني كلُّ شيء. فهو مع الله

(١) هكذا في جميع النسخ، وفي تحقيق بشير عيون: (وهو ما بين) وهي أنسب للسياق.

مجردّ عن خلقه، ومع خلقه مجردّ عن نفسه، ومع الأمر مجردّ عن حظّه؛ أعني: الحظّ المزاحم للأمر، وأمّا الحظّ المعين على الأمر فإنّه لا يحطّه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربّه. وهذا أيضًا موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ، فظنّوا أنّ إرادة الحظّ نقص في الإرادة. والتّحقيق فيه أنّ الحظّ نوعان: حظّ يزاحم الأمر، وحظّ يؤازر الأمر فينفّذه، فالأول هو المذموم، والثاني ممدوح، وتناوله من تمام العبوديّة، فهذا لونه وهذا لونه.

## فصل

□ قال: «وفرارٌ خاصّةٌ الخاصّة ممّا دون الحقّ إلى الحقّ، ثمّ من شهود الفرار إلى الحقّ، ثمّ الفرار من شهود الفرار».

هذا على قاعدته في جعل الفناء عن الشهود غاية السالكين، فيفرّ أولًا من الخلق إلى الحقّ، ويشهد بهذا الفرار انفراد مشهوده الذي فرّ إليه، لكن بقيت عليه بقيّة، وهي شهود فراره، فيعدله إحساسًا بالخلق، فيفرّ ثانيًا من شهود فراره، فتقطع النسب كلها بينه وبين الخلق بهذا الفرار الثاني؛ فلا يبقى فيه بقيّة إلا ملاحظة فراره من شهود فراره، فيفرّ من شهود الفرار، فتقطع حينئذ النسب كلها. وقد تقدّم الكلام على هذا، وأنّه ليس أعلى المقامات والرّتب، ولا هو غاية الكمال، وأنّ فوقه ما هو أعلى منه مقامًا، وأشرف منزلًا، وهو أن يشهد فراره، وأنّه بالله من الله إلى الله، فيشهد أنّه فرّ به منه إليه، ويعطي كلّ مشهدٍ حقّه من العبوديّة، وهذا حال الكمّل، والله المستعان.

## فصل

### [منزلة الرياضة]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿منزلة الرياضة﴾<sup>(١)</sup>. هي تمرين النّفس على الصّدق والإخلاص.

(١) يعرف الجرجاني الرياضة بأنها: عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية؛ فإن تهذيبها: تمحيصها عن خلطات الطبع ونزعاتها. (١٥١/١) «التعريفات».



□ قال صاحب المنازل: «هِيَ تَمْرِينُ النَّفْسِ عَلَى قَبُولِ الصِّدْقِ».

وهذا يراد به أمران: تمرينها على قبول الصّدق إذا عرضه عليها في أقواله وأفعاله وإرادته، فإذا عرض عليها الصّدق قبلته وانقادت له وأذعنت له.

- والثاني: قبول الحقّ ممّن عرضه عليه، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ يُؤْتِيكَ مِنْهُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] فلا يكفي صدقك، بل لابدّ من صدقك وتصديقك للصادقين، فكثير من الناس يصدق، ولكن يمنعه من التّصديق كثير أو حسد، أو غير ذلك.

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: رِيَاضَةٌ عَامَّةٌ، وَهِيَ تَهْدِيْبُ الْأَخْلَاقِ بِالْعِلْمِ، وَتَصْفِيَةُ الْأَعْمَالِ بِالْإِخْلَاصِ، وَتَوْفِيرُ الْحُقُوقِ فِي الْمُعَامَلَةِ».

أمّا تهذيب الأخلاق بالعلم: فالمراد به: إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم، فلا يتحرّك بحركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم، فتكون حركات ظاهرة وباطنة موزونة بميزان الشّرع.

وأمّا تصفية الأعمال بالإخلاص: فهو تجريدها عن أن يشوبها باعث لغير الله، وهي عبارة عن توحيد المراد، وتجريد الباعث إليه.

وأمّا توفير الحقوق في المعاملة: فهو أن تعطي ما أمرت به من حقّ الله وحقوق العباد كاملاً موفّراً، قد نصحت فيه صاحب الحقّ غاية النّصح، وأرضيته كلّ الرّضا، ففزت بحمده لك وشكره. ولمّا كانت هذه الثلاثة شاقّة على النّفس جدّاً كان تكلفها رياضة، فإذا اعتادها صارت خلقاً.

□ قال: «وَرِيَاضَةُ الْخَاصَّةِ حَسْمُ التَّفَرُّقِ، وَقَطْعُ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْمَقَامِ الَّذِي جَاوَزَهُ، وَإِبْقَاءُ الْعِلْمِ يَجْرِي مَجْرَاهُ».

يريد بحسم التّفرّق: قطع ما يفرّق قلبك عن الله بالجمعيّة عليه، والإقبال بكليّتك إليه، حاضرًا معه بقلبك كلّهُ، لا تلتفت إلى غيره.

وأمّا قطع الالتفات إلى المقام الذي جاوزه: فهو ألاّ يشتغل باستحسان علوم ذلك المقام ولذّته واستحسانه، بل يلهي عنه معرضاً مقبلاً على الله، طالباً للزيادة، خائفاً أن يكون ذلك المقام له حجّاباً يقف عنده عن السّير، فهتمته حفظه، ليس له قوّة ولا همّة أن ينهض إلى ما فوقه، ومن لم تكن همّته التّقدّم فهو في تأخّر ولا يشعر، فإنّه لا وقوف في الطّبيعة، ولا في السّير، بل إمّا إلى قدام، وإمّا إلى وراء، فالسّالك الصّادق لا ينظر إلى ورائه، ولا يسمع النداء إلاّ من أمامه لا من ورائه.

وأمّا إبقاء العلم يجري مجراه: فالذهاب مع داعي العلم أين ذهب به، والجري معه في تيّاره أين جرى.

وحقيقة ذلك: الاستسلام للعلم، وألاً تعارضه بجمعيّة، ولا ذوق، ولا حال، بل امض معه حيث ذهب؛ فالواجب تسليط العلم على الحال، وتحكيمه عليه، وألاً يعارض به. وهذا صعبٌ جداً إلا على الصادقين من أرباب العزائم؛ فلذلك كان من أنواع الرياضة. ومتمّى تمرّنت النفس عليه وتعودته صار خلقاً، وكثيرٌ من السّالّكين إذا لاحت له بارقة، أو غلبه حالٌ أو ذوقٌ خلّى العلم وراء ظهره، ونبذه وراء ظهره، وحكّم عليه الحال، هذا حال أكثر السّالّكين، وهي حال أهل الانحراف الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً؛ ولهذا عظمت وصيّة أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتّمسك به.

## فصل

□ قال: «ورِياضةٌ خاصّةٌ الخاصّة: تجريدُ الشُّهُودِ، وَالصُّعُودُ إِلَى الْجَمْعِ، وَرَفْضُ الْمُعَارَضَاتِ، وَقَطْعُ الْمُعَاوَضَاتِ».

أمّا تجريدُ الشُّهُودِ، فنوعان:

- أحدهما: تجريده عن الالتفات إلى غيره.

- والثّاني: تجريده عن رؤيته وشهوده.

وأمّا الصُّعُودُ إِلَى الْجَمْعِ: فيعني به الصُّعُودُ عن معاني التّفرقة إلى الجمع الدّاتيّ، وهذا يحتمل أمرين:

- أحدهما: أن يصعد عن تفرقة الأفعال إلى وحدة مصدرها.

- والثّاني: أن يصعد عن علائق الأسماء والصّفات إلى الدّات؛ فإنّ شهود الدّات بدون علائق

الأسماء والصّفات عندهم هو حضرة الجمع، وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام، لا بدّ من تحقيقه.

\* فنقول:

التّفرقة تفرقتان: تفرقة في المفعولات، وتفرقة في معاني الأسماء والصّفات، والجمع جمعان:

جمع في الحكم الكونيّ، وجمع ذاتيّ.

فالجمع في الحكم الكونيّ: اجتماع المفعولات كلّها في القضاء والقدر والحكم.

والجمع الدّاتيّ: اجتماع الأسماء والصّفات في الدّات.

فالدّات واحدة جامعة للأسماء والصّفات.

والقدر<sup>(١)</sup>: جامعٌ لجميع المقتضيات والمقدورات، والشُّهود مترتَّبٌ على هذا وهذا. فشهود اجتماع الكائنات في قضائه وقدره وإن كان حقاً فهو لا يعطي إيماناً، فضلاً عن أن يكون أعلى مقامات الإحسان، والفناء في هذا الشُّهود غاية فناء في توحيد الربوبية الذي لا ينفع وحده، ولا بد منه. وشهود اجتماع الأسماء والصفات في وحدة الذات: شهودٌ صحيحٌ، وهو شهودٌ مطابقٌ للحق في نفسه.

وأما الصُّعود عن شهود تفرقة الأسماء والصفات وعلائقها إلى وحدة الذات المجردة؛ فغاياته أن يكون صاحبه معذوراً لضيق قلبه، وأما أن يكون محموداً في شهوده ذاتاً مجردة عن كل اسم وصفة وعن علائقها فكلاً ولماً!

وأني إيمانٍ يعطي ذلك؟! وأي معرفة؟ وإنما هو سلبٌ ونفيٌ في الشُّهود، كالسلب والنفي في العلم والاعتقاد، فنسبته إلى الشُّهود كنسبة نفي الجهمية وسلبهم إلى الأخبار، لكن الفرق بينهما أن ذلك السلب في العلم والاعتقاد مخالفٌ للحق الثابت في نفس الأمر، وكذبٌ على الله، ونفيٌ لما يستحقه من صفات كماله ونعوت جلاله، ومعاني أسمائه الحسنی.

وأما هذا السلب: فنفي الشعور به للصُّعود منه إلى الجمع الذاتي مع الإيمان به، والاعتراف بثبوتها، فهذا لونٌ وذاك لونٌ.

والكمال: شهود الأمر على ما هو عليه، ويشهد الذات موصوفةً بصفات الجلال، منعوتةً بنعوت الكمال، وكلما كثر شهوده لمعاني الأسماء والصفات كان أكمل.

نعم؛ قد يعذر في الفناء في الذات المجردة؛ لقوة الوارد، وضعف المحل عن شهود معاني الأسماء والصفات.

فتأمل هذا الموضوع، وأعطه حقه، ولا يصدِّك عن تحقيق ذلك ما يحيل عليه أبواب الفناء من الكشف والدُّوق؛ فإننا لا ننكره، بل نقرب به، ولكن الشأن في مرتبته، وبالله التوفيق.

وأما رفض المعارضات فيحتمل أمرين:

- أحدهما: ما يعارض شهوده الجمعي من التفرقات، وهو مراده.

- والثاني: ما يعارض إرادته من الإرادات، وما يعارض مراد الله من المرادات، وهذا أكمل من

الأول، وأعلى منه.

وأما قطع المعاوضات: فهو تجريد المعاملة عن إرادة المعاوضة، بل يجردُها لذاته، وأنه أهل أن يعبد ولو لم يحصل لعباده عوضٌ منه؛ فإنه يستحق أن يعبد لذاته لا لعلته، ولا لعوضٍ ولا لمطلوبٍ،

(١) في «غ» والمنار: (والقضاء والقدر).

وهذا أيضًا موضع لا بدّ من تجريده.

فيقال: ملاحظة المعاوضة ضروريّة للعامل، وإنّما الشّأن في ملاحظة الأعواض وتباينها، فالمحبُّ الصادق الَّذي قد تجرّد عن ملاحظة عوض قد لاحظ أعظم الأعواض، وشمّر إليها، وهي قربه من الله ووصوله إليه، واشتغاله به عمّا سواه، والتّنعّم بحبّه ولذّة الشّوق إلى لقائه، فهذه أعواض لا بدّ للخاصّة منها، وهي من أجلّ مقاصدهم وأغراضهم، ولا تقدح في مقاماتهم، وتجريد عبودياتهم، بل أكملهم عبوديّة أشدّهم التفاتًا إلى هذه الأعواض.

نعم؛ طلب الأعواض المنفصلة المخلوقة من الجاه، والمال، والرّياسة، والملك، أو طلب الحور العين والقصور والولدان، ونحو ذلك بالنّسبة إلى تلك الأعواض التي تطلبها الخاصّة معلولة، وهذا لا شكّ فيه إذا تجرّد طلبهم لها.

أمّا إذا كان مطلوبهم الأعظم الدّاتيّ هو قربه والوصول إليه، والتّنعّم بحبّه، والشّوق إلى لقائه، وانضاف إلى هذا طلبهم لثوابه المخلوق المنفصل؛ فلا علة في هذه العبوديّة بوجه ما، ولا نقص، وقد قال النّبِيُّ ﷺ: «حَوْلَهَا نُدُنِدُنٌ»<sup>(١)</sup>. يعني: الجنّة.

وقال: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ نَفَجَرُ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»<sup>(٢)</sup>.

ومعلوم أنّ هذا مسكن خاصّة الخاصّة، وسادات العارفين، فسؤالهم إيّاه ليس علة في عبوديتهم، ولا قدحًا فيها.

وقد استوفينا ذكر هذا الموضوع في كتاب «سَفَرِ الْهِجْرَتَيْنِ» عند الكلام على علل المقامات. ويحتمل أن يريد الشّيخ بقطع المعاوضات: أن تشهد أنّ الله ما أعطاك شيئًا معاوضةً، بل إنّما أعطاك تفضّلًا وإحسانًا، لا لعوضٍ يرجوه منك، كما يكون عطاء العبد للعبد، وإنّما نتكلّم فيما من العبد، ممّا يؤمر بالتّجرّد<sup>(٣)</sup> عنه، كتجرّده عن التّفرقة والمعاوضة، فهذا أليق المعنيين بكلامه، والله أعلم.

(١) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة، باب: ما يقال في التشهد والصلاة على النبي ﷺ (٩١٠)، ورواه أبو داود في الصلاة، باب: تخفيف الصلاة عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ (٧٩٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٧١٠).

(٢) حديث طويل رواه البخاري في الجهاد، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله رقم (٢٧٩٠).

(٣) في «غ» والمنار: (بالتجريد).

## فصل [منزلة السَّماع]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة السَّماع. وهو اسم مصدرٍ كالنبات، وقد أمر الله به في كتابه، وأثنى على أهله، وأخبر أن البشري لهم، فقال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨].

وقال: ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْ نَالِكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقَوْمَ﴾ [النساء: ٤٦].

وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ

أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وجعل الإسماع منه والسَّماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم

الخير فيهم، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأخبر عن أعدائه أنهم هجروا السَّماع ونهوا عنه، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ

وَالْعَوَافِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

فالسَّماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه، وكم في القرآن من قوله: ﴿أَفَلَا

يَسْمَعُونَ﴾.

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] الآية.

فالسَّماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه، وهو رائده وجليسه ووزيره، ولكن

الشأن كل الشأن في المسموع، وفيه وقع خبط الناس واختلافهم، وغلط منهم من غلط.

وحقيقة السَّماع: تنبيه القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها طلباً وهرباً وحباً وبغضاً، فهو

حادي يحدو بكل أحدٍ إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السَّماع منهم: مَنْ يسمع بطبعه ونفسه وهواه، فهذا حظُّه من مسموعه ما وافق طبعه. ومنهم: مَنْ يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله؛ فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوّته ومادّته.

ومنهم: مَنْ يسمع بالله، لا يسمع بغيره، كما في الحديث الإلهيِّ الصَّحيح: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ»<sup>(١)</sup> وهذا أعلى سماعًا، وأصحُّ من كلِّ أحدٍ.

والكلام في السَّماع مدحًا وذمًّا يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته، وسببه، والباعث عليه، وثمرته، وغايته، فهذه الفصول الثلاثة يتحرَّر أمر السَّماع، ويتميِّز النَّافع منه والضَّارُّ، والحقُّ والباطل، والممدوح والمذموم.

\* فأما المسموع فعلى ثلاثة أضربٍ:

- أحدها: مسموعٌ يحبُّه الله ويرضاه، وأمر به عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنهم به.
- الثاني: مسموعٌ يبغضه ويكرهه، ونهى عنه، ومدح المعرضين عنه.
- الثالث: مسموعٌ مباحٌّ مأذونٌ فيه، لا يحبُّه ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه ولا ذمُّه، فحكمه حكم سائر المباحات من المناظر، والمَشامِّ، والمطعمات، والملبوسات المباحة، فمن حرَّم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم، وحرَّم ما أحلَّ الله، ومن جعله دينًا وقربةً يتقرَّب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع دينًا لم يأذن به الله، وضاهأ<sup>(٢)</sup> بذلك المشركين.

## فصل

\* فأما النوع الأوَّل:

فهو السَّماع الذي مدحه الله في كتابه، وأمر به وأثنى على أصحابه، وذمَّ المعرضين عنه ولعنهم، وجعلهم أضلَّ من الأنعام سبيلاً، وهم القائلون في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾<sup>(٣)</sup> [الملك: ١٠]، وهو سماع آياته المتلوَّة التي أنزلها على رسوله، فهذا السَّماع أساس الإيمان الذي يقوم<sup>(٣)</sup> عليه بناؤه.

(١) سبق الكلام عليه (ص ٣٦).

(٢) في «غ» والمنار: (وضاهي).

(٣) كلمة: (يقوم) غير موجودة في «غ» والمنار.

وهو على ثلاثة أنواع:

- سماع إدراكٍ بحاسة الأذن.
- وسماع فهمٍ وعقلٍ.
- وسماع فهمٍ وإجابةٍ وقبولٍ.
- والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكايةً عن مؤمني الجن قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ٢٠١].

وقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴿١﴾ الْأَحْقَافِ: ٣٠﴾ الآية، فهذا سماع إدراكٍ اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفني عن أهل الإعراض والغفلة، بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم: ٥٢].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢].  
فالتخصيص هاهنا لإسماع الفهم والعقل، وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجّة لا تخصيص فيه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٣] أي: لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: لو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا؛ لأنّ في قلوبهم من داعي التوّلي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سمع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكايةً عن عباده المؤمنين أنّهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]؛ فإنّ هذا سمع قبولٍ وإجابةٍ مثمرٌ للطاعة.  
والتحقيق: أنّه متضمّنٌ للأنواع الثلاثة، وأنّهم أخبروا بأنّهم أدركوا المسموع وفهموه، واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي: قابلون منهم مستجيبون لهم، هذا أصحّ القولين في الآية.

وأما قول من قال: عيونٌ لهم وجواسيس؛ فضعيفٌ؛ فإنّه سبحانه أخبر عن حكمته في تشبيطهم عن الخروج بأنّ خروجهم يوجب الخبال والفساد، والسّعي بين العسكر بالفتنة، وفي العسكر من يقبل منهم، ويستجيب لهم، فكان في إقعادهم عنهم لطفاً بهم ورحمةً؛ حتّى لا يقعوا في عنت القبول منهم.  
أمّا اشتغال العسكر على جواسيس وعيونٍ لهم فلا تعلق له بحكمة التّشبيط والإقعاد، ومعلومٌ أنّ

جواسيسهم وعيونهم منهم، وهو سبحانه قد أخبر أنه أَعَدَّهُمْ لثَلَا يسعوا بالفساد في العسكر، ولثَلَا يبعوهم الفتنة، وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم.

وأيضاً: فَإِنَّ الجواسيس إِنَّمَا تَسْمَى عيوناً هذا المعروف في الاستعمال لا تسمى سمّاعين.

وأيضاً: فَإِنَّ هذا نظير قوله تعالى في إخوانهم اليهود: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾

[المائدة: ٤٢]: أي: قابلون له.

والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقرّين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكاً وفهماً،

وتدبراً وإجابة، وكلّ سماع في القرآن مدح الله أصحابه، وأثنى عليهم، وأمر به أوليائه فهو هذا السّماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن، لا سماع مزامير<sup>(١)</sup> الشيطان، وسماع

كلام ربّ الأرض والسّماء لا سماع قصائد الشعراء، وسماع المرائد لا سماع القصائد، وسماع

الأنبياء والمرسلين لا سماع المغنّين والمطربين.

فهذا السّماع حادٍ يحدو القلوب إلى جوار علاّم الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار

الأفراح، ومحركٌ يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدّرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان،

ودليلٌ يسير<sup>(٢)</sup> بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصّباح، من قبل فلق الإصباح:

حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح.

فلم يعدم من اختار<sup>(٣)</sup> هذا السّماع إرشاداً لحجّة، وتبصرةً لعبرة، وتذكرةً لمعرفة، وفكرةً في

آية، ودلالةً على رشيد، وردّاً على ضلالة، وإرشاداً من غي، وبصيرةً من عمى، وأمراً بمصلحة، ونهياً

عن مضرةً ومفسدة، وهدايةً إلى نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى، وحثّاً على تقى، وجلاءً

لبصيرة، وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاءً، وعصمةً ونجاةً، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق

حق، وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذّوق في سماع الأبيات والقصائد، ونناشدهم بالذي أنزل القرآن

هدىً وشفاءً ونوراً وحياةً: هل وجدوا ذلك أو شيئاً منه في الدّفّ والمزمار؟ ونعمة الشّادن<sup>(٤)</sup>،

ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل على تهيج الحبّ المطلق الذي يشترك فيه محبُّ الرّحمن،

ومحبُّ الأوطان، ومحبُّ الإخوان، ومحبُّ العلم والعرفان، ومحبُّ الأموال والأثمان، ومحبُّ

(١) كلمة: (مزامير) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (يدل).

(٣) كلمة: (اختار) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (الشاهد).



النَّسوان والمردان، ومحبُّ الصُّلبان، فهو يثير من قلب كلِّ مشتاقٍ ومحبِّ لشيءٍ ساكنه، ويزعج قاطنه، فيثور وجده، ويبدو شوقه، فيتحرَّك على حسب ما في قلبه من الحبِّ والشَّوق والوجد بذلك المحبوب كائنًا ما كان؛ ولهذا تجد لهؤلاء كلَّهم ذوقًا في السَّماع، وحالًا ووجدًا وبكاءً.

ويا لله العجب! أيُّ إيمانٍ ونورٍ وبصيرةٍ وهدىٍ ومعرفةٍ تحصل باستماع أبياتٍ بالحنانِ وتوقيعاتٍ، لعلَّ أكثرها قيلت فيما هو محرَّمٌ يبغضه الله ورسوله ويعاقب عليه؛ من غزلٍ وتشبيبٍ<sup>(١)</sup> بمن لا يحلُّ له من ذكرٍ أو أنثى؟ فإنَّ غالب التَّغزُّلِ والتَّشبيبِ إنّما هو في الصُّور المحرَّمة، ومن أندر النَّادر تغزُّلُ الشَّاعر وتشبيبه في امرأته، وأمه وأمِّ ولده<sup>(٢)</sup>، مع أنّ هذا واقعٌ لكنَّه كالشَّعرة البيضاء<sup>(٣)</sup> في جلد الثَّور الأسود<sup>(٤)</sup>، فكيف يقع لمن له أدنى بصيرةٍ وحياءٍ قلبٍ أن يتقرَّب إلى الله، ويزداد إيمانًا وقربًا منه وكرامةً عليه، بالتذاذ<sup>(٥)</sup> بما هو بغیضٌ إليه، مقيتٌ عنده، يمقت قائله والرَّاضي به، وترقَّى به الحال حتَّى يزعم أنّ ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النَّافع، وسنة نبيِّه ﷺ؟! يا لله! إنّ هذا القلب محسوفٌ به، ممكورٌ به منكوسٌ، لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه، ومطالعة أسرارهِ، فبلاه بقرآن الشَّيطان.

كما في «مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ» وغيره مرفوعًا وموقوفًا: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: يَا رَبِّ، اجْعَلْ لِي قُرْآنًا. قَالَ: قُرْآنَكَ الشَّعْرُ».

قَالَ: اجْعَلْ لِي كِتَابًا. قَالَ: كِتَابُكَ الْوَشْمُ.

قَالَ: اجْعَلْ لِي مُؤَدَّنًا. قَالَ: مُؤَدَّنُكَ الْمِرْمَارُ.

قَالَ: اجْعَلْ لِي بَيْتًا. قَالَ: بَيْتُكَ الْحَمَامُ.

قَالَ: اجْعَلْ لِي مَصَائِدَ. قَالَ: مَصَائِدُكَ النَّسَاءُ.

قَالَ: اجْعَلْ لِي طَعَامًا. قَالَ: طَعَامُكَ مَا لَمْ يُدَكَّرْ عَلَيْهِ اسْمِي<sup>(٦)</sup>.

والله ﷻ أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (وتشبيب).

(٢) في «غ» والمنار: (أولاده).

(٣) كلمتا: (البيضاء، والأسود) غير موجودتين في «غ» والمنار، والصواب إثباتهما؛ لأن المعنى لا يتضح إلا بهما.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) في «غ» والمنار: (بالتذاذ).

(٦) رواه الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة بلفظ: «إن إبليس لما أنزل إلى الأرض قال...» (٧٨٣٧)، وقال الهيثمي في

«مجمع الزوائد»: فيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف. (١٢٢/٨).

## فصل

## القسم الثاني من السماع

ما يبغضه الله ويكرهه، ويمدح المعرض عنه، وهو سماع كل ما يضرُّ العبد<sup>(١)</sup> في قلبه ودينه، كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمَّن رده وإبطاله (والاعتبار به، وقصد أن يعلم به حسن ضده)<sup>(٢)</sup>؛ فإنَّ الضدَّ يُظهر حسنه الضدُّ، كما قيل:

وَإِذَا سَمِعْتُ إِلَى حَدِيثِكَ زَادَنِي حُبَّالَهُ سَمِعِي حَدِيثَ سِوَاكَ

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا

عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال محمد بن الحنفية: «هُوَ الْغِنَاءُ».

وقال الحسن أو غيره: «أَكْرَمُوا نَفْسَهُمْ عَنْ سَمَاعِهِ».

قال ابن مسعود: «الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النَّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ»<sup>(٣)</sup>.

وهذا كلام عارفٍ بأثر الغناء وثمرته، فإنه ما اعتاده أحدٌ إلا نافق<sup>(٤)</sup> قلبه وهو لا يشعر، ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه؛ فإنه ما اجتمع في قلب عبدٍ قطُّ محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى.

وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرُّمهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طوَّل عليهم، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرؤه، فلا تتحرَّك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب، فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله، كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمني طول الليل،

(١) في «غ» والمنار: (كل ما يضره).

(٢) في «غ» والمنار: (والاعتبار به يعلمه بحسن ضده).

(٣) ضعف هذا الأثر الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٣٩٣٧).

(٤) في «غ» والمنار: (ونافق).

فإن لم يكن هذا نفاقاً فهو آخية<sup>(١)</sup> التَّفَاقِ وأساسه.  
 تُلِي الْكِتَابَ فَاطْرُقُوا لَا خِيفَةَ  
 وَأَتَى الْغِنَاءَ فَكَالذُّبَابِ تَرَاقِصُوا  
 دُفٌّ وَمِرْمَارٌ وَنَعْمَةٌ شَاهِدِ  
 نُقِلَ الْكِتَابُ عَلَيْهِمْ لَمَّا رَأَوْا  
 وَعَلَيْهِمْ خَفَّ الْغِنَاءُ لَمَّا رَأَوْا  
 يَا فِرْقَةَ مَا ضَرَّ دِينَ مُحَمَّدٍ  
 سَمِعُوا لَهُ رَعْدًا وَبَرْقًا إِذْ حَوَى  
 وَرَأَوْهُ أَعْظَمَ قَاطِعٍ لِلنَّفْسِ عَنُ  
 وَأَتَى السَّمَاعَ مُوَافِقًا أَعْرَاضَهَا  
 أَيْنَ الْمُسَاعِدُ لِلْهَوَى مِنْ قَاطِعٍ  
 إِنْ لَمْ يَكُنْ خَمَرَ الْجُسُومِ فَإِنَّهُ  
 فَاَنْظُرْ إِلَى النَّشْوَانِ عِنْدَ شَرَابِهِ  
 وَانظُرْ إِلَى تَمْزِيْقِ ذَا أَنْوَابِهِ  
 فَاحْكُمْ بِأَيِّ الْخَمْرَتَيْنِ أَحَقُّ بِالتُّ

وكيف يكون السماع الذي يسمعه العبد بطبعه وهواه أنفع له من الذي يسمعه بالله والله وعن الله؟!  
 فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائي الشعري كذلك؛ فهذا غاية اللبس على القوم؛ فإنه إنما  
 يسمع بالله والله وعن الله ما يحبه الله ويرضاه؛ ولهذا قلنا: إنه لا يتحرر الكلام في هذه المسألة إلا بعد معرفة  
 صورة المسموع وحقيقته ومرتبته، فقد جعل الله لكل شيء قدرًا، ولن يجعل الله من شربه ونصيبه وذوقه  
 ووجده من سماع الآيات البينات، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والآيات.  
 ومن أعجب العجائب: استدلال من استدلل على أن هذا السماع من طريق القوم، وأنه مباح

(١) قال في «لسان العرب» (١/٤٢)، الأخية والأخية بالمد والتشديد: واحدة الأواخي عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه  
 فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة.

بكونه مستلذلاً طبعاً<sup>(١)</sup>، تلذذه النفوس، وتستروح إليه، وأنَّ الطَّفْلَ يسكن إلى الصَّوت الطَّيِّب، والجمل يقاسي تعب السَّير ومشقة الحمولة فيهُون عليه بالحُداء.

وبأنَّ الصَّوت الطَّيِّب نعمة من الله على صاحبه، وزيادة في خلقه، وبأنَّ الله ذمَّ الصَّوت الفظيع، فقال: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

وبأنَّ الله وصف نعيم أهل الجنَّة، فقال فيه: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥]، وأنَّ ذلك هو السَّماع الطَّيِّب، فكيف يكون حراماً وهو في الجنَّة!؟

وبأنَّ الله تعالى ما أذن لشيءٍ كآذنه - أي: كاستماعه - لنبِيِّ حسن الصَّوت يتغنَّى بالقرآن<sup>(٢)</sup>.  
وبأنَّ أبا موسى الأشعريِّ رضي الله عنه استمع النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله إلى<sup>(٣)</sup> صوته، وأثنى عليه بحسن الصَّوت، وقال: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِرْمَارًا مِنْ مِرَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»<sup>(٤)</sup>. فقال له أبو موسى: «لو علمتُ أنَّكَ استمعتَ لحبَّرته لك تحبيراً»<sup>(٥)</sup>؛ أي: زينتته لك وحسنته. وبقوله صلى الله عليه وآله: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»<sup>(٦)</sup>.  
وبقوله صلى الله عليه وآله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ»<sup>(٧)</sup>. والصَّحيح أنَّه من التَّغَنِّي بمعنى<sup>(٨)</sup>: تحسين الصَّوت، وبذلك فسره الإمام أحمد رضي الله عنه، فقال: يحسُّنه بصوته ما استطاع.

وبأنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله أقرَّ عائشة رضي الله عنها على غناء القيتيين يوم العيد، وقال لأبي بكرٍ رضي الله عنه: «دَعُهُمَا؛ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عَيْدًا، وَهَذَا عَيْدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ»<sup>(٩)</sup>.  
وبأنَّه صلى الله عليه وآله أذن في العرس في الغناء وسماه لهواً<sup>(١٠)</sup>.

(١) في «غ» والمنار: (طيباً).

(٢) البخاري في فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن رقم (٥٠٢٣)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٢).

(٣) كلمة: (إلى) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) البخاري في فضائل القرآن، باب: حسن الصوت للقراءة بالقرآن (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

(٥) «مسند أبي يعلى» (٧٢٧٩)، وضعفه المحقق: حسين أسد.

(٦) رواه أحمد (٢٨٣/٤)، وأبو داود في الوتر (٧٤/٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٣٠٣)، ورواه ابن ماجه (١٣٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١١٠٣).

(٧) البخاري في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ الآية برقم (٧٥٢٧).

(٨) كلمة: (بمعنى) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٩) البخاري في العيدين، باب: الحراب والدرق يوم العيد رقم (٩٤٩)، ومسلم في العيدين، باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه (٨٩٢).

(١٠) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في النكاح، باب: النسوة التي يهدين المرأة إلى زوجها (٥١٦٢) وقوله صلى الله عليه وآله: «يا عائشة ما كان معكم لهو...».

وقد سمع رسول الله ﷺ الحُداء<sup>(١)</sup>، وأذن فيه.

وكان يسمع أنسا والصحابة وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا<sup>(٢)</sup>

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة<sup>(٣)</sup>.

وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر، فجعل يقول:

وَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَالَيْنَا

فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الَّذِينَ قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا

وَنَحْنُ إِنْ صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا وَبِالصَّيَاحِ عَوْلُوا عَلَيْنَا

وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَعَيْنَا

فدعا لقاتله<sup>(٤)</sup>.

وسمع قصيدة كعب بن زهير، وأجازه ببردة<sup>(٥)</sup>.

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حمد بها ربّه<sup>(٦)</sup>.

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية<sup>(٧)</sup>.

وأنشده الأعشى شيئاً من شعره فسمعه<sup>(٨)</sup>.

وصدق لبيداً في قوله: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ<sup>(٩)</sup>.

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في الفضائل، باب: رحمة النبي ﷺ للنساء (٢٣٢٣)، وقوله ﷺ: «يا أنجشة رويدك بالقوارير».

(٢) البخاري في المغازي، باب: غزوة الخندق (٤١٠٠)، ورواه مسلم في الجهاد، باب: غزوة الأحزاب (١٨٠٥).

(٣) الترمذي في الأدب، باب: ما جاء في إنشاد الشعر (٢٨٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» رقم (٢٢٨٣).

(٤) يشير إلى الحديث المتفق عليه، رواه البخاري في المغازي، باب: غزوة خيبر رقم (٤١٩٦)، ومسلم في الجهاد، باب: غزوة خيبر (١٨٠٢).

(٥) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في «السيرة» (١٤٦/٤)، ورواه عن ابن إسحاق الطبراني قال عنه الهيثمي في «المجمع»: إسناده الطبراني إلى ابن إسحاق كلهم ثقات. (٣٩٥/٩).

(٦) الحاكم في «مستدرک»، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأقره الذهبي (٦١٤/٣).

(٧) رواه مسلم في الشعر برقم (٢٢٥).

(٨) رواه أبو يعلى في الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحدا (٣٨٤١)، ورواه مسلم في الشعر (٢٢٥٦).

(٩) البخاري في الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحدا (٣٨٤١)، ورواه مسلم في الشعر (٢٢٥٦).

ودعا لحسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه) (١).  
وكان يعجبه شعره، وقال له: «أهْجُهُمْ، وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ» (٢).  
وأنشدته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قول أبي كبير (٣) الهذلي:

وَمُبْرَأٌ مِنْ كُلِّ غَبْرٍ حَيْضَةٍ      وَفَسَادٍ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلٍ (٤)  
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسْرَةٍ وَجْهِهِ      بَرَقَتْ كَبْرَقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ  
وقالت: «أنت أحقُّ بهذا البيت». فسرَّ بقولها (٥).

وبأنَّ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رخص فيه، وعبد الله بن جعفر، وأهل المدينة، وبأنَّ كذا وكذا ولياً لله  
حضره وسمعوه، فمن حرَّمه فقد قدح في هؤلاء السادة القدوة الأعلام.  
وبأنَّ الإجماع منعقدٌ على إباحة أصوات الطيور المطربة الشَّجِيَّة، فلذَّة سماع صوت الآدمي  
أولى بالإباحة، أو مساوية.

وبأنَّ السَّماع يحدو روح السَّماع وقلبه إلى نحو محبوبه، فإن كان محبوبه حراماً كان السَّماع  
معيناً له على الحرام، وإن كان مباحاً كان السَّماع في حقه مباحاً، وإن كانت محبته رحمانيةً كان السَّماع  
في حقه قربةً وطاعةً؛ لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيئها.

وبأنَّ التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن، والشَّمم بالروائح الطيبة، والضم  
بالطعم الطيبة، فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمةً.

فالجواب: أن هذه حيدةٌ عن المقصود، وروغانٌ عن محلِّ النزاع، وتعلَّق بما لا متعلِّق به؛ فإنَّ  
جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائماً لها لا يدلُّ على إباحته ولا تحريمه، ولا كراهته ولا استحبابه؛  
فإنَّ هذه اللذَّة تكون (فيما فيه الأحكام) (٦) الخمسة تكون في الحرام، والواجب، والمكروه،

(١) البخاري في الأدب، باب: هجاء المشركين (٦١٥٢) (٦١٥٣)، ومسلم في الفضائل، باب: فضائل حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٤٨٥).

(٢) البخاري في الأدب، باب: هجاء المشركين (٦١٥٢) (٦١٥٣)، ومسلم في الفضائل، باب: فضائل حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٤٨٥).

(٣) في «غ» والمنار: (أبي كثير).

(٤) غُبْرُ الْحَيْضِ - بِالضَّمِّ - وَغُبْرُهُ - بِالضَّمِّ وَتَشْدِيدِ الْبَاءِ الْمَوْحِدَةِ - بِقَايَاهُ، وَكَذَا بَقَايَا اللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ، وَ«الْمَغْيِلُ» مِنَ الْغَيْلِ؛  
وهو أن تحبل المرأة وهي مرضع، وكانت العرب تعتقد أن ذلك يضر الرضيع، ويروى: وداء معاضل؛ أي: لا دواء له،  
والمعنى: أنها حملت به وهي طاهر ليس بها بقية حيض، ووضعتة صحيحاً لم يرث منها مرضاً. (عن حاشية المنار).

(٥) قال في تخريج الإحياء: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١٥٧٦/٣).

(٦) في «غ» والمنار: «في الأحكام».



قيل لك: أيّ القصائد تعني؟ ما مدح به الله ورسوله ودينه وكتابه، وهجي به أعداؤه؟  
فهذه لم يزل المسلمون يرونها ويسمعونها ويتدارسونها، وهي التي سمعها رسول الله ﷺ  
وأصحابه وأثاب عليها، وحرّض حسّاناً عليها، وهي التي غرّت أصحاب السّماع الشّيطانيّ، فقالوا:  
تلك قصائد، وسماعنا قصائد. فنعمة إذن، والسّنة كلامٌ، والبدعة كلامٌ، والتّسيح كلامٌ، والغيبة كلامٌ،  
والدّعاء كلامٌ، والقذف كلامٌ، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشّيطانيّ  
المشتمل على أكثر من مفسدةٍ مذكورةٍ في غير هذا الموضوع<sup>(١)</sup>، وقد أشرنا فيما تقدّم إلى بعضها؟

ونظير هذا: ما غرّم من استحسانه ﷺ الصّوت الحسن بالقرآن، وأذنه له وإذنه فيه، ومحبة الله له.  
فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النّسوان والمردان وغيرهم، بالغناء المقرون بالمعازف  
والشّاهد، وذكر القدّ والنّهد والخصر، ووصف العيون وفعلها، والشّعر الأسود، ومحاسن الشّباب،  
وتوريد الخدود، وذكر الوصل والصّدّ، والتّجنيّ والهجران، والعتاب والاستعطاف، والاشتياق،  
والقلق والفراق، وما جرى هذا المجرى، ممّا هو أفسد للقلب من شرب الخمر، بما لا نسبة بينهما،  
وأبي نسبةٍ لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التي لا يستفيق الدّهْر صاحبها إلا في عسكر  
الهالكين، سليياً حريباً<sup>(٢)</sup>، أسيراً قتيلاً؟!

وهل تقاس سكرة الشّراب بسكرة الأرواح بالسّماع؟ وهل يظنُّ بحكيم أن يحرم سكرًا لمفسدةٍ  
فيه معلومة، ويبيح سكرًا مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة الشّراب؟ حاشى أحكم الحاكمين.  
فإن نازعوا في سكر السّماع، وتأثيره في العقول والأرواح خرجوا عن الذّوق والحسّ، وظهرت  
مكابرة القوم، فكيف يحمي الطّبيب المريض عمّا يشوش عليه صحّته، ويبيح له ما فيه أعظم السّقم؟  
والمنصف يعلم أنّه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشّراب، وسقمها بسكر السّماع، وكلامنا مع  
واجدٍ لا فاقِدٍ، فهو المقصود بالخطاب.

وأعجب من هذا: استدلالكم على إباحة السّماع المركب ممّا ذكرنا من الهيئة الاجتماعيّة بغناء  
بنّيتين صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صبيّة في يوم عيدٍ وفرح، بأبياتٍ من أبيات العرب، في وصف  
الشّجاعة والحروب، ومكارم الأخلاق والشّيم، فأين هذا من هذا؟!

والعجب أنّ هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم؛ فإنّ الصّدّيق الأكبر ﷺ سمّى ذلك  
«مزْمُورًا مِنْ مَزَامِيرِ الشّيطَانِ»، وأقرّه رسول الله ﷺ على هذه التّسمية، ورخص فيه لجويريتين غير

(١) في كتاب «إغاثة اللّهفان من مصائد الشيطان» فقد أطال القول هناك ووفاه بما لا يدع مجالاً لقائل ولا اعتذاراً للمعتذر.  
(الفتي).

(٢) حرّبه: سلب ماله، فهو محروب وحريب. «القاموس المحيط».



مكَلَّفَين، ولا مفسدة في إنشادهما، ولا استماعهما، أفيدلُّ هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السَّماع المشتمل على ما لا يخفى؟! فيا سبحان الله! كيف ضلَّت العقول والأفهام؟!!

وأعجب من هذا كلُّه: الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحقِّ والتَّوحيد؛ وهل حَرَم أحدٌ مطلق الشُّعر، وقوله واستماعه؟ فكم في (١) هذا التعلُّق ببيوت العنكبوت؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطُّيور اللذيذة، وهل هذا إلَّا من جنس قياس الدِّين قالوا: ﴿إِنَّمَا أَلْبَيْعٌ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وأين أصوات الطُّيور إلى نغمات الغيد الحسان، والأوتار والعيودان، وأصوات أشباه النِّساء من المردان، والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب إلى مواصلة كلِّ محبوبيةٍ ومحبوبٍ؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القِمْرِيِّ والبلبل والهَزَّار ونحوها؟!!

بل نقول: لو كانا سواءً لكان اتِّخاذ هذا السَّماع قرينةً وطاعةً تُسْتَنَزَلُ به المعارف والأذواق والمواجيد، وتُحرَّك (٢) به الأحوال بمنزلة التَّقَرُّبِ إلى الله بأصوات الطُّيور، ومعاذ الله أن يكونا سواءً. والذي يفصل النزاع في حكم هذه المسألة ثلاث قواعد، من أهمِّ قواعد الإيمان والسُّلوك، فمن لم يبين عليها فبناؤه على شفا جرفٍ هارٍ.

#### \* القاعدة الأولى:

أنَّ الذُّوق والحال والوجد هل هو حاكمٌ، أو محكومٌ عليه فيحكم عليه بحاكمٍ آخر ويتحاكم إليه؟

فهذا منشأ ضلال من ضلَّ من المفسدين لطريق القوم الصَّحيحة؛ حيث جعلوه حاكمًا، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع، وفيما هو صحيحٌ وفسادٌ، وجعلوه محكَّمًا (٣) للحقِّ والباطل، فنبذوا لذلك موجب العلم والنُّصوص، وحكَّموا فيها (٤) الأذواق والأحوال والمواجيد، فعظم الأمر، وتفاقم الفساد والشُّرُّ (٥)، وطمست معالم الإيمان والسُّلوك المستقيم، وانعكس السَّير، وكان (٦) إلى الله

(١) كلمة: (في) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (وتحك).

(٣) في «غ» والمنار: (محكمًا).

(٤) في «غ» والمنار: (عليها).

(٥) كلمة: (الشر) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٦) في «غ» والمنار: (فكان).

فصَيَّروه إلى النَّفوس، فالنَّاس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله، وهؤلاء يعبدون نفوسهم. ومن العجب: أنَّهم دخلوا في أنواع الرِّياضات والمجاهدات والزُّهد، ليتجرَّدوا عن شهوات النَّفوس وحظوظها، فانقلوا من شهواتٍ إلى شهواتٍ أكبر منها، ومن حظوظٍ إلى حظوظٍ أخطَّ (١) منها، وكان حالهم في شهوات نفوسهم التي انتقلوا عنها أكمل، وحال أربابها خيراً من حال هؤلاء؛ لأنَّهم لم يعارضوا بها العلم، ولا قدَّموها على النَّصوص، ولا جعلوها ديناً وقربةً، ولا ازدروا (من أجلها) (٢) العلم وأهله.

والشَّهوات التي انتقلوا إليها جعلوها أعلى ما يشمرون إليها، فهي قبلة قلوبهم، فهم حولها عاكفون، واقفون مع حظوظهم من الله، فانون بها عن مراد الله منهم، النَّاس يعبدون الله، وهم يعبدون أنفسهم، عائبون على أهل الحظوظ والشَّهوات ومزدرون لهم (٣)، وهم أعظم النَّاس حظوظاً، وإنَّما زهدوا في حظٍّ إلى حظٍّ أعلى منه، وإنَّما تركوا شهوةً لشهوةٍ أخطَّ (٤).

فليتدبَّر اللَّبيب هذا الموضع في نفسه وفي غيره، فكلُّ ما خالف مراد الله الدِّينيَّ من العبد فهو حظُّه وشهوته، ما لا كان، أو رياسته، أو صورةً، أو حالاً، أو ذوقاً، أو وجداً. ثمَّ من قدَّمه على مراد الله فهو أسوأ حالاً ممَّن عرف أنَّه نقصٌ ومحنةٌ، وأنَّ مراد الله أولى بالتَّقديم منه، فهو يتوب منه كلَّ وقتٍ إلى الله.

ثمَّ إنَّه وقع من تحكيم الذُّوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله؛ فإنَّ الأذواق مختلفةٌ في أنفسها، كثيرة الألوان، متباينة أعظم التَّباين؛ فكلُّ طائفةٍ لهم أذواقٌ وأحوالٌ ومواجيدٌ، بحسب معتقداتهم وسلوكهم.

فالقائلون بوحدة الوجود لهم ذوقٌ وحالٌ ووجدٌ في معتقدهم بحسبه، والنَّصارى لهم ذوقٌ في النَّصرانيَّة بحسب رياضتهم وعقائدهم، وكلُّ من اعتقد شيئاً أو سلك سلوكاً حقاً كان أو باطلاً فإنَّه إذا ارتاض وتجرَّد لزمه، وتمكَّن من قلبه، وبقي له فيه حالٌ وذوقٌ ووجدٌ، [فيذوق] (٥) من توزن الحقائق إذن ويعرف الحقُّ من الباطل؟!!

وهذا سيِّد أهل الأذواق والمواجيد، والكشوف والأحوال من هذه الأُمَّة المحدَّث المكاشف

(١) في «غ» والمنار: (أعظم).

(٢) جملة: (من أجلها) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في المنار: (بهم).

(٤) كلمة: (أخط) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٥) هكذا في جميع النسخ، وهو غير واضح المعنى هنا، ولعل الصواب: فيذوق من توزن الحقائق إذن؟

- (عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)<sup>(١)</sup> - لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته في شيء من أمور الدين، حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب، فإذا أخبروه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء لم يلتفت إلى ذوقه، ولا إلى وجده وخطابه، بل يقول: «لَوْ لَمْ نَسْمَعْ بِهَذَا لَقَضَيْنَا بغيره». ويقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، رَجُلٌ أَخْطَأَ وَامْرَأَةٌ أَصَابَتْ». فهذا فعل النَّاصِحِ لِنَفْسِهِ وللأُمَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ليس كفعل من غَشَّ نَفْسَهُ والدين والأُمَّة.

**\* القاعدة الثانية:**

أنَّه إذا وقع النزاع في حكم فعلٍ من الأفعال، أو حالٍ من الأحوال، أو ذوقٍ من الأذواق، هل هو صحيحٌ أو فاسدٌ؟ وحقٌّ أو باطلٌ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجَّة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين، وهي<sup>(٢)</sup> وحيه الَّذِي تُتَلَقَّى أحكام النَّوَازِلِ والأحوال والواردات منه، وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجَّحه وصحَّحه فهو المقبول، وما أبطله وردَّه فهو الباطل المردود، ومن لم يبين على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله فليس على شيء من الدين، وإن... وإن...، وإنما معه خدعٌ وغرورٌ: ﴿كَمَرَكِبٍ بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

**\* القاعدة الثالثة:**

إذا أشكل على الناظر أو السَّالِكِ حكم شيء: هل هو الإباحة أو التَّحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايتها؛ فإن كان مشتملاً على مفسدةٍ راجحةٍ ظاهرة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعيٌّ، ولا سيَّما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يُغضب الله ورسوله موصلاً إليه عن قرب، وهو رقيةٌ له ورائدٌ وبريدٌ، فهذا لا يشكُّ في تحريمه أو لو البصائر.

فكيف يُظنُّ بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر؛ لأنَّه يسوق النَّفسَ إلى الشُّكر الَّذِي يسوقها إلى المحرِّمات، ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقاً للنُّفوسِ إلى الحرام بكثيرٍ؟! فإنَّ الغناء كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هُوَ رُقِيَّةُ الرَّنَاءِ».

وقد شاهد النَّاسُ أنَّه ما عاناه صبيٌّ إلا وفسد، ولا امرأةٌ إلا وبغت، لا شابٌ إلا وإلَّا، ولا شيخٌ إلا وإلَّا، والعيان من ذلك يغني عن البرهان، ولا سيَّما إذا جمع هيئةٌ تحدو النَّفوسَ أعظم حدوٍ إلى المعصية والفجور، بأن يكون على الوجه الَّذِي ينبغي لأهله، ومن المكان والإمكان، والعشراء والإخوان، وآلات المعازف من اليراع، والدَّفِّ، والأوتار والعيدان، وكان القوَالُ شادناً شجيّاً

(١) كلمة: (عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (وهو).

الصَّوت، لطيف الشَّمائل من المردان أو النَّسوان، وكان القول في العشق والوصال، والصدِّ والهجران.

وَدَارَتْ كُئُوسُ الْهَوَى بَيْنَهُمْ  
فَكُلُّ عَلَى قَدْرِ مَشْرُوبِهِ  
فَمَالُوا سُكَارَى وَلَا سُكْرٍ مِنْ  
وَجَارٍ عَلَى الْقَوْمِ سَاقِيهِمْ  
فَمَزَقَ مِنْهُمْ قُلُوبًا غَدَتَ  
فَلَمْ يَسْتَفِيقُوا إِلَيَّ أَنْ أَتَى  
أَجِيئُوا فَكُلُّ أَمْرِي مِنْكُمْ  
هُنَالِكَ تَعْلَمُ مِنْ حَمَاءَةٍ  
وَبِاللَّهِ لَا بُدَّ قَبْلَ اللَّقَا  
لَا بُدَّ تَصْحُوحٍ فِيمَا هُنَا

فَلَسْتَ تَرَى فِيهِمْ صَاحِبًا  
وَكُلُّ أَجَابَ الْهَوَى الدَّاعِيَا  
تَنَاولِ أُمَّ الْهَوَى خَالِيَا  
وَلَمْ يُؤْثِرُوا غَيْرَهُ سَاقِيَا  
لِبَاسًا عَلَيْهِ يُرَى ضَافِيَا  
إِلَيْهِمْ مُنَادِي اللَّقَا دَاعِيَا  
عَلَى حَالِهِ رَبَّهُ لَا قِيَا  
شَرِبْتَ مَعَ الْقَوْمِ أَمْ صَافِيَا  
سَتَعْلَمُ ذَا إِنَّ تَكُ وَاعِيَا  
وَأَمَّا هُنَاكَ فَكُنْ رَاضِيَا

## فصل

وإذا لم يكن بدُّ من المحاكمة إلى الذوق، فهلمَّ نحاكمك إلى ذوقٍ لا نكره نحن ولا أنت غير هذه الأذواق التي ذكرناها.

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزنٍ وأسفٍ على مفقودٍ، وحالة فرحٍ ورضًا<sup>(١)</sup> بموجودٍ، وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان.

وله بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضا وهي للسَّابقين، والصبر وهي لأصحاب اليمين.

وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر، والشَّاكرون فيه أيضًا نوعان: سابقون، وأصحاب

يمين.

فاقتطعت النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين، بصوتين أحمقين فاجرين، هما للشيطان

(١) في «غ» والمنار: (وطرب).

لا للرَّحمن: صوت النَّدب والنَّياحة عند الحزن وفوات المحبوب، وصوت اللُّهُو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب، فعَوَّضه الشَّيطان بهذين الصَّوتين عن تينك العبوديَّتين.

وقد أشار النَّبِيُّ ﷺ إلى هذا المعنى بعينه في حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا نُهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجْرَيْنِ: صَوْتِ وَيْلٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، وَصَوْتِ مِرْمَارٍ عِنْدَ نِعْمَةٍ»<sup>(١)</sup>.

ووافق ذلك راحةً من النَّفس وشهوةً ولذَّةً، وسرت فيها تلك الرَّقائق حتَّى تعبَّد بها من قلَّ نصيبه من الثُّور النَّبويِّ، وقلَّ مشربه من العين المحمَّديَّة.

وانضاف ذلك إلى صدقٍ وطلبٍ وإرادةٍ مضادَّةٍ لشهوات أهل الغيِّ وأهل البطالة، ورأوا قساوة قلوب المنكرين لطريقتهم، وكثافة حُجُبهم، وغلظة طباعهم، وثقل أرواحهم، وصادف ذلك تحرُّكًا لسواكنهم، وانقيادًا للواعج الحبِّ، وإزعاجًا للنَّفوس إلى أوطانها الأولى<sup>(٢)</sup> ومعاهدتها التي سببت منها.

والنَّفوس الطَّالبة المرتاضة السَّائرة لا بدَّ لها من محرِّكٍ يحركها، وحادٍ يحدوها، وليس لها من حادي القرآن عوضٌ عن حادي السَّماع.

فتركَّب من هذه الأمور إيثارٌ منهم للسَّماع، ومحبةٌ صادقةٌ له، تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم؛ إذ هو مثير عزماتهم ومحرِّك سواكنهم، ومزعج بواطنهم.

(١) هذا الحديث له شاهد له مناسبة فقد أخرج الحاكم (٤٠/٤) عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «أخذ النبي ﷺ، فانطلقت معه إلى إبراهيم ابنه وهو يوجد بنفسه فأخذه النبي ﷺ في حجره حتى خرجت نفسه، قال: فوضعه وبكى قال: فقلت: تبكي يا رسول الله، وأنت تنهى عن البكاء؟ قال: «إني لم أنه عن البكاء، ولكنني نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة لطم وجه وشق جيوب...» الحديث. وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/٧١٥): سكت عليه الحاكم والذهبي، ورجال إسناده ثقات، إلا أن ابن أبي ليلى سيع الحفظك فمثله يستشهد به ويعترض.

والحديث الذي يُستشهد له صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٢٧)، وهو الذي رواه أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه ﷺ قال: «صوتان ملعونان، صوت مزمار عند نعمة، وصوت ويْل عند مصيبة»، والحديث الذي ذكره ابن القيم هنا جزء منه من رواية أنس، وجزء منه من رواية عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكلا الحديثين يستشهد به للأخر، والله أعلم.

(٢) إن الذي يتحرك عند سماع الغناء والموسيقى، ويضطرب ويستيقظ ويتلذذ هو النفس البهيمية، لا النفس الإنسانية، ولذلك استدلوا عليه بما تجده البهائم والطيور والوحوش عند سماعها للغناء والموسيقى والحدا، فهي تتحرك حركة بهيمية لا تجد من الإنسانية الكريمة المفكرة المميزة يقظة ورشدًا تكبح به جماحها، ولا حكمة تسكن حركتها بسكينة الاطمئنان إلى آثار أسماء الله وصفاته، فعندئذ يجد الشيطان الفرصة سانحة، فيركب النفس البهيمية - وقد انسلخت من آيات ربها، ووهنت وضعفت بهذا الانسلاخ، فاتخذها عدوها مطية، فكانت معه من الغاوين، الذين ظنوا الفسوق طاعة، والفجور تقوى، والشرك توحيدًا، وكثيرًا جدًّا - بل ذلك نتيجة حتمية لهذا الانسلاخ وما استتبعه - نعم كثيرًا جدًّا وا زاد إبليس في إضلالهم وإغوائهم، فاتخذ لهم من آيات القرآن أغاني يوقعونها على نغم الموسيقى، فيزدادون عمى على عمى، وضلالًا وخسرانًا باتخاذهم آيات الله ودينه هزواً ولعبًا. (الفتي باختصار).

فدواء (صاحب مثل)<sup>(١)</sup> هذا الحال أن ينقل بالتدرّج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة، مع الإمعان في تفهّم معانيه، وتدبّر خطابه قليلاً قليلاً، إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات، ويُلْبَسَ محبّة سماع الآيات، ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه، فحينئذ يعلم هو من نفسه أنّه لم يكن على شيء، ويتمثّل حينئذ بقول القائل:

وَكُنْتُ أَرَى أَنْ قَدْ تَنَاهَيْتُ بِي الْهَوَى  
إِلَى غَايَةِ مَا فَوْقَهَا لِي مَطْلَبُ  
فَلَمَّا تَلَا قَيْتَنَا وَعَايَنْتُ حُسْنَهَا  
تَيَقَّنْتُ أَنِّي إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر أمرٌ معلومٌ بالضرورة من الدين، لا يمتري فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان؛ فإنّ الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذي هو للشيطان، وكذلك النوح ضدّ الصبر، كما قال عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في النَّائِحَةِ وقد ضربها حتّى بدا شعرها وقال: «لَا حُرْمَةَ لَهَا؛ إِنَّهَا تَأْمُرُ بِالْجَزَعِ وَقَدْ نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَتَنْهَى عَنِ الصَّبْرِ وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَتَفْتِنُ الْحَيَّ وَتُوذِي الْمَيِّتَ، وَتَبِيعُ عِبْرَتَهَا، وَتَبْكِي سَجْوً غَيْرَهَا».

ومعلومٌ عند الخاصّة والعامة أنّ فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير. والذي شاهدناه نحن وغيرنا وعرفناه بالتجارب أنّه ما ظهرت المعازف وآلات اللّهُو في قوم، وفشت فيهم، واشتغلوا بها - إلا (سلّط الله)<sup>(٢)</sup> عليهم العدو، وبُلّوا بالقحط والجذب وولاة السوء، والعاقل يتأمّل أحوال العالم وينظر<sup>(٣)</sup>، والله المستعان.

ولا تستطل كلامنا في هذه المنزلة؛ فإنّ لها عند القوم شأنًا عظيمًا. وأما قولهم: من أنكر على أهله فقد أنكر على كذا وكذا وليّ الله؛ فحجّة عامّة، نعم إذا أنكر أولياء الله على أولياء الله<sup>(٤)</sup> كان ماذا؟ فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عددًا، وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدرًا، وأقرب بالقرون المفضّلة عهدًا، وليس من شرط وليّ الله العصمة،

(١) في المنار: (مثل صاحب).

(٢) في «غ» والمنار: (سلّط).

(٣) ذلك أنهم باللّهُو والغناء يقلبون حياتهم من الجد إلى اللعب والسخرية، ومن الرشد إلى السفه والغي، ومن القوة إلى الضعف والوهن، فإن حياة الغناء واللّهُو واللعب لا بد تحلل عناصر القوة والنشاط العلمي والعملية الذي لا نجاح للأمة ولا قوة لها إلا به، فتضعف صناعيًا واقتصاديًا وزراعيًا وعسكريًا فضلًا عن انبهارها الخلقي، وشدة تعرضها للعتة الله، ويصبح أمرها فرطًا؛ لأن قلوبها غفلت عن الحق في سنن الله وآياته وحكمته، واتبعت هواها، فهوى بها إلى درك الوهن والضعف. (الفاقي).

(٤) وهل هؤلاء المقتنونون بالغناء والموسيقى والرقص أولياء الله؟! (الفاقي) باختصار.

وقد تقاتل أولياء الله في صفين بالسيف، ولمَّا سار بعضهم إلى بعضٍ كان يقال: سار أهل الجنة إلى أهل الجنة، وكون وليّ الله يرتكب المحظور والمكروه متأوِّلاً أو عاصياً لا يمنع ذلك من الإنكار عليه، ولا يخرجُه عن أصل ولاية الله.

وهيئات هيهات أن يكون أحدٌ من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السَّماع المُحدَث المبتدع<sup>(١)</sup>، المشتمل على هذه الهيئة التي تفتن القلوب أعظم من فتنة المشروب، وحاشى أولياء الله من ذلك.

وإنما السَّماع الذي اختلف فيه مشايخ القوم: اجتماعهم في مكانٍ خالٍ من الأغيار يذكر الله، ويتلون شيئاً من القرآن، ثمَّ يقوم بينهم قوَالٌ ينشدهم شيئاً من الأشعار المزهدة في الدنيا، والمرغبة في لقاء الله ومحبتّه، وخوفه ورجائه، والدَّار الآخرة، وبنههم على بعض أحوالهم من يقظة<sup>(٢)</sup> أو غفلة، أو بعدٍ أو انقطاع، أو تأسُّفٍ على فائتٍ، أو تداركٍ لفارطٍ، أو وفاءٍ بعهدي، أو تصديقٍ بوعدٍ، أو ذكرٍ قلقٍ وشوقٍ، أو خوفٍ فرقةٍ أو صدٍّ، وما جرى هذا المجرى.

فهذا السَّماع الذي اختلف فيه القوم، لا سماع المكاء والتصدية، والمعازف والخمريات، وعشق الصُّور من المردان والنسوان، وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها؛ فهذا لو سئل عنه من سئل من أولي العقول لقضى بتحريمه، وعلم أن الشَّرع لا يأتي بإباحته، وأنَّه ليس على النَّاسِ أضْرُّ منه، ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحرимهم منه، والله أعلم.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «السَّماعُ على ثلاثِ درجَاتٍ: سَماعُ العامَّةِ، وهو ثلاثَةٌ أشيَاء: إجابةُ رَجْرِ الوعيدِ رَغْبَةً، وإجابةُ دَعْوَةِ الوعدِ جَهْدًا، وبلوغُ مُشاهدةِ المِنَّةِ استِيبصارًا».

الوعيد: يكون على ترك المأمور وفعل المحظور.

وإجابة داعيه: هو العمل بالطَّاعة.

وقوله: «رَغْبَةً». يعني: امتثالاً لكون الله تعالى أمر ونهى وأوعد.

(١) كلمة: (المبتدع) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (غدره).

وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء، فيفعل ما أمر به على نور الإيمان، راجياً للثواب، ويترك ما نهى عنه على نور الإيمان خائفاً من العقاب.

وفي الرغبة فائدة أخرى: وهي أن فعله يكون فعل راغبٍ مختارٍ، لا فعل كارِهٍ، كأنما يساق إلى الموت وهو ينظر.

وأما إجابة الوعد جهداً: فهو امتثال الأمر طلباً للوصول إلى الموعود به، باذلاً جهده في ذلك، مستفرغاً فيه قواه.

وأما بلوغ مشاهدة المنّة استبصاراً: فهو تنبه السامع في سماعه إلى أن جميع ما وصله من خيرٍ فمن منّة الله عليه، وبفضله عليه من غير استحقاقٍ منه، ولا بذل (١) عوضٍ استوجب به ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

وكذلك يشهد أن ما زوي عنه من الدنيا، أو ما لحقه منها من ضررٍ وأذى فهو منّة أيضاً من الله عليه من وجوه كثيرة، ويستخرجها الفكر الصحيح.

كما قال بعض السلف: «يا بن آدم، لا تدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك، أو نعمته فيما زوى عنك».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لأبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت، إن كان الغنى إن فيه للشكر، وإن كان الفقر إن فيه للصبر».

وقال بعض السلف: «نعمته فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها؛ إنني رأيتُهُ أعطاهما قوماً فاغترُّوا».

إِذَا عَمَّ بِالسَّرَّاءِ أَعْقَبَ شُكْرَهَا      وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ  
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ      تَضِيقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ

فإن قلت: فهل يشهد منته فيما لحقه من المعصية والذنوب؟

قلت: نعم، إذا اقترن بها التوبة النصوح، والحسنات الماحية، كانت من أعظم المنن عليه، كما

تقدم تقريره.

(١) في «غ» والمنار: (بدل).



## فصل

□ قال: «وَسَمَاعُ الْخَاصَّةِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: شُهُودُ الْمُقْصُودِ فِي كُلِّ رَمَزٍ<sup>(١)</sup>، وَالْوُقُوفُ عَلَى

الْغَايَةِ فِي كُلِّ حِينٍ، وَالْخَلَاصُ مِنَ التَّلَدُّدِ بِالتَّفَرُّقِ».

والمقصود في كلِّ رمزٍ: هو الرَّبُّ -تبارك وتعالى-؛ فإنَّ المسموع كلُّه يعرف به وبصفاته وأسمائه، وأفعاله وأحكامه، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه، وعدله وفضله، وهذا الشُّهود ينال بالسَّماع بالله والله وفي الله ومن الله.

أما السَّماع به: فألاً يسمع وفيه بقيَّةٌ من نفسه، فإن كانت فيه بقيَّةٌ قطعها كمال تعلُّقه بالمسموع، فيكون سماعه بقيوميته مجرداً من التفاته إلى نفسه.

وأما السَّماع له: فإن يجرد النَّفس في السَّماع من كلِّ إرادةٍ تراحم مراد الله منه، وتجمع قوى سمعه على تحصيل مراد الله من المسموع.

وأما السَّماع فيه: فشانٌ آخر، وهو تجريد ما لا يليق نسبته إلى الحقِّ من وصفٍ، أو سمةٍ أو نعتٍ، أو فعلٍ، ممَّا هو لائقٌ بكماله، فيثبت له ما يليق بكماله من المسموع، وينزِّهه عمَّا لا يليق به.

وهذا الموضوع لم يتخلَّص فيه إلا الرَّاسخون في العلم والمعرفة بالله، وأضلَّ الله عنه أهل التَّحريف والتَّعطيل، والتَّشبيه والتَّمثيل، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأما السَّماع منه فإنما يُنصَّور بواسطة، فهو سماعٌ مقيدٌ، وأما المطلق فلا مطمع فيه في عالم الفناء، إلا لمن اختصَّه الله برسالاته وبكلامه، ولكنَّ السَّماع لكلامه كالسَّماع منه؛ فإنَّه كلامه الَّذي تكلم به حقًّا، فمن سمعه فليقدِّر نفسه كأنه يسمعه من الله.

هذا هو السَّماع من الله، لا سماع أرباب الخيال، ودعوى المحال القائل أحدهم: ناداني في سرِّي، وخاطبني، وقال لي: يا ليت شعري من المنادي لك؟ ومن المخاطب!

يا مخدوع يا مغرور؟ فما يدريك أنداء شيطاني أم رحماني؟ وما البرهان على أنَّ المخاطب لك هو الرَّحمن؟

(١) في «غ»: (زمن). وفي هامش المنار قوله: (في الأصل (زمن) مكان (رمز) فصححناه على متن المنازل وهو (زمن): وهو الَّذي يقتضيه المعنى.

نعم؛ نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث، وإنما الشأن في المنادي المخاطب المحدث، فهاهنا تُسكَب العبرات.

وبالجملة: فمن قرئ عليه القرآن فليقدّر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به، فإذا حصل له مع ذلك السماع به وله وفيه ازدحمت معاني المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه، وازدلفت إليه بأيّهما يبدأ، فما شئت من علمٍ وحكمة<sup>(١)</sup>، وتعرّفٍ وبصيرة، وهدايةٍ وغيره<sup>(٢)</sup>.

وأما الوقوف على الغاية في كلّ حين: فهو التّطَلُّب والسّفر إلى الغاية المقصودة بالمسموع الذي جعل وسيلةً إليها، وهو الحقّ سبحانه؛ فإنه غاية كلّ مطلبٍ، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾ [النجم: ٤٢]، وليس وراء الله مرمى، ولا دونه مستقرٌّ، ولا تقرُّ العين بغيره ألّبتة، وكلُّ مطلوبٍ سواه فظُلٌّ زائلٌ، وخيالٌ مفارقٌ مائلٌ وإن تمتّع به صاحبه فمتاع الغرور.

وأما خلاص من التّلذذ بالتّفرّق: فالتّفرّق في معاني المسموع، وتنقل القلب في منازلها يوجب له لذّة، كما هو المألوف في الانتقال، فليتخلّص من لذّة تفرّقه التي هي حظه، إلى الجمعيّة على المسموع به وله ومنه.

ولم يقل الشيخ: «من التّفرّق»؛ فإنّ المسموع إنّما يدرك معناه ويفهم بالتّفرّق لتنوّعه، ولكن ليتخلّص من لذّته، لا منه؛ لئلا يكون مع حظه، وهذا من لطف أحوال السّامعين المخلصين.

## فصل

□ قال: «وَسَمَاعٌ خَاصَّةٌ الْخَاصَّةِ: سَمَاعٌ يَنْفِي الْعِلَلَ عَنِ الْكَشْفِ، وَيَصِلُ الْأَبَدَ إِلَى الْأَزَلِّ، وَيَرُدُّ النَّهَايَاتِ إِلَى الْأَوَّلِ».

فالكشف: هو مكافحة القلب لحقيقة المسموع، وعلله أمران:

- أحدهما: الشّبه التي تنتفي بهذه المكافحة، فلا تبقى معها شبهة، فهذا هو عين اليقين.
- والثّاني: نفي الوسائط بين السّامع والمسموع، فيغيب بمسموعه عنها، ويفنى عن شهودها، ويفنى عن شهود فنائها عنها، بحيث يشهده هو المسموع لا الوساطة وهو الهادي، فمنه الإسماع، ومنه الهداية، ومنه الابتداء، وإليه الانتهاء.

(١) في «غ» والمنار: (وحكم).

(٢) في «غ»: (وعبرة).

وأما وصله الأبد إلى الأزل: فهذا - إن أخذ على ظاهره - فهو محال؛ لأنَّ الأبد والأزل متقابلان تقابل التناقض، فأیصال أحدهما إلى الآخر عين المحال.

وإنما مراده: يكون في الأبد موجودًا مشهودًا؛ فقد كان في الأزل معلومًا مقدّرًا، فعاد حكم الأبد إلى الأزل علمًا وحقيقةً، وصار الأزلئي أبدئيًا، كما كان الأبدئي أزلئيًا في العلم والحكم.

وإيضاح ذلك: أنَّ الأبد ظهر فيه ما كان كامنًا في الأزل خافيًا، فانتهى الأمر كله إلى علمه وحكمه وحكمته، وذلك أزلئي، وهذا ردُّ النهايات إلى الأوّل، فتصير الخاتمة هي عين السّابقة، والله تعالى هو الأوّل والآخر، وكل ما كان ويكون آخرًا فمردودٌ إلى سابق علمه وحكمه، فرجع الأبد إلى الأزل، والنهايات إلى الأوّل، والله أعلم.

## فصل

### [منزلة الحزن]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَبِّدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيرُ﴾ منزلة الحزن.

وليست من المنازل المطلوبة، ولا المأمور بنزولها، وإن كان لابدًا للسالك من نزولها، ولم يأت الحزن في القرآن إلا منهيًا عنه، أو منفيًا.

فالمنهى عنه: كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] في غير موضع.

وقوله: ﴿لَا تَحْزَنَ إِيَّاكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

والمنفى كقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وسرُّ ذلك: أنَّ الحزن موقفٌ غير مسيرٍ، ولا مصلحة فيه للقلب، وأحبُّ شيءٍ إلى الشيطان أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠].

ونهى النبي ﷺ الثلاثة أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث؛ لأن ذلك يحزنه<sup>(١)</sup>.

(١) البخاري في الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة (٦٢٩٠)، ومسلم في السلام، باب: تحريم مناجاة اثنين دون الثالث (٢١٨٤).

فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة، وقد استعاذ منه النبي ﷺ، فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ» (١). فهو قرين الهم.

والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد على القلب، إن كان لما يستقبل أورثه الهم، وإن كان لما مضى أورثه الحزن، وكلاهما مُضَعَفٌ للقلب عن السير، مقترن (٢) للوزم.

ولكن نزول منزلته ضروري بحسب الواقع؛ ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]؛ فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما يصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدًا مَّا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٣٦) [التوبة: ٩٢]؛ فلم يمدحوا على نفس الحزن، وإنما مدحوا على ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم؛ حيث تخلّفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة، ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلّفهم، بل غبطوا نفوسهم به.

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ وَلَا نَصَبٍ وَلَا حَزَنِ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ خَطَايَاهُ» (٣). فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد، يكفر بها من سيئاته، لا يدل على أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه.

وأما حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ» (٤). فحديث لا يثبت، وفي إسناده من لا يعرف.

وكيف يكون متواصل الأحزان، وقد صانه الله عن الحزن على الدنيا وأسبابها، ونهاه عن الحزن على الكفار، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؛ فمن أين يأتيه الحزن؟! بل كان دائم البشر، ضحوك السنن، كما في صفته: «الضُّحُوكُ الْقَتَالُ» (٥). صلوات الله وسلامه عليه. وأما الخبر المروي: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِينٍ» (٦). فلا يعرف إسناده، ولا من رواه، ولا تعلم صحته.

(١) الترمذي في الدعوات، باب: الاستعاذة من الهم والدين، قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه، ورواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: الاستعاذة (١٥٤١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٦٣).

(٢) في «غ» والمنار: (مفتّر).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الترمذي في الشمائل (٣٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٥٥/٢٢)، قال الهيثمي في «المجمع»: فيه من لم يسم (٨/٢٧٨).

(٥) لم أقف عليه.

(٦) ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٤٨٣)، وعزاه إلى الطبراني والحاكم (٤/٣١٥).

وعلى تقدير صحته: فالحزن مصيبةٌ من المصائب، التي يتبلى الله بها عبده، فإذا ابتلى به العبد فصبر عليه أحبَّ صبره على بلائه.

وأما الأثر الآخر: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَصَبَ فِي قَلْبِهِ نَائِحَةً، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا جَعَلَ فِي قَلْبِهِ مِزْمَارًا». فآثر إسرائيلي، قيل: إنَّه في التَّوراة، وله معنَى صحیح؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ حَزِينٌ عَلَى ذُنُوبِهِ، وَالْفَاجِرَ لَاهٍ لَاعِبٌ، مَتْرَمٌ فَرِحٌ.

وأما قوله تعالى عن نبيِّه إسرائيل (١): ﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] فهو إخبارٌ عن حاله بمصابه بفقد ولده، وحبيبه، وأنَّه ابتلاه بذلك كما ابتلاه بالتفريق بينه وبينه. وأجمع أرباب السُّلوك على أنَّ حزن الدُّنيا غير محمودٍ إلاَّ أبا عثمان الحيريِّ؛ فَإِنَّهُ قَالَ: «الْحُزْنُ بِكُلِّ وَجْهِ فَضِيلَةٌ، وَزِيَادَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، مَا لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ مَعْصِيَةٍ». قَالَ: «لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُوَجِّبْ تَخْصِيصًا، فَإِنَّهُ يُوجِبُ تَمْحِيصًا».

فيقال: لا ريب أنَّه محنةٌ وبلاءٌ من الله، بمنزلة المرض والهَمُّ والغَمُّ، وأما إنَّه من منازل الطَّريق فلا، والله سبحانه أعلم.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الْحُزْنُ تَوَجُّعٌ لِفَائِتٍ، وَتَأْسُفٌ (٢) عَلَى مُمْتَنِعٍ». يريد: أنَّ ما يفوت الإنسان قد يكون مقدورًا له، وقد لا يكون؛ فإن كان مقدورًا توجَّع لفوته، وإن كان غير مقدورٍ تأسَّف لامتناعه.

□ قال: «وَلَهُ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ: الْأُولَى: حُزْنُ الْعَامَّةِ، وَهُوَ حُزْنٌ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي الْخِدْمَةِ، وَعَلَى التَّوَرُّطِ فِي الْجَفَاءِ، وَعَلَى ضَيَاعِ الْأَيَّامِ».

التَّفْرِيطُ فِي الْخِدْمَةِ عندهم فوق التَّفْرِيطِ فِي الْعَمَلِ وتضييعه، بل هذا الحزن يكون مع القيام والعمل (٣)؛ فَإِنَّ الْخِدْمَةَ عندهم من باب الأخلاق والآداب، لا من باب الأفعال، وهي حقُّ العبودية، وأدبها وواجبها، وصاحب هذا الحزن بالأولى: أن يحزن لتضييع العمل.

(١) إسرائيل: هو يعقوب عليه الصلاة والسلام.

(٢) في «غ» والمنار: (أو تأسَّف).

(٣) في «غ» والمنار: (بالعمل).

وأما التورط في الجفاء: فهو أيضًا أخص من المعصية بارتكاب المحذور؛ لأنه قد يكون لفقد أنسٍ سابقٍ مع الله، فإذا توارى عنه تورط في الجفوة؛ فإن الشيخ ذكر الحزن في قسم الأبواب وهو عنده من قسم البدايات.

وأما تضييع الأيام فنوعان أيضًا:

- تضييعها بخلوها عن الطاعات.

- وتضييعها بخلوها عن مواجيد الإيمان، وذوق حلاوته، والأنس بالله، وحسن الصُحبة معه. فكل واحدٍ من الثلاثة نوعان لأهل البداية، وللسالكين المتوسّطين، وكلامه يعمُّ النوعين، وإن كان بالثاني أخصّ.

□ قال<sup>(١)</sup>: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: حُزْنُ أَهْلِ الْإِرَادَةِ، وَهُوَ حُزْنٌ عَلَى تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالتَّفْرِقَةِ،

وَعَلَى اسْتِغْغَالِ النَّفْسِ عَنِ الشُّهُودِ، وَعَلَى التَّسْلِيِّ عَنِ الْحُزْنِ».

تعلق القلب بالتفرقة: هو عدم الجمعية في الحضور مع الله، وتشتيت الخواطر في أودية المراتد.

وأما اشتغال النفس عن الشُّهود فهو نوعان:

- اشتغالها عن الذكر الذي يوجب الشُّهود ويثمره بغيره.

- والثاني: اشتغالها<sup>(٢)</sup> عن الشُّهود؛ لضعف الذكر، أو لضعف القلب عن الشُّهود، أو لمانعٍ

آخر، ولكن إذا قهر الشُّهود النفس لم تتمكّن من التّشاغل عنه إلا بقاهر يقهرها عنه.

وأما التّسليّ عَنِ الْحُزْنِ: فيعني: أنّ وجود الحزن في القلب دليلٌ على الإرادة والطلب، ففقده

والتّسليّ عنه نقصٌ، فيحزن على فقد الحزن، كما يبكي على فقد البكاء، ويخاف من عدم الخوف،

وهذا فيه نظرٌ، وإنّما يحمد الحزن على فقد الحزن [إذا اشتغل بفرح مذموم]<sup>(٣)</sup>، أمّا إذا اشتغل عن

الحزن بفرح محمودٍ وهو الفرح بفضل الله ورحمته فلا معنى للحزن على فوات الحزن.

□ قال صاحب «المنازل»<sup>(٤)</sup>: «وَلَيْسَتْ الْخَاصَّةُ مِنْ مَقَامِ الْحُزْنِ فِي شَيْءٍ؛ لِأَنَّ

الْحُزْنَ فَقْدٌ، وَالْخَاصَّةُ أَهْلٌ وَجِدَانٍ».

وهذا إن أراد به أنّه لا ينبغي لهم تعمّد الحزن فصحيحٌ، وإن أراد به لا يعرض لهم حزنٌ فليس

كذلك، والحزن من لوازم الطّبيعة، ولكن ليس هو بمقامٍ.

(١) كلمة: (قال) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (اشتغالها به).

(٣) ما بين المعكوفتين ساقط من جميع النسخ، وقد أثبتناه من النسخة التي حققها: بشير عيون، وهي المناسبة للسياق.

(٤) جملة (صاحب المنازل): غير موجودة في «غ» والمنار.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ مِنَ الْحُزَنِ: التَّحَرُّنُ لِلْمُعَارِضَاتِ دُونَ الْخَوَاطِرِ وَمُعَارِضَاتُ الْقُصُودِ، وَاعْتِرَاضَاتُ الْأَحْكَامِ».

هذه ثلاثة أمور، بحسب الشُّهود والإرادة.

﴿الْأَوَّلُ﴾<sup>(١)</sup>: حزن المعارضات: فَإِنَّ الْقَلْبَ يَعْتَرِضُهُ وَارِدَ الرَّجَاءِ مَثَلًا، فَلَمْ يَنْشَبْ أَنْ يَعْارِضَهُ

وارد الخوف، وبالعكس، ويعترضه وارد البسط، فلم ينشب أن يعترضه وارد القبض، ويرد عليه وارد الأُنس، فيعترضه وارد الهيبة، فيوجب له اختلاف هذه المعارضات عليه حزنًا لا محالة.

وليست هذه المعارضات من قبيل الخواطر، بل هي<sup>(٢)</sup> من قبيل الواردات الإلهية؛ فلذلك قال:

«دُونَ الْخَوَاطِرِ»؛ فَإِنَّ مُعَارِضَاتِ الْخَوَاطِرِ غَيْرَ هَذَا.

وعند القوم: هذا من آثار الأسماء والصفات، وأتصال أشعة أنوارها بالقلب، وهو المسمَّى عندهم بالتَّجَلِّي.

وَأَمَّا مُعَارِضَاتُ الْقُصُودِ: فَهِيَ أَصْعَبُ مَا عَلَى الْقَوْمِ، وَفِيهِ يَظْهَرُ اضْطِرَارُهُمْ إِلَى الْعِلْمِ فَوْقَ كُلِّ

ضرورة؛ فَإِنَّ الصَّادِقَ يَتَحَرَّى فِي سُلُوكِهِ كُلَّهُ أَحَبَّ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ سَالِكٌ بِهِ وَإِلَيْهِ، فَيَعْتَرِضُهُ طَرِيقَانِ لَا يَدْرِي أَيُّهُمَا أَرْضَى لَهِ وَأَحَبُّ إِلَيْهِ.

- فمنهم: من يحكّم العلم بجهدِه استدلالًا، فَإِنْ عَجَزَ فَتَقْلِيدًا، فَإِنْ عَجَزَ عَنْهُمَا سَكَنَ يَنْتَظِرُ مَا

يحكم له به القدر، ويخلي باطنه من المقاصد جملةً.

- ومنهم: من يلقي الكلّ على شيخه، إن كان له شيخٌ.

- ومنهم: من يلجأ إلى الاستخارة والدُّعاء، ثمَّ يَنْتَظِرُ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَدْرُ.

وأصحاب العزائم يبذلون وسعهم في طلب الأرضي علمًا ومعرفةً، فَإِنْ أَعْجَزَهُمْ قَنَعُوا بِالظَّنِّ

الغالب، فَإِنْ تَسَاوَى عَنْدهم الْأَمْرَانِ قَدَّمَا أَرْجَحُهُمَا مَصْلِحَةً.

ولترجيح المصالح رُتَبٌ متفاوتةٌ:

فتارةٌ تترجّح بعموم النّفع.

وتارةٌ تترجّح بزيادة الإيمان.

وتارةٌ تترجّح بمخالفة النّفس.

(١) في «غ» والمنار: (الأولى).

(٢) كلمة: (هي) غير موجودة في «غ» والمنار.

وتارةً تترجَّح باستجلاب مصلحةٍ أخرى لا تحصل من غيرها.  
وتارةً تترجَّح بأمنها من الخوف من مفسدةٍ لا تؤمن في غيرها.  
فهذه خمس جهاتٍ من التَّرجيح، قلَّ أن يعدم واحدةً منها.  
فإن أعوزه ذلك كله تخلَّى عن الخواطر جملةً، وانتظر ما يحركه به محرِّك القدر، وافتقر إلى  
ربِّه افتقار مستنزلٍ ما يرضيه ويحبُّه؛ فإذا جاءت الحركة استخار الله، وافتقر إليه افتقارًا ثانيًا، خشية أن  
تكون تلك الحركة نفسيةً أو شيطانيةً؛ لعدم العصمة في حقِّه، واستمرار المحنة بعده، ما دام في عالم  
الابتلاء والامتحان، ثمَّ أقدم على الفعل.  
فهذا نهاية ما في مقدور الصَّادقين.  
ولأهل الجهاد في هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة.

ولهذا قال الأوزاعيُّ وابن المبارك: «إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانظُرُوا مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الشَّعْرِ -  
يَعْنِي: أَهْلَ الْجِهَادِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ  
الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].»

وأما اعتراضات الأحكام: فيجوز أن يريد بالأحكام الأحكام<sup>(١)</sup> الكونية، وهو أظهر، وأن يريد  
بها<sup>(٢)</sup> الأحكام الدينية، فإن أرباب الأحوال يقع منهم اعتراضات على الأحكام الجارية عليهم بخلاف  
ما يريدونه، فيحزنون عند إدراكهم لتلك الاعتراضات على ما صدر منهم من سوء الأدب، وتلك  
الاعتراضات هي إرادتهم خلاف ما جرى لهم به القدر، فيحزنون<sup>(٣)</sup> على عدم الموافقة، وإرادة  
خلاف ما أريد بهم<sup>(٤)</sup>.

وإن كان المراد به الأحكام الدينية فإنهم تعرض لهم أحوال لا يمكنهم الجمع بينها وبين أحكام  
الأمر - كما تقدم - فلا يجدون بدا من القيام بأحكام الأمر، ولا بد أن يعرض لهم اعتراض خفي أو  
جلي، بحسب انقطاعهم عن الحال بالأمر، فيحزنون لوجود هذه المعارضة، فإذا قاموا بأحكام الأمر،  
ورأوا أن المصلحة في حقهم ذلك، وحمدوا عاقبته حزنوا على تسرعهم على المعارضة؛ فالتسليم  
لداعي العلم واجب، ومعارضة الحال من قبيل الإيرادات والعلل، فيحزن على نفيهما فيه، والله أعلم.

(١) كلمة: (الأحكام) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (به).

(٣) في «غ» والمنار: (فيحزن).

(٤) في «غ» والمنار: (به).



## فصل [مَنْزِلَةُ الْخَوْفِ]

وَمِنْ مَنَازِلِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَنْزِلَةُ الْخَوْفِ.  
وَهِيَ مِنْ أَجْلِ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ وَأَنْفَعَهَا لِلْقَلْبِ، وَهِيَ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِيَّاكُمْ إِن كُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْحَمُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ [البقرة: ٤٠].

وَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سُدُوقُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

وفي «المُسْنَدِ» والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: «لا يا بَنَّةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُ»<sup>(١)</sup>.

قال الحسن: «عَمِلُوا وَاللَّهُ بِالطَّاعَاتِ، وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً، وَالْمُتَأَفِّقُ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا».

و«الْوَجَلُ» و«الْخَوْفُ» و«الْخَشْيَةُ» و«الرَّهْبَةُ» ألفاظٌ متقاربةٌ غير مترادفةٍ.

قال أبو القاسم الجنيد: «الْخَوْفُ تَوَقُّعُ الْعُقُوبَةِ عَلَى مَجَارِي الْأَنْفَاسِ».

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخوف، لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

و«الْخَشْيَةُ» أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

(١) الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة المؤمنين، وابن ماجه في الزهد، باب: الترقى في العمل (٤١٩٨)، و صححه الحاكم ووافقه الذهبي (٣٩٤/٢)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

عِبَادِهِ الْعَلَمَتُونَ ﴿٢٨﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فهي خوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ.

وقال النبي ﷺ: «إِنِّي أَتَقَاكُمُ لِلَّهِ، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشِيَّةً» (١).

فالخوف حركةٌ، والخشية انجماعٌ وانقباضٌ وسكونٌ؛ فَإِنَّ الَّذِي يَرَى الْعَدُوَّ وَالسَّيْلَ وَنَحْوَ ذَلِكَ

له حالتان:

- إحداهما: حركةٌ للهرب منه، وهي حالة الخوف.

- والثانية: سكونه وقراره في مكانٍ لا يصل إليه فيه (٢)، وهي الخشية، ومنه: انخس (٣) الشيء،

والمضاعف والمعتل أخوان، كتقصص البازي وتقصص.

وأما الرهبة: فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضدُّ الرغبة التي هي سفر القلب في

طلب المرغوب فيه.

وبين الرهب والهرب تناسبٌ في اللفظ والمعنى، يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد

تقاليب الكلمة على معنى جامع.

وأما الوجل: فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما الهيبة: فخوفٌ مقارنٌ للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال:

تعظيمٌ مقرونٌ بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين.

وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال النبي ﷺ: «إِنِّي لِأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ،

وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشِيَّةً» (٤). وفي رواية: «خَوْفًا».

وقال: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ

وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» (٥).

فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم،

ومثلهما مثل من لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحماية والهرب،

(١) سبق تخريجه (١٥١/١).

(٢) كلمة: (فيه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (انخس)، قال في «اللسان»: «انخس في الشيء؛ أي: دخل... وانخس الرجل في القوم انخساشًا: إذا دخل فيهم».

(٤) سبق تخريجه (١٥١/١).

(٥) الترمذي في الزهد، باب: لو تعلمون ما أعلم، ورواه ابن ماجه (٤١٩٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني في

«السلسلة الصحيحة» (١٧٢٢).

وَالطَّبِيبُ يَلْتَجِي إِلَى مَعْرِفَتِهِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَدْوَاءِ.

قال أبو حفص: «الْخَوْفُ سَوْطُ اللَّهِ، يُقَوِّمُ بِهِ الشَّارِدِينَ عَنْ بَابِهِ». وقال: «الْخَوْفُ سِرَاجٌ فِي الْقَلْبِ، بِهِ يُبْصَرُ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَكُلُّ أَحَدٍ إِذَا خِفْتَهُ هَرَبَتْ مِنْهُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَإِنَّكَ إِذْ خِفْتَهُ هَرَبْتَ إِلَيْهِ». فالخائف هاربٌ من ربه إلى ربه.

قال أبو سليمان: «مَا فَارَقَ الْخَوْفُ قَلْبًا إِلَّا خَرِبَ». وقال إبراهيم بن سفيان: «إِذَا سَكَنَ الْخَوْفُ الْقُلُوبَ أَحْرَقَ مَوَاضِعَ الشَّهَوَاتِ مِنْهَا، وَطَرَدَ الدُّنْيَا عَنْهَا».

وقال ذو النون: «النَّاسُ عَلَى الطَّرِيقِ مَا لَمْ يَزُلْ عَنْهُمْ الْخَوْفُ، فَإِذَا زَالَ عَنْهُمْ الْخَوْفُ ضَلُّوا الطَّرِيقَ».

قال حاتم الأصم: «لَا تَغْتَرَّ بِمَكَانٍ صَالِحٍ، فَلَا مَكَانَ أَصْلَحَ مِنَ الْجَنَّةِ؛ وَلَقِيَ فِيهَا آدَمَ مَا لَقِيَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ بَعْدَ طَوْلِ الْعِبَادَةِ لَقِيَ مَا لَقِيَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ بَلْعَامَ بْنَ بَاعُورًا لَقِيَ مَا لَقِيَ وَكَانَ يَعْرِفُ الْإِسْمَ الْأَعْظَمَ<sup>(١)</sup>، وَلَا تَغْتَرَّ بِلِقَاءِ الصَّالِحِينَ وَرُؤْيَيْهِمْ؛ فَلَا سَخَصَ أَصْلَحَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِلِقَائِهِ أَعْدَاؤُهُ وَالْمُنَافِقُونَ».

والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصودٌ لغيره قصد الوسائل؛ ولهذا يزول بزوال المَخُوفِ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. والخوف يتعلَّق بالأفعال، والمحبة تتعلَّق بالذَّاتِ والصفات؛ ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم، ولا يلحقهم فيها خوفٌ؛ ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه.

والخوف المحمود الصَّادِقُ ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان: «صِدْقُ الْخَوْفِ هُوَ الْوَرَعُ عَنِ الْأَثَامِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا». وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ: مَا حَجَزَكَ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ».

(١) ما ذكر عن بلعام بن باعوراء لا دليل عليه من الكتاب أو السنة، اللهم إلا أن يكون مما نُقِلَ عن أهل الكتاب من الإسرائيليات، والله أعلم.

□ وقال صاحب «المنازل»: «الْخَوْفُ: هُوَ الْإِنْخِلَاجُ مِنْ طُمَأْنِينَةِ الْأَمْنِ بِمُطَالَعَةِ الْخَبَرِ».

يعني: الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْخَوْفُ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَهُوَ الْخَوْفُ الَّذِي يَصِحُّ بِهِ الْإِيمَانُ، وَهُوَ خَوْفُ الْعَامَّةِ، وَهُوَ يَتَوَلَّدُ مِنْ تَصْدِيقِ الْوَعِيدِ، وَذِكْرِ الْجَنَائَةِ، وَمُرَاقَبَةِ الْعَاقِبَةِ».

والخوف مسبوق بالشعور والعلم، فمحال خوف الإنسان ممّا لا شعور له به.

وله متعلّقان:

- أحدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه.

- والثاني: السبب والطريق المفضي إليه.

فعلى قدر شعوره بإفشاء السبب إلى المخوف، وبقدر المخوف يكون خوفه، وما نقص من

شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه.

فمن لم يعتقد أنّ سبب كذا يفضي إلى محذور كذا لم يخف من ذلك السبب، ومن اعتقد أنّه

يفضي إلى مكروه ما، ولم يعرف قدره لم يخف منه ذلك الخوف، فإذا عرف قدر المخوف، وتيقن إفشاء السبب إليه<sup>(١)</sup>: حصل له الخوف.

هذا معنى تولّده من تصديق الوعيد، وذكر الجنائية، ومراقبة العاقبة.

وفي مراقبة العاقبة زيادة استحضار المخوف، وجعله نصب عينه، بحيث لا ينساه، فإنّه وإن كان

عالمًا به لكنّ نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف؛ فلذلك كان الخوف علامة صحّة الإيمان، وترحلّه من القلب علامة ترحلّ الإيمان منه، والله أعلم.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: خَوْفُ الْمُكْرِ فِي جَرِيَانِ الْأَنْفَاسِ الْمُسْتَغْرِقَةِ فِي الْيَقْظَةِ، الْمَشُوبَةِ

بِالْحَلَاوَةِ».

يريد: أنّ من حصلت له اليقظة بلا غفلة، واستغرقت أنفاسه فيها استحلى ذلك؛ فإنّه لا أحلى

(١) كلمة: (إليه) غير موجودة في «ع» والمنار.

من الحضور في اليقظة؛ فإنه ينبغي أن يخاف المكر، وأن يسلب هذا الحضور، واليقظة والحلاوة، فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال، ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال، فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين على الشمال، بينما بدر أحواله مستنيراً في ليالي التمام؛ إذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام، فبدل بالأنس وحشة، وبالحضور غيبة، وبالإقبال إعراضاً، وبالتقريب إبعاداً، وبالجمع تفرقة، كما قيل:

أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ      وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدْرُ  
وَسَأَلَمْتَكِ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا      وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: [دَرَجَةُ الْخَاصَّةِ] (١). وَلَيْسَ فِي مَقَامِ أَهْلِ الْخُصُوصِ وَحِشَةُ الْخَوْفِ، إِلَّا هَيْبَةُ الْجَلَالِ، وَهِيَ أَفْصَى دَرَجَةٍ يُشَارُ إِلَيْهَا فِي غَايَةِ الْخَوْفِ».

يعني: أن وحشة الخوف إنما تكون مع الانقطاع والإساءة، وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله وقرب منه، فليس خوفهم خوف وحشة، كخوف المسيئين المنقطعين، لأن الله عَزَّوَجَلَّ معهم بصفة الإقبال عليهم، والمحبة لهم، وهذا بخلاف هيبة الجلال؛ فإنها متعلقة بذاته وصفاته، وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب، كانت هيبته وإجلاله في قلبه أعظم، وهي أعلى من درجة خوف العامة.

□ قال: «وَهِيَ هَيْبَةٌ تُعَارِضُ الْمُكَاشَفَ أَوْقَاتِ الْمُنَاجَاةِ، وَتَصُونُ الْمُسَامِرَ أَحْيَانًا الْمُسَامِرَةَ، وَتَقْصِمُ (٢) الْمُعَايِنَ (٣) بِصَدْمَةِ الْعِرَّةِ».

يعني: أن أكثر ما تكون الهيبة أوقات المناجاة، وهو وقت تملق العبد ربّه، وتضرّعه بين يديه، واستعطافه، والثناء عليه بألائه وأسمائه وأوصافه، أو مناجاته بكلامه، هذا هو مراد القوم بالمناجاة. وهذه المناجاة توجب كشف الغطاء بين القلب وبين الربّ، ورفع الحجاب المانع من مكافحة القلب لأنوار أسمائه وصفاته، وتجليها عليه، فتعارضه الهيبة في خلال هذه الأوقات، فيفيض من عنان مناجاته بحسب قوّة واردها.

وأما صون المسامر أحيان المسامرة: فالمسامرة عندهم أخص من المناجاة، وهي مخاطبة القلب للربّ خطاب المحبّ لمحبوبه، فإن لم يقارنها هيبة جلاله أخذت به في الانبساط والإدلال، فتجيء الهيبة صائتة للمسامر في مسامرته عن انخلاعه من أدب العبوديّة.

(١) في «غ» والمنار جاءت كلمة: (قوله) بدلاً عن جملة (درجة الخاصة).

(٢) في «غ»: (وتقصم).

(٣) في «غ»: (المعاني).

وأما فصمها<sup>(١)</sup> المعانين<sup>(٢)</sup> بصدمة العزة: فإنَّ الفصم هو القطع<sup>(٣)</sup>؛ أي: تكاد تقتله وتمحقه بصدمة عزة الربوبية بمعانيها الثلاثة؛ وهي عزة الامتناع، وعزة القوة والشدة، وعزة السلطان والقهر، فإذا صدمت المعانين كادت تفصمه وتمحق أثره، إذ لا يقوم لعزة الربوبية شيء، والله أعلم.

## فصل

القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قُطِعَ الرَّأْسُ مات الطائر، ومتى فُقدَ<sup>(٤)</sup> الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكنَّ السلف استحبوا أن يقوى في الصَّحَّةِ جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف. هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: «يُنْبَغِي لِلْقَلْبِ أَنْ يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ، فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ فَسَدَ»<sup>(٥)</sup>.

وقال غيره: «أَكْمَلَ الْأَحْوَالِ: اعْتَدَالَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَغَلَبَهُ الْحُبُّ، فَالْمَحَبَّةُ هِيَ الْمَرْكَبُ، وَالرَّجَاءُ حَادٍ، وَالْخَوْفُ سَائِقٌ، وَاللَّهُ الْمُوَصَّلُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ».

## فصل

### [منزلة الإشفاق]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿منزلة الإشفاق﴾.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾<sup>(٤٩)</sup> [الأنبياء: ٤٩].

(١) في «غ»: (قصمها).

(٢) في «غ»: (المعاني).

(٣) الفصم -بالفاء-: كسر الشيء أو قطعه بلا فصل ولا بينونة -وهو المناسب هنا-؛ فإن أبانه، يقال قصمه -بالقاف- ولفظ المتن المطبوع بالقاف وهو غلط، إلا إذا أريد معنى الفصم بالفاء. (عن حاشية المنار).

(٤) في «غ»: والمنار: (عدم).

(٥) في «غ»: والمنار: (فإنه إذا كان الغالب عليه الرجاء فسد).

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لَوْنٌ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٧].

الإشفاق: رقة الخوف، وهو خوفٌ برحمةٍ من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة؛ فإنها أطف الرحمة وأرقها.

□ ولهذا قال صاحب «المنازل»: «الإشفاق: دَوَامُ الْحَدَرِ، مَقْرُونًا بِالْتَّرْحِمِ، وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: الْأُولَى: إِشْفَاقٌ عَلَى النَّفْسِ أَنْ تَجْمَحَ إِلَى الْعِنَادِ».

أي: تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان، ومعاندة العبودية.  
□ «وإشفاقٌ على العمل: أَنْ يَصِيرَ إِلَى الضَّيَاعِ».

أي: يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله فيها: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال التي كانت لغير الله، وعلى غير أمره وسنة رسوله ﷺ، ويخاف أيضًا أن يضيع عمله في المستقبل، إمَّا بتركه، وإمَّا بمعاصي تفرقه وتحبطه، فيذهب ضائعًا، ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى عن أصحابها: ﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ٢٦٦] الآية.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصَّحابة رضي الله عنهم: «فِيْمَنْ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ؟ فَقَالُوا: اللَّهُ أَعْلَمُ. فغضب عمر، وقال: قولوا: نعم، أو لا نعم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: يا بن أخي قل، ولا تحقرن نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله، فبعث الله إليه الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله»<sup>(١)</sup>.

□ قال: «وإشفاقٌ على الخليفة لمعرفة معاذيرها».

هذا قد يوهم نوع تناقض؛ فإنه كيف يشفق مع معرفة العذر؟ وليس بمتناقض؛ فإن الإشفاق كما تقدّم خوفٌ مقرونٌ برحمةٍ، فيشفق عليهم من جهة مخالفة الأمر والنهي، مع نوع رحمةٍ، بملاحظة جريان القدر عليهم.

(١) رواه البخاري (٤٥٣٨).

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: إِشْفَاقٌ عَلَى الْوَقْتِ أَنْ يَشُوبَهُ تَفَرُّقٌ».

أي: يحذر على وقته أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عَبْدًا مَخْلُوقًا.

□ قال: «وَعَلَى الْقَلْبِ أَنْ يُزَاحِمَهُ عَارِضٌ».

والعارض المزاحم إما فترة، وإما شبهة، وإما شهوة، وكلُّ سببٍ يعوق السَّالِكَ.

□ قال: «وَعَلَى الْيَقِينِ أَنْ يُدَاخِلَهُ سَبَبٌ».

هو الطُّمَأْنِينَةُ إِلَى (مَنْ بِيَدِهِ الْأَسْبَابُ كُلُّهَا)<sup>(١)</sup>، فمتى داخل يقينه ركونٌ إلى سببٍ وتعلُّقٌ به، واطمأنَّ إليه قدح ذلك في يقينه، وليس المراد قطع الأسباب عن أن تكون أسبابًا، والإعراض عنها؛ فإنَّ هذا زندقةٌ وكفرٌ ومحالٌ؛ فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ سببٌ في حصول الهداية والإيمان، والأعمال الصَّالِحَةُ سببٌ لحصول النَّجاة ودخول الجنَّة<sup>(٢)</sup>، والكفر سببٌ لدخول النَّار، والأسباب المشاهدة أسبابٌ لمسبباتها، ولكنَّ الَّذِي يريد أن يحذر منه إضافة يقينه إلى سببٍ غير الله، ولا يتعلَّق بالأسباب بل يفنى بالمسبَّب عنها.

والشَّيخ مَمَّنْ يبالغ في إنكار الأسباب، ولا يرى وراء الفناء في توحيد الرُّبُوبِيَّةِ غَايَةً، وكلامه في الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ في معظم الأبواب يرجع إلى هذين الأصليين، وقد عرفت ما فيهما، وأنَّ الصَّوَابَ خلافهما، وهو إثبات الأسباب والقوى، وأنَّ الفناء في توحيد الرُّبُوبِيَّةِ ليس هو غَايَةَ الطَّرِيقِ، بل فوقه ما هو أَجَلٌ منه وأَعْلَى وأشرف.

ومن هاتين القاعدتين عرض في كتابه من الأمور التي أنكرت عليه ما عرض.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: إِشْفَاقٌ يَصُونُ سَعْيَهُ عَنِ الْعُجْبِ، وَيَكْفُ صَاحِبَهُ عَنِ

مُخَاصَمَةِ الْخَلْقِ، وَيَحْمِلُ الْمُرِيدَ عَلَى حِفْظِ الْجِدِّ».

الأوَّلُ يتعلَّق بالعمل، والثَّانِي بالخلق، والثَّلَاثُ بالإرادة، وكلُّ منها له ما يفسده.

- فالعجب يفسد العمل كما يفسده الرِّياء، فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقةً تصونه عنه.

- والمخاصمة للخلق مفسدةٌ للخلق، فيشفق على خلقه من هذا المفسد شفقةً تصونه عنه.

- والإرادة يفسدها عدم الجِدِّ، وهو الهزل واللَّعب، فيشفق على إرادته ممَّا يفسدها.

فإذا صحَّ له عمله وخلقته وإرادته استقام سلوكه وقلبه وحاله، والله المستعان.

(١) في «غ» والمنار: (مَنْ الْأَسْبَابُ كُلُّهَا بِيَدِهِ).

(٢) جملة: (ودخول الجنَّة) غير موجودة في «غ» والمنار.



## فصل [منزلة الخشوع]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الخشوع.  
قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].  
قال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ»<sup>(١)</sup>.  
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إِنَّ اللَّهَ اسْتَبْطَأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، فَعَاتَبَهُمْ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ نَزُولِ الْقُرْآنِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢، ١].  
والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض، والدُّلُّ، والسُّكُونُ، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّعْمَنِ﴾ [طه: ١٧٨] أي: سكنت، وذلت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالرِّيِّ والنبات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

والخشوع: قيام القلب بين يدي الرَّبِّ بالخضوع والدُّلُّ، والجمعيَّة عليه.  
وقيل: الخشوع: الانقياد للحقِّ، وهذا من موجبات الخشوع.  
فمن علاماته: أنَّ العبد إذا خولف ورُدَّ عليه بالحقِّ استقبل ذلك بالقبول والانقياد.  
وقيل: الخشوع خمود نيران الشَّهوة، وسكون دخان الصُّدور، وإشراق نور التَّعظيم في القلب.  
وقال الجنيد: «الْخُشُوعُ تَدُلُّ الْقُلُوبَ لِعَلَامِ الْغُيُوبِ».  
وأجمع العارفون على أنَّ الخشوع محلُّه القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره، ورأى النَّبِيَّ ﷺ رجلاً يعبت بلحيته في الصَّلاة، فقال: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه مسلم في التفسير، باب: قول الله تعالى: ﴿...﴾ [المؤمنون: ٢، ١].  
(٢) ذكرها ابن كثير في «تفسيره» (٣/٤) عن ابن المبارك عن صالح المري عن قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما.  
(٣) عزاه الألباني في «إرواء الغليل» إلى السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية الحكيم الترمذي، وقال الألباني في «الإرواء»: إنه موضوع (٣٧٣).

وقال النَّبِيُّ ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا» وأشار إلى صدره - ثلاث مرَّات (١).

وقال بعض العارفين: «حُسْنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ عُنْوَانُ أَدَبِ الْبَاطِنِ».

ورأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا، وأشار إلى صدره، لا هاهنا، وأشار إلى منكبیه.

وكان بعض الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وهو حذيفة - يقول: «إِيَّاكُمْ وَخُشُوعَ النَّفَاقِ، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا خُشُوعُ النَّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَى الْجَسَدَ خَاشِعًا وَالْقَلْبَ لَيْسَ بِخَاشِعٍ».

«ورأى عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً طأطأ رقبته في الصَّلَاة، فقال: يا صاحب الرِّقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرِّقاب، وإنما الخشوع في القلوب».

«وَرَأَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شَبَابًا يَمْشُونَ وَيَتَمَاوَتُونَ فِي مِشْيَتِهِمْ، فَقَالَتْ لِأَصْحَابِهَا: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا: نُسَاكٌ. فَقَالَتْ: كَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَإِذَا قَالَ أَسْمَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ، وَإِذَا أَطْعَمَ أَشْبَع، وَكَانَ هُوَ النَّاسِكَ حَقًّا».

وقال الفضيل بن عياض: «كَانَ يُكْرَهُ أَنْ يُرَى الرَّجُلُ مِنَ الْخُشُوعِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي قَلْبِهِ».

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْخُشُوعُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ، وَرُبَّ مُصَلٍّ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَيُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ الْجَمَاعَةِ فَلَا تَرَى فِيهِمْ خَاشِعًا».

وقال سهل: «مَنْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَمْ يَقْرَبْ مِنْهُ الشَّيْطَانُ».

## فصل

□ قال صاحب «المتنازل»: «الْخُشُوعُ: خُمُودُ النَّفْسِ، وَهُمُودُ الطَّبَاعِ لِمَتَّعَاطِمِ، أَوْ مُفْزَعٌ».

يعني: انقباض النَّفْسِ والطَّبَعِ، وهو خمود قوى النَّفْسِ عن الانبساط لمن له في القلوب عظمة ومهابة، أو لما يفزع منه القلب.

والحق: أَنَّ الْخُشُوعَ مَعْنَى يَلْتَمِسُ مِنَ التَّعْظِيمِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالذُّلِّ وَالْانْكَسَارِ.

(١) هو جزء من حديث طويل أوله: «لا تحاسدوا ولا تنجاشوا...». رواه مسلم في البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: الدَّرَجَةُ الْأُولَى: التَّذَلُّلُ لِلْأَمْرِ، وَالِاسْتِسْلَامُ لِلْحُكْمِ، وَالِاتِّضَاعُ لِنَظَرِ الْحَقِّ».

التَّذَلُّلُ لِلْأَمْرِ: تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال، ومواطأة الظاهر الباطن، مع إظهار الضعف، والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل، والإعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل. وأما الاستسلام للحكم فيجوز أن يريد به الحكم الديني الشرعي؛ فيكون معناه: عدم معارضته برأي أو شهوة، ويجوز<sup>(١)</sup> أن يريد به الاستسلام للحكم القدري، وهو عدم تلقيه بالتسخط والكرهية والاعتراض. والحق: أن الخشوع هو الاستسلام للحكمين، وهو الانقياد بالمسكنة والذل (لأمر الله)<sup>(٢)</sup> وقضائه.

وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب إليها، وإطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والرؤيوية، فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً، وإنما يفارق القلب<sup>(٣)</sup> إذا غفل عن اطلاع الله عليه، ونظره إليه. والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه. فعلى الأول: يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل. وعلى الثاني - وهو أليق بالآية - يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف، والله أعلم.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: تَرَقُّبُ آفَاتِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ، وَرُؤْيَةُ فَضْلِ كُلِّ ذِي فَضْلٍ عَلَيْكَ، وَتَدَسُّمُ نَسِيمِ الْفَنَاءِ».

يريد: انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك؛ فإنه يجعل القلب خاشعاً لا محالة؛

(١) كلمة: (يجوز) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (لأمره).

(٣) في «غ»: (وإنما يفارق القلب الخشوع).

لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما من الكبر، والعجب، والرِّياء، وضعف الصِّدق، وقلة اليقين، وتشتت النِّية، وعدم تجرُّد الباعث (من الهوى النَّفْساني)<sup>(١)</sup>، وعدم إيقاع العمل على الوجه الَّذي ترضاه لرُبِّك، وغير ذلك من عيوب النَّفس، ومفسداات الأعمال.

وأما رؤية فضل كلِّ ذي فضلٍ عليك: فهو أن تراعي حقوق النَّاس فتؤدِّبها، ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم، فلا تعاوضهم عليها؛ فإنَّ هذا من رعونات النَّفس وحماقاتها، ولا تطالبهم بحقوق نفسك، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم، وتنسى فضل نفسك.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «الْعَارِفُ لَا يَرَى لَهُ عَلَى أَحَدٍ حَقًّا، وَلَا يَشْهَدُ عَلَى غَيْرِهِ فَضْلًا، وَلِذَلِكَ لَا يُعَاتِبُ، وَلَا يُطَالِبُ، وَلَا يُضَارِبُ».

وأما تنسُّم نسيم الفناء: فلمَّا كان الفناء عنده غايةً جعل هذه الدَّرَجَة كالنَّسيم لرفقته، وعبر عنها بالنَّسيم للطف موقعه من الرُّوح، وشدَّة تشبُّثها به، ولا ريب أن الخشوع سببٌ موصلٌ إلى الفناء، فاضله ومفضوله.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: حِفْظُ الْحُرْمَةِ عِنْدَ الْمَكَاشَفَةِ، وَتَصْفِيَةُ الْوَقْتِ مِنْ مُرَاءَاةِ<sup>(٢)</sup> الْخَلْقِ، وَتَجْرِيدُ رُؤْيَاةِ الْفَضْلِ».

أما حفظ الحرمة عند المكاشفة: فهو ضبط النَّفس بالذُّلِّ والانكسار عن البسط والإدلال، الَّذي تقتضيه المكاشفة؛ فإنَّ المكاشفة توجب بسطًا، ويخاف منه شطْحٌ، إن لم يصحبه خشوعٌ يحفظ الحرمة.

وأما تصفية الوقت من مرأاة<sup>(٣)</sup> الخلق: فلا يريد به أن يصفِّي وقته عن الرِّياء؛ فإنَّ أصحاب هذه الدَّرَجَة أجلُّ قدرًا وأعلى من ذلك.

وإنَّما المراد: أن يخفي أحواله عن الخلق جهده، كخشوعه وذلِّه وانكساره؛ لئلا يراها النَّاس فيعجبوا أطلعهم عليها، ورؤيتهم لها، فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله، وكم قد اقتطع في هذه

(١) في «غ» والمنار: (بين هوى نفساني).

(٢) في «غ»: (مرايات).

(٣) في «غ» والمنار: (مرايات).

المفازة من سالك؟ والمعصوم من عصمه الله، فلا شيء أنفع للصادق من التَّحَقُّقِ بالمسكنة والفاقة والدُّلِّ، وأنه لا شيء، وأنه ممَّن لم يصحَّ له بعدُ الإسلام حتَّى يدَّعي الشَّرْفَ فيه.  
ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيميَّة قدَّس الله روحه من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: «مَا لِي سَيِّئٌ، وَلَا مَنِّي سَيِّئٌ، وَلَا فِيَّ سَيِّئٌ».

وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أَنَا الْمُكْدِي<sup>(١)</sup> وَابْنُ الْمُكْدِي وَهَكَذَا كَانَ أَبِي وَجَدِّي

وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: «وَاللَّهِ إِنِّي إِلَى الْآنِ أُجَدِّدُ إِسْلَامِي كُلَّ وَفْتٍ، وَمَا أَسَلَمْتُ بَعْدُ إِسْلَامًا جَيِّدًا».

وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ  
أَنَا الظَّلْمُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي  
لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلَبَ مَنْفَعَةٍ  
وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلَى يُدَبِّرُنِي  
إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا  
وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا  
وَلَا ظَهِيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ  
وَالْفَقْرُ لِي وَصَفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا  
وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ  
فَمَنْ بَغَى مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ  
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ

أَنَا الْمُسَيِّكِينَ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي  
وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي  
وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضْرَّاتِ  
وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ حَاطَتِ خَطِيئَاتِي  
إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَا فِي الْآيَاتِ  
وَلَا شَرِيكَ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ  
كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ  
كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصَفٌ لَهُ ذَاتِي  
وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي  
فَهُوَ الْجَهْلُ الظَّلْمُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي  
مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدُ قَدْ يَأْتِي<sup>(٢)</sup>

وأما تجريد رؤية الفضل: فهو ألا يرى الفضل والإحسان إلا من الله، فهو المانُّ به بلا سببٍ

(١) قال في «اللسان»: «وأكدئ الرجل: قل خيره، وقيل: المكدي من الرجال الذي لا يثوب له مال، ولا ينمي».  
(٣٨٣٩/٥).

(٢) في «غ»: «وما من بعده يأتي» وفي المنار: «وما من بعد يأتي».

منك، ولا شفيحٍ لك تقدّم إليه بالشفاعة، ولا وسيلةٍ سبقت منك توّسّلت بها إلى إحسانه. والتّجريد: هو تخليص شهود الفضل لوليّه؛ حتّى لا ينسبه إلى غيره، وإلّا فهو في نفسه مجردٌ عن النّسبة إلى سواه، وإنّما الشّأن في تجريده في الشّهود، ليطابق الشّهود الحقّ في نفس الأمر، والله أعلم.

## فصل

فإن قيل: ما تقولون في صلاة من عدم الخشوع هل يعتدُّ بها أم لا؟  
 قيل: أمّا الاعتداد بها في الثّواب فلا يعتدُّ له فيها إلّا بما عقل فيها منها، وخشع فيه لربّه.  
 قال (١) ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَّا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا». وفي «المسند» مرفوعاً: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَصَلِّي الصَّلَاةَ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ إِلَّا نَصْفُهَا، أَوْ ثُلُثُهَا، أَوْ رُبُعُهَا...» حَتَّى بَلَغَ عَشْرَهَا (٢).  
 وقد علّق الله فلاح المصلّين بالخشوع في صلاتهم، فدلّ على أنّ من لم يخشع فليس من أهل الفلاح، ولو اعتدّ له بها ثواباً لكان من المفلحين.  
 وأمّا الاعتداد بها في أحكام الدّنيا، وسقوط القضاء فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتدّ بها إجمالاً، وكانت السنن والأذكار عقيبتها جوايز ومكمّلاتٍ لنقصها.  
 وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها، وعدم تعقلها، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها. فأوجبها أبو عبد الله بن حامدٍ من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزاليّ في «إحيائه»، لا في «وسيطه» و«بسيطه».  
 - واحتجّوا بأنّها صلاةٌ لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمّته منها، ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.  
 - قالوا: ولأنّ الخشوع والعقل روح الصّلاة ومقصودها ولبّها؛ فكيف يعتدُّ بصلاةٍ فقدت روحها ولبّها، وبقيت صورتها وظاهرها؟!  
 - قالوا: ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً لأبطلها تركه.

(١) في نسخة «غ» سقط كبير وذلك من قوله هنا: (قال ابن عباس) إلى قوله: (ولم يأمره بإعادتها) بعد صفحتين.

(٢) تقدم تخريجه.

وغايته: أن يكون بعضاً من أعضائها بمنزلة فوات عضوٍ من أعضاء العبد المعتقد في الكفارة، فكيف إذا عدت روحها، ولبها ومقصودها، وصارت بمنزلة العبد الميت، إذا لم يعتدّ بالعبد المقطوع اليد، يعتقه تقريباً إلى الله تعالى في كفارة واجبة، فكيف يعتدّ بالعبد الميت؟!

وقال بعض السلف: «الصلاة كجارية تُهدى إلى ملكٍ من المملوك، فما الظنُّ بمن يُهدي (١) إليه جاريةً شلاءً، أو عوراءً، أو عمياءً، أو مقطوعة اليد والرجل، أو مريضةً، أو دميمةً، أو قبيحةً، حتى يُهدي (٢) إليه جاريةً ميتةً بلا روح وجاريةً قبيحةً، فكيف بالصلاة التي يُهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى؟! والله طيب لا يقبل إلا طيباً، وليس من العمل الطيب صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه».

- قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع تعطيلٌ لملك الأعضاء عن عبوديته، وعزلٌ له عنها، فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها، وقد عزل ملكها وتعطل؟  
- قالوا: والأعضاء تابعة للقلب، تصلح بصلاحيه، وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائماً بعبوديته، فالأعضاء أولى ألا يعتدّ بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس فأنى تصحُّ عبودية رعيته وجنده وما دأبهم منه، وعن أمره يصدرن، وبه يأترون؟!

- قالوا: وفي الترمذي وغيره مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِبُّ الدُّعَاءَ مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ» (٣).

وهذا إمّا خاصٌّ بدعاء العبادة، وإمّا عامٌّ له ولدعاء المسألة، وإمّا خاصٌّ بدعاء المسألة الذي هو أبعد، فهو تنبيهٌ على أنه لا يقبل دعاء العبادة الذي هو خاصٌّ حقه من قلب غافل.  
- قالوا: ولأنَّ عبودية من غلبت عليه الغفلة والسَّهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص؛ فإنَّ الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبُّد، والغافل لا قصد له، فلا عبودية له.

- قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤، ٥]، وليس السَّهو عنها تركها، وإلَّا لم يكونوا مصليين، وإنما هو السَّهو عن واجبها؛ إمّا عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإمّا عن (٤) الحضور والخشوع.

(١) في المنار: (تُهدى).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) الترمذي في الدعوات، باب رقم (٦٦)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٥٩٤).

(٤) كلمة: (عن) غير موجودة في المنار.

والصَّواب: أنه يعمُّ النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم صلاةً، ووصفهم بالسَّهو عنها فهو السَّهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب؛ ولذلك وصفهم بالرَّياء، ولو كان السَّهو سهو تركٍ لما كان هناك رياءً.

- قالوا: ولو قدرنا أنه السَّهو عن واجبٍ فقط، فهو تنبيهٌ على التَّوَعُّد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى لوجوه:

أحدها: أن الوقت يسقط في حال العذر، ويتنقل إلى بدله، والإخلاص والحضور لا يسقط بحالٍ، ولا بدل له.

الثاني: أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور، فيجوز الجمع بين الصَّلَاتين للشُّغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلبٍ ولا حضورٍ، كالمسافر، والمريض، وذو الشُّغل الَّذي يحتاج معه إلى الجمع، كما نصَّ عليه أحمد وغيره.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور، وجمعيَّة القلب على الله في الصَّلَاة أرجح في نظر الشَّارع من مصلحة سائر واجباتها، فكيف يظنُّ به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة، أو اعتدالٍ في ركنٍ، أو ترك حرفٍ، أو شذَّةٍ من القرآن، أو ترك تسيحةٍ أو قول (١): «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». أو قول: «رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» أو ذكر رسول الله ﷺ بالصَّلَاة عليه، ثم يصحَّحها مع فوت لبَّها، ومقصودها الأعظم، وروحها وسرَّها. فهذا ما احتجَّت به هذه الطائفة، وهي حججٌ - كما تراها - قوَّة وظهورًا.

قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ في الصَّحيح أنه قال: «إِذَا أَدَّنَ الْمُؤَدِّنُ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأذِينَ أَقْبَلَ، فَإِذَا نُوبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّشْوِيبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَيَدْكُرُهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَدْكُرُهُ، وَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا. لِمَا لَمْ يَكُنْ يَدْكُرُهُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ» (٢).

- قالوا: فأمره النَّبِيُّ ﷺ في هذه الصَّلَاة الَّتِي قد أغفلها الشَّيطان فيها، حتَّى لم يدر كم صَلَّى بأن يسجد سجدي السَّهو، ولم يأمره بإعادتها (٣)، ولو كانت باطلةً كما زعمتم لأمره بإعادتها.

(١) كلمة: (قول) غير موجودة في المنار.

(٢) البخاري في الأذان، باب: فضل التأذنين (٦٠٨)، ومسلم في الصلاة، باب: فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه (٣٨٩).

(٣) هنا انتهى كلام الساقط من نسخة «غ».



- قالوا: وهذا هو السُّرُّ في سجدي السَّهْوِ، ترغيبًا للشَّيْطَانِ في وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور في الصَّلَاة؛ ولهذا سَمَّاهما النَّبِيُّ ﷺ: «الْمُرْغَمَتَيْنِ». وأمر مَنْ سَهَا بهما ولم يَفْضَلْ في سهوه الَّذِي صدر عنه موجب السُّجُودِ بين القليل والكثير والغالب والمغلوب، وقال: «لِكُلِّ سَهْوٍ سَجْدَتَانِ»<sup>(١)</sup>. ولم يستثن من ذلك السَّهْوِ الغالب، مع أنه الغالب.

- قالوا: ولأنَّ شرائع الإسلام على الأفعال الظَّاهِرة، وأمَّا حقائق الإيمان الباطنة فتلك عليها شرائع الثَّوَابِ والعقاب، فلهَّ تعالى حكمان.  
- حكمٌ في الدُّنْيَا على الشَّرَائِعِ الظَّاهِرةِ وأعمال الجوارح، وحكمٌ في الآخرة على الظَّوَاهِرِ والبواطن.

ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ يقبل علانية المنافقين، وَيَكِلُّ أسرارهم إلى الله فيناكحون، ويرثون ويورثون، ويعتدُّ بصلاتهم في أحكام الدُّنْيَا، فلا يكون حكمهم حكم تارك الصَّلَاة؛ إذ قد أتوا بصورتها الظَّاهِرة، وأحكام الثَّوَابِ والعقاب ليست إلى البشر، بل إلى الله، والله<sup>(٢)</sup> يتولَّاه في الدَّارِ الآخرة.

- قَالُوا: فَفَنَحْنُ فِي حُكْمِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ نَحْكُمُ بِصِحَّةِ صَلَاةِ الْمُتَأَنِّفِ وَالْمُرَائِي مَعَ أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ عَنْهُ الْعِقَابُ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ الثَّوَابُ فِي الْآخِرَةِ<sup>(٣)</sup>، فَصَلَاةُ الْمُسْلِمِ الْغَافِلِ الْمُتَبَتِّلِ بِالْوَسْوَاسِ وَعَقْلَةَ الْقَلْبِ عَنِ كَمَالِ حُضُورِهِ أَوْلَى بِالصَّحَّةِ.

نعم، لا يحصل مقصود هذه الصَّلَاةِ من ثواب الله عاجلاً ولا آجلاً؛ فَإِنَّ لِلصَّلَاةِ مَزِيدَ ثَوَابٍ عاجل في القلب من قوَّةِ إيمانه، واستنارته، وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة، والفرح والشُّرُورِ، واللَّذَّةِ الَّتِي تحصل لمن اجتمع همُّه وقلبه على الله، وحضر قلبه بين يديه، كما يحصل لمن قرَّبه السُّلْطَانُ منه، وخصَّه بمناجاته والإقبال عليه، والله أعلى وأجلُّ.

وكذلك ما يحصل لهذا من الدَّرَجَاتِ العُلَى في الآخرة، ومرافقة المقرَّبين.  
كُلُّ هذا يفوته بفوات الحضور والخشوع<sup>(٤)</sup>، وإنَّ الرَّجُلَيْنِ لِيَكُونَ<sup>(٥)</sup> مقامهما في الصَّفِّ واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السَّمَاءِ والأرض، وليس كلامنا في هذا كله.

(١) أبو داود في الصلاة، باب: من نسي أن يتشهد وهو جالس (١٣٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب: ما جاء فيمن سجدها بعد السلام (١٢٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (١٠٥).

(٢) جملة: (والله) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) جملة: (في الآخرة) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (والخشوع).

(٥) في «غ» والمنار: (يكون).

فإن أردتم وجوب الإعادة لتحصل هذه الثمرات والفوائد فذاك إليه إن شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها على نفسه، وإن أردتم بوجوبها أننا نلزمه بها ونعاقبه على تركها، ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا.

وهذا القول الثاني أرجح القولين، والله أعلم (١).

بسم الله الرحمن الرحيم (٢)

وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

## فصل

### [منزلة الإخبات]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الإخبات.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٣٤) ثم كشف عن معناهم فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٥) [الحج: ٣٤، ٣٥]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦) [هود: ٢٣].

و«الْخَبْتُ» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض، وبه فسّر (٣) ابن عباس رضي الله عنهما وفتادة لفظ المخبتين وقالوا: «هُمُ الْمُتَوَاضِعُونَ».

وقال مجاهد: «الْمُخْبِتُ: الْمُطْمَئِنُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

قال: «وَالْخَبْتُ: الْمَكَانُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ».

وقال الأخفش: «الْخَاشِعُونَ».

وقال إبراهيم التيمي: «الْمُصَلُّونَ الْمُخْلِصُونَ».

(١) هنا ينتهي المجلد الأول من طبعة (الفاقي)، والمنار ونسخة «غ».

(٢) من هنا يبدأ المجلد الثاني لطبعة الفاقي ونسخة المنار ونسخة «غ»، وكلها بدأت بهذه الافتتاحية (بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، ولا أعلم إن كان هذا من كلام ابن القيم رحمه الله تعالى أو من اجتهاد الناسخين.

(٣) في «غ»: (قرأ).

وقال الكلبي: «هُمُ الرَّقِيقَةُ قُلُوبُهُمْ».

وقال عمرو بن أوس: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَظْلِمُونَ، وَإِذَا ظَلِمُوا لَمْ يَتَّصِرُوا».

وهذه الأقوال تدور على معنيين:

- التواضع والسكون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك عدِّي بـ«إلى» تضميناً لمعنى الطمأنينة.

- والإناابة والسكون إلى الله.

□ قال صاحب «المنازل»: «هُوَ مِنْ أَوَّلِ مَقَامَاتِ الطَّمَأْنِينَةِ».

كالسكينة، واليقين، والثقة بالله ونحوها، فالإخبات مقدمتها ومبدؤها.

□ قال: «وَهُوَ وُزُودُ الْمُأْمَنِ <sup>(١)</sup> مِنَ الرَّجُوعِ وَاللَّرْدِ».

لَمَّا كَانَ الإِخْبَاتُ أَوَّلَ مَقَامٍ يَتَخَلَّصُ فِيهِ السَّالِكُ مِنَ التَّرْدِّ - الَّذِي هُوَ نَوْعٌ غَفْلَةٌ وَإِعْرَاضٌ - وَالسَّالِكُ مَسَافِرٌ إِلَى رَبِّهِ، سَافِرٌ إِلَى مَدَى أَنْفَاسِهِ، لَا يَنْتَهِي مَسِيرَهُ إِلَيْهِ مَا دَامَ نَفْسُهُ يَصْحَبُهُ - شَبَّهُ حُصُولَ الإِخْبَاتِ لَهُ بِالمَاءِ العَذْبِ الَّذِي يَرُدُّهُ المَسَافِرُ عَلَى ظَمِئٍ وَحَاجَةٍ فِي أَوَّلِ مَنَاحِلِهِ؛ فَيُرْوِيهِ مُورِدَهُ، وَيُزِيلُ عَنْهُ خَوَاطِرَ تَرْدُدِهِ فِي إِتِمَامِ سَفَرِهِ، أَوْ رَجُوعِهِ إِلَى وَطَنِهِ لِمَشَقَّةِ السَّفَرِ، فَإِذَا وَرَدَ ذَلِكَ المَاءُ زَالَ عَنْهُ التَّرْدُّ وَخَوَاطِرُ الرَّجُوعِ.

كذلك السالك إذا ورد مورد الإخبات تخلص من التردد والرجوع، ونزل أول منازل الطمأنينة

بسفره، وجد في السير.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: الدَّرَجَةُ الأُولَى: أَنْ تَسْتَعْرِقَ العِصْمَةَ الشَّهْوَةَ،

وَتَسْتَدْرِكَ الإِرَادَةَ العُفْلَةَ، وَيَسْتَهْوِي الطَّلَبُ السَّلْوَةَ».

المريد السالك تعرض له غفلة عن مراده تضعف إرادته، وشهوة تعارض إرادته فتصدّه عن

مراده، ورجوع عن مراده وسلوة عنه.

فهذه الدرجة من الإخبات تحميه عن هذه الثلاثة، فتستغرق عصمته شهوته.

والعصمة هي الحماية والحفظ، والشهوة الميل إلى مطالب النفس، والاستغراق للشيء

الاحتواء عليه والإحاطة به.

يقول: تغلب عصمته شهوته وتقهرها، وتستوفي جميع أجزائها، فإذا استوفت العصمة جميع

أجزاء الشهوة فذلك دليل على إخباته ودخوله في مقام الطمأنينة، ونزوله أول منازلها، وخلاصه في هذا

المنزل من تردّد الخواطر بين الإقبال والإدبار، والرجوع والعزم، إلى الاستقامة والعزم الجازم، والجدّ

(١) في «غ»: (وهو مراد المسافر)، وفي المنار: (وهو ورود المسافر)، ولعلها الصواب إن شاء الله تعالى.

في السير، وذلك علامة السكينة.

وتستدرك إرادته غفلته، والإرادة عند القوم: هي اسمٌ لأوّل منازل القاصدين إلى الله. والمريدُ: هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه، وأخذ في السفر إلى الله والدار الآخرة، فإذا نزل في منزل الإخبات أحاطت إرادته بغفلته، فاستدركها، واستدرك بها فارطها. وَأَمَّا «اسْتِهْوَاءُ طَلْبِهِ لِسُلُوتِهِ» فهو قهر محبته لسلوته، وغلبتها له؛ بحيث تهوي السلوة وتسقط، كالذي يهوي في بئر، وهذا علامة المحبة الصادقة أن تقهر فيه وارد السلوة، وتدفعها في هوة لا تحيا بعدها أبدًا.

فالحاصل: أن عصمته وحمايته تقهر شهوته، وإرادته تقهر غفلته، ومحبته تقهر سلوته. □ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: أَلَّا يَنْقُضَ إِرَادَتَهُ سَبَبٌ؛ وَلَا يُوحِشَ قَلْبَهُ عَارِضٌ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ فِتْنَةٌ».

هذه ثلاثة أمورٍ أخرى تعرض لصداق الإرادة: سببٌ يعرض له ينقض عزمه وإرادته، ووحشةٌ تعرض له في طريق طلبه، ولا سيما عند تفرده، وفتنةٌ تخرج عليه، تقصد قطع الطريق عليه. فإذا تمكّن من منزل الإخبات اندفعت<sup>(١)</sup> عنه هذه الآفات؛ لأنَّ إرادته إذا قويت، وجدَّ به السير لم ينقضها سببٌ من أسباب التخلّف.

والتنقض: هو الرجوع عن إرادته، والعدول عن جهة سفره. ولا يوحش أنسه بالله في طريقه عارضٌ من العوارض الشواغل للقلب والجواذب له عمّن هو متوجّهٌ إليه.

والعارض: هو المخالف، كالشيء الذي يعترضك في طريقك؛ فيجيء في عرضها، ومن أقوى هذه العوارض عارض ووحشة التفرّد، فلا يلتفت إليه.

كما قال بعض الصّادقين: «انْفِرَادُكَ فِي طَرِيقِ طَلْبِكَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الطَّلَبِ». وقال آخر: «لَا تَسْتَوْحِشْ فِي طَرِيقِكَ مِنْ قِلَّةِ السَّالِكِينَ، وَلَا تَعْتَرِّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ». وَأَمَّا الفتنَةُ الَّتِي تَقْطَعُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ: فهي الواردات الَّتِي تَرِدُ عَلَى الْقُلُوبِ، تمنعها من مطالعة الحقِّ وقصده، فإذا تمكّن من منزل الإخبات وصحة الإرادة والطلب لم يطمع فيه عارض الفتنة. وهذه العزائم لا تصحُّ إلّا لمن أشرق على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات، وتجلّت عليه معانيها، وكافح قلبه حقيقة اليقين بها.

وقد قيل: من أخذ العلم من عين العلم ثبت، ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشبه، ومالت

(١) في «غ»: (تدافعت).

به العبارات، واختلفت عليه الأقوال.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنْ يَسْتَوِيَ عِنْدَهُ الْمَدْحُ وَالذَّمُّ، وَتَدْوَمَ لَانِمَتُهُ لِنَفْسِهِ، وَيَعْمَى عَن نُّقْصَانِ الْخَلْقِ عَن دَرَجَتِهِ».

اعلم أنه متى استقرت قدم العبد في منزلة الإخبات، وتمكّن فيها ارتفعت همّته، وعلت نفسه عن خطفات المدح والذّم؛ فلا يفرح بمدح الناس، ولا يحزن لذمهم. هذا وصف من خرج عن حظّ نفسه، وتأهل للفناء في عبودية ربّه، وصار قلبه مطرّحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه.

والوقوف عند مدح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب، وخلوّه من الله، وأنه لم تباشره روح محبّته ومعرفته، ولم يذق حلاوة التعلّق به والطمأنينة إليه. وأما (١) قوله: «وَأَنَّ تَدْوَمَ لَانِمَتُهُ لِنَفْسِهِ»: فهو أنّ صاحب هذا المنزل لا يرضى عن نفسه، وهو مبغض لها متمنّ لمفارقتها.

والمراد بالنفس عند القوم: ما كان معلولاً من أوصاف العبد، مذموماً من أخلاقه وأفعاله، سواء كان ذلك كسبياً (٢)، أو خلقياً؛ فهو شديد اللّائمة لها، وهذا أحد التّأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

قال سعيد بن جبیر وعكرمة: «تَلُومٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَا تَصْبِرُ عَلَى السَّرِّاءِ، وَلَا عَلَى الضَّرِّاءِ».

وقال قتادة: «اللَّوَامَةُ هِيَ الْفَاجِرَةُ».

وقال مجاهد: «تَدَدَمَ عَلَى مَا فَاتَ، وَتَقُولُ: لَوْ فَعَلْتُ! وَكَوَلِمَ أَفْعَلُ!».

وقال الفراء: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ بَرَّةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ إِلَّا وَهِيَ تَلُومُ نَفْسَهَا؛ إِنْ كَانَتْ عَمِلَتْ خَيْرًا قَالَتْ: هَلَّا زِدْتُ! وَإِنْ عَمِلَتْ شَرًّا قَالَتْ: لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلُ!».

وقال الحسن: «هِيَ النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ؛ إِنْ الْمُؤْمِنِ وَاللَّهِ مَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَةٍ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَةٍ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِكَذَا؟ وَمِنْ الْفَاجِرِ يَمْضِي قُدَمَا قُدَمَا، وَلَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ وَلَا يُعَابِتُهَا».

وقال مقاتل: «هِيَ النَّفْسُ الْكَافِرَةُ؛ تَلُومُ نَفْسَهَا فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَا قَرَطَتْ فِي أَمْرِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا».

(١) كلمة: (أما) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في المنار: (كسبياً له).

والقصد: أن من بذل نفسه لله بصدقٍ كره بقاءه معها؛ لأنَّه يريد أن يتقبَّلها من بذلت له، ولأنَّه قد قرَّبها له قرباناً، ومن قرَّب قرباناً فتقبَّل منه ليس كمن رُدَّ عليه قربانه؛ بقاء نفسه معه دليلٌ على أنه لم يتقبَّل قربانه.

وأيضاً: فإنَّه من قواعد القوم المجمع عليها بينهم، التي أتفتت كلمة أولهم وآخرهم، ومحقَّهم ومبطلهم عليها أن النَّفس حجابٌ بين العبد وبين الله، وأنَّه لا يصل إلى الله حتَّى يقطع هذا الحجاب. كما قال أبو يزيد: «رَأَيْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ فِي الْمَنَامِ، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: خَلَّ نَفْسَكَ وَتَعَالَ»<sup>(١)</sup>.

فالنَّفْس جبلٌ عظيمٌ شاقٌّ في طريق السَّير إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ سائرٍ لا طريق له إلا على ذلك الجبل؛ فلا بدَّ أن ينتهي إليه، ولكنَّ منهم من هو شاقٌّ عليه، ومنهم من هو سهلٌ عليه، وإنَّه ليسيرٌ على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أوديةٌ وشعوبٌ، وعقباتٌ ووهودٌ، وشوكٌ وعوسجٌ، وعَلَيْقٌ وشَبْرُقٌ، ولصوصٌ يقطعون الطَّرِيقَ على السَّائرين، ولاسيَّما أهل اللَّيل المدلجين؛ فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان، ومصايح اليقين تتقد بزيت الإخبات، وإلاَّ تعلَّقت بهم تلك الموانع، وتشبَّثت بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السَّير.

فإنَّ أكثر السَّائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشَّيطان على قُلَّة ذلك الجبل يحذِّر النَّاس من صعوده وارتفاعه، ويخوِّفهم منه؛ فيتفق مشقَّة الصُّعود وقعود ذلك المَخوِّف على قُلَّته، وضعف عزيمة السَّائر ونَيْته، فيتولَّد من ذلك الانقطاع والرُّجوع، والمعصوم من عصمه الله.

(١) هذه رؤيا منسوبة لأحد أعلام الصوفية وهو أبو يزيد. والرؤيا لا يعول عليها في إثبات حكم ولا أي أمر من أمور الدين، ولكن إذا كان ظاهرها موافقاً للشرع أو محتملة لمعنى يوافق الشرع؛ فقد جرت عادة أهل العلم على الاستشهاد بها للاعتضاد لا للاعتماد؛ فإن من الرؤيا: الرؤيا الصالحة، والتي هي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، كما ورد بذلك الحديث الصحيح، وهذه الرؤيا المنسوبة لأبي يزيد يمكن أن تكون صحيحة النسبة إليه وليس فيها مخالفة للشرع صريحة. وأما قوله: «خل نفسك وتعال» فيحتمل أنه مأثور بالتجرد عن طبعه وصفاته الجبلية ليصير شيئاً آخر، ومعلوم أن هذا غير ممكن، ولأجل ذلك أنكر من أنكر هذه الرؤيا، ورأى أنها مشتتة على ما يخالف الشريعة، ويخالف السنن الكونية؛ وهذا الاحتمال في هذه العبارة غير متعين؛ إذ تحتمل الأمر بالتجرد عن هوى النفس الأمانة بالسوء وعن طلب حظوظها الطبيعية مما لم تؤمر بطلبه، ولا ريب أن هذا معنى شريف ومقام رفيع إنما يصل إليه الكُمَّل من أولياء الله تعالى الذين قال الله فيهم كما في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...» الحديث، وعلى هذا المعنى حمل ابن القيم هذه الرؤيا ولذلك استشهد بها، والله أعلم.

وكَلَّمَا رَقَى السَّائِرَ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ اشْتَدَّ بِهِ صِيَاحُ الْقَاطِعِ، وَتَحْذِيرُهُ وَتَخْوِيفُهُ، فَإِذَا قَطَعَهُ وَبَلَغَ قَلَّتَهُ انْقَلَبَتْ تِلْكَ الْمَخَافُوفُ كُلُّهُنَّ أَمَانًا، وَحِينَئِذٍ يَسْهَلُ السَّيْرُ<sup>(١)</sup>، وَتَزُولُ عَنْهُ عَوَارِضُ الطَّرِيقِ، وَمَشَقَّةُ عَقْبَاتِهَا، وَيَرَى طَرِيقًا وَاسِعًا أَمِنًا يَفْضِي بِهِ إِلَى الْمَنَازِلِ وَالْمَنَاهِلِ، وَعَلِيهِ الْأَعْلَامُ، وَفِيهِ الْإِقَامَاتُ قَدْ أَعَدَّتْ لِرُكْبِ الرَّحْمَنِ.

فبين العبد وبين السَّعادة والفلاح قوَّةٌ عزيمةٌ، وصربر ساعةٌ، وشجاعة نفسٍ، وثبات قلبٍ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

## فصل

□ وقوله: «وَيَعْمَى عَنْ نُقْصَانِ الْخَلْقِ عَن دَرَجَتِهِ».

يعني: أنه - وإن كان أعلى ممَّن هو دونه من النَّاقِصِينَ عن درجته - إلاَّ أنَّه لاشتغاله بالله وامتلاء قلبه من محبَّته ومعرفته، والإقبال عليه يشتغل به عن ملاحظة حال غيره، وعن شهود النسبة بين حاله وأحوال النَّاسِ، ويرى اشتغاله بذلك والتفاته إليه نزولاً عن مقامه، وانحطاطاً عن درجته، ورجوعاً على عقبيه، فإن هجم عليه ذلك - بغير استدعاءٍ واختيارٍ - فليداوه بشهود المنَّة، وخوف المكر، وعدم علمه بالعاقبة التي يوافي عليها، والله المستعان.

## فصل

### [منزلة الزهد]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿منزلة الزهد.

قال الله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرِبُهُ مُمْصِرًا، ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا

(١) كلمة: (السير) غير موجودة في «ع» والمنار.

الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعَ الْعُرُورَ ﴿٤٢﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤].  
الآية.

وقال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [إلى قوله: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦) [الكهف: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٦) [طه: ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨].

وقال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثِيْبَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضْفِةٍ﴾ [إلى قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥) [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

والقرآن مملوءٌ من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخسستها، وقتلتها وانقطاعها، وسرعة فناؤها، والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها؛ فإذا أراد الله بعبده خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

وقد أكثر الناس من الكلام في «الزهد» وكلُّ أشار إلى ذوقه، ونطق عن حاله وشاهده؛ فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم، والكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلى الحجّة والبرهان.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة».

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: «الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس يأكل الغليظ، ولا لبس العباء».

وقال الجنيد: «سمعت سرياً يقول: إن الله عز وجل سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفياؤه، وأخرجها من قلوب أهل وداذه؛ لأنه لم يرصها لهم».



وقال: «الزهد في قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] فالزهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود».

وقال يحيى بن معاذ: «الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح». وقال ابن الجلاء: «الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها».

وقال ابن خفيف: «الزهد وجود الراحة في الخروج من الملك». وقال أيضاً: «الزهد سلو القلب عن الأسباب، وتفض الأيدي من الأملاك». وقيل: هو عزوف (١) القلب عن الدنيا بلا تكلف. وقال الجنيد: «الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد». وقال الإمام أحمد: «الزهد في الدنيا قصر الأمل». وعنه رواية أخرى: «أنه عدم فرحه بإقبالها، ولا حزنه على إزبارها»؛ فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار، هل يكون زاهداً؟ فقال: «نعم، على شريطة ألا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت». وقال عبد الله بن المبارك: «هو الثقة بالله مع حب الفقر» (٢). وهذا قول شقيق ويوسف بن أسباط.

وقال عبد الواحد بن زيد: «الزهد: الزهد في الدنيار والدتهم». وقال أبو سليمان الداراني: «ترك ما يشغل عن الله». وهو قول الشبلي. وسأل رويم الجنيد عن الزهد، فقال: «استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب». وقال مرة: «هو خلو اليد عن الملك، والقلب عن التبع». وقال يحيى بن معاذ: «لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا عاقبة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة».

(١) في «ع» والمنار: (عزوب).

(٢) ثبت أن النبي ﷺ تعوذ من الفقر، وذلك في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم». انظر: «صحيح الجامع الصغير» (١٢٨٧)، ومراد ابن المبارك رحمه الله تعالى بالفقر ما يقابل الغنى والثراء، وهو عيش الكفاف مع الفئاعة، كما قال ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه». انظر: «صحيح الجامع» (٤٣٦٨).

وليس المراد بالفقر الذي يضطر الإنسان إلى المسألة والذلة فذلك هو ما استعاذ منه النبي ﷺ.

وقال أيضًا: «الزَّاهِدُ يُسْعِطُكَ الْخَلَّ وَالْخَرْدَلُ، وَالْعَارِفُ يُشْمُكَ الْمِسْكَ وَالْعَبِيرُ».

وقيل: حقيقته هو الزُّهد في النَّفس، وهذا قول ذي النُّون المصريِّ.

وقيل: الزُّهد الإيثار عند الاستغناء، والفتوة: الإيثار عند الحاجة. قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ

عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقال رجلٌ ليحيى بن معاذ: «مَتَى أَدْخُلَ حَائِثَاتِ التَّوَكُّلِ، وَالْبَسُ رِدَاءَ الزَّاهِدِينَ، وَأَقْعُدُ مَعَهُمْ؟ فَقَالَ: إِذَا صِرْتَ مِنْ رِيَاضَتِكَ لِنَفْسِكَ إِلَىٰ حَدِّ لَوْ قَطَعَ اللَّهُ الرِّزْقَ عَنْكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَمْ تَضْعُفْ نَفْسُكَ، فَأَمَّا مَا لَمْ تَبْلُغْ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّرَجَةِ فَجُلُوسُكَ عَلَىٰ بَسَاطِ الزَّاهِدِينَ جَهْلٌ، ثُمَّ لَا آمَنُ عَلَيْكَ أَنْ تَفْتَضَحَ».

وقد قال الإمام أحمد بن حنبلٍ: «الزُّهُدُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ:

- الْأَوَّلُ: تَرْكُ الْحَرَامِ، وَهُوَ زُهُدُ الْعَوَامِّ.

- وَالثَّانِي: تَرْكُ الْفُضُولِ مِنَ الْحَلَالِ، وَهُوَ زُهُدُ الْخَوَاصِّ.

- وَالثَّلَاثُ: تَرْكُ مَا يَشْغَلُ عَنِ اللَّهِ، وَهُوَ زُهُدُ الْعَارِفِينَ».

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدّم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته، وهو من أجمع الكلام؛ وهو يدلُّ على أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، وقد شهد<sup>(١)</sup> الشافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ بِإِمَامَتِهِ فِي ثَمَانِيَةِ أَشْيَاءٍ أَحَدُهَا الزُّهُدُ.

والَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْعَارِفُونَ: أَنَّ الزُّهُدَ سَفَرُ الْقَلْبِ مِنْ وَطَنِ الدُّنْيَا، وَأَخْذُهُ فِي مَنَازِلِ الْآخِرَةِ.

وعلى هذا صَنَّفَ الْمُتَقَدِّمُونَ كِتَابَ الزُّهُدِ، كـ«الزُّهُدِ» لعبد الله بن المبارك، ولالإمام أحمد،

ولوكيع، ولهنّاد بن السريِّ، ولغيرهم.

ومتعلِّقه ستّة أشياء، لا يستحقُّ العبد اسم الزُّهد حتّى يزهد فيها، وهي المال، والصُّور،

والرياسة، والنّاس، والنفس، وكلُّ ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك؛ فقد كان سليمان وداود رَضِيَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ أَزْهَدِ أَهْلِ زَمَانِهِمَا، ولهما من المال

والملك والنساء ما لهما، وكان نبيُّنا محمدٌ رَضِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَزْهَدِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَهُ تِسْعُ نِسْوَةٍ، وكان عليُّ بن أبي

طالبٍ وعبد الرّحمن بن عوفٍ والزبير وعثمان رَضِيَ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الزُّهَادِ مَعَ مَا كَانَ<sup>(٢)</sup> لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ.

وكان الحسن بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الزُّهَادِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ الْأُمَّةِ مُحِبَّةً لِلنِّسَاءِ وَنِكَاحًا لِهِنَّ

وَأَغْنَاهُمْ.

(١) في «غ» والمنار: (شهد له).

(٢) كلمة: (كان) غير موجودة في «غ» والمنار.

وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مالٍ كثير.  
وكذلك الليث بن سعد<sup>(١)</sup> من أئمة الزهاد، وكان له رأس مالٍ يقول: لولا هو لتمنّدت<sup>(٢)</sup> بنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن أو غيره: «لَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ، وَلَكِنْ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْتَى مِنْكَ بِمَا فِي يَدِكَ، وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ - إِذَا أَصَبَتْ بِهَا - أَرْغَبَ مِنْكَ فِيهَا لَوْ كَمْ تُصِيبُكَ». فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه، وقد روي مرفوعاً<sup>(٣)</sup>.

## فصل

وقد اختلف الناس في الزهد هل هو ممكن في هذه الأزمنة أم لا؟  
فقال أبو حفص: «الزُّهْدُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْحَلَالِ، وَلَا حَلَالَ فِي الدُّنْيَا فَلَا زُهْدًا».  
وخالفه الناس في هذا، وقالوا: بل الحلال موجود فيهما، وفيها الحرام كثيرًا، وعلى تقدير ألا يكون فيها الحلال، فهذا ادعى إلى الزهد فيها، وتناول ما يتناوله المضطر منها، كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير.

وقال يوسف بن أسباط: «لَوْ بَلَغَنِي أَنْ رَجُلًا بَلَغَ فِي الزُّهْدِ مَنَزَلَةَ أَبِي ذَرٍّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَسَلْمَانَ وَالْمِقْدَادِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم مَا قُلْتُ لَهُ: زَاهِدْ؛ لِأَنَّ الزُّهْدَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْحَلَالِ الْمَحْضِ، وَالْحَلَالَ الْمَحْضُ لَا يُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هَذَا، وَأَمَّا الْحَرَامُ فَإِنْ ارْتَكَبْتَهُ عَذَّبَكَ اللَّهُ عز وجل». ثم اختلف هؤلاء في متعلّق الزهد.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الزُّهْدُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْحَلَالِ؛ لِأَنَّ تَرْكَ الْحَرَامِ فَرِيضَةٌ.  
وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلِ الزُّهْدُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْحَرَامِ، وَأَمَّا الْحَلَالُ فَنِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ،

(١) في «ع» والمنار: (الليث بن سعد وسفيان).

(٢) تمندل به: أي: تمسح به كما يتمسح بالمنديل.

(٣) أخرجه ابن ماجه في «سننه» برقم (٤١٠٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد: أن تكون بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك». ولكن قال الألباني عن هذا الحديث: ضعيف جدًا. انظر: «ضعيف سنن ابن ماجه» (٨٩٣).

وَاللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَتْرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ؛ فَشَكَرُهُ عَلَى نِعْمِهِ، وَالْإِسْتِعَانَةَ بِهَا عَلَى طَاعَتِهِ، وَاتَّخَذَهَا طَرِيقًا إِلَى جَنَّتِهِ أَفْضَلَ مِنَ الزُّهْدِ فِيهَا، وَالتَّخْلِي عَنْهَا، وَمُجَانِبَةَ أَسْبَابِهَا.  
وَالْتَحْقِيقُ: أَنَّهَا إِنْ شَعَلَتْهُ عَنِ اللَّهِ فَالزُّهْدُ فِيهَا أَفْضَلُ، وَإِنْ لَمْ تَشْغَلْهُ عَنِ اللَّهِ، بَلْ كَانَ شَاكِرًا لِلَّهِ فِيهَا، فَحَالُهُ أَفْضَلُ، وَالزُّهْدُ فِيهَا تَجْرِيدُ الْقَلْبِ عَنِ التَّعَلُّقِ بِهَا، وَالطُّمَأْنِينَةَ إِلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

## فصل

□ قَالَ صَاحِبُ «الْمَنَازِلِ»: «الزُّهْدُ هُوَ إِسْقَاطُ الرَّغْبَةِ عَنِ الشَّيْءِ بِالْكُلِّيَّةِ».

يريد بالشَّيء المزهود فيه: ما سوى الله.

والإسقاط عنه: إزالته عن القلب وإسقاط تعلق الرِّغبة به.

وقوله: «بِالْكُلِّيَّةِ»؛ أَي بَحِيثُ لَا يَلْتَمِزُ إِلَيْهِ، وَلَا يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ.

□ قَالَ: «وَهُوَ لِلْعَامَّةِ قُرْبَةٌ، وَلِلْمُرِيدِ ضَرُورَةٌ، وَلِلْخَاصَّةِ خَشْيَةٌ».

يعني: أَنَّ الْعَامَّةَ تَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ، وَالْقُرْبَةُ: مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْمَتَقَرَّبُ إِلَى مَحْبُوبِهِ.

وهو ضرورة للمريد؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُ التَّخْلِيُّ بِمَا هُوَ بِصَدَدِهِ، إِلَّا بِإِسْقَاطِ الرَّغْبَةِ فِيهَا مَا سِوَى

مطلوبه؛ فَهُوَ مُضْطَرٌّ إِلَى الزُّهْدِ، كضروورته إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ إِذِ التَّعَلُّقُ (١) بِسِوَى مَطْلُوبِهِ لَا يَعدَمُ

منه حجابًا، أَوْ وَقْفَةً، أَوْ نَكْسَةً، عَلَى حَسَبِ بَعْدِ ذَلِكَ الشَّيْءِ مِنْ مَطْلُوبِهِ، وَقُوَّةِ تَعَلُّقِهِ بِهِ وَضعفه.

وَإِنَّمَا كَانَ خَشْيَةً لِلْخَاصَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَخَافُونَ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْقُرْبِ وَالْأُنْسِ بِاللَّهِ، وَقَرَّةِ

عيونهم بِهِ أَنْ يَتَكَدَّرَ عَلَيْهِمْ صَفْوُهُ بِالتَّفَاتِهِمْ إِلَى مَا سِوَى اللَّهِ، فَزَهَدَهُمْ خَشْيَةً وَخَوْفًا.

□ قَالَ: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الزُّهْدُ فِي الشُّبْهَةِ، بَعْدَ تَرْكِ الْحَرَامِ بِالْحَدَرِ مِنَ الْمُعْتَبَةِ، وَالْأَنْفَةِ مِنَ

الْمُنْقَصَةِ، وَكَرَاهَةِ مُشَارَكَةِ الْفُسَاقِ».

أَمَّا الزُّهْدُ فِي الشُّبْهَةِ: فَهُوَ تَرْكُ مَا يَشْتَبِهُ عَلَى الْعَبْدِ هَلْ هُوَ حَلَالٌ، أَوْ حَرَامٌ؟ كَمَا فِي حَدِيثِ

النعمان بن بشير رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «الْحَلَالُ بَيْنَ، وَالْحَرَامُ بَيْنَ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ

(١) فِي «ع»: (إِذَا تَعَلَّقَ).

كثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اتَّقَى الْحَرَامَ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»<sup>(١)</sup>.

فالشُّبُهَاتُ بَرَزْخٌ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ ﷻ بَيْنَ كُلِّ مَتَابِينِ بَرَزْخًا، كَمَا جَعَلَ الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ بَرَزْخًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَعَلَ الْمَعَاصِيَ بَرَزْخًا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَجَعَلَ الْأَعْرَافَ بَرَزْخًا بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وكَذَلِكَ جَعَلَ بَيْنَ كُلِّ مَشْعَرَيْنِ مِنْ مَشَاعِرِ الْمَنَاسِكِ بَرَزْخًا حَاجِزًا بَيْنَهُمَا لَيْسَ مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا، فَمَحْسَرٌ بَرَزْخٌ بَيْنَ مَتَى وَمَزْدَلِفَةَ، لَيْسَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، فَلَا يَبِيتُ بِهِ الْحَاجُّ لَيْلَةَ جَمْعٍ، وَلَا لِيَالِي مَتَى، وَبَطْنَ عُرْنَةَ بَرَزْخٌ بَيْنَ عَرَفَةَ وَبَيْنَ الْحَرَمِ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَرَمِ وَلَا مِنْ عَرَفَةَ، وَكَذَلِكَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ بَرَزْخٌ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَيْسَ مِنَ اللَّيْلِ لِتَصَرُّمِهِ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَلَا مِنَ النَّهَارِ لِأَنَّهُ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَإِنْ دَخَلَ فِي اسْمِ الْيَوْمِ شَرْعًا.

وَكَذَلِكَ مَنَازِلُ السَّيْرِ بَيْنَ كُلِّ مَنَزَلَتَيْنِ بَرَزْخٌ يَعْرِفُهُ السَّائِرُ فِي تِلْكَ الْمَنَازِلِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْوَارِدَاتِ تَكُونُ بَرَازِخَ، فَيُظَنُّهَا صَاحِبُهَا غَايَةً، وَهَذَا لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْهُ إِلَّا فَهَاءُ الطَّرِيقِ، وَالْعُلَمَاءُ هُمُ الْأَدَلَّةُ فِيهَا.

وَقَوْلُهُ: «بَعْدَ تَرْكِ الْحَرَامِ»؛ أَي: تَرَكَ الشُّبُهَةَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ تَرْكِ الْحَرَامِ.  
وَقَوْلُهُ: «بِالْحَدَرِ مِنَ الْمُعْتَبَةِ». يَعْنِي: أَنْ يَكُونَ سَبَبُ تَرْكِهِ لِلشُّبُهَةِ الْحَذَرُ مِنْ تَوَجُّهِ عَتَبِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: «وَالْأَنْفَةَ مِنَ الْمُنْقَصَةِ»؛ أَي: يَأْنِفُ لِنَفْسِهِ مِنْ نَقْصِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَسُقُوطُهُ مِنْ عَيْنِيهِ، لَا أَنْفَتَهُ مِنْ نَقْصِهِ عِنْدَ النَّاسِ، وَسُقُوطُهُ مِنْ أَعْيُنِهِمْ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَيْسَ مَذْمُومًا، بَلْ هُوَ مَحْمُودٌ أَيْضًا، وَلَكِنَّ الْمَذْمُومَ أَنْ تَكُونَ أَنْفَتُهُ كُلُّهَا مِنَ النَّاسِ، وَلَا يَأْنِفُ مِنَ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: «وَكَرَاهَةَ مُشَارَكَةِ الْفُسَّاقِ»؛ يَعْنِي: أَنَّ الْفُسَّاقَ يَزِدْحَمُونَ عَلَى مَوَاضِعِ الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَلِتِلْكَ الْمَوَاقِفِ بِهِمْ كَظِيظٌ مِنَ الزَّحَامِ، فَالزَّاهِدُ يَأْنِفُ مِنْ مَشَارَكَتِهِمْ فِي تِلْكَ الْمَوَاقِفِ، وَيَرْفَعُ نَفْسَهُ عَنْهَا؛ لِحَسَنَةِ شُرَكَائِهِ فِيهَا.

(١) البخاري في الإيمان، باب: من استبرأ لدينه (٥٢) (٢٠٥١)، ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

كما قيل لبعضهم: «مَا الَّذِي رَهَدَكَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: قَلَّةٌ وَفَائِئُهَا، وَكَثْرَةُ جَفَائِهَا، وَخِسَّةُ شُرَكَائِهَا».

إِذَا لَمْ أَتْرُكِ الْمَاءَ أَنْقَاءً      تَرَكْتُ لِكَثْرَةِ الشُّرَكَاءِ فِيهِ  
إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ عَلَى طَعَامٍ      رَفَعْتُ يَدَيَّ وَنَفْسِي تَشْتَهِيهِ  
وَتَجَنَّبُ الْأَسْوَدَ وَرُودَ مَاءٍ      إِذَا كَانَ الْكِلَابُ يَلْعَنُ فِيهِ

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الزُّهْدُ فِي الْفُضُولِ، وَهُوَ مَا زَادَ عَلَى الْمُسْكَةِ وَالْبَلَاحِ مِنَ الْقُوَّةِ، بِاِغْتِنَامِ التَّفَرُّغِ إِلَى عِمَارَةِ الْوَقْتِ، وَحَسْمِ الْجَأَشِ، وَالتَّحَلِّيِ بِحِلْيَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ».

الفضول: ما يفضل عن قدر الحاجة.

والمسكة: ما يمسك النفس من القوت والشَّراب، واللِّباس والمسكن، والمنكح إذا احتاج إليه. والبلاغ: هو البلغة من ذلك، (الَّذِي يَتَبَلَّغُ بِهِ الْمَسَافِرُ فِي مَنَازِلِ السَّفَرِ)<sup>(١)</sup>، فيزهد فيما وراء ذلك، اغتنامًا لتفرُّغه لعمارة وقته.

ولمَّا كَانَ الزُّهْدُ لِأَهْلِ الدَّرَجَةِ الْأُولَى خَوْفًا مِنَ الْمَعْتَبَةِ، وَحَذَرًا مِنَ الْمُنْقَصَةِ كَانَ الزُّهْدُ لِأَهْلِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ أَعْلَى وَأَرْفَعُ؛ وَهُوَ اِغْتِنَامُ الْفِرَاقِ لِعِمَارَةِ أَوْقَاتِهِمْ مَعَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ بِفُضُولِ الدُّنْيَا فَاتَهُ نَصِيْبُهُ مِنْ اِنتِهَازِ فِرْصَةِ الْوَقْتِ؛ فَالْوَقْتُ سَيْفٌ إِنْ لَمْ تَقْطَعْهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ!

وعِمَارَةُ الْوَقْتِ: الْاِشْتَغَالُ فِي جَمِيعِ أَنْأَتِهِ بِمَا يَقْرَّبُ إِلَى اللَّهِ، أَوْ يَعِينُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ مَأْكَلٍ أَوْ مَشْرَبٍ، أَوْ مِنْكُحٍ، أَوْ مَنَامٍ، أَوْ رَاحَةٍ؛ فَإِنَّهُ مَتَى أَخَذَهَا بِنِيَّةِ الْقُوَّةِ عَلَى مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ، وَتَجَنَّبَ مَا يَسْخَطُهُ كَانَتْ مِنْ عِمَارَةِ الْوَقْتِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ فِيهَا أْتَمُّ لَذَّةٍ فَلَا تَحْسَبُ عِمَارَةَ الْوَقْتِ بِهَجْرِ اللَّذَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ.

فَالْمَحَبُّ الصَّادِقُ رَبِّمَا كَانَ سِيرَهُ الْقَلْبِيُّ فِي حَالِ أَكْلِهِ وَشَرْبِهِ، وَجَمَاعِ أَهْلِهِ وَرَاحَتِهِ، أَقْوَى مِنْ سِيرِهِ الْبَدْنِيِّ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

وقد حكى عن بعضهم أَنَّهُ كَانَ يَرِدُ عَلَيْهِ - وَهُوَ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِهِ - حَالٌ لَا يَعْبُدُهَا فِي غَيْرِهَا.

ولهذا سببٌ صحيحٌ؛ وَهُوَ اجْتِمَاعُ قُوَى النَّفْسِ وَعَدَمُ التَّفَاتُحِ حِينَئِذٍ إِلَى شَيْءٍ، مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ، وَالسُّرُورُ يَذْكَرُ بِالسُّرُورِ، وَاللَّذَّةُ تَذْكَرُ بِاللَّذَّةِ، فَتَنْهَضُ الرُّوحُ مِنْ تِلْكَ الْفَرَحَةِ وَاللَّذَّةِ إِلَى مَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا بِتِلْكَ الْجَمْعِيَّةِ، وَالْقُوَّةُ وَالنَّشَاطُ، وَقَطْعُ أَسْبَابِ الْاِلْتِفَاتِ، فَيُورِثُهُ ذَلِكَ حَالًا عَجِيبَةً.

(١) في «غ» والمنار: (الَّذِي يَتَبَلَّغُ بِهِ فِي مَنَازِلِ السَّفَرِ كَذَا الْمَسَافِرُ).

ولا تعجل بالإنكار، وانظر إلى قلبك عند هجوم أعظم محبوبٍ له عليه في هذه الحال، كيف تراه؟ فهكذا حال غيرك.

ولا ريب أنَّ النَّفْسَ إذا نالت حظًّا صالحًا من الدُّنيا قويت به وسَّرت، واستجمعت قواها وجمعيتها، وزال تشبُّتها.

اللَّهْمَّ اغفر؛ فقد طغى القلم، وزاد الكلم، فعيادًا بك اللَّهُمَّ من مقتك!  
وأما «حَسْمُ الْجَأْسِ»: فهو قطع اضطراب القلب، المتعلِّق بأسباب الدُّنيا، رغبةً ورهبةً، وحبًّا وبغضًا، وسعيًا، فلا يصحُّ الزُّهد للعبد حتَّى يقطع هذا الاضطراب من قلبه؛ بألَّا يلتفت إليها، ولا يتعلَّق بها في حالتي مباشرته لها وتركه؛ فإنَّ الزُّهد زهد القلب، لا زهد التُّرك من اليد وسائر الأعضاء؛ فهو تخليُّ القلب عنها، لا خلوُّ اليد منها.

وأما «التَّحَلِّي بِحُلِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّادِقِينَ»: فإنَّهم أهل الزُّهد في الدُّنيا حقًّا؛ إذ هم مشمرون إلى علمٍ قد رفع لهم غيرها؛ فهم زاهدون، وإن كانوا لها مباشرين.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: الزُّهُدُ فِي الزُّهُدِ، وَهُوَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: اسْتِحْقَارُ مَا زَهَدْتَ فِيهِ، وَاسْتِوَاءُ الْحَالَاتِ فِيهِ عِنْدَكَ، وَالذَّهَابُ عَنْ<sup>(١)</sup> شَهْوَدِ الْأَكْتِسَابِ، نَاطِرًا إِلَى وَادِي الْحَقَائِقِ.»

وقد فسَّر الشَّيْخُ مراده بالزُّهد في الزُّهد بثلاثة أشياء:

أحدها: احتقاره ما زهد فيه؛ فإنَّ من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أنَّ ما تركه لأجله من الدُّنيا يستحقُّ أن يجعل قربانًا؛ لأنَّ الدُّنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة؛ فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمرٍ يعتدُّ به ويحتفل له، فيستحي من صحَّ له الزُّهد أن يجعل لما تركه لله قدرًا يلاحظ زهده فيه، بل يفنى عن زهده فيه كما فني عنه، ويستحي من ذكره بلسانه، وشهوده بقلبه.

وأما «استِوَاءُ الْحَالَاتِ فِيهِ عِنْدَهُ»: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه متساويين عنده؛ إذ ليس له عنده قدرٌ، وهذا من دقائق فقه الزُّهد، فيكون زاهدًا في حال أخذه، كما هو زاهدٌ في حال تركه؛ إذ همته

(١) في «غ» والمنار: (عند).

أعلى من ملاحظته أخذًا وتركًا، لصغره في عينه.  
وأما «الذَّهَابُ عَنْ شُهُودِ الْإِكْتِسَابِ» فمعناه: أن من استصغر الدُّنيا بقلبه، واستوت الحالات في أخذها وتركها عنده لم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجةً ألبته؛ لأنها أصغر في عينه من أن يرى أنه اكتسب بتركها الدرجات.

وفيه معنى آخر: وهو أن يشاهد تفرد الله ﷻ بالعطاء والمنع؛ فلا يرى أنه ترك شيئًا ولا أخذ شيئًا، بل الله وحده هو المعطي المانع، فما أخذه فهو مجرئ لعطاء الله إياه، كمجرئ الماء في النهر، وما تركه الله فالله ﷻ هو الذي منعه منه، فيذهب بمشاهدة الفعل وحده عن شهود كسبه وتركه؛ فإذا نظر إلى الأشياء بعين الجمع، وسلك في وادي الحقيقة، غاب عن شهود اكتسابه، وهو معنى قوله: «نَاطِرًا إِلَى وَادِي الْحَقَائِقِ»، وهذا أليق المعنيين بكلامه، فهذا زهد الخاصّة، قال الشاعر:

إِذَا زَهَدْتَنِي فِي الْهُوَى حَشِيَّةَ الرَّدَى جَلَّتْ لِي عَنْ وَجْهِ يُزْهَدُ فِي الرَّهْدِ

## فصل

### [منزلة الورع]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَبَهُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ منزلة الورع.  
قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَيَأْتِيكَ فَطَهْرٌ﴾ [المدثر: ٤].

قال قتادة ومجاهد: «نَفْسُكَ فَطَهْرٌ مِنَ الذَّنْبِ، فَكُنِّي عَنِ النَّفْسِ بِالثُّوبِ». وهذا قول إبراهيم النخعي<sup>(١)</sup> والصَّحَّاحِ، والشَّعْبِيِّ، والزُّهْرِيِّ، والمحققين من أهل التفسير.

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لَا تَلْبَسْهَا عَلَى مَعْصِيَةٍ وَلَا عَدْرٍ».

ثم قال: «أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ عَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ الثَّقَفِيِّ:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا ثُوبَ عَادِرٍ لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ».

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب.

(١) كلمة: (النخعي) غير موجودة في «غ» والمنار.



وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب.

وقال أبي بن كعب: «لَا تَلْبَسْهَا عَلَى الْغَدْرِ، وَالظُّلْمِ وَالْإِثْمِ، وَلَكِنْ ائْسِمْهَا وَأَنْتَ بَرٌّ طَاهِرٌ».

وقال الضَّحَّاكُ: «عَمَلَكُ فَأَصْلِحْ».

قال السُّدِّيُّ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ صَالِحًا: إِنَّهُ لَطَاهِرُ الثِّيَابِ، وَإِذَا كَانَ فَاجِرًا: إِنَّهُ لَخَبِيثُ

الثِّيَابِ».

وقال سعيد بن جبيرة: «وَقَلْبَكَ وَبَيْتَكَ فَطَهَّرْ».

وقال الحسن والقرظي: «وَحُلُقُكَ فَحَسِّنْ».

وقال ابن سيرين وابن زيد: «أَمَرَ بِتَطْهِيرِ الثِّيَابِ مِنَ النَّجَاسَاتِ الَّتِي لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ مَعَهَا؛ لِأَنَّ

الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يَتَطَهَّرُونَ، وَلَا يُطَهَّرُونَ ثِيَابَهُمْ».

وقال طاووس: «وَيْبَاكَ فَاقْصِرْ؛ لِأَنَّ تَقْصِيرَ الثِّيَابِ طَهْرَةٌ لَهَا».

والقول الأول أصحُّ الأقوال.

ولا ريب أن تطهيرها من النَّجَاسَاتِ وتقصيرها من جملة التَّطْهِيرِ الْمَأْمُورِ بِهِ، إذ به تمام إصلاح

الأعمال والأخلاق؛ لِأَنَّ نَجَاسَةَ الظَّاهِرِ تُوْرَثُ نَجَاسَةَ الْبَاطِنِ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ الْقَائِمُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ ﷻ

بِإِزَالَتِهَا وَبِالْبَعْدِ عَنْهَا.

والمقصود: أن الورع يطهّر دنس القلب ونجاسته كما يطهّر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين

الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة؛ ولذلك تدلُّ ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثر كلُّ

منهما في الآخر؛ ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة

المنافية للعبودية والخشوع.

وتأثير القلب والنفس في الثياب أمرٌ خفيٌّ يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودينسها ورائحتها،

وبهجتها وكسفتها، حتّى إن ثوب البرِّ ليعرف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كلّهُ في كلمةٍ واحدةٍ، فقال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا

يَعْنِيهِ»<sup>(١)</sup>. فهذا يعمُّ التَّركَ لما لا يعني من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشى، والفكر،

وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية<sup>(٢)</sup> شافية في الورع.

(١) رواه الترمذي في الزهد، باب (١١)، وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٦)، وصححه الألباني في

«صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٢١١).

(٢) كلمة: (كافية) غير موجودة في «غ» والمنار.

- قال إبراهيم بن أدهم: «الْوَرَعُ تَرْكُ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِيكَ هُوَ تَرْكُ الْفَضَلَاتِ».
- وفي الترمذي مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ» (١).
- قال الشُّبَلِيُّ: «الْوَرَعُ أَنْ يَتَوَرَعَ عَنْ كُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ».
- وقال إسحاق بن خلف: «الْوَرَعُ فِي الْمَنْطِقِ أَشَدُّ مِنْهُ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالزُّهْدُ فِي الرِّيَاسَةِ أَشَدُّ مِنْهُ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ؛ لِأَنَّهُمَا يُبَدَّلَانِ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ».
- وقال أبو سليمان الدَّارَانِيُّ: «الْوَرَعُ أَوَّلُ الزُّهْدِ، كَمَا أَنَّ الْقِتَاعَةَ أَوَّلُ الرِّضَا».
- وقال يحيى بن معاذٍ: «الْوَرَعُ: الْوُقُوفُ عَلَى حَدِّ الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ».
- وقال: «الْوَرَعُ عَلَى وَجْهَيْنِ: وَرَعٌ فِي الظَّاهِرِ، وَوَرَعٌ فِي الْبَاطِنِ، فَوَرَعُ الظَّاهِرِ أَلَّا يَتَحَرَّكَ إِلَّا لِلَّهِ، وَوَرَعُ الْبَاطِنِ هُوَ أَلَّا تُدْخَلَ قَلْبَكَ سِوَاهُ».
- وقال: «مَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي الدَّقِيقِ مِنَ الْوَرَعِ لَمْ يَصِلْ إِلَى الْجَلِيلِ مِنَ الْعَطَاءِ».
- وقيل: الورع الخروج من الشهوات، وترك السيئات.
- وقيل: من دق في الدنيا ورعه - أو نظره - جل في القيامة خطره.
- وقال يونس بن عبيدٍ: «الْوَرَعُ الْخُرُوجُ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ».
- وقال سفيان الثَّوْرِيُّ: «مَا رَأَيْتُ أَسهَلَ مِنَ الْوَرَعِ، مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ فَاتْرُكْهُ».
- وقال سهلٌ: «الْحَلَالُ هُوَ الَّذِي لَا يُعْصَى اللَّهُ فِيهِ، وَالصَّافِي مِنْهُ الَّذِي لَا يُنْسَى اللَّهُ فِيهِ».
- وسأل الحسن غلاماً، فقال له: «مَا مِلَاكُ الدِّينِ؟ قَالَ: الْوَرَعُ. قَالَ: فَمَا أَفْتُهُ؟ قَالَ: الطَّمَعُ. فَعَجِبَ الْحَسَنُ مِنْهُ».
- وقال الحسن: «مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْوَرَعِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ مِثْقَالٍ مِنَ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ».
- وقال أبو هريرة: «جُلَسَاءُ اللَّهِ عَدَا أَهْلُ الْوَرَعِ وَالزُّهْدِ».
- وقال بعض السلف: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَدَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ».
- وقال بعض الصحابة: «كُنَّا نَدْعُ سَبْعِينَ أَبَا مِنَ الْحَلَالِ مَخَافَةَ أَنْ نَقَعَ فِي بَابٍ مِنَ الْحَرَامِ».

(١) رواه ابن ماجه في الزهد، باب: الورع والتقوى (٤٢١٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (٣٣٩٨).

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الْوَرَعُ تَوَقُّعٌ مُسْتَقْصَى عَلَى حَدَرٍ، وَتَحَرُّجٌ (١) عَلَى تَعْظِيمٍ».

يعني: أن يتوقَّى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقِّي؛ لأنَّ التوقِّي والحذر متقاربان، إلَّا أنَّ التوقِّي فعل الجوارح، والحذر فعل القلب، فقد يتوقَّى العبد الشيء لا على وجه الحذر والخوف، ولكن لأمرٍ أخرى من إظهار نزاهة، وعزَّة وتصوُّف، أو اعتراضٍ آخر، كتوقِّي الَّذِينَ لا يؤمنون بمعادٍ، ولا جنَّةٍ ولا نارٍ ما يتوقَّونه من الفواحش والدنائة، تصوُّناً عنها، ورغبةً بنفوسهم عن مواقعتها، وطلباً للمحمدة، ونحو ذلك.

وقوله: «أَوْ تَحَرُّجٌ عَلَى تَعْظِيمٍ»؛ يعني: أنَّ الباعث على الورع عن المحارم والشبه إمَّا حذر حلول الوعيد، وإمَّا تعظيم الرَّبِّ ﷻ، وإجلالاً له أن يتعرَّض لما نهى عنه.

فالورع عن المعصية: إمَّا تخوُّفٌ، أو تعظيمٌ، واكتفى بذكر التَّعْظِيمِ عن ذكر الحبِّ الباعث على ترك معصية المحبوب؛ لأنَّه لا يكون إلَّا مع تعظيمه، وإلَّا فلو خلا القلب من تعظيمه لم تستلزم محبَّته ترك مخالفته؛ كمحبَّة الإنسان ولده وعبده وأمه، فإذا قارنه التَّعْظِيمِ أوجب ترك المخالفة.

□ قال: «وَهُوَ آخِرُ مَقَامِ الزُّهْدِ لِلْعَامَّةِ، وَأَوَّلُ مَقَامِ الزُّهْدِ لِلْمُرِيدِ».

يعني: أنَّ هذا التوقِّي والتَّحَرُّج - بوصف الحذر والتَّعْظِيمِ - هو نهاية زهد العامَّة، وبداية زهد المرید، وإمَّا كان كذلك لأنَّ الورع - كما تقدَّم - هو أوَّلُ الزُّهْدِ وركنه، وزهد المرید فوق زهد العامَّة، ونهاية العامَّة هي بداية المرید، فنهاية مقام هذا هي بداية مقام هذا، فإذا انتهى ورع العامَّة صار زهداً، وهو أوَّلُ ورع المرید.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: تَجَنُّبُ الْقَبَائِحِ لِصَوْنِ النَّفْسِ، وَتَوْفِيرُ الْحَسَنَاتِ، وَصِيَانَةُ الْإِيمَانِ».

هذه ثلاث فوائد من فوائد تجنُّب القبائح.

- إحداها: صون النَّفْسِ: وهو حفظها وحمايتها عمَّا يشينها، ويعيبها ويزري بها عند الله ﷻ.

(١) في «غ» والمنار: (أو تحرج).

وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه؛ فَإِنَّ مَنْ كَرَّمَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهُ وَكَبَّرَتْ عِنْدَهُ صَانَهَا وَحَمَاهَا، وَزَكَّاهَا، وَعَلَّاهَا، وَوَضَعَهَا فِي أَعْلَى الْمَحَالِّ، وَزَاحَمَ بِهَا أَهْلَ الْعِزَائِمِ وَالْكَمَالَاتِ، وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَصَغُرَتْ عِنْدَهُ أَلْفَاهَا فِي الرَّذَائِلِ، وَأَطْلَقَ شَنَاقَهَا<sup>(١)</sup>، وَحَلَّ زَمَامَهَا، وَأَرَخَاهَا، وَدَسَّاهَا، وَلَمْ يَصْنَعْهَا عَنْ قَبِيحٍ، فَأَقْلُّ مَا فِي تَجَنُّبِ الْقَبَائِحِ صَوْنُ النَّفْسِ.

وَأَمَّا تَوْفِيرُ الْحَسَنَاتِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

- أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات، فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعداً لتحصيلها.

- والثاني: توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدّم في منزلة التوبة أَنَّ السَّيِّئَاتِ قَدْ تَحْبَطُ الْحَسَنَاتِ، وَقَدْ تَسْتَعْرِقُهَا بِالْكَلْبَةِ أَوْ تَنْقُصُهَا، فَلَا بَدَّ أَنْ تَضَعُهَا قِطْعًا، فَتَجْنُبُهَا يَوْفُرُ<sup>(٢)</sup> ديوان الحسنات، وذلك بمنزلة مَنْ لَهُ مَالٌ حَاصِلٌ، فَإِذَا اسْتَدَانَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ يَسْتَعْرِقَهُ الدَّيْنُ أَوْ يَكْثُرُهُ أَوْ يَنْقُصُهُ، فَهَكَذَا الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ سَوَاءٌ.

وَأَمَّا «صِيَانَةُ الْإِيمَانِ»: فَلَأَنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ السُّنَّةِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَقَدْ حَكَاهُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَإِضْعَافُ الْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالذُّوقِ وَالْوُجُودِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ -: «إِذَا أَذْنَبَ نُكِبَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ فَأَذْنَبَ نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ أُخْرَى، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [المطففين: ١٤]»<sup>(٣)</sup>.

فالقبايح تسود القلب، وتطفئ نوره، والإيمان هو نورٌ في القلب، والقبايح تذهب به أو تقلله قطعاً، فالحسنات تزيد نور القلب، والسيئات تطفئ نور القلب.

وقد أخبر الله ﷻ أَنَّ كَسْبَ الْقُلُوبِ سَبَبٌ لِلرَّانِ الَّذِي يَعْلُوهَا.

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَرَكَسَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا كَسَبُوا؛ فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ أَرَكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨].

وَأَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى عِبَادِهِ سَبَبٌ لِنَقْصِ الْقَلْبِ؛ فَقَالَ: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ

لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٣].

فجعل ذنب النقص موجبا لهذه الآثار من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

(١) يقال: شق رأس الفرس: شده إلى شجرة أو وتد مرتفع.

(٢) في «غ» والمنار: (توفير).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٤٤)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٤٢٢).

فالمعاصي للإيمان كالمرض والحمى للقوة سواء، بسواء.  
ولذلك قال السلف: «الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْحُمَّى بَرِيدُ الْمَوْتِ».  
فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.  
وهذه الأمور الثلاثة - وهي صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان - هي أرفع من  
باعث العامة على الورع؛ لأن صاحبها أرفع همّة؛ لأنه عامل على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها  
للوصول إلى ربّها؛ فهو يصونها عمّا يشينها عنده، ويحجبها عنه، ويصون حسناته عمّا يسقطها  
ويضعها؛ لأنه يسير بها إلى ربّه، ويطلب بها رضاه، ويصون إيمانه برّبّه من حبه له، وتوحيده، ومعرفته  
به، ومراقبته إيّاه عمّا يطفئ نوره، ويذهب بهجته، ويوهن قوّته.

□ قال الشيخ: «وَهَذِهِ الثَّلَاثُ الصِّفَاتِ: هِيَ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى مِنْ وَرَعِ الْمُرِيدِينَ».  
يعني أن للمريدين درجتين آخرين من الورع فوق هذه.  
□ ثمّ ذكرهما فقال:

«الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: حِفْظُ الْحُدُودِ عِنْدَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ: إِبْقَاءُ عَلَى الصِّيَانَةِ وَالتَّقْوَى،  
وَصُعُودًا عَنِ الدَّنَاءَةِ، وَتَخَلُّصًا عَنِ اقْتِحَامِ الْحُدُودِ».

يقول: إن من صعد عن الدرجة الأولى إلى هذه الدرجة من الورع يترك كثيرًا ممّا لا بأس به من  
المباح؛ إبقاء على صيانته، وخوفًا عليها أن يتكدر صفوها، ويطفأ نورها؛ فإن كثيرًا من المباح يكدر  
صفو الصيانة، ويذهب بهجتها، ويطفئ نورها، ويخلق حسنها وبهجتها.  
وقال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في شيء من المباح: «هَذَا يُنَافِي الْمَرَاتِبَ  
الْعَالِيَةَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَرْكُهُ شَرْطًا فِي النِّجَاةِ». أو نحو هذا من الكلام.  
فالعارف يترك كثيرًا من المباح إبقاء على صيانته، ولاسيما إذا كان ذلك المباح برزخًا بين  
الحلال والحرام، فإن بينهما برزخًا كما تقدّم، فتركه لصاحب هذه الدرجة<sup>(١)</sup> كالمتعين الذي لا بدّ منه  
لمنافاته لدرجته.

والفرق بين صاحب الدرجة الأولى وصاحب هذه: أن ذلك يسعى في تحصيل الصيانة، وهذا  
يسعى في حفظ صفوها أن يتكدر، ونورها أن يطفأ ويذهب، وهو معنى قوله: «إِبْقَاءُ عَلَى الصِّيَانَةِ».  
وَأَمَّا الصُّعُودُ عَنِ الدَّنَاءَةِ: فهو الرِّفْعُ عَنِ طَرَقَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا.  
وَأَمَّا التَّخَلُّصُ عَنِ اقْتِحَامِ الْحُدُودِ: فالحدود هي النهايات، وهي مقاطع الحلال والحرام،

(١) في «غ»: (فتركه لصاحب هذا الدرجة أولى).

فحيث ينقطع وينتهي فذلك حدُّه، فمن اقتحمه وقع في المعصية، وقد نهى الله تعالى عن تعدّي حدوده وقربانه. فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ فإنَّ الحدود يراد بها أواخر الحلال؛ وحيث نهى عن القربان فالحدود هناك أوائل الحرام.

يقول سبحانه: لا تتعدوا ما أبحت لكم، ولا تقربوا ما حرّمت عليكم.

فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدّي هذه، وهو اقتحام الحدود.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: التَّوَرُّعُ عَنْ كُلِّ دَاعِيَةٍ تَدْعُو إِلَى شَتَاتِ الْوَقْتِ، وَالتَّعَلُّقِ

بِالتَّفَرُّقِ، وَعَارِضٍ يُعَارِضُ حَالَ الْجَمْعِ».

الفرق بين شتات الوقت والتعلق بالتفرق كالفرق بين السبب والمسبب، والنفي والإثبات؛ فإنه

يتشتت وقته، فلا يجد بداً من التعلق بما سوى مطلوبه الحق؛ إذ لا تعطيل في النفس ولا في الإرادة، فمن لم يكن الله مراده أراد ما سواه.

ومن لم يكن هو وحده معبوده عبد ما سواه، ومن لم يكن عمله لله فلا بد أن يعمل لغيره، وقد

تقدّم هذا.

فالمخلص يصونه الله بعبادته وحده، وإرادة وجهه وخشيته وحده، ورجائه وحده، والطلب منه،

والذلل له، والافتقار إليه وحده (١).

وإنما كان هذا أعلى من الدرجة الثانية؛ لأنَّ أربابها اشتغلوا بحفظ الصيانة من الكدر

وملاحظتها، وذلك عند أهل الدرجة الثالثة تفرُّق عن الحق، واشتغال عن مراقبته بحال نفوسهم، فأدب

أهل هذه أدب حضور، وأدب أولئك أدب غيبة.

وَأَمَّا «الْوَرَعُ عَنْ كُلِّ حَالٍ يُعَارِضُ حَالَ الْجَمْعِ».

فمعناه: أن يستغرق العبد شهود فئائه في التوحيد، وجمعيته على الله تعالى فيه عن كلِّ حالٍ

يعارض هذا الفناء والجمعيّة.

وهذا عند الشيخ لما كان هو الغاية التي ليس بعدها مطلبٌ جعل كلِّ حالٍ يعارضها ويقطع عنها

ناقصاً بالنسبة إليها، فالرغبة عنه غير ورع صاحبها، وقد عرفت ما فيه، وأنَّ فوق هذا مقاماً أرفع منه

وأعلى؛ وهو الورع عن كلِّ حظٍّ يزاحم مراده منك، ولو كان الحظُّ فناءً وجمعيّةً، أو كائناً ما كان.

(١) كلمة: (وحده) غير موجودة في «ع» والمنار.

وَبَيَّنَّا أَنَّ الْفَنَاءَ وَالْجَمْعِيَّةَ حِطُّ الْعَبْدِ، وَأَنَّ حَقَّ الرَّبِّ وَرَاءَ ذَلِكَ، وَهُوَ الْبَقَاءُ بِمُرَادِهِ فَرَقًا وَجَمْعًا بِهِ وَلَهُ.

وَعَلَى هَذَا؛ فَالْوَرَعُ الْخَاصُّ: الْوَرَعُ عَنْ كُلِّ حَالٍ يِعَارِضُ حَالَ الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ، وَالْبَقَاءُ بِهِ فَرَقًا وَجَمْعًا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

## فصل

الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل، وقوة الإيمان باللقاء ثمر الزهد، والمعرفة ثمر المحبة والخوف والرَّجَاءُ، والقناعة ثمر الرِّضَا، والذِّكْرُ يثمر حياة القلب، والإيمان بالقدر يثمر التَّوَكُّلَ، ودوام تأمُّل الأسماء والصفات يثمر المعرفة، والورع يثمر الزُّهْدَ أيضًا، والتَّوْبَةُ ثمر المحبة أيضًا، ودوام الذِّكْرُ يثمرها، والرِّضَا يثمر الشُّكْرَ، والعزيمة والصَّبْرُ يثمران جميع الأحوال والمقامات، والإخلاص والصدق كلُّ منهما يثمر الآخر ويقضيه، والمعرفة ثمر الخلق، والفكر يثمر العزيمة، والمراقبة ثمر عمارة الوقت، وحفظ الأيام، والحياء، والخشية والإنابة، وإماتة النَّفْسِ وإذلالها وكسرها يوجب حياة القلب وعزّه وجبره، ومعرفة النَّفْسِ ومقتها يوجب الحياء من الله بِحَبْرَتِكَ، واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطَّاعَاتِ، ومحو أثر الدَّعْوَى من القلب واللِّسَانِ، وصحَّة البصيرة ثمر اليقين، وحسن التَّأَمُّلِ لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة يثمر <sup>(١)</sup> صحَّة البصيرة.

وملاك ذلك كلُّه أمران:

- أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة.
  - ثمَّ تقبل به كلُّه على معاني القرآن واستجلائها وتدبُّرها، وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله، وأخذ <sup>(٢)</sup> نصيبك وحظُّك من كلِّ آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.
- فهذه طريقٌ مختصرةٌ قريبةٌ سهلةٌ، موصلةٌ إلى الرفيق الأعلى، آمنةٌ لا يلحق سالكها خوفٌ ولا عطبٌ، ولا جوعٌ ولا عطشٌ، ولا فيها آفةٌ من آفات سائر الطُّرُقِ ألبتَّةَ، وعليها من الله حارسٌ وحافظٌ يكلاً السَّالِكِينَ فيها ويحميهم، ويدفع عنهم، ولا يعرف قدر هذه الطُّرُقِ إلَّا من عرف طرق النَّاسِ وغوائلها وآفاتِها وقطَّاعها، والله المستعان.

(١) في «غ»: (ثمر).

(٢) في «غ»: (وأخذك).

## فصل [منزلة التبتل]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة التبتل.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

والتبتل: الانقطاع، وهو تفعلُّ من التبتل وهو القطع، وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، (وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها)<sup>(١)</sup>، ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً، وقطعت منهنَّ.

ومصدر «بتل»<sup>(٢)</sup> «تبتلاً»<sup>(٣)</sup> كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل - مصدر تفعل - لسرِّ لطيف؛ فإنَّ في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتعمُّل والتكثُّر والمبالغة، فأتى بالفعل الدالُّ على أحدهما، وبالمصدر الدالُّ على الآخر، فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً؛ ففهم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير في القرآن، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

□ قال صاحب «المنازل»: «التبتل: الانقطاع إلى الله بالكليَّة، وقوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤] أي: التجريدُ المحضُ».

ومراده بالتجريد المحض: التبتل عن ملاحظة الأعواض؛ بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلَّا لأجل الأجرة، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر، بخلاف العبد؛ فإنَّه يخدم بمقتضى عبوديته، لا للأجرة؛ فهو لا ينصرف عن (باب سيِّده)<sup>(٤)</sup> إلَّا إذا كان أبقاً، والابق قد خرج من شرف العبودية، ولم يحصل له إطلاق الحرِّيَّة، فصار بذلك مركوساً<sup>(٥)</sup> عند سيِّده وعند عبيده، وغاية شرف النَّفس دخولها تحت رِقِّ العبودية طوعاً واختياراً ومحبةً، لا كرهاً وقهراً، كما قيل:

شَرَفُ النَّفْسِ دُخُولُهَا فِي رِقِّهِمْ وَالْعَبْدُ يَحْوِي الْفَخْرَ بِالتَّمْلِيكِ

(١) في «غ» والمنار: (وعن نظراء نساء زمانها).

(٢) في «غ»: (تبتل إليه).

(٣) في «غ» والمنار: (تبتيلاً).

(٤) في «غ» والمنار: (بابه).

(٥) المركوس: المقلوب المنكوس.



والذي حَسَنَ استشهاده بقوله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ في هذا الموضع: إرادة هذا المعنى، وأنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، وإن لم يوجب لداعيه بها ثواباً، فإنه يستحقها لذاته، فهو أهل أن يعبد وحده، ويدعى وحده، ويقصد ويشكر ويحمد، ويحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويلجأ إليه، ويصمد إليه؛ فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا - معرفةً وذوقاً وحالاً - صحَّ له مقام التبتل، والتجريد المحض، وقد فسّر السلف دعوة الحق بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق، ومرادهم هذا المعنى.

فقال عليٌّ رضي الله عنه: «دَعْوَةُ الْحَقِّ: التَّوْحِيدُ».

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله، ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: تَجْرِيدُ الْإِنْقِطَاعِ عَنِ الْحُطُوظِ وَاللُّحُوظِ إِلَى الْعَالَمِ، خَوْفًا أَوْ رَجَاءً، أَوْ مُبَالَأَةً بِحَالٍ».

قلت: التبتل يجمع أمرين اتصالاً وانفصالاً، لا يصح إلا بهما.

- فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، خوفاً منه، أو رغبةً فيه، أو مبالأةً به، أو فكراً فيه، بحيث يشغل قلبه عن الله.

- والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال، وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حباً وخوفاً ورجاءً، وإنابةً وتوكلًا.

□ ثم ذكر الشيخ ما يعين على هذا التجريد، وبأي شيء يحصل، فقال: «يُحَسِّمُ

الرَّجَاءُ بِالرِّضَا، وَقَطْعُ الْخَوْفِ بِالتَّسْلِيمِ، وَرَفْضُ الْمُبَالَأَةِ بِشُهُودِ الْحَقِيقَةِ».

يقول: إن الذي يحسم مادة رجاء المخلوقين من قلبك هو الرضا بحكم الله عز وجل وقسمه لك؛

فمن رضي بحكم الله وقسمه لم يبق لرجاء الخلق في قلبه موضعٌ.

والذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله؛ فإن من سلم لله واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له - لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضعٌ أيضاً؛ فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها، وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها، وأن ما كتب لها لا بد أن يصيبها، فلا معنى للخوف من غير الله بوجهٍ.

وفي التسليم أيضاً فائدة لطيفة: وهي أنه إذا سلمها لله فقد أودعها عنده، وأحزها في حزره،

وجعلها تحت كنفه حيث لا تنالها<sup>(١)</sup> يد عُدُوِّ عادٍ، ولا بغيي باغٍ عاتٍ.

والذي يحسم مادّة المبالاة بالنّاس شهود الحقيقة، وهو رؤية الأشياء كلّها من الله، وباللّهِ، وفي قبضته، وتحت قهره<sup>(٢)</sup> وسلطانهِ، لا يتحرّك منها شيءٌ إلّا بحوله وقوّته، ولا ينفع ولا يضرُّ إلّا بإذنه ومشيئته؛ فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشّهود؟

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: تَجْرِيدُ الْإِنْقِطَاعِ عَنِ التَّعْرِيجِ عَلَى النَّفْسِ بِمُجَانِبَةِ الْهَوَى،

وَتَلَسُّمُ رُوحِ الْأَنْسِ، وَشَيْمُ بَرَقِ الْكُشْفِ».

الفرق بين هذه الدّرجة والتي قبلها: أنّ الأولى انقطاع عن الخلق، وهذه انقطاع عن النّفس،

وجعله بثلاثة أشياء:

﴿ أولها: مجانبة الهوى ومخالفته ونهي نفسه عنه: لأنّ أتباعه يصدُّ عن التّبتُّل.

﴿ وثانيها - وهو بعد مخالفة الهوى - : تنسّم روح الأنس باللّهِ: والرّوح للرّوح كالرّوح للبدن؛ فهو روحها وراحتها، وإنّما حصل له هذا الرّوح لَمّا أعرض عن هواه؛ فحينئذٍ تنسّم روح الأنس باللّهِ، ووجد رائحته؛ إذ النّفس لا بدّ لها من التّعلُّق، فلَمّا انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الأنس باللّهِ، وهبّت عليها نسماته؛ فريحتها<sup>(٣)</sup> وأحييتها.

﴿ وثالثها: شيم برق الكشف: وهو مطالعته واستشرفه، والنّظر إليه ليعلم به مواقع الغيث

ومساقط الرّحمة.

وليس مراده بالكشف هاهنا الكشف الجزئيّ السّفليّ، المشترك بين البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، كالكشف عن مخبّات النّاس ومستورهم، وإنّما هو الكشف عن ثلاثة أشياء، هنّ منتهى كشف الصّادقين أرباب البصائر:

- أحدها: الكشف عن منازل السّير.

- والثّاني: الكشف عن عيوب النّفس، وآفات الأعمال ومفسداتها.

- والثّالث: الكشف عن معاني الأسماء والصّفات، وحقائق التّوحيد والمعرفة.

وهذه الأبواب الثلاثة هي مجامع علوم القوم، وعليها يحومون، وحولها يدندنون، وإليها يشمّرون، فمنهم من جلّ كلامه ومعظمه في السّير وصفة المنازل، ومنهم من جلّ كلامه في الآفات والقواطع، ومنهم من جلّ كلامه في التّوحيد والمعرفة، وحقائق الأسماء والصّفات.

(١) في «غ» والمنار: (تناله).

(٢) في «غ» والمنار: (وتحت قهر سلطانه).

(٣) في «غ» والمنار: فرحتها).

وَالصَّادِقُ الدَّكِّيُّ يأخذ من كلِّ منهم ما عنده من الحقِّ، فيستعين به على مطلبه، ولا يرُدُّ ما يجده عنده من الحقِّ لتقصيره في الحقِّ الآخر، ويهدره به، فالكمال المطلق لله ربِّ العالمين، وما من العباد إلَّا له مقامٌ معلومٌ.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: تَجْرِيدُ الْإِنْقِطَاعِ إِلَى السَّبْقِ بِتَصْحِيحِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَالْإِسْتِغْرَاقِ فِي قَصْدِ الْوُصُولِ، وَالنَّظَرِ إِلَى أَوَائِلِ الْجَمْعِ».

لَمَّا جَعَلَ الدَّرَجَةَ الْأُولَى انْقِطَاعًا عَنِ الْخَلْقِ، وَالثَّانِيَةَ انْقِطَاعًا عَنِ النَّفْسِ جَعَلَ الثَّلَاثَةَ طَلَبًا لِلسَّبْقِ، وَجَعَلَهُ بِتَصْحِيحِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَهِيَ الْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَى الْحَقِّ، وَلِزُومِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالِاشْتِغَالِ بِمَحَابَّتِهِ.

ثُمَّ بِالِاسْتِغْرَاقِ فِي قَصْدِ الْوُصُولِ، وَهُوَ أَنْ يَشْغَلَهُ طَلَبُ الْوُصُولِ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ بِحَيْثُ يَسْتِغْرَقُ هُمُومَهُ وَعِزَائِمَهُ وَإِرَادَتَهُ وَأَوْقَاتَهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ بَدْوِّ بَرَقٍ (١) الْكَشْفِ الْمَذْكُورِ لَهُ. وَأَمَّا النَّظَرُ إِلَى أَوَائِلِ الْجَمْعِ: فَالْجَمْعُ هُوَ قِيَامُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ بِالْحَقِّ وَحْدَهُ، وَقِيَامُهُ عَلَيْهِمُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالتَّدْبِيرِ.

وَالنَّظَرُ إِلَى أَوَائِلِ ذَلِكَ: هُوَ (٢) الْإِلْتِفَاتُ إِلَى مَقْدَمَاتِهِ وَبَدَايَاتِهِ، وَهِيَ الْعُقْبَةُ الَّتِي يَنْحَدِرُ مِنْهَا عَلَى وَادِي الْفَنَاءِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهَا وَقْفَةٌ تَعْتَرِضُ الْقَاطِعَ لِأُودِيَةِ التَّفْرِقَةِ قَبْلَ وَصُولِهِ إِلَى الْجَمْعِ، وَمِنْهَا يَشْرَفُ عَلَيْهِ. وَهَذِهِ الْوَقْفَةُ تَعْتَرِضُ كُلَّ طَالِبٍ مُجَدِّدٍ فِي طَلَبِهِ، فَمِنْهَا يَرْجِعُ عَلَى عَقْبِهِ، أَوْ يَصِلُ إِلَى مَطْلَبِهِ كَمَا قِيلَ:

لَأَبْدَدَ لِلْعَاشِقِ مِنْ وَفْقَةٍ      مَا بَيْنَ سُؤْلٍ وَبَيْنَ غَرَامٍ  
وَعِنْدَهَا يَنْقُلُ أَقْدَامَهُ      إِمَّا إِلَى خَلْفٍ وَإِمَّا أَمَامٍ

وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي مِنْ كَلَامِهِ: أَنَّ أَوَائِلَ الْجَمْعِ مَبَادِيهِ وَلِوَاتِحِهِ وَبِوَارِقِهِ. وَبَعْدَ هَذَا دَرَجَةٌ رَابِعَةٌ: وَهِيَ الْإِنْقِطَاعُ عَنِ مَرَادِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَالْفَنَاءُ عَنْهُ إِلَى مَرَادِ رَبِّهِ مِنْهُ، وَالْفَنَاءُ بِهِ. فَلَا يَرِيدُ مِنْهُ، بَلْ يَرِيدُ مَا يَرِيدُهُ، مَنْقُطًا بِهِ عَنِ كُلِّ إِرَادَةٍ، فَيَنْظُرُ فِي أَوَائِلِ الْجَمْعِ فِي مَرَادِهِ الدِّيْنِيِّ الْأَمْرِيِّ الَّذِي يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.

وَأَكْثَرُ أَرْبَابِ السُّلُوكِ عِنْدَهُمْ: ﴿إِلَيْكَ نَبُذُ﴾ ﴿فَرُقُ﴾، ﴿وَأَيْكَ نَسَعِبْتُ﴾ ﴿جَمْعُ﴾.

(١) كلمة: (برق) غير موجودة في «غ».

(٢) كلمة: (هو) ساقطة من «غ» والمنار.

ثمّ منهم من يرى: أنّ ترك الجمع زندقَةٌ وكفرٌ، فهو يعرض عن الجمع إلى الفرق. ومنهم من يرى: أنّ مقام التفرقة ناقصٌ مرغوبٌ عنه، ويرى سوء حال أهله وتشتُّتهم، فيرغب عنه عاملاً على الجمع، يتوجّه معه حيث توجّهت ركائبه.

والمستقيمون منهم يقولون: لا بدّ للعبد السالك من جمعٍ وفرقٍ، وقيام العبوديّة بهما؛ فمن لا تفرقة له لا عبوديّة له، ومن لا جمع له لا معرفة له ولا حال.

ف: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فرقٌ و﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جمعٌ. والحقُّ: أنّ كلّاً من مشهدي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متضمّنٌ للفرق والجمع، وكمال العبوديّة بالقيام بهما في كلّ مشهد.

ففرق: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تنوّع ما يعبد به، وكثرة تعلّقاته وضروبه (١). وجمعه: توحيد المعبود بذلك كلّهُ، وإرادة وجهه وحده، والفناء عن كلّ حظٍّ ومرادٍ يزاحم حقّه ومراده.

فتضمّن هذا المشهد فرقاً في جمع، وكثرةً في وحدة، فصاحبه ينتقل (٢) في منازل العبوديّة من عبادة إلى عبادة، ومعبوده واحداً، لا إله إلاّ هو.

وأما فرق: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: فشهود ما يستعين به عليه، ومرتبته ومنزلته، ومحلّه من النفع والضّر، وبدايته وعاقبته، واتّصاله - بل وانفصاله - وما يترتب عليه من هذا الاتّصال والانفصال. ويشهد - [مع ذلك -] فقر المستعين وحاجته ونقصه، وضرورته إلى كمالته التي يستعين ربّه في تحصيلها، وآفاته التي يستعين ربّه (٣) في دفعها، ويشهد (٤) حقيقة الاستعانة وكفاية المستعان به، وهذا كلّهُ فرقٌ يثمر عبوديّة هذا المشهد.

وأما جمعه: فشهود تفرّده سبحانه بالأفعال، وصدور الكائنات بأسرها عن مشيئته، وتصريفها بإرادته (٥) وحكمته.

فغيبته بهذا المشهد عمّا قبله من الفرق نقصٌ في العبوديّة، كما أنّ تفرّقه في الذي قبله دون ملاحظته نقصٌ أيضاً، والكمال إعطاء الفرق والجمع حقّهما في هذا المشهد والمشهد الأوّل.

فتبيّن تضمّن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للجمع والفرق، والله المستعان.

(١) في «غ»: (وضروبه)، وفي المنار: (وضربه).

(٢) في «غ» والمنار: (ينتقل).

(٣) كلمة: (ربه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) ما بين المعكوفين ساقط من «غ».

(٥) في «غ»: (بالإرادة).

## فصل

## [منزلة الرجاء]

ومن منازل: ﴿إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَإِنَّا نَسْتَعِينُكَ﴾ منزلة الرجاء.

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه<sup>(١)</sup>: الحب، والخوف، والرجاء.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

وقال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وفي «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»<sup>(٢)</sup>.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيُظَنَّ بِي مَا شَاءَ»<sup>(٣)</sup>.

الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويطيب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل<sup>(٤)</sup> الربِّ تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه<sup>(٥)</sup>.

وقيل: هو الثقة بجود الربِّ تعالى.

(١) في «غ» والمنار: (بناء).

(٢) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧)، ورواه أبو داود في الجنائز، باب: ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت (٣١١٣).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٤٩١/٣)، والحاكم (٢٤٠/٤)، ووافقه الذهبي، واصل الحديث في «الصحيحين»، وسيأتي تخريجه قريباً إن شاء الله تعالى.

(٤) في «غ» والمنار: (بوجود فضل).

(٥) كلمة: (سبحانه) غير موجودة في «غ» والمنار.

والفرق بينه وبين التَّمَنِّي: أَنَّ التَّمَنِّي يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجدِّ والاجتهاد، والرَّجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التَّوَكُّل.

- فالأوَّل: كحال من يتمنَّى أن يكون له أرضٌ يبذرُها ويأخذ زرعها.

- والثَّاني: كحال<sup>(١)</sup> من يشقُّ أرضه ويفلحها ويبذرُها، ويرجو طلوع الزَّرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن الرَّجاء لا يصحُّ إلَّا مع العمل.

قال شاة الكرماني: «عَلَامَةُ صِحَّةِ الرَّجَاءِ حُسْنُ الطَّاعَةِ».

والرَّجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوعٌ غرورٌ مذمومٌ.

- فالأوَّلان: رجاء رجلٍ عمل بطاعة الله على نورٍ من الله، فهو راجٍ لشوابه، ورجلٍ أذنب ذنوبًا ثمَّ

تاب منها؛ فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

- والثَّالث: رجلٌ متمادٍ في التَّفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عملٍ؛ فهذا هو الغرور

والتَّمَنِّي والرَّجاء الكاذب.

وللسَّالك نظران:

- نظرٌ إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف.

- [ونظرٌ]<sup>(٢)</sup> إلى سعة فضل ربِّه وكرمه وبرِّه.

- [ونظرٌ]<sup>(٣)</sup> يفتح عليه باب الرَّجاء.

ولهذا قيل في حدِّ الرَّجاء: هو النَّظَرُ إلى سعة رحمة الله.

وقال أبو عليِّ الرُّوذباري: «الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ كَجَنَاحِي الطَّائِرِ؛ إِذَا اسْتَوَيَا اسْتَوَى الطَّيْرُ وَتَمَّ

طَيْرَانُهُ، وَإِذَا نَقَصَ أَحَدُهُمَا وَقَعَ فِيهِ النَّقْصُ، وَإِذَا ذَهَبَا صَارَ الطَّائِرُ فِي حَدِّ الْمَوْتِ».

وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرَّجاء في العبد؟ فقال: «أَنْ يَكُونَ إِذَا أَحَاطَ بِهِ الْإِحْسَانُ أَلْهِمَ

الشُّكْرَ، رَاجِحًا لِتَمَامِ النُّعْمَةِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَمَامِ عَفْوِهِ عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ».

واختلفوا: أيُّ الرَّجاءين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه، أو رجاء المسيء التَّائب مغفرة

ربِّه وعفوه؟

فطائفةٌ: رَجَّحَتْ رجاء المحسن؛ لقوَّة أسباب الرَّجاء معه.

(١) كلمة: (كحال) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي وأثبتناه من نسخة: «غ» والمنار، وهو الصواب لمناسبته للسياق.

(٣) ما بين المعكوفتين غير موجود في نسخة «غ» والمنار، والصواب حذفها لتكرارها.

وطائفة: رجحت رجاء المذنب؛ لأن رجاءه مجرد عن علة<sup>(١)</sup> رؤية العمل، مقرونٌ بذلة رؤية الذنب.

قال يحيى بن معاذ: «يَكَادُ رَجَائِي لَكَ<sup>(٢)</sup> مَعَ الذُّنُوبِ يَغْلِبُ رَجَائِي لَكَ مَعَ الأَعْمَالِ؛ لِأَنِّي أَجِدُنِي أَعْتَمِدُ فِي الأَعْمَالِ عَلَى الإِخْلَاصِ، وَكَيْفَ أَصْفِيهَا وَأُحْرِزُهَا<sup>(٣)</sup>؟ وَأَنَا بِالْأَفَاتِ مَعْرُوفٌ! وَأَجِدُنِي فِي الذُّنُوبِ أَعْتَمِدُ عَلَى عَفْوِكَ، وَكَيْفَ لَا تَغْفِرُهَا وَأَنْتَ بِالْجُودِ مَوْصُوفٌ!؟».

وقال أيضًا: «إِلَهِي، أَلْحَلِي العَطَايَا فِي قَلْبِي رَجَاؤُكَ، وَأَعْدَبِ الكَلَامَ عَلَى لِسَانِي تَنَاؤُكَ، وَأَحْبُ السَّاعَاتِ إِلَيَّ سَاعَةً يَكُونُ فِيهَا لِقَاؤُكَ».

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الرَّجَاءُ أضعفُ مَنَازِلِ المُرِيدِينَ؛ لِأَنَّهُ مُعَارِضَةٌ مِنْ وَجْهِهِ، وَاعْتِرَاضٌ مِنْ وَجْهِهِ، وَهُوَ وَقُوعٌ فِي الرُّعُونَةِ فِي مَذْهَبِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَفَائِدَةٌ وَاحِدَةٌ نَطَقَ بِهَا التَّنْزِيلُ وَالسُّنَّةُ، [وَدَخَلَ فِي مَسَالِكِ المُحَقِّقِينَ]<sup>(٤)</sup>، وَتِلْكَ الفَائِدَةُ: هِيَ كَوْنُهُ يُبْرِدُ حَرَارَةَ الخَوْفِ؛ حَتَّى لَا يُفْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَى اليَأْسِ».

شيخ الإسلام<sup>(٥)</sup> حبيب إلينا، والحقُّ أحبُّ إلينا منه، وكلُّ من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذٌ من قوله ومتروكٌ، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله، ثم نبين ما فيه.

أمَّا قوله: «الرَّجَاءُ أضعفُ مَنَازِلِ المُرِيدِينَ»؛ فيعني: بالنسبة إلى ما فوقه من المنازل، كمنزلة المعرفة والمحبة، والإخلاص، والصدق، والتوكل، لا أن مراده ضعف حال هذه المنزلة في نفسها، وأنها منزلة ناقصة.

وأمَّا قوله: «لِأَنَّهُ مُعَارِضَةٌ مِنْ وَجْهِهِ، وَاعْتِرَاضٌ مِنْ وَجْهِهِ»؛ فلأنه تعلق بمراد العبد من ربه، من الإحسان والثواب والإفضال، وقد يكون مراده تعالى من عبده استيفاء حقه، ومعاملته بحكم عدله له؛

(١) كلمة: (علة) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة: (لك) غير موجودة في «غ».

(٣) في «غ»: (وأحرزها)، ولعلها هي الصواب إن شاء الله تعالى، وفي المنار: وأحزرها.

(٤) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة (الفاقي) ونسخة «غ».

(٥) يقصد بشيخ الإسلام هنا صاحب «المنازل» الهروي.

لما له في ذلك من الحكمة، فإذا أراد العبد منه معاملته بحكم الفضل دخل في نوع (١) معارضة، وكأنَّ الرَّاجي تعلَّق قلبه بما يعارض تصرُّف المالك في ملكه، وذلك ينافي حكم استسلامه وانقياده، وانطراحه بين يدي ربِّه، مستسلمًا لما يحكم به فيه، فرجاؤه معارضٌ لحكمه وإرادته، ووقوفٌ مع مراده من سيِّده، وذلك يعارض مراد سيِّده منه، والمحَبُّ الصَّادق من فني بمراد محبوبه عن مراده منه، ولو كان فيه تعديبه.

وأما وجه الاعتراض: فهو أنَّ القلب إذا تعلَّق بالرَّجاء ولم يظفر بمرجوِّه اعترض؛ حيث لم يحصل له مرجوُّه، ولم يظفر به، وإن ظفر به اعترض؛ حيث فاتته غير ذلك المرجوِّ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يرجو فضل الله، ويحدِّث نفسه به.

وفيه وجهٌ آخر من الاعتراض: وهو أن يعترض على ربِّه تعالى بما يرجو منه؛ لأنَّ الرَّاجي متمنِّ لما يرجو، مؤثِّر له، وذلك اعتراضٌ على القدر، منافٍ لكمال الاستسلام والرِّضا بما سبق به القضاء، فإذا تيقَّن له أنه سبق القضاء بشيءٍ فإنَّه لا بدَّ أن يناله، فعلق قلبه برجاء شيءٍ من الفضل، فقد اعترض على القضاء، ولم يعرف للاستسلام للحكم حقَّه، وذلك وقوعٌ في الرُّعونة في مذهب السَّائرين على درب الفناء، النَّاظرين إلى عين الجمع؛ إذ الرُّعونة هي الوقوف مع حظِّ النَّفس، والرَّجاء هو الوقوف مع الحظِّ؛ لأنَّه يتعلَّق بالحفظ.

وأصحاب هذه الطَّرِيقَة أوَّل طريقتهم الخروج عن نفوسهم، فضلًا عن حظوظها؛ لأنَّهم عاملون على أن يكونوا بالله لا بنفوسهم؛ فغاية المحبِّ أن يرضى بأحكام محبوبه عليه، ساءت أم سرَّته، حتَّى يبلغ بأحدهم هذا الحال إلى أن ينشد:

أَحِبُّكَ لَا أُحِبُّكَ لِلثَّوَابِ      وَلَكِنِّي أُحِبُّكَ لِلْعَقَابِ  
وَكُلُّ مَآرِبِي قَدْ نِلْتُ مِنْهَا      سِوَى مَلْدُودٍ وَجِدِي بِالْعَذَابِ

ولو كان نفس تلذُّذ بالعباد مقصوده من العذاب لكان أيضًا واقفًا مع حظِّه، ولكن أراد أن رضاه بمراد محبوبه منه ولو كان عذابه لم يدع فيه للرَّجاء موضعًا ولا للخوف، بل يقول: أنا أحبُّ ما تريده بي، ولو أنه عذابي، وقد كشف بعض المغرورين عن هذا بقوله:

وَتَعَذِّبِي مَعَ الْهَجْرَانِ عِنْدِي      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَيْبِ الْوِصَالِ  
لَأَنِّي فِي الْوِصَالِ عُبَيْدٌ حَظِّي      وَفِي الْهَجْرَانِ عَبْدٌ لِلْمَوَالِي

(١) كلمة: (نوع) ساقطة من «غ» والمنار.



فأخبر أن التعذيب بالهجران أحبُّ إليه من طيب الوصال؛ لكون الوصال فيه ما تشتهيهِ النَّفسُ، وأما التعذيب فليس للنفس فيه مقصودٌ.

ثمَّ أخبر أنَّه لم يأت في القرآن والسُّنة إلا لفائدةٍ واحدةٍ، وهي تبريده لحرارة الخوف؛ حتَّى لا يفضي بصاحبه إلى الإياس.

وهذا وجه كلامه، وحمله على أحسن المحامل.

فيقال: هذا ونحوه من الشُّطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصِّدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التَّوحيد، ولم تضمن العصمة لبشرٍ بعد رسول الله ﷺ.

وهذه الشُّطحات أوجبت فتنةً على طائفتين من النَّاس:

- إحداهما: حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشُّطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظنَّ بهم مطلقًا، وهذا عدوانٌ وإسرافٌ؛ فلو كان كلُّ من أخطأ أو غلط ترك جملةً، وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها.

- والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم، وهؤلاء أيضًا معتدون مفرطون.

- والطائفة الثالثة وهم أهل العدل والإنصاف: الذين أعطوا كلَّ ذي حقِّ حقه، وأنزلوا كلَّ ذي منزلةٍ منزلته، فلم يحكموا للصَّحيح بحكم السَّقِيم المعلول، ولا للمعلول السَّقِيم بحكم الصَّحيح، بل قبلوا ما يقبل، وردُّوا ما يردُّ.

وهذه الشُّطحات ونحوها هي التي حذَّر منها سادات القوم، وذمُّوا عاقبتها؛ وتبرَّءوا منها.

حتَّى ذكر أبو القاسم القشيريُّ في «رسالته»: «أَنَّ أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ رُئِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: غَفَّرَ لِي، وَمَا كَانَ شَيْءٌ أَضَرَّ عَلَيَّ مِنْ إِشَارَاتِ الْقَوْمِ».

وقال أبو القاسم: «سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدِ الشَّحَامِ يَقُولُ: رَأَيْتُ أَبَا سَهْلَ الصُّعْلُوكِيَّ فِي الْمَنَامِ، فَقُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ. فَقَالَ: دَعِ الشَّيْخَ. فَقُلْتُ: وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ؟ فَقَالَ: لَمْ تُغْنِ عَنَّا شَيْئًا. فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ: غَفَّرَ لِي بِمَسَائِلَ كَانَتْ تَسْأَلُ عَنْهَا الْعَجَائِزُ».

وذكر عن الجريريِّ: «أَنَّهُ رَأَى الْجُنَيْدَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ؟ فَقَالَ: طَاحَتْ تِلْكَ الْإِشَارَاتُ، وَفَنِيَتْ تِلْكَ الْعِبَارَاتُ، وَمَا نَفَعَنَا إِلَّا تَسْبِيحَاتُ كُنَّا نَقُولُهَا بِالْغُدُواتِ».

وقال أبو سليمان الداراني: «تُعْرَضُ عَلَيَّ النُّكْتَةُ مِنْ نُكْتِ الْقَوْمِ، فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدِي عَدْلٍ: الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ».

وقال الجنيد: «مَذْهَبُنَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَقْرَأِ الْقُرْآنَ، وَيَكْتُبِ الْحَدِيثَ لَا يُقْتَدَى بِهِ فِي طَرِيقِنَا».

هذا إلى غير ذلك من الأقوال التي وردت عنهم رضي الله عنهم.

فأما قوله: «الرَّجَاءُ أضعفُ مَنَازِلِ المُرِيدِينَ». فليس كذلك، بل هو من أجل منازلهم، وأعلىها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله، وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل: «يَا بَنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي عَفَرْتُ لَكَ عَلَيَّ مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي» (١).

وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَقُولُ اللَّهُ عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ؛ إِذَا ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنِ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنِ اتَّانَى يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً» (٢). رواه مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده -الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى- أنهم كانوا راجين له، خائفين منه؛ فقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلًا﴾ (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا (٥٧) [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي، يتقربون إليّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟! فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء.

قوله: «لِأَنَّهُ مُعَارَضَةٌ مِنْ وَجْهِ، وَاعْتِرَاضٌ مِنْ وَجْهِ».

يقال: وهو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه «المُحْسِنُ الْبَرُّ» فذلك التعلق والتعبُد بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجب للعبد الرجاء، من حيث يدري ومن حيث لا يدري؛ فقوة الرجاء على حسب

(١) تقدم تخريجه (١/٢٩٠).

(٢) رواه البخاري في التوحيد، باب: ﴿وَيَحْدِرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ رقم (٦٥٠٢)، ورواه مسلم في التوبة، باب: الحض على التوبة والفرح بها (٢٦٧٥).

قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهذمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات، ولي من آيات:

لَوْلَا التَّعَلُّقُ بِالرَّجَاءِ تَقَطَّعَتْ  
وَكَذَلِكَ لَوْلَا بَرْدُهُ بِحَرَارَةِ الْـ  
أَيُّكُونُ قَطُّ حَلِيفٌ حُبٌّ لَا يُرَى  
أَمْ كُلَّمَا قَوَيْتُ مَحَبَّتَهُ لَهُ  
لَوْلَا الرَّجَاءُ يَحْدُو الْمَطْيَى لَمَا سَرَتْ  
نَفْسُ الْمُحِبِّ تَحَسَّرًا وَتَمَزُّقًا  
أَكْبَادٍ ذَابَتْ بِالْحِجَابِ تَحَرُّقًا  
بِرَجَائِهِ لِحَبِيبِهِ مُتَعَلِّقًا  
قَوِيَ الرَّجَاءُ فَزَادَ فِيهِ تَشَوُّقًا  
بِحُمُولِهَا لِإِدْيَارِهِمْ تَرْجُو اللَّقَا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء؛ فكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجى<sup>(١)</sup> ما يكون لحبيبه، أحب ما يكون إليه، وكذلك خوفه؛ فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرده محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه؛ فخوفه أشد خوف، ورجاؤه ذاتي<sup>(٢)</sup> للمحبة؛ فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له؛ لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من أطراف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه.

فتأمل هذا الموضوع حق التأمل يُطْلَعُ عَلَى أسرارٍ عظيمةٍ من أسرار العبودية والمحبة؛ فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدر تمكُّنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة، بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير، وأين رجاء المحب من رجاء الأجير وبينهما<sup>(٣)</sup> كما بين حالهما؟! وبالجملة: فالرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد؛ فإنه دائر

بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها، ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها، فكيف يكون الرجاء من أضعف منازل وهذا حاله؟!

(١) في «غ»: (راج).

(٢) في «غ»: (داني).

(٣) في «غ» والمنار: (بينهما).

وأما حديث المعارضة والاعتراض فباطل؛ فإنَّ الرَّاجِي ليس معارضًا ولا معترضًا، بل راجيًا راجيًا، مؤتملاً لفضل ربِّه، وحسن الظَّنِّ به، متعلِّق الأمل بربِّه وجوده، عابدًا له بأسمائه<sup>(١)</sup>: «المُحْسِنِ، البَرِّ، المُعْطِي، الحَلِيمِ، العَفُورِ، الجَوَادِ، الوَهَّابِ، الرَّزَّاقِ». والله ﷻ يحبُّ من عبده أن يرجوه؛ ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنُّه به.

والرَّجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربِّه، بل هو من أقوى الأسباب، ولو تضمَّن معارضةً واعتراضًا لكان ذلك في الدُّعاء والمسألة أولى؛ فكان دعاء العبد ربَّه وسؤاله أن يهديه ويوفِّقه ويسدِّده، ويعينه على طاعته ويجنِّبه معصيته، ويغفر ذنوبه، ويدخله جنَّته، وينجِّيه من النَّار، معارضةً واعتراضًا؛ لأنَّ الدَّاعي راجٍ وطالبٌ ما يرجوه، فهو أولى حينئذٍ بالمعارضة والاعتراض.

والذي أوجب للشَّيخ هذا القدر: الاسترسال في القدر، والفناء في شهود الحقيقة الكونية، فإنَّه من الرَّاخين فيه، الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم، وهو شديدٌ في إنكار الأسباب، وهذا موضعٌ زلَّت فيه أقدام أئمةِ أعلام، ولولا أنَّ حقَّ الحقِّ أوجب من حقِّ الخلق لكان في الإمساك فسحةً ومتَّسعٌ.

وليس في الرَّجاء ولا في الدُّعاء معارضةٌ لتصرُّف المالك في ملكه؛ فإنَّه إنَّما يرجو تصرُّفه في ملكه أيضًا بما هو أولى وأحبُّ الأمرين إليه؛ فإنَّ الفضل أحبُّ إليه من العدل، والعفو أحبُّ إليه من الانتقام، والمسامحة أحبُّ إليه من الاستقصاء، والتَّرك أحبُّ إليه من الاستيفاء، ورحمته غلبت غضبه.

فالرَّاجي علَّق رجاءه بتصرُّفه المحبوب له المرضي له، فلم يوجب رجاءه خروجه عن تصرُّفه في ملكه، بل اقتضى عبوديته وحصول أحبِّ التَّصرُّفين إليه، وهو ﷻ لا ينتفع باستيفاء حقِّه وعقوبة عبده، حتَّى يكون رجاءه مبطلاً لذلك، وإنَّما العبد<sup>(٢)</sup> استدعى العقوبة، وأخذ الحقَّ منه لشركه بالله وكفره به، واجتهاده في غضبه، ولغضبه موجباتٌ وآثارٌ ومقتضياتٌ، والعبد مؤثرٌ لها، ساعٍ في تحصيلها، عاملٌ عليها بإيثاره إيَّاه وسعيه في أسبابها؛ فهو المهلك لنفسه، وربُّه يحذِّره ويبيِّره وينادي به: هلمَّ إليَّ أحملك وأصنك، وأنجك ممَّا تحذر، وأؤمِّنك من كلِّ ما تخاف، وهو يأبى إلاَّ شروداً عليه ونفارا عنه، ومصالحةً لعدوِّه، ومظاهرةً له على ربِّه، ومتطلبًا لمرضاة خلقه بمساخطه؛ رضا المخلوق أثر عنده من رضا خالقه، وحقُّه أكد عنده من حقِّه، وخوفه ورجاؤه وحبُّه في قلبه أعظم من خوفه من الله ورجائه وحبِّه، فلم يدع لفضل ربِّه وكرامته وثوابه إليه طريقًا، بل سدَّ دونه طرق مجاريها بجهدته، وأعطى بيده لعدوِّه، فصالحه وسمع له وأطاع، وانقاد إلى مرضاته، فجاء من الظلم بأقبحه وأشدِّه.

(١) في «غ» والمنار: (باسمه).

(٢) كلمة: (العبد) غير موجودة في «غ».

فهو الذي عارض مراده به منه بمراده وهواه وشهوته، واعترض لمحابه ومراضيه بالدفع، ولم يأذن لها في الدخول عليه، فأضاع حظّه وبخس حقّه، وظلم نفسه، وعادى حبيبه، ووالى عدوّه، وأسخط من حياته في رضاه، وأرضى من حياته في سخطه، وجاد بنفسه لعدوّه، وبخل بها عن حبيبه ووليّه.

والربُّ تبارك وتعالى ليس له ثأرٌ عند عبده فيدركه بعقوبته، ولا يتشفّى بعقابه، ولا يزيد ذلك في ملكه مثقال ذرّة، لا ينقص مغفرته، ولو غفر لأهل الأرض كلّهم لما نقص مثقال ذرّة من ملكه؛ كيف والرّحمة أوسع من العقوبة وأسبق من الغضب وأغلب له؟! وهو قد كتب على نفسه الرّحمة.

فرجاء العبد له لا ينقص شيئاً من حكمته، ولا ينقص ذرّة من ملكه، ولا يخرج عنه كمال تصرّفه، ولا يوجب خلاف كمال<sup>(١)</sup>، ولا تعطيل أوصافه وأسمائه؛ ولولا أنّ العبد هو الذي سدّ على نفسه طرق الخيرات، وأغلق دونها أبواب الرّحمة بسوء اختياره لنفسه لكان ربّه له فوق رجائه وفوق أمّله.

وأما استسلام العبد لربّه: [واستسلامه]<sup>(٢)</sup> بانطراحه<sup>(٣)</sup> بين يديه، ورضاه بمواقع حكمه فيه - فما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه، ويقيله عشرته، ويعفو عنه، ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتهما، ويتجاوز عن سيئاته؛ فقوة رجائه أوجب له هذا الاستسلام والانقياد، والانطراح بالباب، ولا يتصوّر هذا بدون الرجاء ألبتّة؛ فالرجاء حياة<sup>(٤)</sup> الطّلب، والإرادة روحها.

وأما رضاه بمراده منه وإن عدّبه فهذا هو الرّعونّة كلّ الرّعونّة؛ فإنّ مراده سبحانه نوعان:

- مرادٌ يحبه ويرضاه، ويمدح فاعله ويواليه؛ فموافقته في هذا المراد هي عين محبّته.
- وإرادة خلافه رعونّة ومعارضة واعتراض.
- ومرادٌ يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله ويبغضه؛ فموافقته في هذا المراد عين مشاقّته ومعاداته ومخالفته والتّعريض لمقتته وسخطه.

فهذا الموضع موضع فرقان؛ فالموافقة كلّ الموافقة معارضة هذا المراد، واعتراضه بالدفع والرّد بالمراد الآخر.

فالعبوديّة الحقّ: معارضة مراده بمراده، ومزاحمة أحكامه بأحكامه.

فاستسلامه لهذا المراد المكروه المسخوط، وما يوجب ويقتضيه عين الرّعونّة، والخروج عن

(١) في «غ»: (كماله).

(٢) كلمة: (واستسلامه) غير موجودة في «غ» والمنار، وحذفها هو الصواب لتكرارها.

(٣) في «غ» والمنار: (وانطراحه).

(٤) كلمة: (حياة) غير موجودة في «غ».

العبودية، وهو عين الدعوى الكاذبة؛ إذ لو كان مصدر ذلك الاستسلام والموافقة، وترك الاعتراض والمعارضة، لكان ذلك مخصوصاً بمحابه ومراضيه، وأوامره التي الاستسلام لها والموافقة فيها، وترك معارضتها، والاعتراض عليها هو عين المحبة والموالاة.

وأما الفناء بمراد ربه: فقد تقدم أن المحمود من [ذلك]<sup>(١)</sup>: هو ذلك الفناء بمراده الدنيوي الأمري، لا الكوني القدري؛ فإن الكون كله مراده القدري خيره وشره.

وأما تعلق الرجاء بمراده دون مراد سيده: فهو إنما علقه بمراده المحبوب له، هارباً من مراده المسخوط المكروه له، وعلى تقدير أن يكون محبوباً له - إذا كان انتقاماً - فالعفو والفضل أحب إليه منه، فهو إنما علق رجاءه بأحب المرادين إليه.

وأما كون الرجاء اعتراضاً على ما سبق به الحكم: فليس كذلك، بل تعلقاً بما سبق به الحكم؛ فإنه إنما يرجو فضلاً وإحساناً، ورحمة سبق بها القضاء والقدر، وجعل الرجاء أحد أسباب حصولها، فليس الرجاء اعتراضاً على القدر، ولا معارضةً للقدر، بل طلباً لما سبق به القدر.

وأما اعتراضه إذا لم يحصل له مرجوه فهذا نقص في العبودية، وجهل بحق الربوبية؛ فإن الراجي والداعي يرجو ويدعو فضلاً لا يستحقه، ولا يستوجهه بمعاوضة، فإن أعطيه فمحض المنّة والصدقة عليه، وإن منعه فلم يمنع حقاً هو له.

فاعتراضه رعونةً وجهالةً، ولا يلزم من فوات المرجو، أو عدم حصول المدعو به في حق العبد الصادق، معارضةً ولا اعتراضاً.

وقد سأل رسول الله ﷺ ربه تبارك وتعالى ثلاث خصالٍ لأتمته، فأعطاه اثنتين ومنعه واحدةً، فرضي بما أعطاه، ولم يعترض فيما منعه، بل رضي وسلم<sup>(٢)</sup>.

وأما كون الرجاء وقوفاً مع الحظ، وأصحاب هذه الطريقة قد خرجوا عن نفوسهم فكيف حظوظهم؟

فيا لله العجب! أي رعونةً فيمن يجعل رجاء العبد ربه، وطمعه في برّه وإحسانه وفضله، وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه؟ فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل ما يرجوه، فإذا كان العبد دائماً مستشرفاً بقلبه، سائلاً بلسانه، طالباً لفضل ربه، فأأي رعونة هاهنا؟ وهل الرعونة كل الرعونة إلا خلاف ذلك؟!!

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة (الفاقي) وأثبتناه هنا من نسخة «غ» والمنار.

(٢) يريد حديث: «سألت ربي ﷺ ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألته ألا يسلط على أمي عدواً من غيرهم فأعطانيها، وألا يقتل أمي بالسنة فأعطانيها، وألا يلبسهم شيعاً فمنعنيها». أخرجه مسلم في الفتن، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض رقم (٢٨٩٠).

ومن العجب: دعواهم خروجهم عن نفوسهم وهم أعظم النَّاسِ عبادةً لنفوسهم، وليس الخارج عن نفسه إلا من جعلها حسبا على مراد الله الدَّيْنِيَّ الأَمْرِيَّ النَّبَوِيَّ، وبذلها لله في إقامة دينه، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي، فانغمس فيهم يمزقون أديمه، ويرمون به بالعظام، ويخيفونه بأنواع المخاوف، ويتطلبون دمه بجهدهم، لا تأخذه في جهادهم في الله لومة لائم، يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه، قد زهد في مدحهم وثنائهم وتعظيمهم وتشبيخهم له، وتقبييل يده وقضاء حوائجهم، يصيح فيهم بالنصائح جهارًا، ويعلن لهم بها، ويسرُّ لهم إسرارًا، قد تجرَّد عن الأوضاع والقيود والرُّسوم، وتعلَّق بمراضي الحيِّ القيُّوم، مقامه ساعة في جهاد أعداء الله، ورباطه ليلة على ثغر الإيمان - آثر عنده وأحبُّ إليه<sup>(١)</sup> من فناء ومشاهداتٍ وأحوالٍ هي أعظم عيش النَّفسِ وأعلى قوتها، وأوفر حظُّها، ويزعم أنه قد خرج عن نفسه؛ فكيف حظُّها؟ ولعلَّه قد خرج عن مراد ربِّه من عبوديته إلى عين مراده، وهو حظُّه، ولو فُتِّس نفسه لرأى ذلك فيها عيانًا.

وهل الرُّعونة كلُّ الرُّعونة إلا دعواه أنه يحبُّ ربَّه لعذابه لا لشوابه؟ وأنه إذا أحبَّه وأطاعه للشَّواب كان ذلك حظًّا وإيثارًا لمراد النَّفسِ؟ بخلاف ما إذا أحبَّه وأطاعه ليعذِّبه؛ فإنَّه لا حظَّ للنَّفسِ في ذلك؟ فوالله ليس في أنواع الرُّعونة والحماقة أقبح من هذا ولا أسمى، وماذا يلعب الشَّيطان بالنَّفوس؟ وإنَّ نفسًا وصل بها تليس الشَّيطان إلى هذه الحالة لمحتاجةً إلى سؤال المعافاة.

فَرَنَ أحوال الأنبياء والرُّسل والصِّدِّيقين، وسؤالهم ربَّهم، على أحوال هؤلاء الغالطين، الذين مرجت<sup>(٢)</sup> بهم نفوسهم، ثم قايِس بينهما، وانظر التَّفَاوُت! فأين هذا من دعاء النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمَعْفَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَبِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَنْتَ عَلَى نَفْسِكَ»<sup>(٣)</sup>!

وقوله لعَمِّه العَبَّاسُ<sup>(٤)</sup>: «يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، سَلِ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ»<sup>(٥)</sup>!  
وقوله للصِّدِّيقِ الأَكْبَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ

(١) كل ذلك يصدق كل الصدق على شيخ الإسلام، إمام المجاهدين المجتهدين في وقته: أحمد بن تيمية، وتلميذه الإمام ابن القيم رحمهما الله وغفر لهما، ورضي عنهما، وحشرنا في زمرتهما مع المجاهدين العارفين الصادقين الصابرين. (الفقي).

(٢) في «غ» والمنار: (خرجت).

(٣) تقدم تخريجه (٢٥١/١).

(٤) كلمة: (العباس) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب (٨٥)، وقال: حديث صحيح رقم (٣٥١٤)، وأحمد (٢٠٩/١)، وانظر: «الأحاديث الصحيحة» للألباني (١٥٢٣).

نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا؛ وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفُرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَفْوُ الرَّحِيمُ» (١)؟!

وقوله لصديقة النساء وقد سألته دعاءً تدعو به إن وافقت ليلة القدر فقال: «قولي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفْوٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي» (٢)؟!

وقوله في دعائه الذي كان لا يدعه، وإن دعا بدعاءٍ أردف إياه: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (٣)؟!

وقد أثنى الله تعالى على خاصّته، وهم أولو الألباب بأنهم سألوه أن يقيهم عذاب النار، فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال ﷺ لأُمّ حبيبة: «لَوْ سَأَلَتِ اللَّهُ أَنْ يُجِيرَكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ» (٤).

و«كان يستعيذ كثيرًا من عذاب النار، ومن عذاب القبر» (٥).

و«أمر المسلمين أن يستعيذوا في تشهدهم من عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال» (٦) حتى قيل: إن هذا الدعاء واجبٌ في الصلاة، لا تصحُّ إلا به. وهذا أعظم من أن نستقصيه.

ودخل رسول الله ﷺ على مريضٍ يعود. فرآه مثل الفرخ فقال: «مَا كُنْتُ تَدْعُو بِهِ؟» فقال: كنت أقول: اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مَعَابِنِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَمَعَابِنِي بِهِ فِي الدُّنْيَا. فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ! إِنَّكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، إِلَّا سَأَلْتَ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ!» (٧).

وفي «المُسْنَدِ» عنه ﷺ قال: «مَا سُئِلَ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ سُؤَالِ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ» (٨).

(١) البخاري في صفة الصلاة، باب: الدعاء قبل السلام (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٥).

(٢) الترمذي في الدعوات، باب رقم (٨٥)، وقال: حسن صحيح. كما رواه ابن ماجه برقم (٣٨٥٥)، وأحمد (٦/١٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣١٥).

(٣) البخاري في الدعوات، باب: قول النبي ﷺ: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» رقم (٤٥٢٢)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب: فضل الدعاء بـ «اللهم ربنا آتينا في الدنيا حسنة...» (٢٦٩٠).

(٤) رواه مسلم في القدر، باب: بيان أن الأجل والأرزاق وغيرهما لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر برقم (٢٦٦٣).

(٥) البخاري في الصلاة، باب: الدعاء قبل السلام (٨٣٢)، ومسلم في المساجد، باب: ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٩).

(٦) مسلم في المساجد، باب: ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٨) بلفظ: «عوذوا بالله من عذاب القبر...»، ورواه الترمذي بلفظ: «استعيذوا بالله...» في الدعوات، باب: في الاستعاذة، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وعند البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٥٨): «إذا فرغ أحدكم من التشهد...».

(٧) مسلم في الذكر والدعاء، باب: كراهية الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (٢٦٨٨).

(٨) الترمذي في الدعوات، باب رقم (٨٥)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي



وقال لبعض أصحابه: «مَا تَقُولُ إِذَا صَلَّيْتَ؟» فقال: أسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار، أما إنِّي لا أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذٍ. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّا حَوْلَهَا نُدْنِدُنُ» (١).

فأين هذا من حال من قال: لا أحبُّك لثوابك؛ لأنَّه عين حظِّي، وإنَّما أحبُّك لعقابك؛ لأنَّه لا حظَّ لي فيه، والرَّجاء عين الحظِّ، ونحن قد خرجنا عن نفوسنا، فما لنا وللرَّجاء؟! فهذا وأمثاله أحسن ما يقال فيهم: إنَّه شطَّحٌ قد يعذر فيه صاحبه إذا كان مغلوبًا على عقله، كالسَّكران ونحوه، ولا تهدر محاسنه ومعاملاته وأحواله وزهده.

ولكنَّ الَّذي ينكر كون هذا من الأحوال الصَّحيحة، والمقامات العليَّة التي يتعاطاها العبد، ويشمِّر إليها؛ فهذا الَّذي لا تلبس عليه الثَّياب، ولا تصبر عليه نفوس العلماء، وحاشى سادات القوم وأئمَّتهم من هذه الرُّعونات، بل هم أبعد النَّاس منها!

نعم؛ قد يعرض لأحدهم حالٌ يحدث نفسه فيه (٢) بأنَّه لو عبَّه لكان راضيًا بعذابه، كرضا صاحب الثَّواب بثوابه، ويعزم على ذلك بقلبه، ولكنَّ هذا عزمٌ وأمنيَّةٌ، وعند الحقيقة لا يكون لذلك أثرٌ ألبتَّة، ولو امتحنه بأدنى محنةٍ لصاح واستغاث، وسأل العافية، كما جرى للقائل، وهو سمنونٌ:

وَلَيْسَ لِي مِنْ هَوَاكَ بُدٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتُ فَامْتَحَنِي

فامتحنه بعسر البول، فطاحت هذه الدَّعوى منه، واضمحلَّ حالها، وجعل يطوف على صبيان المكاتب، ويقول: «اذْعُوا لِعَمَّكُمْ الْكَذَّابِ». فالعزم على الرِّضا لونٌ، وحقيقته لونٌ آخر.

□ وأما قوله: «وَإِنَّمَا نَطَقَ بِهِ التَّنْزِيلُ لِفَائِدَةٍ، وَهِيَ كَوْنُهُ يَبْرُدُ حَرَارَةَ الْخَوْفِ».

فيقال: بل لفوائد كثيرةٍ أخر مشاهدة (٣):

- منها: إظهار العبوديَّة والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربِّه، ويستشرفه من إحسانه، وأنَّه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عينٍ.

- ومنها: أنَّه سبحانه يحبُّ من عباده أن يؤمِّلوه ويرجوه، ويسألوه من فضله؛ لأنَّه الملك الحقُّ الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحبُّ ما إلى الجواد أن يرجى ويؤمِّل ويسأل، وفي

وهو ضعيف في الحديث ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٧٠٨).

(١) تقدم تخريجه (ص ٤٨).

(٢) كلمة: (فيه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (شواهد).

- الحديث: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»<sup>(١)</sup>. والسائل راجٍ وطالبٌ، فمن لم يرج الله يغضب عليه. فهذه فائدةٌ أخرى من فوائد الرجاء، وهي التخلُّص به من غضب الله.
- ومنها: أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله، ويطيِّب له المسير، ويحثُّه عليه، ويبعثه على ملازمته؛ فلو لا الرجاء لما سار أحدٌ؛ فإنَّ الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنَّما يحركه الحبُّ، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.
- ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبَّة، ويلقيه في دهليزها؛ فإنَّه كلما اشتدَّ رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبًّا لله تعالى، وشكرًا له، ورضًا به وعنه.
- ومنها: أنَّه يبعثه على أعلى المقامات، وهو مقام الشُّكر، الَّذي هو خلاصة العبوديَّة؛ فإنَّه إذا حصل له مرجؤه كان أدعى لشكره.
- ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلُّق بها؛ فإنَّ الرَّاغِبِ متعلِّقٌ بأسمائه الحسنَى، متعبِّدٌ بها، داعٍ بها؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فلا ينبغي أن يعطلَّ دعاؤه بأسمائه الحسنَى التي هي أعظم ما يدعو بها الدَّاعي؛ فالقدح في مقام الرجاء تعطيلٌ لعبوديَّة هذه الأسماء، وتعطيلٌ<sup>(٢)</sup> للدُّعاء بها<sup>(٣)</sup>.
- ومنها: أنَّ المحبَّة لا تنفك عن الرجاء - كما تقدَّم - فكلُّ واحدٍ منهما يمدُّ الآخر ويقويه.
- ومنها: أنَّ الخوف مستلزمٌ للرجاء، والرجاء مستلزمٌ للخوف؛ فكلُّ راجٍ خائفٌ، وكلُّ خائفٍ راجٍ؛ ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].
- قال كثيرٌ من المفسِّرين: «الْمَعْنَى: مَا لَكُمْ لَا تَخَافُونَ لِلَّهِ عَظَمَةً؟ قَالُوا: وَالرَّجَاءُ بِمَعْنَى الْخَوْفِ».
- والتَّحْقِيقُ: أنَّه ملازمٌ له؛ فكلُّ راجٍ خائفٌ من فوات مرجؤه، والخوف بلا رجاءٍ يأسٌ وقنوطٌ. وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجمانية: ١٤].
- قالوا في تفسيرها: «لَا يَخَافُونَ وَقَائِعَ اللَّهِ بِهِمْ، كَوَقَائِعِهِ بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ».
- ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربِّه، فأعطاه ما رجاه - كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه، وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في

(١) الترمذي في الدعوات، باب رقم (٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٨٦).

(٢) كلمة: (وتعطيل) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (والدعاء بها).

هذه الدار؛ فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

- ومنها: أن الله ﷻ يريد من عبده (١) تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها؛ ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به؛ لتكامل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحبّ عبديّات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

- ومنها: أن في الرجاء - من الانتظار والترقب والتوقُّع لفضل الله - ما يوجب تعلق القلب بذكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذة بنصيبه من كل اسم وصفة - كما تقدّم بيانه -؛ فإذا فني عن ذلك وغاب عنه فاته حظُّه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات.

إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعها من أحسن تأمُّله وتفكره في استخراجها، وبالله التوفيق.

والله يشكر لشيخ الإسلام (٢) سعيه، ويعلي درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محلّ كرامته، فلو وجد مريده (٣) سعةً وفسحةً في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل، كيف وقد نفعه الله بكلامه؟ وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه، وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظةً ومنامًا؟ وهذا غاية جهد المقلِّ في هذا الموضوع، فمن كان عنده فضل علمٍ فليجد به أو فليعذر، ولا يبادر إلى الإنكار؛ فكم بين الهدهد ونبيّ الله سليمان وهو يقول له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]؟! وليس شيخ الإسلام أعلم من نبيّ الله، ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد، وبالله المستعان، وهو أعلم.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل» (٤): «الرجاء على ثلاث درجَات: الدرَجَةُ الأولى: رجاءٌ يبعثُ العَامِلَ على الاجتهاد، ويؤدُّ التَلَدُّدَ بِالْخِدْمَةِ، وَيُوقِظُ الطَّبَاعَ لِلْسَّمَاحَةِ بِتَرْكِ الْمُنَاهِي».

أي: ينشّطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربّه؛ فإنّ من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه.

(١) في «غ» والمنار: (عباده).

(٢) يقصد صاحب «المنازل».

(٣) لعل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يقصد نفسه تواضعًا لصاحب «المنازل» الهروي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومعنى مريده: محبه وتلميذه على كتبه.

(٤) في «غ» والمنار: (قال صاحب «المنازل» قدس الله روحه).

وأما توليده للتلذذ بالخدمة: فإنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها التذّبها، وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره، ويقاسي مشاقّ السفر لأجلها، فكلمًا صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاقّ، والتذّبها، وكذلك المحبّ الصادق الساعي في مرضي محبوبه الشاقّة عليه، كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله سعيه، وقربه منه تلذذ بتلك المساعي، وكلما قوي علم العبد بإفشاء ذلك السبب إلى المسبّب المطلوب، وقوي علمه بقدر المسبّب وقرب السبب منه ازداد التذاذًا بتعاطيه.

وأما إيقاظ الطّباع للسّماحة بترك المناهي: فإنّ الطّباع لها معلومٌ ورسومٌ تتفاضها من العبد، ولا تسمح له بتركها إلاّ بعوضٍ هو أحبُّ إليها من معلومها ورسومها، وأجلُّ عندها منه وأنفع لها؛ فإذا قوي تعلّق الرّجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف سمحت الطّباع بترك تلك الرّسوم وذلك المعلوم؛ فإنّ النّفس لا تترك محبوبًا إلاّ لمحبوبٍ هو أحبُّ إليها منه، أو حذرًا من مخوفٍ هو أعظم مفسدةً لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب، وفي الحقيقة ففراها من ذلك المخوفٍ إيثارًا لضده المحبوب لها؛ فما تركت محبوبًا إلاّ لما هو أحبُّ إليها منه؛ فإنّ من قدّم إليه طعامًا لذيذًا يضرُّه ويوجب له السّقم، فإنّما يتركه محبةً للعافية التي هي أحبُّ إليه من ذلك الطّعام.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: رَجَاءُ أَرْبَابِ الرِّيَاضَاتِ: أَنْ يَبْلُغُوا مَوْقِفًا تَصِفُو فِيهِ هَمَمُهُمْ بِرَفْضِ المُلْدُودَاتِ، وَلِزُومِ شُرُوطِ العِلْمِ، وَاسْتِقْصَاءِ حُدُودِ الحَمِيَّةِ».

أرباب الرّياضات: هم المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها، والاستبدال بها مألوفاتٍ هي خيرٌ منها وأكمل، فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بصفاء الوقت، والهمة من تعلّقها بالملذوذات، وتجريد الهمم عن الالتفات إليها، وبلزوم شروط العلم، وهو الوقوف عند حدود الأحكام الدّينيّة؛ فإنّ رجاءهم متعلّق بحصول ذلك لهم، واستقصاء حدود الحميّة.

والحميّة: العصمة والامتناع من تناول ما يُخشى ضرره آجلًا أو عاجلاً، وله حدودٌ متى خرج العبد عنها انتقض عليه مطلوبه، والوقوف على حدودها بلزوم شروط العلم. والاستقصاء في تلك الحدود بأمرين: بذل الجهد في معرفتها علمًا، وأخذ النّفس بالوقوف عندها طلبًا وقصدًا.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: رَجَاءُ أَرْبَابِ القُلُوبِ: وَهُوَ رَجَاءُ لِقَاءِ الخَالِقِ البَاعِثِ عَلَى الإِشْتِيَاقِ، المُبَغِّضِ المُنْغِصِ لِلْعَيْشِ، المُزْهِدِ فِي الخَلْقِ».

هذا الرّجاء أفضل أنواع الرّجاء وأعلاها؛ قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين؛ ولذلك سألهم الله تعالى بإتيان أجل لقاؤه، وضرب لهم أجلاً يسكن نفوسهم ويطمئنهم.

والاشتياق: هو سفر القلب في طلب محبوبه.

واختلف المحبون: هل يبقى عند لقاء المحبوب أم يزول؟ على قولين.

فقال طائفة: يزول؛ لأنه إنما يكون مع الغيبة، وهو سفر القلب إلى المحبوب، فإذا انتهى السفر، واجتمع بمحبوبه، وضع عصا الاشتياق عن عاتقه، وصار الاشتياق أنسا به ولذة بقربه.

وقالت طائفة: بل يزيد ولا يزول باللقاء.

- قالوا: لأنَّ الحبَّ يقوى بمشاهدة جمال المحبوب أضعاف ما كان حال غيبته، وإنما يوارى

سلطانه فناءه ودهشته بمعانينة محبوبه، حتى إذا توارى عنه ظهر سلطان شوقه إليه؛ ولهذا قيل:

وَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ الشُّوقُ يَوْمًا إِذَا دَنَّتِ الْحَيَامُ مِنَ الْحَيَامِ

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاةً وتوابعها في كتابنا الكبير في المحبة<sup>(١)</sup>، وفي كتاب «سفر الهجرتين»<sup>(٢)</sup>، وسنعود إليها إذا انتهينا إلى منزلتها إن شاء الله تعالى.

□ وقوله: «الْمُنْغِصُ لِلْعَيْشِ»: فلا ريب أنَّ عيش المشتاق منغص حتى يلقي محبوبه؛

فهناك تقر عينه، ويزول عن عيشه تنغيصه، وكذلك يزهد في الخلق غاية

التزهيد: لأنَّ صاحبه طالبٌ للأنس باللَّه والقرب منه، فهو أزهد شيءٍ في الخلق،

إلا من أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه، فهو أحبُّ خلق الله إليه، ولا

يأنس من الخلق بغيره، ولا يسكن إلى سواه، فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك،

فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحبًا، ودع الناس كلهم جانبًا.

مُتَّ بَدَاءِ الْهَوَىٰ وَإِلَّا فَخَاطِرٌ      وَاطْرُقِ الْحَيَّ وَالْعَيْوْنَ نَوَاطِرٌ

لَا تَخَفْ وَخَشَةَ الطَّرِيقِ إِذَا جِئْتَ      تَ وَكُنْ فِي خِفَارَةِ الْحُبِّ سَائِرٌ

وَاصْبِرِ<sup>(٣)</sup> النَّفْسَ سَاعَةً عَنِ سَوَاهِمِ      فَإِذَا لَمْ تُجِبْ لِصَبْرِ فَصَابِرِ

وَصُمِ الْيَوْمَ وَاجْعَلِ الْفَطْرَ يَوْمًا      فِيهِ تَلْقَى الْحَيِّبَ بِالْبَشْرِ شَاكِرِ

(١) هذا الكتاب مطبوع باسم: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين».

(٢) وهذا الكتاب مطبوع باسم: «طريق الهجرتين وباب السعادتين».

(٣) في «ع»: (وصبر).

عَيْشٍ بَعْدَ الْفِطَامِ نَحْوِكَ صَائِرٍ  
 سِيٍّ مِنْ اللَّهِ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ  
 هُمُومًا شَتَّى فَرُبُّكَ قَادِرٌ  
 رَبَّهُمْ مِنْ بُطُونِ الْمَقَابِرِ  
 بِهِ مِنْ صِفَاتِ تَلُوحٍ وَسُطِّ الْمَحَاضِرِ  
 قِيَّ عَيَانًا تُجَلِّي عَلَى كُلِّ نَاطِرٍ  
 ثُمَّ صَبْرٌ مُؤَيَّدٌ بِالْبَصَائِرِ  
 يَرْقُ يَوْمَ الْمَزِيدِ فَوْقَ الْمَنَابِرِ  
 بُشْرَى بَدَا يَوْمَ صَرَبِ الْبَشَائِرِ  
 مَعَ سِرِّ هُنَاكَ فِي الْقَلْبِ حَاضِرِ

وَأَفْطِمِ النَّفْسَ عَنِ سِوَاهُ فَكُلُّ الْـ  
 وَتَأَمَّلْ سَرِيرَةَ الْقَلْبِ وَاسْتَحْـ  
 وَاجْعَلِ الْهَمَّ وَاحِدًا يَكْفِيكَ اللَّهُ  
 وَانْتَظِرْ يَوْمَ دَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ  
 وَاسْتَمِعْ مَا الَّذِي بِهِ أَنْتَ تُدْعَى  
 وَسِمَاتٍ تَبْدُو عَلَى أَوْجِهِ الْخَلْدُ  
 يَا أَحَا اللَّبِّ، إِنَّمَا السَّيْرُ عَزْمٌ  
 يَا لَهَا مِنْ ثَلَاثَةٍ مَنْ يَنْهَاهَا  
 فَاجْتَهِدْ فِي الَّذِي يُقَالُ لَكَ الْـ  
 عَمَلٌ خَالِصٌ بِمِيزَانٍ وَحْيٍ

## فصل

### [منزلة الرغبة]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الرّغبة.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَدْعُونَكَ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

والفرق بين الرّغبة والرّجاء: أنّ الرّجاء طمعٌ، والرّغبة طلبٌ، فهي ثمرة الرّجاء؛ فإنّه إذا رجا الشيء طلبه، والرّغبة من الرّجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

والمقصود: أنّ الرّاجي طالبٌ، والخائف هارِبٌ.

□ قال صاحب «المنازل»: «الرّغبة: هي من الرّجاء بِالْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ الرّجاءَ طَمَعٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَحْقِيقٍ، وَالرّغْبَةُ سُلُوكٌ عَلَى التَّحْقِيقِ».

أي: الرّغبة تتولّد من الرّجاء، لكنّه طمعٌ، وهي سلوكٌ وطلبٌ.

□ وقوله: «الرَّجَاءُ طَمَعٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَحْقِيقٍ». أي: طمعٌ في مغيبٍ عنه مشكوكٍ في حصوله، وإن كان متحققًا في نفسه، كرجاء العبد دخول الجنة؛ فإنَّ الجنةَ متحقِّقَةٌ لا شكَّ فيها؛ وإنَّما الشكُّ في دخوله إليها، وهل يوافق ربَّه بعملٍ يمنعه منها أم لا؟ بخلاف الرَّغبة: فإنَّها لا تكون إلا بعد تحقُّق ما يرغب فيه؛ فالإيمان في الرَّغبة أقوى منه في الرَّجاء؛ فلذلك قال: «وَالرَّغْبَةُ سُلُوكٌ عَلَى التَّحْقِيقِ».

هذا معنى كلامه، وفيه نظرٌ، فإنَّ الرَّغبة أيضًا طلب مغيبٍ، هو على شكٍّ من حصوله؛ فإنَّ المؤمن يرغب في الجنة، وليس بجازم بدخولها؛ فالفرق الصَّحيح أنَّ الرَّجاء طمعٌ والرَّغبة طلبٌ؛ فإذا قوي الطمع صار طلبًا.

□ قال: «وَالرَّغْبَةُ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: رَغْبَةُ أَهْلِ الْخَبَرِ، تَتَوَلَّدُ مِنَ الْعِلْمِ، فَتَبْعَتْ عَلَى الْإِحْتِمَادِ الْمُنَوَّطِ بِالشُّهُودِ، وَتَصُونُ السَّالِكَ عَنِ وَهْنِ الْفِتْرَةِ، وَتَمْنَعُ صَاحِبَهَا مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى غَثَائَةِ الرَّخْصِ».

أراد بالخبر هاهنا الإيمان الصادر عن الأخبار؛ ولهذا جعل تولدها من العلم، ولكنَّ هذا الإيمان متَّصلٌ بمنزلة «الإحسان» منه، يشرف عليه، ويصل إليه؛ ولهذا قال: «الْمُنَوَّطُ بِالشُّهُودِ»؛ أي: المقترب بالشُّهود، وذلك الشُّهود: هو مشهد مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، ولا مشهد للعبد في الدنيا أعلى من هذا.

وعند كثيرٍ من الصُّوفيَّة أنَّ فوقه مشهدًا أعلى منه، وهو شهود الحقِّ مع غيبته عن كلِّ ما سواه، وهو مقام الفناء، وقد عرفت ما فيه.

ولو كان فوق مقام «الإحسان» مقامٌ آخر لذكره النَّبِيُّ ﷺ لجبريل، ولسأله جبريل (١) عنه؛ فإنَّه جمع مقامات الدِّين كلَّها في الإسلام والإيمان والإحسان.

نعم؛ الفناء المحمود هو تحقيق مقام الإحسان، وهو أن يفنى بحبِّه وخوفه ورجائه، والتَّوَكُّل عليه وعبادته، والتَّبَتُّل إليه عن غيره، وليس فوق ذلك مقامٌ يطلب، إلا ما هو من عوارض الطَّريق.

قوله: «وَتَصُونُ السَّالِكَ عَنِ وَهْنِ الْفِتْرَةِ»؛ أي: تحفظه عن وهن فتوره وكسله الَّذي سببه عدم الرَّغبة أو قَلَّتْهَا.

وقوله: «وَتَمْنَعُ صَاحِبَهَا مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى غَثَائَةِ الرَّخْصِ»: أهل العزائم بناء أمرهم على الجدِّ

(١) كلمة: (جبريل) غير موجودة في «غ» والمنار.

والصدق، فالشُّكُونُ منهم إلى الرُّخص رجوعٌ وبطالةٌ.

وهذا موضعٌ يحتاج إلى تفصيل؛ ليس على إطلاقه؛ فإنَّ الله ﷻ يحبُّ أن يؤخذ برخصه كما يحبُّ أن يؤخذ بعزائمه.

وفي «المُسْنَدِ» مرفوعاً إلى النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخْصِهِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»<sup>(١)</sup>؛ فجعل الأخذ بالرُّخص قُبالة إتيان المعاصي، وجعل حظُّ هذا: المحبَّة، وحظُّ هذا: الكراهية، و«مَا عُرِضَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَمْرَانِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا»<sup>(٢)</sup>، والرُّخصة أيسر من العزيمة، وهكذا كان حاله في فطره وسفره، وجمعه بين الصَّلَاتَيْنِ، والاقتصار من الرُّبَاعِيَّةِ على ركعتين، وغير ذلك، فنقول:

### الرُّخصة نوعان:

- أحدهما: الرُّخصة المستقرَّة المعلومة من الشَّرْع نَصًّا، كأكل الميتة والدَّم ولحم الخنزير عند الضَّرورة، وإن قيل لها: عزيمةٌ باعتبار الأمر والوجوب، فهي رخصةٌ باعتبار الإذن والتَّوسعة، وكفطر المريض والمسافر، وقصر الصَّلَاة في السَّفَر، وصلاة المريض إذا شقَّ عليه القيام قاعداً، وفطر الحامل والمرضع خوفاً على ولديهما، ونكاح الأمة خوفاً من العنت، ونحو ذلك؛ فليس في تعاطي هذه الرُّخص ما يوهن رغبته، ولا يردُّ إلى غثائته، ولا ينقص طلبه وإرادته ألبتَّة؛ فإنَّ منها ما هو واجبٌ، كأكل الميتة عند الضَّرورة، ومنها ما هو راجح المصلحة، كفطر الصَّائم المريض، وقصر المسافر وفطره، ومنها ما مصلحته للمترخِّص وغيره، ففيه مصلحتان: قاصرةٌ ومتعدِّيةٌ، كفطر الحامل والمرضع، ففعل هذه الرُّخص أرجح وأفضل من تركها.

- النَّوع الثَّانِي: رخص التَّأويلات، واختلاف المذاهب؛ فهذه تتبَّعها حرامٌ ينقص الرَّغبة، ويوهن الطَّلَب، ويرجع بالمترخِّص إلى غثائه الرُّخص.

فإنَّ مَنْ ترخَّص بقول أهل مكَّة في الصَّرف، وأهل العراق في الأشربة، وأهل المدينة في الأطعمة، وأصحاب الحيل في المعاملات، وقول ابن عبَّاسٍ ﷺ في المتعة، وإباحة لحوم الحمر الأهليَّة<sup>(٣)</sup>، وقول من جوَّز نكاح البغايا المعروفات بالبغاء، وجوَّز أن يكون زوج قحبة<sup>(٤)</sup>، وقول من

(١) تقدم تخريجه (٢٥١/٨).

(٢) البخاري في الأنبياء، باب: صفة النبي ﷺ برقم (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل، باب: مباحثته ﷺ للأثام (٢٣٢٧).

(٣) كلمة: (الأهلية غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) القحبة: قال في «اللسان»: «القحاب: السعال... وامرأة قحبة كثيرة السعال مع الهرم، قال الأزهري: قيل للبغوي قحبة لأنها كانت في الجاهلية تؤذن طلابها بقحابها وهو سعالها، وقال ابن سيده: القحبة: الفاجرة وأصله من السعال. أرادوا أنها تسعل أو تتنحج ترمز به». «لسان العرب» (٥/٣٥٣٤).



أباح آلات اللّهُو والمعازف من اليراع والطنبور<sup>(١)</sup>، والعود والطبل والمزمار، وقول من أباح الغناء، وقول من جَوَز استعارة الجوّاري الحسان للوطء، وقول من جَوَز للصّائم<sup>(٢)</sup> أكل البرد، وقال: ليس بطعام ولا شراب، وقول من جَوَز الأكل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشّمس للصّائم، وقول من صحّح الصّلاة بـ«مُدْهَامَتَانِ» بالفارسيّة، وركع كلحظة الطّرف، ثمّ هوى من غير اعتدالٍ، وفصل بين السّجّدين كحدّ السّيف<sup>(٣)</sup>، ولم يصلّ على النّبِيِّ ﷺ، وخرج من الصّلاة بحبقة<sup>(٤)</sup>، وقول من جَوَز وطء النّساء في أعجازهنّ، ونكاح بنته المخلوقة من مائه الخارجة من صلبه حقيقةً، إذا كان ذلك الحمل من زنا، وأمثال ذلك من رخص المذاهب وأقوال العلماء - فهذا الذي تنقص بترخّصه رغبته، ويوهن طلبه، ويلقيه في غثاة الرّخص؛ فهذا لونٌ والأوّل لونٌ.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: رَغْبَةُ أَرْبَابِ الْحَالِ، وَهِيَ رَغْبَةٌ لَا تُبْقِي مِنَ الْمَجْهُودِ مَبْدُوءًا، وَلَا تَدْعُ لِلْهِمَّةِ ذُبُولًا، وَلَا تَتْرُكُ غَيْرَ الْقَصْدِ مَأْمُولًا».

يعني: أنّ الرّغبة الحاصلة لأرباب الحال فوق رغبة أصحاب الخبر؛ لأنّ صاحب الحال كالمضطرّ إلى رغبته وإرادته؛ فهو كالفرّاش الذي إذا رأى الثور ألقى نفسه فيه، ولا يبالي ما أصابه؛ فرغبته لا تدع من مجهوده مقدورًا له إلّا بذله، ولا تدع لهمة وعزيمته فترةً ولا خمودًا، وعزيمته في مزيد بعدد الأنفاس، ولا تترك في قلبه نصيبًا لغير مقصوده؛ وذلك لغلبة سلطان الحال. وصاحب هذه الحال لا يقاومه إلّا حالٌ مثل حاله أو أقوى منه، ومتى لم يصادفه حالٌ تعارضه فله من النفوذ والتأثير بحسب حاله.

□ قال<sup>(٥)</sup>: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: رَغْبَةُ أَهْلِ الشُّهُودِ، وَهِيَ تَشْرُفُ يَصْحَبُهُ تَقِيَّةٌ، تَحْمِلُهُ عَلَيْهَا هِمَّةٌ نَقِيَّةٌ، لَا تُبْقِي مَعَهُ مِنَ التَّفَرُّقِ بَقِيَّةً».

يشير الشّيخ بذلك إلى حالة الفناء التي يحمله عليها همّة نقيّة من أدناس الالتفات إلى ما سوى

(١) اليراع: كما في «لسان العرب»: «القصب واحدة يراعة، أو القصبة التي ينفخ فيها الراعي» (٦/٤٩٥٥)، والطنبور: آلة موسيقية ذات وتر.

(٢) في «غ»: «للصيام».

(٣) في «غ» والمنار: (ثم فصل كحد السيف ولم يتشهد).

(٤) في «غ»: «بحبقة».

والحقيق: والحقيق والحباق: الضراط، وأصله من ضراط المعز. «لسان العرب» (٢/٧٥٧). والمقصود هنا الإشارة إلى

قول أحد المذاهب بأن المصلي لا يلزمه في خروجه من صلاته بعد التشهد الأخير أن يسلم، بل لو خرج بعد ذلك

بأي شيء ينقض الصلاة كالضرطة أو الكلام فإنه بذلك يتحلل من صلاته وصلاته صحيحة، والله أعلم.

(٥) كلمة: (قال) غير موجودة في «غ» والمنار.

الحق، بحيث لا يبقى معه بقية من تفرقة، بل قد اجتمع شاهده كله، وانحصر في مشهوده، وأراد بالشهود هاهنا شهود الحقيقة.

وقوله: «تَشْرُفُ»؛ أي: استشرف الغيبة في الفناء.

ويحتمل أن يريد به تشرفاً عن التفاته إلى ما سوى مشهوده.

والتقية التي تصحب هذا التشرف: يحتمل أن يريد بها التقية من إظهار الناس على حاله، وإطلاعهم عليها، وصيانة لها وغيره عليها.

ويحتمل أن يريد بها الحذر من التفاته في شهوده إلى ما سوى حضرة مشهوده، فهي تتقي ذلك الالتفات وتحذره كل الحذر.

ثم ذكر الحامل (له على هذه الرغبة، وهي اللطيفة المدركة المريدة التي قد تطهرت قبل وصولها)<sup>(١)</sup> إلى هذه الغاية، وهي الهمة النقية، ولو لم يحصل لها كمال الطهارة لبقيت عليها بقية منها تمنعها من وصولها إلى هذه الدرجة، والله سُبْحَانَهُ أعلم.

## فصل

### [منزلة الرعاية]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ تَبَىٰ وَإِيَّاكَ نَسَعِبْتُ﴾ منزلة الرعاية.

وهي مراعاة العلم وحفظه بالعمل، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص، وحفظه من المفسدات، ومراعاة الحال بالموافقة، وحفظه بقطع التفريق، فالرعاية صيانة وحفظ.

ومراتب العلم والعمل ثلاثة:

- رواية: وهي مجرد النقل وحمل المروي.
  - ودراية: وهي فهمه وتعقل معناه.
  - ورعاية: وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه.
- فالتقاة همّتهم الرواية، والعلماء همّتهم الدراية، والعارفون همّتهم الرعاية.

(١) ما بين القوسين سقط من نسخة «غ».

وقد ذمَّ الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حقَّ رعايته؛ فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿رهبانية﴾ منصوبٌ بـ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ على الاشتغال، إمَّا بنفس الفعل المذكور -على قول الكوفيين-، وإمَّا بمقدَّرٍ محذوفٍ مفسَّرٌ بهذا المذكور -على قول البصريين-؛ أي: وابتدعوا رهبانيةً، وليس منصوبًا بوقوع الجعل عليه.

فالوقف التأمُّ عند قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ ثمَّ يتدئ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي: لم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم، ولم نكتبها عليهم.

وفي نصب قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] ثلاثة أوجه:

- أحدها: أنه مفعولٌ له؛ أي: لم نكتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وهذا فاسدٌ، فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه؛ كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها؟! فهي مبتدعةٌ غير مكتوبة؛ وأيضًا فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علَّةً لفعل الفاعل المذكور معه، فيتحد السبب والغاية؛ نحو: قمت إكرامًا؛ فالقائم هو المكرم؛ وفعل الفاعل المعلل هاهنا هو الكتابة و«ابتغاء رضوان الله» فعلهم، لا فعل الله، فلا يصلح أن يكون علَّةً لفعل الله؛ لاختلاف الفاعل.

- وقيل: بدلٌ من مفعول «كُتِبَتْهَا»؛ أي ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وهو فاسدٌ أيضًا؛ إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية، فتكون بدل الشيء من الشيء، ولا بعضها فتكون بدل بعض من كل، ولا أحدهما مشتعلٌ على الآخر، فتكون بدل اشتغال، وليس بدل غلط.

- فالصواب: أنه منصوبٌ نصب الاستثناء المنقطع؛ أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله؛ ودلَّ على هذا قوله: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾، ثمَّ ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداء هذه الرهبانية، وأنه هو طلب الرضوان، ثمَّ ذمَّهم بترك رعايتها؛ إذ من التزم لله شيئًا لم يلزمه الله إيَّاه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه؛ حتَّى ألزم كثيرٌ من الفقهاء من شرع في طاعةٍ مستحبةٍ بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالالتزامها بالنذر؛ كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وهو إجماعٌ -أو كالأجماع- في أحد النُّسكين.

- قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول؛ فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاءً، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتمامًا، وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله ﷻ ذمَّ من لم يرعَ قربةً ابتدعها الله تعالى حقَّ رعايتها؛ فكيف بمن لم يرعَ قربةً شرعها الله لعباده، وأذن بها وحثَّ عليها؟!!

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الرعاية: صونٌ بالعناية، وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: رعاية الأعمال.

والثانية: رعاية الأحوال.

والثالثة: رعاية الأوقات.

فأما رعاية الأعمال: فتوفيرها بتحقيقها، والقيام بها من غير نظر إليها، وإجراؤها

على مجرى العلم، لا على التزين بها».

أما قوله: «صونٌ بالعناية» أي: حفظٌ بالاعتناء، والقيام بحق الشيء الذي يراه، ومنه راعي

الغنم.

وقوله: «أما رعاية الأعمال: فتوفيرها بتحقيقها». فالتوفير: سلامةٌ من طرفي التفریط بالتقص،

والإفراط بالزيادة على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها.

وأما تحقيقها: فاستصغارها في عينه، واستقلالها، وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق

عبوديته أمرٌ آخر، وأنه لم يوفّه حقه، وأنه<sup>(١)</sup> لا يرضى لربه بعمله، ولا بشيء منه.

وقد قيل: علامة رضا الله عنك: إعراضك عن نفسك، وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله،

وصغره في قلبك؛ حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته.

وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثاً<sup>(٢)</sup>.

وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج<sup>(٣)</sup>.

ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل<sup>(٤)</sup>.

(١) كلمة: (أنه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) مسلم (٥٩١)، أبو داود (١٥١٣).

(٣) لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

(٤) لقوله تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَسْعَارِهِمْ بَسْتَفْعِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وشرع النَّبِيُّ ﷺ عقيب الطُّهور التَّوْبَةِ والاستغفار (١).

فمن شهد واجب ربِّه، ومقدار عمله، وعيب نفسه لم يجد بداً من استغفار ربِّه منه، واحتقاره إيَّاه واستصغاره.

وَأَمَّا الْقِيَامُ بِهَا: فَهُوَ تَوَفِّيْتُهَا حَقَّهَا، وَجَعَلَهَا قَائِمَةً كَالشَّهَادَةِ الْقَائِمَةِ، وَالصَّلَاةَ الْقَائِمَةَ، وَالشَّجَرَةَ الْقَائِمَةَ عَلَى سَاقِهَا الَّتِي لَيْسَتْ بِسَاقِطَةٍ.

وَقَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَيْهَا»؛ أي: من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها مخافة العجب والمنة بها، فيسقط من عين الله، ويحبط عمله.

وقوله: «وَأَجْرَاؤُهَا عَلَى مَجْرَى الْعِلْمِ»: هو أن يكون العمل على مقتضى العلم المأخوذ من مشكاة النبوة، إخلاصاً لله، وإرادةً لوجهه، وطلباً لمرضاته، لا على وجه التزُّين بها عند النَّاسِ.

□ قال: «وَأَمَّا رِعَايَةُ الْأَحْوَالِ: فَهُوَ أَنْ يُعَدَّ الْاجْتِهَادَ مُرَاءَةً، وَالْيَقِينَ تَشْبَعًا، وَالْحَالَ دَعْوَى».

أي: يتَّهَمُ نفسه في اجتهاده أنَّه راءى النَّاسِ، فلا يطغى به، ولا يسكن إليه، ولا يعتدُّ به. وَأَمَّا عُدُّهُ الْيَقِينَ تَشْبَعًا: فَالتَّشْبَعُ: افتخار الإنسان بما لا يملكه، ومنه قول النَّبِيِّ ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ نُوْبِي زُورٍ» (٢). وَعُدُّهُ الْيَقِينَ تَشْبَعًا: يحتمل وجهين:

- أحدهما: أن ما حصل له من اليقين لم يكن به، ولا منه، ولا استحَقَّه بعوضٍ، وإنَّما هو فضل الله وعطاؤه، ووديعته عنده، ومجرد منته عليه؛ فهو خلعةٌ خلعها سيِّده (٣) عليه، والعبد (وخلعته ملكه وله) (٤)، فما للعبد في اليقين مدخلٌ، وإنَّما هو متشَبِّعٌ بما هو ملكٌ لله وفضله ومنته على عبده.

- والوجه الثاني: أن يتَّهَمُ يقينه، وأنَّه لم يحصل له اليقين على الوجه الذي ينبغي، بل ما حصل له منه هو كالعاريَّة (لا الملك المستقر) (٥)، فهو متشَبِّعٌ بزعم نفسه بأنَّ اليقين ملكه وله، وليس كذلك،

(١) لقوله ﷺ: «من توضع فأسبغ الوضوء، ثم قال عند فراغه من وضوئه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك ختم عليها بخاتم، فوضعت تحت العرش، فلم يكسر إلى يوم القيامة». رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٨١-٨٢)، والحاكم (١/ ٥٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٦١٧٢).

(٢) رواه البخاري في النكاح، باب: المتشبع بما لم ينل وما ينهى عن افتخار الضرة (٥٢١٩)، رواه مسلم في اللباس، باب: النهي عن التزوير في اللباس وغيره رقم (٢١٢٩) (٢١٣٠).

(٣) كلمة: (سيده) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ»: (وجعلته كل ملكه وله).

(٥) في «غ» والمنار: (والملك المستقر).

وهذا لا يختص باليقين، بل بسائر الأحوال؛ فالصَّادق يعدُّ صدقه تشبُّعًا، وكذا المخلص يعدُّ إخلاصه، وكذا العالم؛ لآتهامه لصدقه وإخلاصه وعلمه، وأنَّه لم ترسخ قدمه في ذلك، ولم يحصل له فيه ملكة، فهو كالمتشبِّع به.

ولمَّا كان اليقين روح الأعمال وعمودها، وذروة سنامها خصَّه بالذكر؛ تنبيهًا على ما دونه. والحاصل: أنَّه يتَّهم نفسه في حصول اليقين، فإذا حصل فليس حصوله به ولا منه، ولا له فيه شيء، فهو يذمُّ نفسه في عدم حصوله، ولا يحمدها عند حصوله. وأما عدُّ (١) الحال دعوى: أي: دعوى كاذبة، آتهامًا لنفسه، وتطهيرًا لها من رعونة الدَّعوى، وتخليصًا للقلب من نصيب الشَّيطان؛ فإنَّ الدَّعوى من نصيب الشَّيطان، وكذلك القلب الساكن إلى الدَّعوى مأوى الشَّيطان، أعاذنا الله من الدَّعوى ومن الشَّيطان.

## فصل

□ قال: «وَأَمَّا رِعَايَةُ الْأَوْقَاتِ: فَإِنَّ يَقِفَ مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ، ثُمَّ أَنْ يَغِيبَ عَن حُضُورِهِ بِالصَّفَاءِ مِنْ رَسْمِهِ، ثُمَّ أَنْ يَذْهَبَ عَن شُهُودِ صَفْوِ صَفْوِهِ» (٢).

أي: يقف مع حركة ظاهره وباطنه بمقدار تصحيحها نيَّةً وقصدًا وإخلاصًا ومتابعةً، فلا يخطو هجمًا وهمجًا، بل يقف قبل الخطو حتَّى يصحَّح الخطوة (٣)، ثمَّ ينقل قدم عزمه، فإذا صحَّت له ونقل قدمه انفصل عنها، وقد صحَّت الغيبة (٤) عن شهودها ورؤيتها، فيغيب عن شهود تقدُّمه بنفسه، فإنَّ رسمه هو نفسه، فإذا غاب عن شهود نفسه وتقدُّمه بها في كلِّ خطوة (٥)، فذلك عين الصَّفاء من رسمه الَّذي هو نفسه، فعند ذلك يشاهد فضل ربِّه.

ولمَّا كانت النَّفس محلَّ الأكدار سُمِّي انفصاله عنها صفاءً، وهذه الأمور تستدعي لطف إدراك، واستعدادًا من العبد؛ وذلك عين المنة عليه.

(١) في «غ» والمنار: (عده).

(٢) كلمة: (صفو) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) كلمة: (الخطوة) غير موجودة في «غ».

(٤) في «غ»: (بالغيبة).

(٥) جملة: (في كل خطوة) غير موجودة في «غ».

وأما ذهابه عن شهود صفوه: أي: لا يستحضره في قلبه، ويشهد ذلك الصّفو المطلوب، ويقف عنده؛ فإنّ ذلك من بقايا النّفس وأحكامها، وهو كدر<sup>(١)</sup>، فإذا تخلّص من الكدر لا ينبغي له الالتفات والرّجوع إليه، فيصفو من الرّسم، ويغيب عن الصّفو بمشاهدة المطلب الأعلى والمقصد الأسنى.

## فصل

### [منزلة المراقبة]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة المراقبة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَآخَذُواهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿الرَّيِّعُ لِيَأَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ﴾ [العلق: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَغْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل عليه السلام: أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله عن الإحسان؟ فقال له: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ،

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»<sup>(٢)</sup>.

«المراقبة»: دوام علم العبد وتيقنه باطّلاع الحقّ صلى الله عليه وآله على ظاهره وباطنه؛ فاستدامته لهذا العلم

واليقين هي «المراقبة»، وهي ثمرة علمه (بأنّ الله سبحانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله)<sup>(٣)</sup>، وهو

(١) في «ع»: نوع، ولعله يقصد: (نوع كدر).

(٢) هو جزء من حديث جبريل الطويل، الذي رواه مسلم في الإيمان، باب: الإيمان والإسلام والإحسان رقم (٨)، (٩) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وآله عن الإيمان والإسلام والإحسان رقم (٥٠).

(٣) في «ع»: (فإنه سبحانه عليه ناظر إليه سامع لقوله).

مطلعٌ على عمله كلَّ وقتٍ، وكلَّ لحظةٍ، وكلَّ نفسٍ، وكلَّ طرفة عينٍ<sup>(١)</sup>، والغافل عن هذا بمعزلٍ عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟  
قال الجريري: «مَنْ لَمْ يُحَكِّمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى التَّقْوَى وَالْمُرَاقَبَةَ لَمْ يَصِلْ إِلَى الْكُشْفِ وَالْمُشَاهَدَةِ».

وقيل: من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه.  
وقيل لبعضهم: «مَتَى يَهْشُ الرَّاعِي غَنَمَهُ بِعَصَاهُ عَنْ مَرَاعِ الْهَلَكَةِ؟ فَقَالَ: إِذَا عَلِمَ أَنَّ عَلَيْهِ رَقِيًّا».

وقال الجنيد: «مَنْ تَحَقَّقَ فِي الْمُرَاقَبَةِ خَافَ عَلَى فَوَاتِ لَحْظَةٍ مِنْ رَبِّهِ لَا غَيْرَ».  
وقال ذو الثون: «عَلَامَةُ الْمُرَاقَبَةِ إِثَارُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَتَعْظِيمُ مَا عَظَّمَ اللَّهُ، وَتَصْغِيرُ مَا صَغَّرَ اللَّهُ».  
وقيل: الرجاء يحرك إلى الطاعة، والخوف يبعد عن المعاصي، والمراقبة تؤدِّيك إلى طريق الحقائق.

وقيل: المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحقِّ مع كلِّ خطرةٍ وخطوةٍ.  
وقال الجريري: «أَمْرُنَا هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى فَضْلَيْنِ: أَنْ تُلْزِمَ نَفْسَكَ الْمُرَاقَبَةَ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ عَلَى ظَاهِرِكَ قَائِمًا».

وقال إبراهيم الخواص: «الْمُرَاقَبَةُ خُلُوصُ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَّةُ لِلَّهِ بِرَبِّكَ».  
وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.  
وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: «إِذَا جَلَسْتَ لِلنَّاسِ فَكُنْ وَعَظًّا لِقَلْبِكَ وَنَفْسِكَ، وَلَا يَغُرَّتْكَ اجْتِمَاعُهُمْ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّهُمْ يَرِاقِبُونَ ظَاهِرَكَ، وَاللَّهُ يَرِاقِبُ بَاطِنَكَ».  
وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سببٌ لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سرِّه حفظه الله في حركاته في سرِّه وعلانيته.

والمراقبة: هي التَّعَبُّدُ بِاسْمِهِ «الرَّقِيبِ، الْحَفِيزِ الْعَلِيمِ، وَالسَّمِيعِ الْبَصِيرِ»، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبَّد بمقتضاها حصلت له المراقبة، والله أعلم.

(١) كلمة: (عين) غير موجودة في «غ» والمنار.



## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «المُرَاقِبَةُ: دَوَامٌ<sup>(١)</sup> مُلَاخِظَةٌ الْمُقْصُودِ، وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ.

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: مُرَاقِبَةُ الْحَقِّ تَعَالَى فِي السَّيْرِ إِلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ، بَيْنَ تَعْظِيمِ مُذْهِلٍ، وَمُدَانَاةٍ حَامِلَةٍ، وَسُرُورٍ بِاعْتِثٍ».

فقوله: «دَوَامٌ مُلَاخِظَةٌ الْمُقْصُودِ»؛ أي: دوام حضور القلب معه.

وقوله: «بَيْنَ تَعْظِيمِ مُذْهِلٍ».

فهو امتلاء القلب من عظمة الله ﷻ؛ بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه، فلا ينسى هذا التَّعْظِيمَ عند حضور قلبه مع الله، بل يستصحبه دائماً؛ فَإِنَّ الحضور مع الله يوجب أنساً ومحبةً، إن لم يقارنهما تعظيمٌ أورثاه خروجاً عن حدود العبودية ورعونةً، فكلُّ حبٍّ لا يقارنه تعظيم المحبوب فهو سببٌ للبعد عنه، والسَّقُوطُ من عينيه.

فقد تَضَمَّنَ كلامه خمسة أمورٍ: سيرٍ إلى الله، واستدامة هذا<sup>(٢)</sup> السَّيرِ، وحضور القلب معه،

وتعظيمه، والذُّهُولُ بعظمته عن غيره.

وأما قوله: «وَمُدَانَاةٍ حَامِلَةٍ». فيريد دنواً وقرباً حاملاً على هذه الأمور الخمسة، وهذا الدُّنُوُّ

يحملة على التَّعْظِيمِ الَّذِي يذهله عن نفسه، وعن غيره، فإنه كلما ازداد قرباً من الحقِّ ازداد له تعظيماً<sup>(٣)</sup>، وذهولاً عن سواه، وبعداً عن الخلق.

وأما السُّرُورُ الباعث فهو الفرحه والتَّعْظِيمِ، واللَّذَّةُ الَّتِي يجدها في تلك المداناة؛ فإنَّ سرور

القلب بالله وفرحه به، وقرّة العين به لا يشبهه شيءٌ من نعيم الدنيا ألبتة، وليس له نظيرٌ يقاس به، وهو حالٌ من أحوال أهل الجنة.

حتى قال بعض العارفين: «إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِي أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا<sup>(٤)</sup>: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا

إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ!».

(١) كلمة: (دوام) غير موجودة في «غ».

(٢) كلمة: (هذا) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (تعظيماً له).

(٤) كلمة: (فيها) غير موجودة في «غ» والمنار.

ولا ريب أن هذا الشُّرور يبعثه على دوام السَّير إلى الله ﷻ، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هذا الشُّرور، ولا شيئاً منه فليتهم إيمانه وأعماله؛ فإنَّ للإيمان حلاوةً من لم يذُقها فليرجع وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته؛ فذكر الذُّوق والوجد، وعلَّقه بالإيمان؛ فقال: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»<sup>(١)</sup>.

وقال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «إِذَا لَمْ تَجِدْ لِلْعَمَلِ حَلَاوَةً فِي قَلْبِكَ وَانْتِشَاحًا فَاتِّهَمُهُ؛ فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى شَكُورٌ».

يعني: أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراحٍ وقرّة عينٍ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخولٌ.

والقصد: أن الشُّرور بالله وقربه وقرّة العين به تبعث على الازدیاد من طاعته، وتحثُّ على الجد<sup>(٣)</sup> في السَّير إليه.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: مُرَاقِبَةُ نَظَرِ الْحَقِّ بِرَفْضِ الْمُعَارِضَةِ، بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْإِعْتِرَاضِ، وَنَقْضِ رُغْوَنَةِ التَّعَرُّضِ».

هذه مراقبةٌ لمراقبة الله لك، فهي مراقبةٌ لصفةٍ خاصّةٍ معيّنة، وهي توجب صيانة الباطن والظاهر.

فصيانة الظَّاهر: بحفظ الحركات الظَّاهرة.

وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التي منها رفض معارضة أمره وخبره، فيتجرّد الباطن من كلّ شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كلّ<sup>(٤)</sup> إرادة تعارض إرادته، ومن كلّ

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب: الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر رقم (٣٤).

(٢) البخاري في الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، وباب: من كره أن يعود في الكفر (١٦، ٢١)، ورواه مسلم في الإيمان، باب: خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٣) في «غ» والمنار: (وتحث على السير إليه).

(٤) جملة: (من كل) ساقطة من «غ» والمنار.

شبهة تعارض خبره، ومن كلَّ محبةً تراحم محبته، وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به، وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين، وكلُّ تجريدٍ سوى هذا فناقص، وهذا تجريد أرباب العزائم.

ثمَّ بيّن الشيخ سبب المعارضة، وبماذا يرفضها العبد؛ فقال: «بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْإِعْتِرَاضِ». فَإِنَّ المعارضة تتولّد من الاعتراض.

والاعتراض ثلاثة أنواع سارية في النَّاسِ، والمعصوم من عصمه الله منها. النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشُّبه الباطلة، التي يسمّيها أربابها قواطع عقلية، وهي في الحقيقة خيالاتٌ جهليّة، ومحالاتٌ ذهنيّة، اعترضوا بها على أسمائه وصفاته عَزَّ وَجَلَّ، وحكموا بها عليه، ونفوا لأجلها ما أثبتته لنفسه، وأثبتته له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأثبتوا ما نفاه، والوا بها أعداءه، وعادوا بها أوليائه، وحرّفوا بها الكلم عن مواضعه، ونسوا<sup>(١)</sup> بها<sup>(٢)</sup> نصيباً كثيراً ممّا ذكروا به، وتقطّعوا لها أمرهم بينهم زبراً، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي، فإذا سلّم القلب له رأى صحّة ما جاء به، وأنه الحقُّ بصريح العقل والفطرة، فاجتمع له السَّمْع والعقل والفطرة، وهذا أكمل الإيمان، ليس كمن الحرب قائمٌ بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره، وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع: - أحدها: المعترضون عليه بأرائهم وأقيستهم، المتضمّنة تحليل ما حرّم الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صحّحه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيّده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي أتفق السلف قاطبةً على ذمّها، والتّحذير منها، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض، وحذّروا منهم، ونفّروا عنهم<sup>(٣)</sup>.

- النوع الثاني<sup>(٤)</sup>: الاعتراض على حقائق الإيمان والشّرع بالأذواق والمواجيد والخيالات،

(١) في «غ» والمنار: (وتركوا).

(٢) في «غ»: (لها).

(٣) في «غ»: (منهم).

(٤) كان ينبغي أن يقال هنا: النوع الثاني: المعترضون... إلخ، لأنه جعل الاعتراض ثلاثة أنواع، وجعل أهل الاعتراض (الثاني) ثلاثة أنواع، وعبر عن الأول من الاعتراض الثاني بقوله: المعترضين. فكان مقتضى التناسب أن يقول في النوع الثاني من الاعتراض الثاني: المعترضون، وكذلك في النوع الثالث، ولو عبر عن أنواع الاعتراض الثاني بالأقسام أو قال: أحدها، الثاني، الثالث؛ لكان أولى، والله أعلم. [من حاشية نسخة المنار (بتصرف يسير)].

والكشوفات الباطلة الشَّيْطَانِيَّة، المتضمَّنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله ﷺ، والتَّعَوُّضُ عن حقائق الإيمان بخدع الشَّيْطَانِ وحطوط النَّفُوسِ الجاهلة<sup>(١)</sup>.

والعجب أن أربابها ينكرون على أهل الحطوط، وكلُّ ما هم فيه فحظٌّ، ولكنَّ حَظَّهُمْ متضمَّنٌ مخالفة مراد الله، والإعراض عن دينه، واعتقاد أنَّه قرْبَةٌ إلى الله؛ فأين هذا من حطوط أصحاب الشَّهوات المعترفین بذمِّها، المستغفرين منها، المقرِّين بنقصهم وعيبيهم، وأنَّها منافيةٌ للدين؟!!

وهؤلاء في حطوطٍ اتَّخذوها دينًا، وقدَّموها على شرع الله ودينه، واغتالوا بها القلوب، واقتطعوها عن طريق الله؛ فتولَّد من معقول أولئك وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدِّين، وتفاقم الأمر وكاد لولا أن الله ضمنَّ أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبيِّن معالمه، ويحميه من كيد من يكيد<sup>(٢)</sup>.

النَّوع الثَّالث: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدَّموها على حكم الله ورسوله، وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل قدَّمنا العقل.

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس قدَّمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف والوجد: إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع قدَّمنا الذوق والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع قدَّمنا السياسة.

فجعلت كلُّ طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتًا يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل ولنا العقل.

والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثارٍ وأخبارٍ، ونحن أصحاب أقيسةٍ وآراءٍ وأفكارٍ.

وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق.

والآخرون يقولون: لكم الشرع ولنا السياسة<sup>(٣)</sup>.

(١) كلمة: (الجاهلة) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (كاده).

(٣) رحم الله هذا الإمام الرباني فكانه يعني العلمانيين في زماننا اليوم، والذين يقولون لعلماء الشريعة المطالبين بتحكيم

الشرع في الصغير والكبير: لكم الشرع ولنا السياسة، وما للدين والسياسة وما للدين والاقتصاد، وما للدين ولباس

المرأة وعملها... إلخ هذه الاعتراضات التي يتفوهون بها ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

﴿٥﴾

[الكهف: ٥].

فيا لها من (١) بليّة عمّت فأعمت، ورزيّة رمت فأصمّت، وفتنة دعت القلوب فأجابه كلُّ قلبٍ مفتونٍ، وأهوية عصفت فصمّت منها الآذان، وعميت منها العيون.

عطلت لها والله معالم الأحكام، كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام، واستند كلُّ قومٍ إلى ظلم وظلمات (٢) آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، وصار لأجلها الوحي عرضة لكلِّ تحريفٍ وتأويلٍ، والدّين وقفًا على كلِّ إفسادٍ وتبديلٍ (٣).

النوع الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره، وهذا اعتراض الجهّال، وهو ما بين جلّي وخفيّ، وهو أنواعٌ لا تحصى.

وهو سارٍ في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم، ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله، لرأى ذلك في قلبه عيانًا؛ فكلُّ نفسٍ معتريضةٌ على قدر الله وقسمه وأفعاله، إلاّ نفسًا قد اطمأنّت إليه، وعرفته حقّ المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها، فتلك حظُّها التّسليم والانقياد، والرّضا كلُّ الرّضا.

وأما نقض رُعوّة التّعريض: فيشير به إلى معنى آخر لا تتمّ المراقبة عنده إلاّ بنقضه، وهو إحساس العبد بنفسه وخواطره وأفكاره حال المراقبة والحضور مع الله؛ فإنّ ذلك تعرّضٌ منه لحجاب الحقّ له عن كمال الشّهود؛ لأنّ بقاء العبد مع مداركه وحوائسه ومشاعره، وأفكاره وخواطره، عند الحضور والمشاهدة، هو تعرّضٌ للحجاب؛ فينبغي أن تتخلّص مراقبة نظر الحقّ إليك من هذه الآفات، وذلك يحصل بالاستغراق في الذّكر، فتذهل به عن نفسك وعمّا منك؛ لتكون بذلك متهيّئًا مستعدًّا للفناء عن وجودك، وعن وجود كلِّ ما سوى المذكور سبحانه.

وهذا التّهيؤ والاستعداد لا يكون إلاّ بنقض تلك الرّعوّة، والذّكر يوجب الغيبة عن الحسّ،

(١) كلمة: (من) غير موجود في «غ» والمنار.

(٢) كلمة: (وظلمات) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) رحم الله الإمام ابن القيم فكيف لو خرج في زماننا اليوم ورأى طواغيت العصر المبدلين لشرع الله ﷻ الذين حكموا في دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم وسياساتهم كلها بالقوانين الوضعية التي جاءوا بها من الغرب أو الشرق وقدموها على شرع الله ﷻ وألزموا الناس بها وحاربوا من حاربها ووالوا من والاهما!

إن المسلمين اليوم لفي حاجة -بل ضرورة- إلى مثل هذا الإمام الرباني ليقول كلمة الحق في هذا الكفر المستبين والشرك المستطير الذي عم أكثر بلدان المسلمين، وذلك حتى يبصر الناس طريقهم ويزول عنهم اللبس والتضليل ويتراءى من الشرك وأهله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[الأنفال: ٤٢].

فمن كان ذاكرًا لنظر الحقِّ إليه من إقباله عليه، ثمَّ أحسَّ بشيءٍ من حديث نفسه وخواطره وأفكاره - فقد تعرَّض واستدعى عوالم نفسه، واحتجاب المذكور عنه؛ لأنَّ حضرة الحقِّ تعالى لا يكون فيها غيره.

وهذه الدرَّجة لا يقدر عليها العبد إلاَّ بملكةٍ قويَّةٍ من الذِّكر، وجمع القلب فيه بكليَّته على الله ﷻ.

## فصلٌ

□ قال: «الدرَّجَةُ الثَّالِثَةُ: مُرَاقِبَةُ الْأَزْلِ، بِمُطَالَعَةِ عَيْنِ السَّبْقِ اسْتِقْبَالًا لِعَلَمِ التَّوْحِيدِ، وَمُرَاقِبَةُ ظُهُورِ إِشَارَاتِ الْأَزْلِ عَلَى أَحْيَائِنِ الْأَبَدِ، وَمُرَاقِبَةُ الْإِخْلَاصِ مِنْ وَرَطَةِ الْمُرَاقِبَةِ».

قوله: «مُرَاقِبَةُ الْأَزْلِ»؛ أي: شهود معنى الأزل، وهو القِدَمُ الَّذِي لا أَوَّلَ له «بِمُطَالَعَةِ عَيْنِ السَّبْقِ»؛ أي: بشهود سبق الحقِّ تعالى لكلِّ ما سواه؛ إذ هو الأوَّلُ الَّذِي ليس قبله شيءٌ، فمتى طالع العبد عين هذا السَّبْقِ شهد معنى الأزل، وعرف حقيقته، فبدأ له حينئذٍ علم التَّوْحِيدِ، فاستقبله كما يستقبل أعلام البلد، وأعلام الجيش، ورفع له فشمَّر إليه، وهو شهود انفراد الحقِّ بأزليَّته وحده، وأنَّه كان ولم يكن شيءٌ غيره ألبتَّة، وكلُّ ما سواه فكائنٌ (بعد عدمه بتكوينه)<sup>(١)</sup>، فإذا عدت الكائنات من شهوده، كما كانت معدومةً في الأزل، فطالع عين السَّبْقِ، وفني بشهود من لم يزل عن شهود من لم يكن؛ فقد استقبل علم التَّوْحِيدِ.

وَأَمَّا «مُرَاقِبَةُ ظُهُورِ إِشَارَاتِ الْأَزْلِ عَلَى أَحْيَائِنِ الْأَبَدِ»: فقد تقدَّم أنَّ ما يظهر في الأبد هو عين ما كان معلومًا في الأزل، وأنَّه إنَّما تجددت أحايينه، وهي أوقات ظهوره، فقد ظهرت إشارات الأزل، وهي ما يشير إليه العقل بالأزليَّة من المقدِّرات العلميَّة على أحايين الأبد، هذا معناه الصَّحيح عندي. والقوم يريدون به معنَى آخر: وهو اتِّصال الأبد بالأزل في الشُّهود، وذلك بأن يطوي بساط الكائنات عن شهوده طيًّا كليًّا، ويشهد استمرار وجود الحقِّ سبحانه وحده، مجردًا عن كلِّ ما سواه، فيصل بهذا الشُّهود الأزل بالأبد، ويصيران شيئًا واحدًا، وهو دوام وجوده سبحانه، بقطع النَّظَرِ عن كلِّ حادثٍ.

(١) في «غ» والمنار: (بتكوينه بعد عدمه).

- والشُّهُودُ الأوَّلُ أكمل وأتمُّ: وهو متعلِّقٌ بأسمائه وصفاته، وتقدُّم علمه بالأشياء، ووقوعها في الأبد مطابقةً لعلمه الأزليِّ، فهذا الشُّهُود يعطي إيمانًا ومعرفةً، وإثباتًا للعلم والقدرة، والفعل والقضاء والقدر.

- وأمَّا الشُّهُودُ الثَّانِي: فلا يعطي صاحبه معرفةً ولا إيمانًا، ولا إثباتًا لاسمٍ ولا صفةٍ، ولا عبوديَّةً نافعةً، وهو أمرٌ مشتركٌ، يشهده كلُّ من أقرَّ بالصَّانع، من مسلمٍ وكافرٍ، فإذا استغرق في شهود أزلَّيته، وتفرَّده بالقدم، وغاب عن الكائنات - اتَّصل في شهوده الأزل بالأبد، فأَيُّ كبير أمرٍ في هذا؟ وأيُّ إيمانٍ ويقينٍ يحصل به؟ ونحن لا ننكر ذوقه، ولا نقدح في وجوده؛ وإنَّما نقدح في مرتبته وتفضيله على ما قبله من المراقبة، بحيث يكون لخاصَّة الخاصَّة، وما قبله لمن هم دونهم، فهذا عين الوهم، والله الموفق.

فإذا اتَّصل في شهود الشَّاهد الأزل الَّذي لا بداية له بالأزمنة التي يعقل لها بدايةً - وهي أزمنة الحوادث -، ثمَّ اتَّصل ذلك بما لا نهاية له، بحيث صارت الأزمنة الثلاثة واحدًا، لا ماضي فيه، ولا حاضر، ولا مستقبل، وذلك لا يكون إلَّا إذا شهد فناء الحوادث فناءً مطلقًا، وعدمها عدَمًا كليًّا، وذلك تقديرٌ وهميٌّ مخالفٌ للواقع، وهو تجريدٌ خياليٌّ، يوقع صاحبه في بحرٍ طامسٍ لا ساحل له، وليلٍ دامسٍ لا فجر له.

فأين هذا من مشهد تنوع الأسماء والصفات، وتعلُّقها بأنواع الكائنات، وارتباطها بجميع الحادثات؟! وإعطاء كلِّ اسمٍ منها وصفةً حقَّها من الشُّهُود والعبوديَّة؟! والنَّظَرُ إلى سريان آثارها في الخلق والأمر، والعالم العلويِّ والسُّفليِّ، والظَّاهر والباطن، ودار الدُّنيا ودار الآخرة؟ وقيامه بالفرق والجمع في ذلك علمًا ومعرفةً وحالًا؟! والله المستعان.

قوله: «وَمُرَاقِبَةُ الْإِخْلَاصِ مِنْ وَرَاطَةِ الْمُرَاقِبَةِ». يشير إلى فناء شهود المراقب عن نفسه وما منها، وأنَّه يفنى بمن يراقبه عن نفسه وما منها، فإذا كان باقياً بشهود مراقبته فهو في ورطتها لم يتخلَّص منها؛ لأنَّ شهود المراقبة لا يكون إلَّا مع بقائه، والمقصود إنَّما هو الفناء والتخلُّص من نفسه ومن صفاتها وما منها.

وقد عرفت أنَّ فوق هذا درجةً أعلى منه وأرفع وأشرف، وهي مراقبة مواقع رضا الرَّبِّ ومساخطه في كلِّ حركةٍ، والفناء عمَّا يسخطه بما يحبُّ، والتفرُّق له وبه وفيه، ناظرًا إلى عين جمع العبوديَّة، فانيًا عن مراده من ربِّه - مهما<sup>(١)</sup> علا - بمراد ربِّه منه، والله ﷻ أعلم.

(١) في «ع»: (ولو).

## فصل

## [ منزلة تعظيم حرمان الله ﷻ ]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة تعظيم حرمان الله ﷻ.  
قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].  
قال جماعة من المفسرين: «حُرْمَاتُ اللَّهِ هَاهُنَا مَعَاذِبُهُ، وَمَا نَهَى عَنْهُ، وَتَعْظِيمُهَا تَرْكُ مُلَابَسَتِهَا».

قال الليث: «حُرْمَاتُ اللَّهِ: مَا لَا يَحِلُّ انْتِهَاكُهَا».  
وقال قوم: «الْحُرْمَاتُ: هِيَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ».  
وقال الزجاج: «الْحُرْمَةُ: مَا وَجِبَ الْقِيَامُ بِهِ، وَحُرْمُ التَّفْرِيطُ فِيهِ».  
وقال قوم: «الْحُرْمَاتُ هَاهُنَا: الْمَنَاسِكُ، وَمَشَاعِرُ الْحَجِّ زَمَانًا وَمَكَانًا».  
والصواب: أن الحرمان تعم هذا كله، وهي جمع حرمة، وهي ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن، فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة.  
□ قَالَ صَاحِبُ «الْمَنَازِلِ»: «الْحُرْمَةُ: هِيَ التَّحْرُجُ عَنِ الْمُخَالَفَاتِ وَالْمُجَاسَرَاتِ».

«التَّحْرُجُ»: الخروج من حرج المخالفة، وبناء «تَفَعَّلَ» يكون للدُّخُولِ فِي الشَّيْءِ، كـ«تَمَنَّى» إذا دخل في الأمنيَّة، و«تَوَلَّجَ» في الأمر: دخل فيه، ونحوه، وللخروج منه، كتخريج وتحوُّب وتأثم، إذا أراد الخروج من الحرج، والحبوب هو الإثم.  
أراد أن الحرمة هي الخروج من حرج المخالفة، وجسارة الإقدام عليها، ولما كان المخالف قسمين جاسراً وهائباً قال: «عَنِ الْمُخَالَفَاتِ وَالْمُجَاسَرَاتِ».  
□ قَالَ: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: تَعْظِيمُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، لَا خَوْفًا مِنَ الْعُقُوبَةِ، فَتَكُونُ حُصُومَةً لِلنَّفْسِ، وَلَا طَلَبًا لِلْمُتُوبَةِ، فَيَكُونُ مُسْتَشْرِفًا لِلْأَجْرَةِ، وَلَا مُشَاهِدًا لِأَحَدٍ، فَيَكُونُ مُتَزَيِّتًا بِالْمُرَاءَةِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ كُلَّهَا مِنْ شُعَبِ عِبَادَةِ النَّفْسِ».  
هذا الموضوع يكثر في كلام القوم.



والنَّاسَ بَيْنَ مَعْظَمٍ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ، مَعْتَقِدٌ أَنَّ هَذَا أَرْفَعُ دَرَجَاتِ الْعِبَادَةِ: أَلَّا يَعْبُدُ اللَّهَ وَيَقُومُ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَلَا طَمَعًا فِي ثَوَابِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا وَاقِفٌ مَعَ غَرَضِهِ وَحِطُّ نَفْسِهِ، وَأَنَّ الْمَحَبَّةَ تَأْبَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْمَحَبَّ لَا حِطَّ لَهُ مَعَ مَحْبُوبِهِ، فَوْقُوفَهُ مَعَ حِطِّهِ عِلَّةٌ فِي مَحَبَّتِهِ، وَأَنَّ طَمَعَهُ فِي الثَّوَابِ تَطَلُّعٌ إِلَى أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ بِعَمَلِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَجْرَةً؛ فَفِي هَذَا آفَتَانِ: تَطَلُّعُهُ إِلَى الْأَجْرَةِ، وَإِحْسَانُ ظَنِّهِ بِعَمَلِهِ؛ إِذْ تَطَلُّعُهُ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ الْأَجْرِ<sup>(١)</sup> وَخَوْفُهُ مِنَ الْعِقَابِ خِصُومَةٌ لِلنَّفْسِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَخَاصِمُهَا إِذَا خَالَفتْ، وَيَقُولُ: أَمَا تَخَافِينَ النَّارَ، وَعَذَابَهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا؟ فَلَا تَزَالُ الْخِصُومَةُ بِذَلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.

وَمِنْ وَجْهِ آخَرَ أَيْضًا: وَهُوَ أَنَّهُ كَالْمَخَاصِمِ عَنِ نَفْسِهِ، الدَّافِعُ عَنْهَا خِصْمَهُ الَّذِي يَرِيدُ هَلَاكَهُ، وَهُوَ عَيْنُ الْإِهْتِمَامِ بِالنَّفْسِ، وَالْإِلْتِفَاتِ إِلَى حِظْوِظِهَا، مَخَاصِمَةٌ عَنْهَا، وَاسْتِدْعَاءٌ لِمَا تَلْتَدُّ بِهِ.

وَلَا يَخْلُصُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَخَاصِمَةِ وَذَلِكَ الْاسْتِشْرَافُ إِلَّا تَجْرِيدُ الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ، بَلْ يَقُومُ بِهِ تَعْظِيمًا لِلْأَمْرِ النَّاهِي، وَأَنَّهُ أَهْلٌ أَنْ يُعْبَدَ، وَتَعْظُمَ حِرْمَاتُهُ، فَهُوَ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَالتَّعْظِيمَ وَالْإِجْلَالَ لِذَاتِهِ.

كَمَا فِي الْأَثَرِ الْإِسْرَائِيلِيِّ: «لَوْ لَمْ أَخْلُقْ جَنَّةً وَلَا نَارًا، أَمَا كُنْتُ أَهْلًا أَنْ أُعْبَدَ؟»<sup>(٢)</sup>.

وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

هَبِ الْبُعْثَ لَمْ تَأْتِ تَرْسُلُهُ      وَجَاحِمَةَ النَّارِ لَمْ تُضْرَمِ  
أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقُّ      قِي عَالِي ذِي الْوَرَى الشُّكْرُ لِلْمُنْعَمِ<sup>(٣)</sup>

فَالنَّفُوسُ الْعَلِيَّةُ الزَّكِيَّةُ تَعْبُدُهُ لِأَنَّهُ أَهْلٌ أَنْ يَعْبُدَ، وَيَجَلُّ وَيَحَبُّ وَيَعْظُمُ؛ فَهُوَ لِذَاتِهِ مُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ<sup>(٤)</sup>.

- قَالُوا: وَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ كَأَجِيرِ السُّوءِ؛ إِنْ أُعْطِيَ أَجْرَهُ عَمَلًا، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَعْمَلْ؛ فَهَذَا عَبْدُ الْأَجْرَةِ لَا عَبْدَ الْمَحَبَّةِ وَالْإِرَادَةِ.

- قَالُوا: وَالْعَمَّالُ شَاخِصُونَ إِلَى مَنزِلَتَيْنِ: مَنزِلَةُ الْآخِرَةِ، وَمَنزِلَةُ الْقُرْبِ مِنَ الْمَطَاعِ.

قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ نَبِيِّهِ دَاوُدَ: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَقَابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٢٥]؛ فَالزُّلْفَى مَنزِلَةُ

الْقُرْبِ، وَحَسَنَ الْمَقَابِ حَسَنَ الثَّوَابِ وَالْجِزَاءِ.

(١) فِي «ع» وَالْمَنَارِ: (اسْتِحْقَاقُ الْأَجْرِ بِهِ).

(٢) فِي «ع» وَالْمَنَارِ: سَقَطَ مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ وَوَجَدَ مَكَانَهَا الْجُمْلَةُ التَّالِيَةُ: (وَلَوْ لَمْ يَخْلُقْ جَنَّةً وَلَا نَارًا لَكِنِ أَهْلًا أَنْ يَعْبُدَ).

(٣) فِي «ع» وَالْمَنَارِ: (حِيَاءُ الْعِبَادِ مِنَ الْمُنْعَمِ).

(٤) كَلِمَةٌ: (قَالُوا) غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِي «ع» وَالْمَنَارِ.

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٤٦].

فالحسنى: الجزاء، والزيادة: منزلة القرب؛ ولهذا فسرت بالنظر إلى وجه الله ﷻ. وهذان هما اللذان وعدهما فرعون للسحرة إن غلبوا موسى؛ فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْغَيْبِ بِنُحُورٍ مِّمَّا يَخِيتُوكَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. قالوا: والعارفون عملهم على المنزلة والدرجة، والعمل عملهم على الثواب والأجرة، وشتان ما بينهما.

## فصل

وطائفة ثانية: تجعل هذا الكلام من شطحات القوم ورعوناتهم، وتحتج بأحوال الأنبياء والرسل (١) والصدّيقين، ودعائهم وسؤالهم (٢)، والثناء عليهم بخوفهم من النار، ورجائهم للجنة، كما قال تعالى في حق خواص عباده الذين عبدتهم المشركون: إنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه - كما تقدّم -.

وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَنُذِرُوا نَارًا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُمْ﴾ [إِنَّمَا كَانُوا يُسَكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ] [الأنبياء: ٨٩، ٩٠]. أي: رغبا فيما عندنا، ورهبا من عذابنا، والضمير في قوله: «إنهم» عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين. والرغب والرهب: رجاء الرحمة والخوف من النار عندهم أجمعين.

وذكر سبحانه عباده الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منها: استعاضتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا] [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

(١) كلمة: (والرسل) غير موجودة في «غ».

(٢) كلمة: (سؤالهم) غير موجودة في «غ».

وأخبر عنهم: أَنَّهُمْ تَوَسَّلُوا إِلَيْهِ بِإِيْمَانِهِمْ أَنْ يَنْجِيَهُمْ مِنَ النَّارِ؛ [فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَاكَ فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦)] ﴿آل عمران: ١٦﴾.

فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار [١].  
وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الألباب: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ جَنَّتَهُ، وَيَتَعَوَّدُونَ بِهِ مِنْ نَارِهِ؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩).  
الآيات إلى آخرها [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥]، ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله: هي الجنة التي سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢) ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٣) ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٤) ﴿وَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٥) ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّئِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٦) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٧) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٩) [الشعراء: ٨٢ - ٨٩]؛ فسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار، وهو الخزي يوم البعث.

وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أَنَّهُا كَانَتْ وَعْدًا عَلَيْهِ مَسْئُولًا (٣)؛ أي: يسأله إياها عباده وأولياؤه.  
وأمر النبي ﷺ أَنَّهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا لَهُ فِي وَقْتِ الْإِجَابَةِ - عَقِيبَ الْأَذَانِ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ «مَنْ سَأَلَهَا لَهُ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتُهُ» (٤).

وَقَالَ لَهُ سَلِيمُ الْأَنْصَارِيُّ: أَمَّا إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَأَسْتَعِيدُّ بِهِ مِنَ النَّارِ، لَا أَحْسِنُ دُنْدَنْتَكَ وَلَا دُنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «أَنَا وَمُعَاذٌ حَوْلَهَا تُدْنِدُنُ» (٥).

وفي الصحيح - في حديث الملائكة السبارة الفضل عن كتاب الناس (٦) -: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْأَلُهُمْ عَنْ عِبَادِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاكَ مِنْ عِنْدِ عِبَادِكَ لَكَ يَهْلُلُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ،

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: أسقط الآيات التي بعدها واكتفى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢) ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٣).

(٣) يعني: قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَأَنَّ رِيحًا عَلَى رِيحٍ وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ (١٦) [الفرقان: ١٦].

(٤) رواه البخاري في الأذان، باب: الدعاء عند النداء برقم (٦١٤)، ومسلم في الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه (٣٨٤).

(٥) تقدم تخريجه (ص ٤٨، ١٣٢).

(٦) المقصود (بالملائكة السبارة الفضل عن كتاب الناس): ما ذكره الإمام ابن حجر - رحمه الله تعالى - في «الفتح»... بقوله: «إنهم زائدون على الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق لا وظيفة لهم إلا حلق الذكر». «فتح الباري» (١١/٢١٥).

وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ. فَيَقُولُ ﷺ: وَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا يَا رَبِّ، مَا رَأَوْكَ. فَيَقُولُ ﷺ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا لَكَ أَشَدَّ تَمَجِيدًا. قَالُوا: يَا رَبِّ، وَيَسْأَلُونَكَ جَنَّتِكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوَهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا وَعِزَّتِكَ مَا رَأَوَهَا. فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوَهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوَهَا لَكَانُوا لَهَا أَشَدَّ طَلْبًا. قَالُوا: وَيَسْتَعِيدُونَ بِكَ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ ﷺ: وَهَلْ رَأَوَهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا وَعِزَّتِكَ مَا رَأَوَهَا. فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوَهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوَهَا لَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا هَرْبًا. فَيَقُولُ: إِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَعَدْتُ لَهُمْ مِمَّا اسْتَعَاذُوا<sup>(١)</sup>.

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار، والخوف منها.

- قالوا: وقد قال النبي ﷺ لأصحابه: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال لمن سأله مرافقته في الجنة: «أَعَنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»<sup>(٣)</sup>.

- قالوا: والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود الشارع من أمته ليكونا دائماً على ذكرٍ منهما فلا ينسونهما، ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة، والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار هو محض الإيمان.

- قالوا: وقد حَضَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهَا أَصْحَابَهُ وَأُمَّتَهُ، فوصفها وجأها لهم ليخطبوها، وقال: «أَلَا مُشْمَرٌ لِلْجَنَّةِ؟ فَإِنَّهَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَنَالُ الْأُفُوقَ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَرُ، وَرَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ، وَفَاكِهِةٌ نَضِيجَةٌ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَرِّدٌ»... الحديث، فقال الصحابة: يا رسول الله، نحن المشمرون لها. فقال: «قُولُوا: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ»<sup>(٤)</sup>.

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله: مَنْ عَمِلَ كَذًا وَكَذًا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ تَحْرِيفًا عَلَى عَمَلِهِ لَهَا، وأن تكون هي الباعثة على العمل لطال ذلك جدًّا، وذلك في جميع الأعمال.

- قالوا: فكيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولًا ورسول الله ﷺ يحرض

(١) رواه البخاري في الدعوات، باب: فضل ذكر الله ﷻ (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب: فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٣٢).

(٣) مسلم في الصلاة، باب: فضل السجود والحث عليه (٤٨٩)، وأبو داود في الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣٢٠).

(٤) رواه ابن ماجه في الزهد، باب: صفة الجنة عن أسامة بن زيد رضي الله عنه رقم (٤٣٣٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» برقم (٩٤٦).

عليه، ويقول: «من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية»<sup>(١)</sup> و«من قال: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ؛ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»<sup>(٢)</sup>.

و«مَنْ كَسَا مُسْلِمًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ»<sup>(٣)</sup>.

و«عَائِدُ الْمَرِيضِ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ»<sup>(٤)</sup>.

والحديث مملوءٌ من ذلك؟!!

أفتراه يحرض المؤمنين على مطلبٍ معلولٍ ناقصٍ، ويدع المطلب العالي البريء من شوائب العلل لا يحرضهم عليه؟!!

- قالوا: وأيضًا فالله سبحانه يحبُّ من عباده أن يسألوه جنَّته، ويستعينوا به من ناره؛ فإنَّه يحبُّ أن يُسأل، ومن لم يسأله يغضب عليه، وأعظم ما سئل الجنَّة، وأعظم ما استعبد به من النَّار. فالعمل لطلب الجنَّة محبوبٌ للرَّبِّ، مرضيٌّ له، وطلبها عبوديَّةٌ للرَّبِّ، والقيام بعبوديته كلُّها أولى من تعطيل بعضها.

- قالوا: وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنَّة والنَّار، ورجاء هذه والهرب من هذه فترت عزائمه، وضعفت همَّته، ووهى باعته، وكلَّما كان أشدَّ طلبًا للجنَّة، وعملاً لها كان الباعث له أقوى، والهمَّة أشدَّ، والسَّعي أتمَّ، وهذا أمرٌ معلومٌ بالدُّوق.

- وقالوا: ولو لم يكن هذا مطلوبًا للشَّارع لما وصف الجنَّة للعباد، وزينها لهم، وعرضها عليهم، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه أخبرهم به مجملًا، كلُّ هذا تشويقًا لهم إليها، وحثًا لهم على السَّعي لها سعيها.

- قالوا: وقد قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، وهذا حثٌّ على إجابة هذه الدَّعوة، والمبادرة إليها، والمشاركة في الإجابة.

(١) من ذلك حديث: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء». رواه مسلم في الإيمان، باب: أنه من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً برقم (٢٨).

(٢) الترمذي في الدعوات، باب (٦٠) بلفظ: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده...»، وقال: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر. وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٧٥٧).

(٣) الترمذي في صفة القيامة، باب رقم (٤١)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» رقم (٤٤٣).

(٤) رواه مسلم في البر والصلاة، باب: فضل عيادة المريض (٢٥٦٨)، والترمذي في الجنائز، باب: ماجاء في عيادة المريض، وقال: حسن صحيح.

والتحقيق أن يقال: الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحوار العين، والأنهار والقصور، وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة؛ فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل، ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرّة العين بالقرب منه ورضوانه؛ فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصّور إلى هذه اللذة أبدًا، فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وأتى به منكرًا في سياق الإثبات؛ أي: أي شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

قَلِيلٌ مِنْكَ يُقْنِعُنِي وَلَكِنْ قَلِيلٌ لَّكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ

وفي الحديث الصحيح - حديث الرؤية -: «فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إلي وجهه»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث آخر: «أنه سبحانه إذا تجلّى لهم ورأوا وجهه عيانًا نسوا ما هم فيه من النعيم، وذهلوا عنه، ولم يلتفتوا إليه»<sup>(٢)</sup>.

ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجل ممّا يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولاسيما عند فوز المحيّن هناك بمعية المحبّة؛ فإن المرء مع من أحبّ، ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت شاهدًا وغائبًا.

فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرّة عين، وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها، وقرّة العين بها؟!<sup>(٣)</sup>.

وهل فوق نعيم قرّة العين بمعية المحبوب، الذي لا شيء أجلّ منه، ولا أكمل ولا أجمل - قرّة عين البتّة؟! وهذا هو العلم الذي شمّر إليه المحبّون، واللواء الذي أمّه العارفون، وهو روح

(١) مسلم في الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة (١٨٠)، والترمذي في صفة الجنة، باب: ماجاء في رؤية الرب تبارك وتعالى.

(٢) روى هذا المعنى ابن ماجه في «سننه» برقم (١٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطر لهم نور، فرفعوا رؤوسهم؛ فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال: وذلك قول الله: سلام قولًا من رب رحيم، قال: فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه...» الحديث. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» برقم (٣٣).

(٣) في هامش «غ» والمنار وجدت هذه الجملة: (وقال المصنف رحمه الله وعفا عنه: أعلى النعيم نعيم رؤية وجهه سبحانه لساكني الجنان، وأشد شيء في العذاب حجابته تعالى عن ساكني النار، والله لولا رؤية الرحمن في الجنة ما طابت لذي العرفان).

مسمّى الجنة وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت.

فكيف يقال: لا يعبد الله طلباً لجنّته، ولا خوفاً من ناره؟

وكذلك النَّارُ أعاذنا الله منها؛ فإنَّ لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانتة، وغضبه وسخطه، والبعد عنه أعظم من التهاب النَّارِ في أجسامهم وأرواحهم، بل التهاب هذه النَّارِ في قلوبهم هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم<sup>(١)</sup>، ومنها سرت إليها.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصّديقين والشّهداء والصّالحين هو الجنّة، ومهرّبهم من النَّارِ. والله المستعان، وعليه التّكلان، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ومقصد القوم: أنّ العبد يعبد ربّه بحقّ العبوديّة، والعبد إذا طلب من سيّده أجره على خدمته له كان أحق، ساقطاً من عين سيّده، إن لم يستوجب عقوبته، إذ عبوديته تقتضي خدمته له، وإنّما يخدم بالأجرة من لا عبوديّة للمخدوم عليه؛ إمّا أن يكون حرّاً في نفسه، أو عبداً لغيره، وأمّا من الخلق عبيده حقّاً، وملكه على الحقيقة، ليس فيهم حرٌّ ولا عبداً لغيره فخدمتهم له بحقّ العبوديّة، فافتضاؤهم للأجرة خروج عن محض العبوديّة.

وهذا لا ينكر على الإطلاق، ولا يقبل على الإطلاق، وهو موضع تفصيل وتمييز.

وقد تقدّم في أوّل الكتاب ذكر طرق الخلق في هذا الموضوع، وبيّنا طريق أهل الاستقامة.

\* فالنّاس في هذا المقام أربعة أقسام:

﴿أحدهم﴾: من لا يريد ربّه ولا يريد ثوابه؛ فهؤلاء أعداؤه حقّاً، وهم أهل العذاب الدّائم، وعدم إرادتهم لثوابه إمّا لعدم تصديقهم به، وإمّا لإيثار العاجل عليه، ولو كان فيه سخطه.

﴿والقسم الثّاني﴾: من يريده ويريد ثوابه، وهؤلاء خواصّ خلقه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْتَنَ تَرُدُّنَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ. وَالَّذِينَ لِلْآخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٩]، فهذا خطابه لخير نساء العالمين<sup>(٢)</sup> أزواج نبيّه ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعِيهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ

مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

فأخبر أنّ السّعي المشكور: سعي من أراد الآخرة.

(١) وجد في هامش المنار ونسخة «غ» هذه الجملة: (قال ذو النون: ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برويته، ولو أنه احتجب عن أهل الجنة لاستغاث أهلها منها كما يستغيث أهل النار من النار.

(٢) في «غ» والمنار: (العالم).

وأصرح منها قوله لخواص أوليائه - وهم أصحاب نبيه ﷺ ورضي عنهم - في يوم أحد: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فقسّمهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

وقد غلط من قال: فأين من يريد الله؟ فإن إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وثوابه، فإرادة الثواب لا تنافي لإرادة الله.

والقسم الثالث: من يريد من الله، ولا يريد الله، فهذا ناقص غاية النقص، وهو حال الجاهل بربه الذي سمع: أن ثم جنة ونارا، فليس في قلبه غير إرادة نعيم الجنة المخلوق، لا يخطر بباله سواه ألبتة، بل هذا حال أكثر المتكلمين المنكرين رؤية الله تعالى، [والتلذذ بالنظر إلى وجهه في الآخرة، وسماع كلامه وحبّه، والمنكرين على من يزعم أنه يحبُّ الله، وهم عبيد الأجرة المحضّة، فهؤلاء لا يريدون الله تعالى] (١) وتقدّس.

ومنهم من يصرّح بأن إرادة الله محال.

- قالوا: لأن الإرادة إنّما تتعلّق بالحادث؛ فالقديم لا يراد، فهؤلاء منكرون لإرادة الله غاية الإنكار، وأعلى الإرادة عندهم إرادة الأكل والشرب، والنكاح واللباس في الجنة، وتوابع ذلك؛ فهؤلاء في شقّ، وأولئك - الذين قالوا: لم نعبده طلباً لجنّته، ولا هرباً من ناره - في شقّ، وهما طرفا نقيض، بينهما أعظم من بُعد المشرقين، وهؤلاء من أكثف الناس حجاً، وأغلظهم طباعاً، وأقساهم قلوباً، وأبعدهم عن روح المحبّة والتألّه، ونعيم الأرواح والقلوب، وهم يكفّرون أصحاب المحبّة والشوق إلى الله والتلذذ بحبّه، والتّصديق بلذّة النظر إلى وجهه، وسماع كلامه منه بلا واسطة.

وأولئك لا يعدّونهم من البشر إلا بالصورة، ومرتبهم عندهم قريبة من مرتبة الجماد والحيوان البهيم، وهم عندهم في حجاب كثيف عن معرفة نفوسهم وكمالها، ومعرفة معبودهم وسرّ عبوديته. وحال الطائفتين عجب لمن اطّلع عليه.

والقسم الرابع - وهو محال - أن يريد الله، ولا يريد منه، فهذا هو الذي يزعم هؤلاء أنّه مطلوبهم، وأن من لم يصل إليه ففي سيره علة، وأن العارف ينتهي إلى هذا المقام، وهو أن يكون الله مراده، ولا يريد منه شيئاً.

كما يحكى عن أبي يزيد أنّه قال: «قيل لي: ما تريد؟ فقلت: أريد ألا أريد».

وهذا في التّحقيق عين المحال الممتنع عقلاً وفطرةً، وحسّاً وشرعاً؛ فإنّ الإرادة من لوازم

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من «ع».



الحيّ، وإنّما يعرض له التّجرد عنها بالغيبية عن عقله وحسّه؛ كالشّكر والإغماء والنّوم، فنحن لا ننكر التّجريد عن إرادة ما سواه من المخلوقات الّتي تراحم إرادتها إرادته، أفليس صاحب هذا المقام مريدًا لقربه ورضاه، ودوام مراقبته، والحضور معه؟ وأيّ إرادة فوق هذه؟! نعم؛ قد زهد في مرادٍ لمرادٍ هو أجلُّ منه وأعلى، فلم يخرج عن الإرادة، وإنّما انتقل من إرادة إلى إرادة، ومن مرادٍ إلى مرادٍ، وأمّا خلّوه عن (١) صفة الإرادة بالكلّيّة، مع حضور عقله وحسّه فمحال. وإن حاكمنا في ذلك محاكمًا إلى ذوقٍ مصطلمٍ مأخوذٍ عن نفسه، فإنّ عن عوالمها لم تنكر ذلك، لكنّ هذه حالٌ عارضةٌ غير دائمة، ولا هي غايةٌ مطلوبةٌ للسّالكين، ولا مقدورةٌ للبشر (٢)، ولا مأمورٌ بها، ولا هي أعلى المقامات؛ فيؤمر باكتساب أسبابها، فهذا فصل الخطاب في هذا الموضوع، والله ﷻ أعلم.

## فصل

□ قوله: «وَلَا مُشَاهِدًا لِأَحَدٍ، فَيَكُونُ مُتَرَيَّنًا بِالْمُرَاءَةِ».

هذا فيه تفصيلٌ أيضًا، وهو أنّ المشاهدة في العمل لغير الله نوعان: مشاهدةٌ تبعث عليه، أو تقوّي باعثه: فهذه مرآةٌ خالصةٌ أو مشوبةٌ، كما أنّ المشاهدة القاطعة عنه أيضًا من الآفات والحجب. ومشاهدةٌ لا تبعث عليه ولا تعين الباعث: بل لا فرق عنده بين وجودها وعدمها؛ فهذه لا تدخله في التّزيّن بالمراءاة، ولا سيّما عند المصلحة الرّاجحة في هذه المشاهدة:

- إمّا حفظًا ورعايةً، كمشاهدة مريضٍ، أو مشرفٍ على هلكةٍ يخاف وقوعه فيها.
- أو مشاهدة عدوٍّ يخاف هجومه كصلاة الخوف عند المواجهة.
- أو مشاهدة ناظرٍ إليك يريد أن يتعلّم منك، فتكون محسنًا إليه بالتّعليم، وإلى نفسك بالإخلاص. أو قصدًا منك للاقتداء، وتعريف الجاهل؛ فهذا رياءٌ محمودٌ، والله عند نيّة القلب وقصده. فالرياء المذموم: أن يكون الباعث قصد التّعظيم والمدح، والرّغبة فيما عند من ترائيه، أو الرّهبة منه، وأمّا ما ذكرناه - من قصد رعايته، أو تعليمه، أو إظهار الشّنة، وملاحظة هجوم العدوّ، ونحو ذلك - فليس في هذه المشاهد رياءً، بل قد يتصدّق العبد رياءً مثلًا، وتكون صدقته فوق صدقة صاحب السّرّ.

(١) في «غ» والمنار: (من).

(٢) كلمة: (للبشر) غير موجودة في «غ».

مثال ذلك: رجلٌ مَضرورٌ سأل قومًا ما هو محتاجٌ إليه، فعلم رجلٌ منهم أنه إن أعطاه سرًّا، حيث لا يراه أحدٌ لم يقتد به أحدٌ، ولم يحصل له سوى تلك العطيّة، وأنه إن أعطاه جهراً اقتدي به واتَّبِع، وأنف الحاضرون من تفرّده عنهم بالعطيّة، فجهر له بالعطاء، وكان الباعث له على الجهر إرادة سعة العطاء عليه من الحاضرين، فهذه مراءاةٌ محمودةٌ؛ حيث لم يكن الباعث عليها قصد التَّعظيم والثَّناء، وصاحبها جديرٌ بأن يحصل له مثل أجور أولئك المعطين.

□ قوله: «فَإِنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ كُلَّهَا مِنْ شُعَبِ عِبَادَةِ النَّفْسِ».

يعني: أن الخائف يشتغل بحفظ نفسه من العذاب، ففيه عبادةٌ لنفسه؛ إذ هو متوجّهٌ إليها، وطالب المثوبة متوجّهٌ إلى طلب حظِّ نفسه، وذلك شعبةٌ من عبوديتها، والمشاهد للناس في عبادته فيه شعبةٌ من عبودية نفسه؛ إذ هو طالبٌ لتعظيمهم، وثنائهم ومدحهم؛ فهذه شعبةٌ من شعب عبودية النفس، والأصل الذي هذه الشُّعب فروعها هي النفس، فإذا ماتت بالمجاهدة، والإقبال على الله، والاشتغال به، ودوام المراقبة له - ماتت هذه الشُّعب.

فلا جرم أن بناء أمر هذه الطائفة على ترك عبادة النفس.

وقد علمت أن الخوف وطلب الثَّواب ليس من عبادة النفس في شيء.

نعم؛ التَّزَيُّن بالمراءاة عين عبادة النفس، والكلام في أمرٍ أرفع من هذا؛ فإنَّ حال المرآئي أخسُّ، ونفسه أسقط، وهمته أدنى من أن يدخل في شأن الصَّادقين ويُذكر مع الصَّالحين، والله ﷻ أعلم.

## فصلٌ

□ قال صاحب «المنازل»<sup>(١)</sup>:

«الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: إِجْرَاءُ الْخَبْرِ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَهُوَ أَنْ تَبْقَى أَعْلَامُ تَوْحِيدِ الْعَامَّةِ الْخَبَرِيَّةِ عَلَى ظَوَاهِرِهَا، وَلَا يَتَحَمَّلُ الْبَحْثَ عَنْهَا تَعَسُّفًا، وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهَا تَأْوِيلًا، وَلَا يَتَجَاوَزُ ظَوَاهِرَهَا تَمَثِيلًا، وَلَا يَدَّعِي عِلْمَهَا إِدْرَاكًا أَوْ تَوْهَمًا».

يشير الشيخ رحمه الله وقُدِّس روحه بذلك إلى أن حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات بإجراء أخبارها على ظواهرها، وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلى أذهان العامة، ولا يعني بالعامّة

(١) جملة: (صاحب المنازل) غير موجودة في «غ» والمنار.

الجهال، بل عامة الأمة، كما قال مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ - فأطرق مالك، حتى علاه الرُّحضاء، ثم قال: «الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

ففرّق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة، وبين الكيف الذي لا يعقله البشر، وهذا الجواب من مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شافٍ، عامٌّ في جميع مسائل الصفات.

فمن سأل عن قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [٤٦] [طه: ٤٦] كيف يسمع ويرى؟ أوجب بهذا الجواب بعينه، فقيل له: السمع والبصر معلوم، والكيف غير معقول.

وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضا، والرحمة، والضحك، وغير ذلك؛ فمعانيها كلها مفهومة، وأما كيفيتها فغير معقولة؛ (إذ تعقل الكيفية)<sup>(١)</sup> فرع العلم بكيفية الذات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟!

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل<sup>(٢)</sup>، بل تثبت له الأسماء والصفات، وتنفي<sup>(٣)</sup> عنه مشابهة المخلوقات؛ فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه، ونفيك منزهاً عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل، ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل، ومن قال: استواء ليس كمثل شيء؛ فهو الموحد المنزه.

وهكذا الكلام في السمع، والبصر، والحياة، والإرادة، والقدرة، واليد، والوجه، والرضا، والغضب، والنزول والضحك، وسائر ما وصف الله به نفسه.

والمنحرفون في هذا الباب قد أشار الشيخ إليهم بقوله: «لَا يَتَحَمَّلُ الْبَحْثَ عَنْهَا تَعَسُّفًا»؛ أي: لا يتكلف التعسف عن البحث عن كفياتها، والتعسف سلوك غير الطريق، يقال: ركب فلان التعاسيف في سيره، إذا كان يسير يميناً وشمالاً، جائراً عن الطريق.

و«لَا يَتَكَلَّفُ لَهَا تَأْوِيلًا»: أراد بالتأويل هاهنا التأويل الاصطلاحى، وهو صرف اللفظ عن

(١) في «غ»: (إذا لا يعقل)، وقال في هامش المنار: في نسختنا: (إذ لا يعقل) وفي النسخة البغدادية: (إذ تعقل الكيفية) فاعتمدنا ما في البغدادية.

(٢) في «غ» والمنار: (يثبت).

(٣) في «غ» والمنار: (ينفي).

ظاهره، وعن المعنى الرَّاجح إلى المعنى<sup>(١)</sup> المرجوح.

وقد حكى غير واحدٍ من العلماء إجماع السلف على تركه، وممَّن حكاه البغويُّ، وأبو المعالي الجوينيُّ في «رسالته النُّظامية»، بخلاف ما سلكه في «شامله» و«إرشاده»، وممَّن حكاه سعد بن عليِّ الرِّزجانيُّ، وقبل هؤلاء خلائق من العلماء لا يحصيهم إلا الله.

و«لَا يَتَجَاوَزُ [ظَاهِرَهَا تَمَثُّيًّا]: أي<sup>(٢)</sup>: لا يمثِّلها بصفات المخلوقين.

□ وفي قوله: «لَا يَتَجَاوَزُ ظَاهِرَهَا». إشارة لطيفة، وهي أَنَّ ظواهرها لا تقتضي التَّمثيل، كما تظنُّه المعطَّلة النُّفاة، وَأَنَّ التَّمثيل تجاوُزُ لظواهرها إلى ما لا تقتضيه، كما أَنَّ تأويلها تكلفٌ، وحملٌ لها على ما لا تقتضيه، فهي لا تقتضي ظواهرها تمثيلاً، ولا تحتتمل<sup>(٣)</sup> تأويلاً، بل إجراءً على ظواهرها بلا تأويلٍ ولا تمثيلٍ، فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل.

وأما قوله: «وَلَا يَدَّعِي عَلَيْهَا إِذْرَاكًا»؛ أي: لا يدَّعي عليها استدراكاً ولا فهماً، ولا معنى غير فهم العامة، كما يدَّعيه أرباب الكلام الباطل، المذموم بإجماع السلف.

وقوله: «وَلَا تَوْهَمًا»؛ أي: لا يعدل عن ظواهرها إلى التَّوهم.

والتَّوهم نوعان:

- تَوْهم كَيْفِيَّة: لا تدلُّ عليه ظواهرها.

- أو تَوْهم معنَى: غير ما تقتضيه ظواهرها، وكلاهما تَوْهم باطلٌ، وهما تَوْهم تشبيهِ وتمثيلٍ، أو

تحريفٍ وتعطيلٍ.

وهذا الكلام من شيخ الإسلام بيِّن مرتبته من السُّنَّة، ومقداره في العلم، وأنه بريءٌ ممَّا رماه به أعداؤه الجهميَّة من التشبيهِ والتَّمثيل، على عادتهم في رمي أهل الحديث والسُّنَّة بذلك، كرمي الرَّافضة لهم بأنَّهم نواصب، والمعتزلة بأنَّهم نوابت حشويَّة، وذلك ميراثٌ من أعداء رسول الله ﷺ في رميه وأصحابه ﷺ بأنَّهم صباةٌ قد ابتدعوا ديناً محدثاً، وميراثٌ لأهل الحديث والسُّنَّة من نبيِّهم ﷺ وأصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - بتلقيب أهل الباطل لهم بالألقاب المذمومة، وقدس الله روح الشافعيِّ حيث يقول - وقد نسب إلى الرِّفض -:

إِنْ كَانَ رَفُضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ  
فَلَيْسَ هَدَى الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي

(١) في «غ» والمنار: (المفهوم).

(٢) سقط من «غ» من قوله: (تمثيلاً) إلى (إشارة لطيفة)، وأشار في نسخة المنار إلى هذا السقط ولكنه أثبتته من البغدادية.

(٣) في «غ» والمنار: (لا تحمّل).

ورضي الله عن شيخنا أبي العباس بن تيمية؛ حيث يقول:  
 إِنَّ كَانَ نَصَبًا حُبُّ صَحْبِ مُحَمَّدٍ  
 وَعَفَا اللَّهُ عَنِ الثَّالِثِ (١)؛ حيث يقول:  
 فَإِنْ كَانَ تَجَسُّيْمًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ  
 فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّي مُجَسِّمٌ  
 فَلْيُشْهِدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي نَاصِبِي  
 وَتَنْزِيهَهَا عَنْ كُلِّ تَأْوِيلٍ مُفْتَرِي  
 هَلُمُّوا شُهُودًا وَأَمْلَأُوا كُلَّ مَحْضَرٍ

### فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: صِيَانَةُ الْإِنْبِسَاطِ أَنْ تَشُوبَهُ جُرْأَةٌ، وَصِيَانَةُ السُّرُورِ أَنْ يُدَاخِلَهُ أَمْنٌ، وَصِيَانَةُ الشُّهُودِ أَنْ يُعَارِضَهُ سَبَبٌ».

لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الدَّرَجَةُ عِنْدَهُ مَخْتَصَّةً بِأَهْلِ الْمَشَاهِدَةِ - وَالْغَالِبُ عَلَيْهِمُ الْإِنْبِسَاطُ وَالسُّرُورُ؛ فَإِنَّ صَاحِبَهَا مَتَعَلِّقٌ بِاسْمِهِ «الْبَاسِطُ» - حَذَّرَهُ مِنْ سَائِبَةِ الْجُرْأَةِ، وَهِيَ مَا يَخْرُجُهُ عَنِ أَدَبِ الْعِبُودِيَّةِ، وَيُدْخِلُهُ فِي السَّطْحِ، كَشَطْحِ مَنْ قَالَ: «سُبْحَانِي!» (٢). وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ السَّطْحَاتِ الْمَعْرُوفَةِ الْمَخْرُجَةِ عَنِ أَدَبِ الْعِبُودِيَّةِ الَّتِي نَهَاةٌ صَاحِبُهَا أَنْ يَعْذِرَ بِزَوَالِ عَقْلِهِ، وَغَلْبَةِ سَكْرِ الْحَالِ عَلَيْهِ، فَلَا بَدَّ مِنْ مَقَارِنَةِ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ، لِبَسْطِ الْمَشَاهِدَةِ، وَإِلَّا وَقَعَ فِي الْجُرْأَةِ وَلَا بَدَّ، فَالْمِرَاقَبَةُ تَصُونُهُ عَنِ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: «وَصِيَانَةُ السُّرُورِ أَنْ يُدَاخِلَهُ أَمْنٌ». يَعْنِي: أَنَّ صَاحِبَ الْإِنْبِسَاطِ وَالْمَشَاهِدَةِ يَدَاخِلُهُ سُرُورٌ لَا يَشْبَهُهُ سُرُورُ الْبَتَّةِ؛ فَيَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَأْمَنَ فِي هَذَا الْحَالِ الْمَكْرُ، بَلْ يَصُونُ سُرُورَهُ وَفَرَحَهُ عَنِ خَطْفَاتِ الْمَكْرِ بِخَوْفِ الْعَاقِبَةِ، الْمَطْوِيِّ عَنْهُ عِلْمُ غَيْبِهَا، وَلَا يَغْتَرَّ.

وَأَمَّا «صِيَانَةُ الشُّهُودِ أَنْ يُعَارِضَهُ سَبَبٌ»: فَيُرِيدُ (٣) أَنَّ صَاحِبَ الشُّهُودِ قَدْ يَكُونُ ضَعِيفًا فِي شُهُودِ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، فَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ الْجَاهِدِ التَّامِّ، وَالْعِبَادَةِ الْخَالِصَةِ؛ فَيَنْسَبُ حَصُولُ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الشُّهُودِ إِلَى سَبَبٍ مِنْهُ، وَذَلِكَ نَقْصٌ فِي تَوْحِيدِهِ وَمَعْرِفَتِهِ؛ لِأَنَّ الشُّهُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا مُوَهَّبَةً، لَيْسَ هُوَ كَسْبِيًّا، وَلَوْ كَانَ كَسْبِيًّا فَشُهُودٌ سَبَبُهُ نَقْصٌ فِي التَّوْحِيدِ، وَغَيْبَةٌ عَنِ شُهُودِ الْحَقِيقَةِ.

(١) لعل العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى يقصد بالثالث نفسه.

(٢) هو أبو يزيد البسطامي، ولست أدري ما يعذر من يقول ذلك وأمثاله بمناسبة وغير مناسبة. (الفتي).

(٣) في «غ» والمنار: (يريد).

ويحتمل أن يريد بالسبب المعارض للشهود ورود خاطرٍ على الشاهد، يكدر عليه صفو شهوده، فيصونه عن ورود سببٍ يعارضه إما معارض إرادة، أو معارض شبهة، وقد يعمُّ كلامه الأمرين، والله سبحانه أعلم.

## فصل [ منزلة الإخلاص ]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الإخلاص.  
قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].  
وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٥٢، ٥٣].  
وقال لنبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤، ١٥].  
وقال له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥].  
﴿الأنعام: ١٦٢، ١٦٣﴾.

وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].  
قال الفضيل بن عياض: «هُوَ أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ. قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ، مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ فَقَالَ: إِنْ الْعَمَلُ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يَقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].»

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله.

والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته.

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمَاتٍ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهي الأعمال التي كانت على غير السنة، أو أريد بها غير وجه الله.

قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أزدَدْتَ بِهِ خَيْرًا وَدَرَجَةً وَرِفْعَةً» (١).

وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وِلَاةِ الْأَمْرِ، وَلَزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ» (٢)؛ أي: لا يبقى فيه غلٌّ، ولا يحمل الغلَّ مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غلَّهُ؛ وتنقيته منه، وتخرجه عنه (٣)؛ فإنَّ القلب يغلُّ على الشُّركِ أعظم غلًّا، وكذلك يغلُّ على الغشِّ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلًّا ودعلاً، ودواء هذا الغلِّ واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

وسئل رسول الله ﷺ عن الرَّجل يقاتل رياءً، ويقاقل شجاعةً، ويقاقل حميةً: أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٤).

وأخبر عن أوَّل ثلاثةٍ تسعَّرَ بهم النَّارُ: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدِّق بماله، الَّذِينَ فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئٌ، فلان شجاعٌ، فلان متصدِّقٌ (٥). ولم تكن أعمالهم خالصة (٦) لله. وفي الحديث الصحيح الإلهي: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ بِهِ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ» (٧). وفي أثرٍ آخر: «يَقُولُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ، لَا أَجْرَ لَكَ عِنْدَنَا» (٨).

(١) هو جزء من حديث طويل، رواه البخاري في الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى (مختصراً، ومطولاً) في الجنائز، باب: رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة رقم (١٢٩٥)، ورواه مسلم في الوصية، باب: الوصية بالثلث (١٦٢٨).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٨٣/٥)، ورواه ابن ماجه في المناسك، باب: خطبة يوم النحر برقم (٣٠٥٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (٢٤٨٠).

(٣) في «غ» والمنار: (منه).

(٤) البخاري في الجهاد، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا رقم (٢٨١٠)، ورواه مسلم في الإمارة، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (١٩٠٤).

(٥) رواه مسلم في الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥)، ورواه الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في الرياء والسمعة.

(٦) كلمة: (خالصة) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٧) رواه مسلم في الزهد، باب: من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد، باب: الرياء والسمعة (٤٢٠٢).

(٨) لم أقف عليه بهذا اللفظ، لكن روى الترمذي نحوه في التفسير، باب: ومن سورة الكهف عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من

وفي الصحيح عنه ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَائِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ» (١).

وقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُورَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وفي أثرٍ مروىٍّ إلهيٍّ: «الإِخْلَاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي، اسْتَوَدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ مِنْ عِبَادِي» (٢).

وقد تنوعت عبارتهم في «الإِخْلَاصِ» و«الصُّدُقِ» (٣)، والقصد واحدٌ.

ف قيل: هو إفراد الحقِّ سبحانه بالقصد في الطَّاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التَّوَقُّي من ملاحظة الخلق حتَّى عن نفسك.

والصُّدُق: التَّنَقِّي من مطالعة النَّفس.

فالمخلص لا رياء له، والصَّادِق لا إعجاب له، ولا يتمُّ الإِخْلَاصُ إلَّا بالصُّدُقِ، ولا الصُّدُقُ إلَّا بالإِخْلَاصِ، ولا يتمَّان إلَّا بالصَّبْرِ.

وقيل: مَنْ شهد في إخْلَاصِهِ الإِخْلَاصَ احتاج إخْلَاصَهُ إلى إخْلَاصِ، فنقصان كلِّ مخلصٍ في

إخْلَاصِهِ: بقدر رؤية إخْلَاصِهِ، فإذا سقط عن نفسه رؤية الإِخْلَاصِ، صار مُخْلِصًا مُخْلِصًا.

وقيل: الإِخْلَاصُ استواء أعمال العبد في الظَّاهر والباطن.

والرِّياء: أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه.

والصُّدُق في الإِخْلَاصِ: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإِخْلَاصُ نسيان رؤية الخلق بدوام النَّظَرِ إلى الخالق (٤)، ومن تزَيَّن للنَّاسِ بما ليس فيه

سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: «تَرَكَ الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ رِيَاءً، وَالْعَمَلُ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ،

وَالْإِخْلَاصُ أَنْ يُعَافِيكَ اللَّهُ مِنْهُمَا».

كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عند غير الله؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» وقال: حسن

غريب. ورواه ابن ماجه (٤٢٠٣)، وأحمد (٤٦٦/٣).

(١) رواه مسلم في البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٢٥٦٤)، وابن ماجه في الزهد، باب:

القناعة (٤١٤٣).

(٢) ضعف هذا الأثر الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٩٢/٢)، وعزاه إلى «الإحياء» (٣٢٢/٤).

(٣) كلمة: (والصدق) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) جملة: (بدوام النظر إلى الخالق) سقطت من «غ».



قال الجنيد: «الإخلاص سرٌّ بينَ الله وبينَ العبدِ، لا يعلمُهُ ملكٌ فيكُتبهُ، ولا شيطانٌ فيفسدُهُ، ولا هوىٌ فيميلُهُ».

وقيل لسهلٍ: «أيُّ شيءٍ أشدُّ على النفسِ؟ فقال: الإخلاصُ؛ لأنَّهُ ليسَ لها فيه نصيبٌ».

وقال بعضهم: «الإخلاصُ: ألا تطلبَ على عمَلِكَ شاهداً غيرَ الله، ولا مُجازياً سواه».

وقال مكحولٌ: «ما أخلصَ عبدٌ قطُّ أربعينَ يوماً إلا ظهرتْ يتابعُ الحكمةَ من قلبه على لسانه».

وقال يوسف بن الحسين: «أعزُّ شيءٍ في الدنيا الإخلاصُ، وكم أجتهدُ في إسقاطِ الرياءِ عن قلبي، فكأنَّهُ يَنْبُتُ على لَوْنٍ آخرٍ».

وقال أبو سليمان الداراني: «إذا أخلصَ العبدُ انقطعتْ عنه كثرةُ الوسوسِ والرياءِ».

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الإخلاصُ: تصفيةُ العملِ من كلِّ شوبٍ».

أي: لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إمَّا طلب التزُّين في قلوب الخلق، وإمَّا طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجهم، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عقد متفرقاتها هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائنًا ما كان.

□ قال: «وهو على ثلاثِ درجاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: إِخْرَاجُ رُؤْيَا الْعَمَلِ عَنِ الْعَمَلِ، وَالْخَلَاصُ مِنْ طَلَبِ الْعَوَضِ عَلَى الْعَمَلِ، وَالنُّزُولُ عَنِ الرِّضَا بِالْعَمَلِ».

يعرض للعامل في عمله ثلاث آفاتٍ: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه.

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية؛ فالذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ [التكوير: ٢٩].

فهنا ينفعه شهود الجبر<sup>(١)</sup>، وأنه آله محضة، وأن فعله كحركات الأشجار، وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، والفاعل فيه سواه، وأنه ميت - والميت لا يفعل شيئاً - وأنه لو حلي ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء البتة؛ فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل، وإيثار الشهوات، والبطالة، وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه.

فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله وبه، لا من العبد، ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٤١].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال تبارك وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَيْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

[الإسراء: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيَّمِنَ وَرَيْنَهُمْ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] الآية.

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة، كرؤيته لصفاته الخلقية من سمعه وبصره، وإدراكه وقوته، بل من صحته، وسلامة أعضائه، ونحو ذلك؛ فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله.

فالذي يخلص العبد من هذه الآفة: معرفة ربّه، ومعرفة نفسه.

والذي يخلصه من طلب العوض على العمل: علمه بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق

(١) المراد بشهود الجبر هنا هو استحضر نفوذ مشيئة الله ﷻ في تصرفات العبد، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، وأنه لا يقدم ولا يؤخر ولا يأتي ولا يذر إلا بأن يجعله الله فاعلاً لذلك، وأن يشاء منه ذلك؛ فتصير حركاته بهذا الاستحضر وهذا الشعور كالريشة في مهب الرياح، وإن كانت في الواقع تختلف عنها؛ إذ هي حركات إرادية، وهذا المشهد يحمده وينفع في فعل الطاعات، لأن ذلك يوجب للعبد شهود منة الله تعالى عليه وفضله، ويمنعه من الإدلاء على الله بعمله، وليس المراد بهذا الشهود هو اعتقاد أن العبد لا مشيئة له ولا اختيار؛ فإن هذا اعتقاد باطل في الحس والعقل والشرع، وهذا هو مذهب الجبرية الضال، وقد تقدم في كلام ابن القيم رحمه الله تعالى تفنيده.

وكما يحمده وينفع هذا المشهد في فعل الطاعات، فإنه يضر ويذم في فعل المعاصي؛ لأنه يوجب للعاصي أن يعذر نفسه، فتهدون عليه المعصية؛ إذ يرى في هذا المشهد أنه لا حيلة له، وقد يفضي به الأمر إلى أن يحتج بالقدر على من ينكر عليه؛ فيشبهه في لك قول المشركين: ﴿لَوْ سَاءَ اللَّهُ مَا أَتْرَكْنَا﴾ معارضة لدعوة الرسل في مهبهم عن الشرك؛ وفي هذا هلكة العبد واستحواذ الشيطان؛ فلا يستغفر ذنبه ولا يفكر في التوبة نعوذ بالله من الخذلان! والمخرج من هذا هو الإيمان بالشرع والقدر؛ بالإيمان بالشرع يوجب للعبد فعل المأمور وترك المحذور، والاستغفار من الذنوب، والإيمان بالقدر يوجب له الافتقار على الله تعالى وسؤاله الهداية والعياذ من شر النفس وسيئات الأعمال، وهذا سبيل أهل الصراط المستقيم.

على خدمته لسيده عوضاً ولا أجره؛ إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه، وإحساناً إليه، وإنعاماً عليه، لا معاوضة؛ إذ الأجر إنما يستحقها الحرُّ، أو عبد الغير، فأما عبد نفسه فلا.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

- أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظِّ النَّفس، ونصيب الشَّيطان؛ فقلَّ عملٌ من الأعمال إلَّا وللشَّيطان فيه نصيبٌ، وإن قلَّ، وللنَّفس فيه حظٌّ.

سئل النَّبِيُّ ﷺ عن التفات الرَّجل في صلاته؟ فقال: «هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ»<sup>(١)</sup>.

فإذا كان هذا التفات طرفه أو لحظه، فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟! هذا أعظم نصيب الشَّيطان من العبودية.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ لِلشَّيْطَانِ حِطًّا مِنْ صَلَاتِهِ، يَرَى أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِ إِلَّا يَنْصَرِفَ إِلَّا عَنْ يَمِينِهِ»<sup>(٢)</sup>. فجعل هذا القدر اليسير النَّزْر حِطًّا ونصيباً للشَّيطان من صلاة العبد، فما الظَّنُّ بما فوقه؟

وأما حظُّ النَّفس من العمل، فلا يعرفه إلَّا أهل البصائر الصَّادقون.

- الثاني: علمه بما يستحقه الرَّبُّ ﷻ من حقوق العبودية، وآدابها الظَّاهرة والباطنة، وشروطها، وأنَّ العبد أضعف وأعجز وأقلُّ من أن يوفِّيها حقًّا، وأن يرضى بها لرَبِّه، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لرَبِّه، ولا يرضى نفسه لله طرفه عين، ويستحيي من مقابلة الله بعمله، فسوء ظنُّه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكرهته لأنفاسه وصعودها إلى الله - يحول بينه وبين الرِّضا بعمله، والرِّضا عن نفسه.

وكان بعض السَّلف يصلِّي في اليوم واللَّيلة أربعمئة ركعة<sup>(٣)</sup>، ثم يقبض على لحيته ويهزُّها، ويقول لنفسه: يا مأوى كلِّ سوءٍ، وهل رضيتك لله طرفه عين؟!!

(١) البخاري في صفة الصلاة، باب: الالتفات في الصلاة (٧٥١)، وأبو داود (٩١٠).

(٢) البخاري في صفة الصلاة، باب: الانفتال والانصراف عن اليمين والشمال (٨٥٢)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب: جواز الانصراف عن اليمين والشمال (٧٠٧).

(٣) هذه الأربعمئة ركعة تستغرق على أقل تقدير للصلاة الصحيحة ثمانمئة دقيقة، عبارة عن ثلاث عشرة ساعة وعشرين دقيقة، فأين حاجاته الضرورية بالليل والنهار؟ ثم هل في هذا فضل أو هو عمل صالح؟ فما كان رسول الله ﷺ يزيد عن إحدى عشرة ركعة في صلاة الليل، وخير الهدى هدي محمد ﷺ وما لعب شيطان الصوفية إلا من مثل هذه البدع المزخرفة. (الفاقي).

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكتها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرورٌ.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»<sup>(١)</sup>:

«الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الْخَجَلُ مِنَ الْعَمَلِ مَعَ بَدَلِ الْمَجْهُودِ، وَتَوْفِيرُ الْجُهْدِ بِالِاحْتِمَاءِ مِنَ الشُّهُودِ، وَرُؤْيَةُ الْعَمَلِ فِي نُورِ التَّوْفِيقِ مِنْ عَيْنِ الْجُودِ».

هذه ثلاثة أمور:

خجله من عمله: وهو شدة حياته من الله؛ إذ لم ير ذلك العلم صالحاً له، مع بذل مجهوده فيه؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. قال النبي ﷺ: «هُوَ الرَّجُلُ يَصُومُ، وَيُصَلِّي، وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُ»<sup>(٢)</sup>.

وقال بعضهم: «إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني، الذي يراه الناس حياءً من الله ﷻ».

فالمؤمن: جمع إحساناً في مخافةٍ وسوء ظنٍّ بنفسه.

والمغرور: حسن الظنِّ بنفسه مع إساءته.

كلمة الثاني: توفير الجهد باحتمائه من الشهود: أي: يأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل، محتمياً عن شهوده منك وبك.

كلمة الثالث: أن تحتمي بنور التوفيق الذي ينور الله به بصيرة العبد، فترى في ضوء ذلك النور أن عملك من عين جوده لا بك، ولا منك.

فقد اشتملت هذه الدرجة على خمسة أشياء:

- عمل.

- واجتهادٍ فيه.

(١) جملة: (صاحب المنازل) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) الترمذي (٣١٧٤)، وأحمد (١٥٩/٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

- وخجل.

وحياءٍ من الله عَبْرَتًا.

وصيانةٍ عن شهوده منك.

- ورؤيته من عين جود الله سبحانه ومنه.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ بِالْخَلَاصِ مِنَ الْعَمَلِ، تَدْعُهُ يَسِيرُ سَيْرِ الْعِلْمِ، وَتَسِيرُ أَنْتَ مُشَاهِدًا لِلْحُكْمِ، حُرًّا مِنْ رِقِّ الرَّسْمِ».

قد فسّر الشيخ مراده بإخلاص العمل من العمل بقوله: «تَدْعُهُ يَسِيرُ سَيْرِ الْعِلْمِ وَتَسِيرُ أَنْتَ مُشَاهِدًا لِلْحُكْمِ».

ومعنى كلامه: أنك تجعل عملك تابعاً للعلم، موافقاً له، مؤتمناً به، تسير بسيره، وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته، نازلاً منازل، مرتويًا من موارده، ناظرًا<sup>(١)</sup> إلى الحكم الدينيّ الأمرّي، متقيّدًا به فعلاً وتركاً، وطلبًا وهربًا، ناظرًا إلى ترتّب الثواب والعقاب عليه سببًا وكسبًا، ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهدًا للحكم الكونيّ القضائيّ، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات، ولا يبقى هناك غير محض المشيئة، وتفرد الربّ وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته؛ فيكون<sup>(٢)</sup> قائمًا بالأمر والنهي فعلاً وتركاً، سائرًا بسيره، وبالقضاء والقدر، إيمانًا وشهودًا وحقيقةً، فهو ناظرٌ إلى الحقيقة، قائمٌ بالشرعية.

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣١﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

فترك العمل يسير سیر العلم مشهد: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾، وسير صاحبه مشاهدًا للحكم مشهد: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

□ وأمّا قوله: «حُرًّا مِنْ رِقِّ الرَّسْمِ»: فالحرية التي يشيرون إليها هي عدم الدخول تحت عبودية الخلق والنفس، والدخول تحت رق عبودية الحق وحده».

ومرادهم بالرسم: ما سوى الله، فكله رسومٌ؛ فإنّ الرسوم هي الآثار، ورسوم المنازل والديار

(١) في «غ» والمنار: (فتكون ناظرًا).

(٢) في «غ»: (فتكون).

هي الآثار التي تبقى بعد سكّانها، والمخلوقات بأسرها في منزل الحقيقة رسومٌ وآثارٌ للقدرة؛ أي: فتخلص نفسك من عبودية كل ما سوى الله، وتكون بقلبك مع القادر الحقّ وحده، لا مع آثار قدرته التي هي رسومٌ، فلا تشتغل بغيره لتشغلها<sup>(١)</sup> بعبوديته، ولا تطلب بعبوديتك له حالاً ولا مقاماً، ولا مكاشفةً، ولا شيئاً سواه.

فهذه أربعة أمور:

- بذل الجهد.
- وتحكيم العلم.
- والنظر إلى الحقيقة
- والتخلص من الالتفات إلى غيره.
- والله الموفق والمعين.

## فصل

الإخلاص: عدم انقسام المطلوب.

والصدق: عدم انقسام الطلب.

فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب.

وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة.

ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة.

فهذه الأركان الثلاثة<sup>(٢)</sup> هي أركان السير، وأصول الطريق التي من لم يبين عليها سلوكه وسيره فهو مقطوعٌ، وإن ظنّ أنّه سائرٌ، فسيره إمّا إلى عكس جهة مقصوده، وإمّا سير المقعد والمقيّد، وإمّا سير صاحب الدابة الجموح، كلّما مشت خطوةً إلى قدام رجعت عشرةً إلى خلفٍ؛ فإن عدم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلى خلفٍ، وإن لم يبذل جهده ويوحّد طلبه سار سير المقيد.

وإن اجتمعت له الثلاثة<sup>(٣)</sup> فذلك الذي لا يجارى في مضمار سيره، وذلك فضل الله يؤتيه من

يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) في «غ» والنمار: (اشتغلاً).

(٢) يقصد رحمه الله تعالى: الإخلاص، والصدق، والمتابعة.

(٣) أي: الإخلاص، والصدق، والمتابعة.

## فصل [منزلة التهذيب والتصفية]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة التهذيب والتصفية. وهو سبك العبودية في كبر الامتحان؛ طلباً لإخراج ما فيها من الخبث والغش. □ قال صاحب «المنازل»: «التهذيب: مَحْنَةُ أَرْبَابِ الْبِدَايَاتِ، وَهُوَ شَرِيعَةٌ<sup>(١)</sup> مِنْ شَرَائِعِ الرِّيَاضَةِ».

يريد: أنه صعب على المبتدي؛ فهو له كالمحنة، وطريقة للمرتاض الذي قد مرّن نفسه حتى اعتادت قبوله، وانقادت إليه.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الأولى: تَهْدِيبُ الْخِدْمَةِ؛ أَلَّا يُخَالِجَهَا جَهَالَةً، وَلَا يَشُوِّبَهَا<sup>(٢)</sup> عَادَةً، وَلَا يَقِفَ عِنْدَهَا هِمَّةً».

أي: تخلص العبودية، وتصفيتها من هذه الأنواع الثلاثة، وهي: مخالجة الجهالة، وشوب العادة، ووقوف همة<sup>(٣)</sup> الطالب عندها.

كلمة [النوع الأول: مخالطة الجهال]<sup>(٤)</sup>: فإنَّ الجهالة متى خالطت العبودية أوردتها العبد غير موردها، ووضعها في غير موضعها، وفعلها في غير مستحقها، وفعل أفعالاً يعتقد أنها صلاح، وهي إفساد لخدمته وعبوديته، بأن يتحرك في موضع السكون، أو يسكن في موضع التحرك، أو يفرق في موضع جمع، أو يجمع في موضع فرق، أو يطير في موضع سفوف<sup>(٥)</sup>، أو يسف في موضع طيران، أو يقدم في موضع إحجام، أو يحجم في موضع إقدام، أو يتقدم في موضع وقوف، أو يقف في موضع تقدم،

(١) كلمة: (شريعة) غير موجودة في «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (تشوبها).

(٣) في «غ»: (هذا).

(٤) ما بين المعكوفتين غير موجود في نسخة «غ» والمنار.

(٥) قال في «اللسان»: أسف الطائر والسحابة وغيرهما: دنا من الأرض، والطائر يُسْفُ: إذا طار على وجه الأرض.

ونحو ذلك من الحركات، التي هي في حقّ الخدمة كحركات التّقليل البغيض في حقوق النَّاس.

فالخدمة ما لم يصحبها علمٌ ثانٍ بأدائها وحقوقها، غير العلم بها نفسها؛ كانت في مظنة أن تبعد صاحبها وإن كان مراده بها التّقرب، ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب أبعدته عن المنزلة والقربة، ولا تنفصل<sup>(١)</sup> مسائل هذه الجملة إلا بمعرفةٍ خاصّةٍ بالله وأمره، ومحبةٍ تامّةٍ له، ومعرفةٍ بالنفس وما منها.

﴿ النوع الثاني: شوب العادة: وهو أن يمازج العبوديّة حكمً من أحكام عوائد<sup>(٢)</sup> النَّفس تكون منفذةً لها، معينةً عليها، وصاحبها يعتقدها قربةً وطاعةً، كمن اعتاد الصّوم -مثلاً- وتمرّن عليه؛ فألفته النَّفس، وصار لها عادةً تتقاضاها أشدّ اقتضاءً؛ فيظنُّ أن هذا التّقاضي محض العبوديّة، وإنّما هو تقاضي العادة.

وعلامة هذا: أنه إذا عرض عليها طاعةٌ دون ذلك، وأيسر منه، وأتمّ مصلحةً لم تُؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته.

كما حكى عن بعض الصّالحين من الصّوفيّة قال: «حَجَجْتُ كَذَا وَكَذَا حَجَّةً عَلَى التَّجْرِيدِ، فَبَانَ لِي أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ كَانَ مَشُوبًا بِحَظِّي؛ وَذَلِكَ أَنَّ وَالِدَتِي سَأَلَتْنِي أَنْ أَسْتَقِي لَهَا جُرْعَةً مَاءً، فَتَقَلَّ ذَلِكَ عَلَيَّ نَفْسِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ مُطَاوَعَةَ نَفْسِي فِي الْحَجَّاتِ كَانَ بِحَظِّ نَفْسِي وَإِرَادَتِهَا؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ نَفْسِي فَائِيَةً لَمْ يَضَعُبْ عَلَيْهَا مَا هُوَ حَقٌّ فِي الشَّرْعِ»<sup>(٣)</sup>.

﴿ النوع<sup>(٤)</sup> الثالث: وقوف همّته عند الخدمة: وذلك علامة ضعفها وقصورها؛ فإنَّ العبد المحض لا تقف همّته عند الخدمة، بل همّته أعلى من ذلك؛ إذ هي طالبةٌ لرضا مخدمومه؛ فهو دائماً مستصغرٌ خدمته له، ليس واقفاً عندها، والقناعة تُحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع؛ فإنّها عين

(١) في «غ»: (تتصل).

(٢) كلمة: (عوائد) غير موجود في نسخة «غ» والمنار.

(٣) وهذه مسألة مهمة يجب أن يُتفطن لها وبخاصة من يجهدون أنفسهم في الدعوة إلى الله ﷻ والجهاد في سبيله، وذلك حتى لا تتحول هذه الجهود إلى عادة ويغيب فيها أو يضعف دافع الإخلاص لله تعالى وابتغاء مرضاته وحتى يتخلص من دافع حظوظ النفس وما ألفته واعتادت عليه، وهذا يحتاج إلى محاسبة ويقظة مع النفس حتى تستشعر العبودية لله تعالى في كل ما تأتي وتذر من الأحوال والأقوال والأعمال الموافقة للشّرع، وعند ذلك لا يقع المسلم فيما أشار إليه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كونه يقوم بطاعة عظيمة شاقة ييسر وسهولة ثم يعجز عن الإتيان بطاعة أيسر منها، ومن أقرب الأمثلة في ذلك ما نرى في بعضنا من النشاط والتحمل في الدعوة إلى الله ﷻ بالمعجىء والذهاب، والحل والترحال، بينما يحصل العكس من ذلك إذا كان الأمر يتعلق بخدمة الوالدين وقضاء حوائجها فليتفطن لذلك.

(٤) كلمة: (النوع) ساقطة من «غ» والمنار.



الحرمان، فالمحبُّ لا يقنع<sup>(١)</sup> بشيءٍ دون محبوبه، فوقوف همّة العبد مع خدمته وأجرتها سقوطٌ فيها وحرمانٌ.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: تَهْدِيْبُ الْحَالِ، وَهُوَ أَلَّا يَجْنَحَ الْحَالُ إِلَى عِلْمٍ، وَلَا يَخْضَعَ لِرَسْمٍ، وَلَا يَلْتَفِتَ إِلَى حَظٍّ».

أما جنوح الحال إلى العلم فهو نوعان: ممدوحٌ، ومذمومٌ.

فالممدوح: التفاته إليه، وإصغاؤه إلى ما يأمر به، وتحكيمة عليه، فمتى لم يجنح إليه هذا الجنوح كان حالاً مذمومًا، ناقصًا مبعّدًا عن الله؛ فإنَّ كلَّ حالٍ لا يصحبه علمٌ يخاف عليه أن يكون من خدع الشيطان، وهذا القدر هو الذي أفسد على أرباب الأحوال أحوالهم، وعلى أهل الثُّغور ثغورهم، وشَرَّدهم عن الله كلَّ مشرِّدٍ، وطردهم عنه كلَّ مطرِّدٍ؛ حيث لم يحكِّموا عليه العلم، وأعرضوا عنه صفحًا، حتَّى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان وشرائع الإسلام.

وهم الذين قال فيهم سيّد الطائفة الجنيد بن محمد<sup>(٢)</sup> - لَمَّا قِيلَ لَهُ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ يَصْلُونَ إِلَى تَرْكِ

الْحَرَكَاتِ مِنْ بَابِ الْبِرِّ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ، فَقَالَ الْجَنِيْدُ: «إِنَّ هَذَا كَلَامٌ قَوْمٍ تَكَلَّمُوا بِإِسْقَاطِ الْأَعْمَالِ عَنِ الْجَوَارِحِ، وَهُوَ عِنْدِي عَظِيْمَةٌ، وَالَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الَّذِي يَقُولُ هَذَا؛ فَإِنَّ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ أَخَذُوا الْأَعْمَالَ عَنِ اللَّهِ، وَإِلَيْهِ رَجَعُوا<sup>(٣)</sup> فِيهَا، وَلَوْ بَقِيَتْ أَلْفَ عَامٍ لَمْ أَنْقُصْ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ ذَرَّةً، إِلَّا أَنْ يُحَالَ بِهَا دُونَهَا».

□ وقال: «الطَّرْقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ عَلَى الْخَلْقِ، إِلَّا عَلَى مَنِ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ».

وقال: «مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْآنَ، وَيَكْتُبِ الْحَدِيثَ لَا يُقْتَدَى بِهِ فِي طَرِيقِنَا هَذَا؛ لِأَنَّ طَرِيقَنَا وَعِلْمَنَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وقال: علمنا هذا مشيدٌ بحديث رسول الله ﷺ.

والبليّة التي عرضت لهؤلاء: أن أحكام العلم تتعلّق بالعلم وتدعو إليه، وأحكام الحال تتعلّق بالكشف، وصاحب الحال ترد عليه أمورٌ ليست في طور العلم، فإن أقام عليها ميزان العلم ومعياره، تعارض عنده العلم والحال، فلم يجد بدًّا من الحكم على أحدهما بالإبطال، فمن حصلت له أحوال الكشف، ثمَّ جنح إلى أحكام العلم فقد رجع القهقري، وتأخّر في سيره إلى وراء.

(١) في «غ»: (لا يقنع).

(٢) في «غ» والمنار: (الجنيد بن محمد ﷺ).

(٣) في «غ»: (راجعون).

فتأمل هذا الوارد وهذه الشبهة التي هي سُمُّ ناقع تُخرج صاحبها من المعرفة والدين كإخراج الشعرة من العجين.

واعلم أنَّ المعرفة الصحيحة هي روح العلم، (والحال الصحيح هو روح العمل المستقيم، فكلُّ حالٍ لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقاً للعلم) <sup>(١)</sup>: فهو بمنزلة الرُّوح الخبيثة الفاجرة، ولا ينكر أن يكون لهذه الرُّوح أحوالٌ، لكنَّ الشَّأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها، فمتى عارض الحال حكمٌ من أحكام العلم فذلك الحال إمَّا فاسدٌ وإمَّا ناقصٌ، ولا يكون مستقيماً أبداً. فالعلم الصحيح، والعمل المستقيم: هما ميزان المعرفة الصحيحة، والحال الصحيح، وهما كالبدنين لروحيهما.

فأحسن ما يحمل عليه قوله: «أَلَا يَجْنَحُ الْحَالُ إِلَى الْعِلْمِ»: أنَّ العلم يدعو إلى التَّفَرُّقِ دائماً، والحال يدعو إلى الجمعيَّة، والقلب بين هذين الدَّاعيين، فهو يجيب هذا مرَّةً وهذا مرَّةً؛ فتهديب الحال وتصفيته أن يجيب داعي الحال لا داعي العلم، ولا يلزم من هذا إعراضه عن العلم، وعدم تحكيمه والتَّسليم له، بل هو متعبِّدٌ بالعلم، محكِّمٌ له، مستسلمٌ له، غير مجيبٍ لداعيه من التَّفَرُّقِ، بل هو مجيبٌ لداعي الحال والجمعيَّة، أخذٌ من العلم ما يصحِّح له حاله وجمعيَّته، غير مستغرقٍ فيه استغراق من هو مطرحٌ همته وغاية مقصده، لا مطلوب له سواه، ولا مراد له إلاَّ إيَّاه، فالعلم عنده آلهٌ ووسيلةٌ، وطريقٌ توصله إلى مقصده ومطلوبه؛ فهو كالدَّلِيلِ بين يديه، يدعو إلى الطَّرِيقِ ويدلُّه عليها، فهو يجيب داعيه للدَّلالة ومعرفة الطَّرِيقِ، وما في قلبه من ملاحظة مقصده، ومطلبه من سيره وسفره وباعث همته على الخروج من أوطانه ومربَّاه، ومن بين أصحابه وخلطائه، الحامل له على الاعتراب، والتَّفَرُّدِ في طريق الطَّلَب - هو المسير له، والمحركُ والباعثُ، فلا يجنح عن داعيه إلى اشتغاله بجزيئات <sup>(٢)</sup> أحوال الدَّلِيلِ، وما هو خارجٌ عن دلالته على طريقه.

فهذا مقصد شيخ الإسلام - إن شاء الله تعالى - لا الوجه الأوَّل، والله ﷻ أعلم.

## فصلٌ

وأما قوله: «وَلَا يَخْضَعُ لِرِسْمٍ»؛ أي: لا يستولي على قلبه شيءٌ من الكائنات، بحيث يخضع له قلبه؛ فإنَّ صاحب الحال إنَّما يطلب الحيَّ القيُّومَ، فلا ينبغي له أن يقف عند المعاهد والرُّسوم.

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (بخبريات).

وأما قوله: «وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى حَظٍّ»؛ أي: إذا حصل له الحال التأم لم يشتغل بفرحه به، وحظه منه واستلذاذه؛ فإن ذلك حظ من حظوظ النفس، وبقية من بقاياها.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»<sup>(١)</sup>:

«الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: تَهْدِيبُ الْقَصْدِ، وَهُوَ<sup>(٢)</sup> تَصْفِيَّتُهُ مِنْ ذُلِّ الْإِكْرَاهِ، وَتَحْفَظُهُ مِنْ مَرَضِ الْفُتُورِ، وَنُصْرَتُهُ عَلَى مُنَازَعَاتِ الْعِلْمِ».

هذه أيضًا ثلاثة أشياء تهذب قصده وتصفيه.

كأحدها: تصفيته من ذل الإكراه: أي: لا يسوق نفسه إلى الله كرها، كالأجير المسخر المكلف، بل تكون دواعي قلبه وجواذبه منساقة إلى الله طوعًا ومحبةً وإيثارًا، كجريان الماء في منحدره، وهذه حال المحبين الصادقين؛ فإن عبادتهم طوعًا ومحبةً ورضًا؛ ففيها قرّة عيونهم، وسرور قلوبهم، ولذّة أرواحهم، كما قال النبي ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»<sup>(٣)</sup>. وكان يقول: «يَا بِلَالُ، أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»<sup>(٤)</sup>.  
فقرّة عين المحب ولذته ونعيم روحه في طاعة محبوبه، بخلاف المطيع كرها، المتحمل للخدمة ثقلاً.

وفي قوله: «ذُلُّ الْإِكْرَاهِ» لطيفة، وهي: أن المطيع كرها يرى أنه لولا ذل قهره، وعقوبة سيده له لما أطاعه؛ فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي قد أذله مكرهه وقاهره، بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتًا ونعيمًا، ولذّة وسرورًا، فهذا ليس الحامل له ذل الإكراه.

والثاني: تحفظه من مرض الفتور: أي: توقّيه من مرض فتور قصده، وخمود نار طلبه؛ فإن العزم هو روح القصد، ونشاطه كالصحة له، وفتوره مرض من أمراضه، فتهذيب قصده وتصفيته

(١) جملة: (صاحب المنازل) غير موجود في نسخة «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (وهي).

(٣) هو جزء من حديث: «حب إليّ النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة». رواه النسائي في عشرة النساء، باب: حب النساء، عن أنس مرفوعًا، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (٣٦٨٠)، كما رواه الإمام أحمد (٣/١٢٨، ١٩٩)، وانظر: «صحيح الجامع الصغير» (٣١٢٤).

(٤) رواه أبو داود في الأدب، باب: في صلاة العتمة (٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (٤١٧٨، ٤١٧٢).

بحمّيته من أسباب هذا المرض الذي هو فتوره؛ وإنّما يتحفّظ منه بالحِمية من أسبابه، وهو أن يلهو عن الفضول من كلّ شيء، ويحرص على ترك ما لا يعنيه، ولا يتكلّم إلّا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله، ولا يصحب إلّا من يعينه على ذلك، فإن بلي بمن لا يعينه فليدرأه عنه ما استطاع، ويدفعه دفع الصّائل.

﴿الثالث: نصرة قصده على منازعات العلم: ومعنى ذلك: نصرة خاطر العبوديّة المحضّة، والجمعيّة فيها، والإقبال على الله فيها بكلّيّة القلب، على جواذب العلم والفكرة في دقائقه، وتفاريع مسائله وفضلاته، أو أنّ العلم يطلب من العبد العمل للرغبة والرّهبة والثواب، وخوف العقاب. فتهديب القصد: تصفيته من ملاحظة ذلك.

وتجريدته: أن يكون قصده وعبوديته محبةً لله بلا علّة، وألّا يحبّ الله لما يعطيه ويحميه منه؛ فتكون محبته لله محبة الوسائل، ومحبته بالقصد الأوّل لما يناله من الثواب المخلوق، فهو المحبوب له بالذات، بحيث إذا حصل له محبوبه تسلّى به عن محبة من أعطاه إيّاه؛ فإنّ من أحبّك لأمرٍ والاك<sup>(١)</sup> عند حصوله، وملّك عند انقضائه، والمحبّ الصادق يخاف أن تكون محبته لغرضٍ من الأغراض، فتنقضي محبته عند انقضاء ذلك الغرض، وإنّما مراده: أنّ محبته تدوم لا تنقضي أبداً، وألّا يجعل محبوبه وسيلةً له إلى غيره، بل يجعل ما سواه وسيلةً له إلى محبوبه.

وهذا القدر هو الذي حام عليه القوم، وداروا حوله، وتكلّموا فيه، وشمّروا إليه، فمنهم من أحسن التعبير عنه، ومنهم من أساء العبارة، وقصده وصدقه يصلح فساد عبارته، ومن النّاس من لم يفهم هذا كما ينبغي؛ فلم يجد له ملجأً غير الإنكار، والله يغفر لكلّ من قصده الحقّ واتّبع<sup>(٢)</sup> مرضاته؛ فإنّه واسع المغفرة.

## فصل

### [منزلة الاستقامة]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعِبُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿منزلة الاستقامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا

(١) في «غ» والمنار: (ولّى).

(٢) في «غ»: (واتبع).

تَحَزُّنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢]. فبيّن أنّ الاستقامة ضدّ الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كلّ شيء.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكِبِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ لِأَبْنَائِنَا وَاللَّاتُ لِأَبْنَائِنَا وَالسَّائِمَاتُ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴿١٦﴾ لَنُفِئَنَّهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧].  
سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة؟ فقال: «ألا تُشْرِكِ بِاللَّهِ شَيْئًا». يريد الاستقامة على محض التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «استقاموا: أخلصوا العمل لله».  
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما: «استقاموا: أدّوا الفرائض».  
وقال الحسن: «استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته».  
وقال مجاهد: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».  
وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة».

وفي «صحيح مسلم» عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» (١).

وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «استقيموا ولكن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» (٢).

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام (٣٨)، ورواه ابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة برقم (٣٩٧٢).

(٢) رواه ابن ماجه في الطهارة، باب: المحافظة على الوضوء رقم (٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٢٢٤) (٢٢٥).

والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السداد؛ فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» (١).

فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة، وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان أنهم لا يطيقونها، فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحدٌ إلى عمله؛ ولا يعجب به، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات؛ فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة؛ فإن نفسك متحرّكة في طلب الكرامة، وربك يطالبك الاستقامة؟!

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: «أَعْظَمُ الْكِرَامَةِ لُزُومُ الْإِسْتِقَامَةِ».

## فصل

□ قال صاحب «المنازل» قدس الله روحه في قوله: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَأَسْتَعْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]: «إِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى عَيْنِ التَّفْرِيدِ».

يريد: أنه أرشدهم إلى شهود تفريده، وهو ألا يروا غير فردانيته. وتفريده نوعان:

- تفريد في العلم والمعرفة والشهود.

(١) رواه البخاري (٣٩) (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

- وتفريدٌ في الطَّلب والإرادة.

وهما نوعا التَّوحيد.

وفي قوله: «عَيْنُ التَّفْرِيدِ» إشارةٌ إلى حال الجمع وأحديته، التي هي عنده فوق علمه ومعرفته؛ لأنَّ التَّفَرُّقَةَ قد تجامع علم الجمع، وأمَّا حاله فلا تجامعه التَّفَرُّقَةُ، (والله ﷻ أعلم) (١).

## فصل

□ قال: «الإِسْتِقَامَةُ: رُوحٌ تَحْيَا بِهِ الْأَحْوَالُ، كَمَا تَرَبُّو لِلْعَامَّةِ عَلَمًا الْأَعْمَالُ، وَهِيَ بَرَزْخٌ بَيْنَ وَهَادِ التَّفَرُّقِ، وَرَوَابِي الْجَمْعِ».

شَبَّهَ الإِسْتِقَامَةَ لِلْحَالِ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ، فَكَمَا أَنَّ الْبَدْنَ إِذَا خَلَا عَنِ الرُّوحِ فَهُوَ مَيِّتٌ، فَكَذَلِكَ الْحَالُ إِذَا خَلَا عَنِ الإِسْتِقَامَةِ فَهُوَ فَاسِدٌ، وَكَمَا أَنَّ حَيَاةَ الْأَحْوَالِ بِهَا؛ فزِيَادَةُ أَعْمَالِ الزَّاهِدِينَ أَيْضًا وَرَبُّوهَا وَزَكَوَاتُهَا بِهَا؛ فَلَا زَكَاءَ لِلْعَمَلِ وَلَا صِحَّةَ لِلْحَالِ بِدُونِهَا.

وَأَمَّا كَوْنُهَا بَرَزْخًا بَيْنَ وَهَادِ التَّفَرُّقِ، وَرَوَابِي الْجَمْعِ:

فـ«الْبَرَزْخُ»: هُوَ (٢) الْحَاجِزُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتَغَايِرَيْنِ، وَالْوَهَادُ: الْأَمْكَنَةُ الْمُنْخَفِضَةُ مِنَ الْأَرْضِ، وَاسْتِعَارَهَا لِلتَّفَرُّقِ؛ لِأَنَّهَا تَحْجُبُ مَنْ يَكُونُ فِيهَا عَنِ مَطَالَعَةِ مَا يَرَاهُ مِنْهُ عَلَى الرَّوَابِي، كَمَا أَنَّ صَاحِبَ التَّفَرُّقِ مَحْجُوبٌ عَنِ مَطَالَعَةِ مَا يَرَاهُ صَاحِبُ الْجَمْعِ وَيَشَاهِدُهُ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ حَالَهُ أَنْزَلَ مِنْ حَالِهِ؛ فَهُوَ كصاحب الوهاد، وحال صاحب الجمع أعلى؛ فهو كصاحب الروابي، وشبَّهَ حال صاحب الجمع بحال مَنْ عَلَى الرَّوَابِي لَعْلُوهُ، وَلِأَنَّ الرَّوَابِي تَكْشِفُ لِمَنْ عَلَيْهَا الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ، وَصَاحِبُ الْجَمْعِ تُكْشِفُ لَهُ الْحَقَائِقَ الْمَحْجُوبَةَ عَنِ صَاحِبِ التَّفَرُّقِ.

إِذَا عَرَفَ هَذَا؛ فَمَعْنَى كَوْنِهَا بَرَزْخًا: أَنَّ السَّالِكَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ سَلُوكِهِ فِي أَوْدِيَةِ التَّفَرُّقِ، سَائِرًا إِلَى رَوَابِي الْجَمْعِ، فَيَسْتَقِيمُ فِي طَرِيقِ سِيرِهِ غَايَةَ الإِسْتِقَامَةِ؛ لِيَصِلَ بِإِسْتِقَامَتِهِ إِلَى رَوَابِي الْجَمْعِ، فَاسْتِقَامَتُهُ بَرَزْخٌ بَيْنَ تِلْكَ التَّفَرُّقَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، وَبَيْنَ الْجَمْعِ الَّذِي يُوَثِّمُهُ وَيَقْصِدُهُ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ تَفَرُّقِ الْمُقِيمِ فِي الْبَلَدِ فِي أَنْوَاعِ التَّصَرُّفَاتِ، فَإِذَا عَزَمَ عَلَى السَّفَرِ، وَخَرَجَ وَفَارَقَ الْبَلَدَ، وَاسْتَمَرَّ عَلَى السَّيْرِ - كَانَ طَرِيقَ سَفَرِهِ بَرَزْخًا بَيْنَ الْبَلَدِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، وَالْبَلَدِ الَّذِي يَقْصِدُهُ وَيُوَثِّمُهُ.

(١) جملة: (والله ﷻ أعلم) غير موجود في نسخة «غ» والمنار.

(٢) كلمة: (هو) غير موجود في نسخة «غ» والمنار.

## فصل

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْإِسْتِقَامَةُ عَلَى الْاجْتِهَادِ فِي الْاِقْتِصَادِ، لَا عَادِيًا رَسَمَ الْعِلْمِ، وَلَا مُتَجَاوِزًا حَدَّ الْإِخْلَاصِ، وَلَا مُخَالِفًا نَهَجَ السُّنَّةِ».

هذه درجة تتضمّن ستة أمور:

عملًا واجتهادًا فيه: وهو بذل المجهود.

واقتصادًا: وهو السلوك بين طرفي الإفراط، وهو الجور على النفوس، والتفريط بالإضاعة.

ووقوفًا مع ما يرسمه العلم: لا ووقوفًا مع داعي الحال.

وإفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص.

ووقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السُّنَّة.

فهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم، وبالخروج عن واحدٍ منها يخرجون عن

الاستقامة إمّا خروجًا كليًا، وإمّا خروجًا جزئيًا.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا - وهما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسُّنَّة -؛ فإنَّ

الشَّيْطَانُ يَسْتَمُّ قَلْبَ الْعَبْدِ وَيَخْتَبِرُهُ، فَإِنْ رَأَى فِيهِ دَاعِيَةً لِلْبِدْعَةِ، وَإِعْرَاضًا عَنِ كَمَالِ الْاِنْقِيَادِ لِلْسُّنَّةِ أُخْرِجَهُ عَنِ

الاعتصام به، وإن رأى فيه حرصًا على السُّنَّةِ، وشِدَّةَ طَلْبِ لَهَا لَمْ يظْفَرْ بِهِ مِنْ بَابِ اقْتِطَاعِهِ عَنْهَا، فَأَمْرُهُ

بِالاجْتِهَادِ، وَالْجُورِ عَلَى النَّفْسِ، وَمُجَاوِزَةَ حَدِّ الْاِقْتِصَادِ فِيهَا، قَائِلًا لَهُ: إِنَّ هَذَا خَيْرٌ وَطَاعَةٌ، وَالزِّيَادَةُ وَالْاجْتِهَادُ

فِيهَا أَكْمَلُ، فَلَا تَفْتَرُ مَعَ أَهْلِ الْفِتْوَرِ، وَلَا تَتَمُّ مَعَ أَهْلِ النَّوْمِ، فَلَا يَزَالُ يَحْتُهُ وَيَحْرِضُهُ، حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنِ الْاِقْتِصَادِ

فِيهَا، فَيُخْرِجُ عَنْ حَدِّهَا، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ خَارِجٌ عَنِ هَذَا الْحَدِّ، فَكَذَا هَذَا الْآخَرُ خَارِجٌ عَنِ الْحَدِّ الْآخَرِ.

وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم،

وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروجٌ عن السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ، لَكِنَّ هَذَا إِلَى بَدْعَةِ التَّفْرِيطِ

وَالْإِضَاعَةِ، وَالْآخَرُ إِلَى بَدْعَةِ الْمُجَاوِزَةِ وَالْإِسْرَافِ.

وقال بعض السلف: «مَا أَمَرَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَزْعَتَانِ، إِمَّا إِلَى تَفْرِيطٍ، وَإِمَّا إِلَى

مُجَاوِزَةٍ، وَهِيَ الْإِفْرَاطُ، وَلَا يُبَالِي بَأَيِّهِمَا ظَفَرَ: زِيَادَةٌ أَوْ نُقْصَانٌ»<sup>(١)</sup>.

(١) في «غ»: (أو نقص).



وقال النَّبِيُّ ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، إِنَّ لِكُلِّ عَامِلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فِتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةِ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى بَدْعَةٍ خَابَ وَخَسِرَ»<sup>(١)</sup>. قال له ذلك حين أمره بالاعتصام في العمل.

فكلُّ الخير في اجتهادٍ باقتصادٍ، وإخلاصٍ مقرونٍ بالاتباع.  
كما قال بعض الصَّحابة: «أَقْتَصَادٌ فِي سَبِيلِ وَسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ اجْتِهَادٍ فِي خِلَافِ سَبِيلِ وَسُنَّةٍ - فَاحْرِصُوا أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُكُمْ عَلَى مِنْهَاجِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ وَسُنَّتِهِمْ».  
وكذلك الرياء في الأعمال يخرجها عن الاستقامة، والفتور والتواني يخرجها عنها أيضًا.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: اسْتِقَامَةُ الْأَحْوَالِ، وَهِيَ شُهُودُ الْحَقِيقَةِ لَا كَسْبًا، وَرَفْضُ الدَّعْوَى لَا عِلْمًا، وَالْبَقَاءُ مَعَ نُورِ الْيَقَظَةِ لَا تَحَفُّظًا».

يعني: أن استقامة الحال بهذه الثلاثة.

أما «شُهُودُ الْحَقِيقَةِ»: فالحقيقة حقيقتان: حقيقة كونية، وحقيقة دينية، يجمعهما حقيقةً ثالثة، وهي مصدرهما ومنشؤهما، وغايتهما.

- وأكثر أرباب السُّلوك من المتأخرين إنما يريدون بالحقيقة الحقيقية<sup>(٢)</sup> الكونية، وشهودها هو شهود تفرُّد الرِّبِّ بالفعل، وأنَّ ما سواه محلُّ جريان أحكامه وأفعاله، فهو كالحفير الذي هو محلُّ لجريان الماء حسب<sup>(٣)</sup>.

وعندهم أنَّ شهود هذه الحقيقة والفناء فيها غاية السَّالكين.

- ومنهم: من يشهد حقيقة الأزلية والدَّوام، وفناء الحادثات وطبيَّها في ضمن بساط الأزلية والأبدية، وتلاشيها في ذلك، فيشهدها معدومةً، ويشهد تفرُّد موجدِها بالوجود الحقُّ بالحقِّ، وأنَّ وجود ما سواه رسومٌ وظلالٌ.

فالأوَّل شهد تفرُّده بالأفعال، وهذا شهد تفرُّده بالوجود.

(١) تقدم تخريجه (١/٢٦٢).

(٢) كلمة: (الحقيقة) غير موجود في نسخة «غ» والمنار.

(٣) هكذا في جميع النسخ ولعلها: (فحسب).

وصاحب الحقيقة الدنيئة في طورٍ آخر؛ فإنَّه في مشهد الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والموالاتة والمعاداة، والفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يبغضه ويسخطه، فهو في مقام الفرق الثاني الذي لا يحصل للعبد درجة الإسلام - فضلاً عن مقام الإحسان - إلا به.

فالمُعرض عنه صفحاً لا نصيب له في الإسلام ألبتة.

وهو كالذي كان الجنيد يوصي به أصحابه، فيقول: «عَلَيْكُمْ بِالْفَرْقِ الثَّانِي». وإنَّما سُمِّي ثانياً؛ لأنَّ الفرق الأوَّل فرَّقُ بالطَّبْعِ والنَّفْسِ، وهذا فرَّقُ بالأمر<sup>(١)</sup>.

والجمع أيضاً جمعان:

- جمعٌ في فرق.

- وهو جمع أهل الاستقامة والتوحيد.

- وجمعٌ بلا فرقي، وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد.

فالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ:

صاحب فرقي بلا جمع: فهو مذمومٌ ناقصٌ مخذولٌ.

وصاحب جمع بلا فرقي: وهو جمع أهل الزندقة، والإلحاد؛ فصاحبه ملحدٌ زنديقٌ.

وصاحب فرقي وجمع: يشهد الفرق في الجمع، والكثرة في الوحدة، فهو المستقيم الموحد الفارق، وهذا صاحب الحقيقة الثالثة، الجامعة للحقيقتين الدنيئة والكونية، فشهود هذه الحقيقة الجامعة هو عين الاستقامة.

وأما شهود الحقيقة الكونية، أو الأزلية، والفناء فيها فأمرٌ مشتركٌ بين المؤمنين والكفار؛ فإنَّ الكافر مقرٌّ بقدر الله وقضائه، وأزليته وأبديته، فإذا استغرق في هذا الشهود وفني به عن سواه فقد شهد الحقيقة.

وأما قوله: «لَا كَسْبًا»؛ أي: يتحقَّق عند مشاهدة الحقيقة أنَّ شهودها لم يكن بالكسب؛ لأنَّ الكسب من أعمال النَّفسِ، فالحقيقة لا تبدو مع بقاء النَّفسِ؛ إذ الحقيقة فردانيةٌ أحديَّةٌ نورانيةٌ؛ فلا بدَّ من زوال ظلمة النَّفسِ، ورؤية كسبها، وإلا لم يشهد الحقيقة.

وأما «رَفُضُ الدَّعْوَى لَا عِلْمًا»: فالدعوى نسبة الحال وغيره إلى نفسك وإنيتك، فالاستقامة لا تصح إلا بتركها، سواءً كانت حقاً أو باطلاً؛ فإن الدعوى الصادقة تطفئ نور المعرفة، فكيف بالكاذبة؟  
وأما قَوْلُهُ: «لَا عِلْمًا»؛ أي: لا يكون الحامل له على ترك الدعوى مجرد علمه بفساد الدعوى، ومنافاتها للاستقامة، فإذا تركها يكون تركها لكون العلم قد نهى عنها، فيكون تاركاً لها ظاهراً لا حقيقةً،

(١) في «غ» والمنار: (بالأثر).

أو تاركًا لها لفظًا، قائمًا بها حالًا؛ لأنه يرى أنه قد قام بحق العلم في تركها، فتركها تواضعًا، بل يتركها حالًا وحقيقةً، كما يترك من أحب شيئًا تضره محبته حبه حالًا وحقيقةً، وإذا تحقق أنه ليس له من الأمر شيءٌ كما قال الله ﷻ لخير خلقه على الإطلاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] - ترك الدعوى شهودًا وحقيقةً وحالًا.

وأما «البقاء مع نور اليقظة» فهو الدوام في اليقظة، وألا يطفئ نورها بظلمة الغفلة، بل يستديم يقظته، ويرى أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه، حفظًا من الله له، لا أن ذلك حصل بتحفظه واحترازه.

فهذه ثلاثة أمور: يقظة، واستدامة لها، وشهود أن ذلك بالحق سبحانه لا بك، فليس سبب بقاءه في نور اليقظة بحفظه، بل بحفظ الله له.

وكأن الشيخ يشير إلى أن الاستقامة في هذه الدرجة لا تحصل بكسب، وإنما هو مجرد موهبة من الله؛ فإنه قال في الأولى: «الإستقامة على الاجتهاد».

وفي الثانية: «استقامة الأحوال، لا كسبًا ولا تحفظًا».

ومنازعة في ذلك متوجهة، وأن ذلك مما يمكن تحصيله كسبًا بتعاطي الأسباب التي تهجم بصاحبها على هذا المقام.

نعم؛ الذي ينفي في هذا المقام: شهود الكسب، وأن هذا حصل له بكسبه، فنفي الكسب شيء، ونفي شهوده شيء آخر.

ولعل أن نشبع الكلام في هذا فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

## فصل

□ قال: «الدرجة الثالثة: استقامة بترك رؤية الاستقامة؛ وبالغيبه عن تطلب

الإستقامة بشهود إقامة، وتقويمه الحق»<sup>(١)</sup>.

هذه الاستقامة<sup>(٢)</sup> معناها: الدُّهول بمشهوده عن شهوده؛ فيغيب بالمشهود المقصود سبحانه

(١) في نسخة المنار: (بشهود إقامته، وتقويمه عز اسمه).

(٢) جملة: (وبالغيبه) إلى قوله: (هذه الاستقامة)، ساقطة من نسخة «غ»، وذكر صاحب المنار أيضًا أنها ساقطة من نسخته، ولكنه أثبتها من النسخة البغدادية.

عن رؤية استقامته في طلبه؛ فإنَّ رؤية الاستقامة تحجبه عن حقيقة الشهود.  
 وأما «الغيبَةُ عَنْ تَطَلُّبِ الاستِقَامَةِ» فهو غيبته عن طلبها بشهود إقامة الحق للعبد، وتقويمه إيَّاه؛  
 فإنَّه إذا شهد أنَّ الله هو المقيم له والمقوم<sup>(١)</sup>، وأنَّ استقامته وقيامه بالله، لا بنفسه ولا بطلبه - غاب بهذا  
 الشهود عن استشعار طلبه لها.  
 وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسمه «الْقَيُّوم»، وهو الَّذي قام بنفسه، فلم يَحْتَجْ إلى أحدٍ،  
 وقام كلُّ شيء به، فكلُّ ما سواه محتاجٌ إليه بالذات، وليست حاجته إليه معللةً بحدوثٍ، كما يقول  
 المتكلمون، ولا بإمكانٍ، كما يقول الفلاسفة المشاءون، بل حاجته إليه ذاتيةٌ، وما بالذات لا يعلَّل.  
 نعم؛ الحدوث والإمكان دليلان على الحاجة؛ فالتعليل بهما من باب التعريف، لا من باب  
 العلل المؤثرة، والله أعلم.

## فصل

### [منزلة التوكل]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿منزلة التوكل﴾.  
 قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ [المائدة: ٢٣].  
 وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [إبراهيم: ١٤].  
 وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].  
 وقال عن أوليائه: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٤﴾ [المتحنة: ٤].  
 وقال لرسوله<sup>(٢)</sup>: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].  
 وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ﴿٧٦﴾ [النمل: ٧٦].  
 وقال له<sup>(٣)</sup>: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٨١﴾ [النساء: ٨١].

(١) في «غ»: (والمقوم له).

(٢) كلمة: (لرسوله) غير موجود في نسخة «غ» والمنار.

(٣) كلمة: (له) غير موجود في نسخة «غ» والمنار.

وقال له (١): ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال له (٢): ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال عن أصحاب نبئه: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

والقرآن مملوءٌ من ذلك.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» في حديث السَّبعين ألفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتُمُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (٣).

وفي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]» (٤).

وفي «الصَّحِيحَيْنِ»: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنْبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْحَيُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ» (٥).

وفي الترمذي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَعْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» (٦).

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) هو جزء من حديث طويل أوله: «عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ...». رواه البخاري في الطب، باب: من اکتوى أو كوى غيره، رقم (٥٧٥٥)، كما رواه مسلم في الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠).

(٤) رواه البخاري في تفسير سورة آل عمران، باب: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ برقم (٤٥٦٣).

(٥) رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل (٢٧١٧)، ولم أجده عند البخاري بهذا اللفظ وإنما بلفظ: «أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون» برقم (٧٣٨٣).

(٦) الترمذي في الزهد، باب: التوكل على الله، وقال: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وابن ماجه في الزهد، باب: التوكل واليقين رقم (٤١٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٣٥٩).

وفي السنن عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ -يَعْنِي: إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ- بِاسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ يُقَالُ لَهُ: هُدَيْتَ وَوُقِيَتْ وَكُنَيْتَ، فَيَقُولُ الشَّيْطَانُ لِشَيْطَانٍ آخَرَ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُنِيَ وَوُقِيَ؟!»<sup>(١)</sup>.

التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزله أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم، فأهل السموات والأرض المكلفون وغيرهم في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم؛ فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في [حصول ما يرضيه منهم، وفي إقامته في الخلق، ويتوكلون عليه]<sup>(٢)</sup> في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس. ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه، من رزقٍ أو عافيةٍ، أو نصرٍ على عدوٍ، أو زوجةٍ أو ولدٍ، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول [ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعدوان وحصول]<sup>(٣)</sup> الإثم والفواحش؛ فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثيرٍ من أصحاب الطاعات؛ ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

**فأفضل التوكل:** التوكل في الواجب -أعني: واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس- وأوسعُه وأنفعُه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعد في التوكل على حسب همهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيْف. ومن صدق توكله على الله في حصول شيءٍ ناله، فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة

(١) رواه أبو داود في الأدب، باب: ما يقول الرجل إذا خرج من بيته برقم (٥٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٤٩)، ورواه الترمذي في الدعوات، باب: ما يقول إذا خرج من بيته.

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي وهي موجودة في «غ» والمنار فأثبتناها هنا.

(٣) ما بين المعكوفتين ساقطة من ط: الفقي، ومن نسخة المنار وهي موجودة في نسخة «غ» فأثبتناها هنا.

المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبعوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرّةً عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إن لم يستعن به على طاعته<sup>(١)</sup>، والله أعلم.

## فصل

\* فَلْنَذَكُرْ مَعْنَى «التَّوَكُّلِ» ودرجاته، وما قيل فيه:

قال الإمام أحمد: «التَّوَكُّلُ عَمَلُ الْقَلْبِ».

- ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم

والإدراكات.

ومن النَّاسِ مَنْ يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرَّبِّ للعبد.

- ومنهم: من يفسره بالسُّكُونِ وخمود حركة القلب، فيقول: «التَّوَكُّلُ هُوَ انْطِرَاحُ الْقَلْبِ بَيْنَ

يَدَيِ الرَّبِّ كَانْطِرَاحِ الْمَيْتِ بَيْنَ يَدَيِ الْغَاسِلِ يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَهُوَ تَرْكُ الْإِخْتِيَارِ، وَالْإِسْتِزْسَالُ مَعَ مَجَارِي الْأَقْدَارِ».

قال سهل: «التَّوَكُّلُ الْإِسْتِزْسَالُ مَعَ اللَّهِ مَعَ<sup>(٢)</sup> مَا يُرِيدُ».

- ومنهم: من يفسره بالرُّضَا، فيقول: «هُوَ الرُّضَا بِالْمَقْدُورِ».

قال بشرُّ الحافي: «يَقُولُ أَحَدُهُمْ: تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ؛ وَلَوْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ رَضِيَ بِمَا

يَفْعَلُ اللَّهُ».

وسئل يحيى بن معاذ: «مَتَى يَكُونُ الرَّجُلُ مُتَوَكِّلًا؟ فَقَالَ: إِذَا رَضِيَ بِاللَّهِ وَكَيْلًا».

ومنهم: من يفسره بالثِّقَّةِ بِاللَّهِ، وَالطَّمَأِينَةِ إِلَيْهِ، وَالسُّكُونِ إِلَيْهِ.

قال ابن عطاء: «التَّوَكُّلُ: أَلَّا يَظْهَرَ فِيكَ انْزِعَاجٌ إِلَى الْأَسْبَابِ، مَعَ شِدَّةِ فَاقَتِكَ إِلَيْهَا، وَلَا

تُرْوَلُ<sup>(٣)</sup> عَنْ حَقِيقَةِ السُّكُونِ إِلَى الْحَقِّ مَعَ وَقُوفِكَ عَلَيْهَا».

قال ذو النون: «هُوَ تَرْكُ تَدْبِيرِ النَّفْسِ، وَالْإِنْخِلَاعِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَإِنَّمَا يَقْوَى الْعَبْدُ عَلَى

التَّوَكُّلِ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ وَيَرَى مَا هُوَ فِيهِ».

(١) في «غ» والمنار: (طاعته).

(٢) في «غ» والمنار: (على).

(٣) في «غ» والمنار: (ولا تزال على).

وقال بعضهم: «التَّوَكَّلُ: التَّعَلُّقُ بِاللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ». وقيل: التَّوَكَّلُ: أن ترد عليك موارد الفاقات، فلا تسمو إلا إلى من إليه الكفايات. وقيل: نفي الشُّكوك، والتَّفْوِيضُ إلى مالك المملوك. وقال ذو النُّون: «خَلَعُ الْأَرْيَابِ، وَقَطَعُ الْأَسْبَابِ». يريد قطعها من تعلق القلب بها، لا من ملابسة الجوارح لها. ومنهم: من جعله مركبًا من أمرين أو أمور.

فقال أبو سعيد الخَراز: «التَّوَكَّلُ: اضْطِرَابٌ بِلَا سُكُونٍ، وَسُكُونٌ بِلَا اضْطِرَابٍ». يريد: حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن، وسكونٌ إلى المسبب، وركونٌ إليه، ولا يضطرب قلبه معه، ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه.

وقال أبو تراب النخشي: «هُوَ طَرَحُ الْبَدَنِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالطَّمَأْنِينَةُ إِلَى الْكِفَايَةِ؛ فَإِنْ أُعْطِيَ شُكْرًا، وَإِنْ مُنِعَ صَبْرًا». فجعله مركبًا من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلى قضائه وقدره، وطمأنينته وكفايته (١) له، وشكره إذا أعطي، وصبره إذا منع.

قال أبو يعقوب النهرجوري: «التَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ بِكَمَالِ الْحَقِيقَةِ، كَمَا وَقَعَ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي قَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا». لآنه غائبٌ عن نفسه بالله، فلم يرمع الله غير الله». وأجمع القوم على أن التَّوَكَّلُ لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التَّوَكَّلُ إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالةٌ وتوكلٌ فاسدٌ.

قال سهل بن عبد الله: «مَنْ طَعَنَ فِي الْحَرَكَةِ فَقَدْ طَعَنَ فِي السُّنَّةِ، وَمَنْ طَعَنَ فِي التَّوَكَّلِ فَقَدْ طَعَنَ فِي الْإِيمَانِ». فالتَّوَكَّلُ حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يترك سنته. وهذا معنى قول أبي سعيد: «هُوَ اضْطِرَابٌ بِلَا سُكُونٍ، وَسُكُونٌ بِلَا اضْطِرَابٍ». وقول سهلٍ أبين وأرفع.

وقيل: التَّوَكَّلُ قطع علائق القلب بغير الله. وسئل سهل عن التَّوَكَّلِ فقال: «قَلْبٌ عَاشَ مَعَ اللَّهِ بِلَا عَلاَقَةٍ». وقيل: التَّوَكَّلُ: هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

(١) في «غ» والمنار: (بكفايته).



وقيل: التَّوَكُّلُ أن يستوي عندك الإكثار والإقلال. وهذا من موجباته وآثاره؛ لأنه حقيقته (١).  
 وقيل: هو ترك كلِّ سببٍ يوصلك إلى مسببٍ؛ حتَّى يكون الحقُّ هو المتولَّى لذلك.  
 وهذا صحيحٌ من وجهٍ، باطلٌ من وجهٍ؛ فترك الأسباب المأمور بها قاذحٌ في التَّوَكُّلِ، وقد تولَّى  
 الحقُّ إيصال العبد بها، وأمَّا ترك الأسباب المباحة فإنَّ تركها لما هو أرجح منها مصلحةٌ فممدوحٌ، وإلَّا  
 فهو مذمومٌ.

وقيل: هو إلقاء النَّفس في العبوديَّة، وإخراجها من الرُّبوبيَّة.  
 يريد: استرسالها مع الأمر، وبراءتها من حولها وقوتها، وشهود ذلك بها، بل بالرَّبِّ وحده.  
 ومنهم من قال: التَّوَكُّلُ هو التَّسْلِيمُ لأمر الرَّبِّ وقضائه.  
 ومنهم من قال: هو التَّفْوِيضُ إليه في كلِّ حالٍ.  
 ومنهم من جعل التَّوَكُّلَ بدايةً، والتَّسْلِيمَ واسطةً، والتَّفْوِيضَ نهايةً.  
 قال أبو عليٍّ الدَّقَاقُ: «التَّوَكُّلُ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ: التَّوَكُّلُ، ثُمَّ التَّسْلِيمُ، ثُمَّ التَّفْوِيضُ؛ فَالْمُتَوَكَّلُ  
 يَسْكُنُ إِلَى وَعْدِهِ، وَصَاحِبُ التَّسْلِيمِ يَكْتَفِي بِعِلْمِهِ، وَصَاحِبُ التَّفْوِيضِ يَرْضَى بِحُكْمِهِ، فَالتَّوَكُّلُ بَدَايَةٌ،  
 وَالتَّسْلِيمُ وَاسِطَةٌ، وَالتَّفْوِيضُ نِهَآيَةٌ؛ فَالتَّوَكُّلُ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّسْلِيمُ صِفَةُ الْأَوْلِيَاءِ، وَالتَّفْوِيضُ صِفَةُ  
 الْمُوَحِّدِينَ.

التَّوَكُّلُ صِفَةُ الْعَوَامِّ (٢)، وَالتَّسْلِيمُ صِفَةُ الْخَوَاصِّ، وَالتَّفْوِيضُ صِفَةُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ.  
 التَّوَكُّلُ صِفَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَالتَّسْلِيمُ صِفَةُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، وَالتَّفْوِيضُ صِفَةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ». هذا كله كلام الدَّقَاقِ.  
 ومعنى هذا التَّوَكُّلُ (٣): اعتمادٌ على الوكيل، وقد يعتمد الرَّجُلُ على وكيله مع نوع اقتراحٍ عليه،  
 وإرادةٍ وشائبةٍ منازعةٍ، فإذا سلَّم إليه زال عنه ذلك، ورضي بما يفعله وكيله، وحال المفوض فوق هذا؛  
 فإنَّه طالبٌ مريدٌ ممَّن فوض إليه، ملتئمٌ منه أن يتولَّى أموره، فهو رضاء واختيارٌ، وتسليمٌ واعتمادٌ؛  
 فالتَّوَكُّلُ يندرج في التَّسْلِيمِ، وهو والتَّسْلِيمُ يندرجان في التَّفْوِيضِ، والله تعالى أعلم.

(١) قال في حاشية المنار: وفي نسخة البغدادية: (لا أنه).

(٢) قد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أن التَّوَكُّلَ من صفات أوليائه وأصفيائه لا أنه مرتبة ضعيفة هي من صفات العوام!  
 وسيأتي الكلام للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يبين فيه أن مقام التَّوَكُّلِ مقام عظيم وليس هو صفة للعوام دون  
 الخواص، بل هو من أخص صفات الخواص وخواص الخواص.

(٣) في «ع»: (أن التَّوَكُّل).

## فصل

وحقيقة الأمر: أنَّ التَّوَكُّلَ حالٌ مركَّبةٌ من مجموع أمورٍ، لا تتمُّ حقيقة التَّوَكُّلِ إلَّا بها، وكلُّ أشارٍ إلى واحدٍ من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر.

فأول ذلك: معرفةٌ بالرَّبِّ وصفاته من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التَّوَكُّلِ.

قال شيخنا (١) رحمته الله: «وَلِذَلِكَ لَا يَصِحُّ التَّوَكُّلُ وَلَا يُتَصَوَّرُ مِنْ فَيْلَسُوفٍ، وَلَا مِنَ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاءُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ أَيْضًا مِنَ الْجَهْمِيَّةِ النُّفَاةِ لِصْفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جلاله، وَلَا يَسْتَقِيمُ التَّوَكُّلُ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ».

فأيُّ توَكُّلٍ لمن يعتقد أنَّ الله لا يعلم جزئيات العالم سفليته وعلويته؟! ولا هو فاعلٌ باختياره؟! ولا له إرادةٌ ومشيةٌ؟! ولا يقوم به صفةٌ؟! فكلُّ مَنْ كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توَكُّله أصحَّ وأقوى، والله سبحانه أعلم.

## فصل

الدرجة الثانية: إثباتٌ في الأسباب والمسببات.

فإنَّ من نفاها فتوَكُّله مدخولٌ، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأى: أنَّ إثبات الأسباب يقدح في التَّوَكُّلِ، وأنَّ نفيها تمام التَّوَكُّلِ.

فاعلم أنَّ نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توَكُّلٌ ألبتة؛ لأنَّ التَّوَكُّلَ من أقوى الأسباب في حصول المتوَكِّل فيه؛ فهو كاللِّدْعَاءِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ سَبَبًا فِي حُصُولِ الْمَدْعُوِّ بِهِ، فَإِذَا اعْتَقَدَ الْعَبْدُ أَنَّ تَوَكُّلَهُ لَمْ يَنْصِبْهُ اللهُ سَبَبًا، وَلَا جَعَلَ دَعَاءَهُ سَبَبًا لِنَيْلِ شَيْءٍ؛ فَإِنَّ الْمَتَوَكِّلَ فِيهِ الْمَدْعُوُّ بِحُصُولِهِ إِنْ كَانَ قَدْرٌ حَصَلَ تَوَكَّلَ أَوْ لَمْ يَتَوَكَّلْ، دَعَا أَوْ لَمْ يَدْعُ، وَإِنْ لَمْ يَقْدَرْ لَمْ يَحْصَلْ تَوَكَّلَ أَيْضًا أَوْ تَرَكَ التَّوَكُّلَ.

وصرَّح هؤلاء أنَّ التَّوَكُّلَ والدُّعَاءَ عبوديَّةٌ محضَةٌ، لا فائدة لهما إلَّا ذلك، ولو ترك العبد التَّوَكُّلَ

(١) في يقصد بشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

والدُّعَاءُ ما فاته شيءٌ ممَّا قَدَّرَ له، ومن غلاتهم مَنْ يجعل الدُّعَاءَ بعدم المؤاخذة على الخطأ والتَّسيان عديم الفائدة؛ إذ هو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمّقي هؤلاء - في كتاب له - لا يجوز الدُّعَاءُ بهذا، وإنَّما يجوزُه تلاوةٌ لا دعاءً، قال: لأنَّ الدُّعَاءَ به يتضمَّن الشُّكَّ في وقوعه؛ لأنَّ الدَّاعي بين الخوف والرَّجاء، والشُّكُّ في وقوع ذلك شكٌّ في خبر الله؛ فانظر إلى ما قاد إنكار الأسباب من العظام، وتحريم الدُّعَاءَ بما أثنى الله على عباده وأوليائه بالدُّعَاءِ به وبطلبه ولم يزل المسلمون من عهد نبيِّهم ﷺ وإلى الآن يدعون به في مقامات الدُّعَاءِ، وهو من أفضل الدَّعوات.

وجواب هذا الوهم الباطل أن يقال: بقي قسمٌ ثالثٌ غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه، وهو الواقع، وهو أن يكون قضيٌّ بحصول الشَّيء عند حصول سببه من التَّوَكُّلِ والدُّعَاءِ، فنصب الدُّعَاءِ والتَّوَكُّلِ سببين لحصول المطلوب، وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه، فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبَّب.

وهذا كما قضيَّ بحصول الولد إذا جامع الرَّجل من يَحِبُّها، فإذا لم يجمع لم يخلق الولد. وقضى بحصول الشُّبَعِ إذا أكل، والرَّيِّ إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يَرَوْ. وقضى بحصول الحجِّ والوصول إلى مكَّة إذا سافر وركب الطَّرِيق، فإذا جلس<sup>(١)</sup> في بيته لم يصل إلى مكَّة.

وقضى بدخول الجنَّة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصَّالحة، فإذا ترك الإسلام (ولم يعمل الصَّالحات)<sup>(٢)</sup> لم يدخلها أبداً. وقضى بإنضاج الطَّعام بإيقاد النَّار تحته.

وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشقِّ الأرض، وإلقاء البذر فيها؛ فما لم يأت بذلك لم يحصل إلاَّ الخيبة.

فَوَزُنُ<sup>(٣)</sup> ما قاله منكرو الأسباب: أن يترك كلُّ من هؤلاء السَّببِ الموصِّل، ويقول: إن كان قضي لي وسبق في الأزل حصول الولد، والشُّبَعِ، والرَّيِّ، والحجِّ ونحوها، فلا بدَّ أن يصل إليَّ، تحرَّكْتُ أو سكنتُ، تزوجتُ أو تركتُ، سافرتُ أو قعدتُ، وإن لم يكن قد<sup>(٤)</sup> قضي لي لم يحصل لي

(١) في «غ» والمنار: (حُيس).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «غ» والمنار.

(٣) في «غ»: (فوازن).

(٤) كلمة: (قد) غير موجود في نسخة «غ» والمنار.

أيضاً، فعلتُ أو تركتُ.

فهل يعدُّ أحدٌ هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإنَّ البهيمة تسعى في السَّبب بالهداية العامّة.

فالتَّوَكُّل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التَّوَكُّل، ولكن من تمام التَّوَكُّل عدم الرُّكون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها؛ فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأَسباب محلُّ حكمة الله وأمره ودينه، والتَّوَكُّل متعلِّقٌ بربوبيّته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبوديّة الأسباب إلا على ساق التَّوَكُّل، ولا يقوم ساق التَّوَكُّل إلا على قدم العبوديّة<sup>(١)</sup>، والله ﷻ أعلم.

## فصل

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التَّوَكُّل.

فإنَّه لا يستقيم توكل العبد حتّى يصحَّ له توحيده، بل حقيقة التَّوَكُّل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشُّرك، فتوكله معلولٌ مدخولٌ، وعلى قدر تجريد التَّوَحِيد تكون صحّة التَّوَكُّل؛ فإنَّ العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبةً من شعب قلبه؛ فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشُّعبة، ومن هاهنا ظنٌّ من ظنِّ أن التَّوَكُّل لا يصحُّ إلا برفض الأسباب، وهذا حقٌّ، لكنَّ رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتَّوَكُّل لا يتمُّ إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلُّق الجوارح بها، فيكون منقطعاً منها متصلاً بها، والله ﷻ أعلم.

## فصل

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه.

بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشويش الأسباب، ولا سكونٌ إليها، بل يخلع السُّكون إليها من قلبه، ويلبسه السُّكون إلى مسببها.

(١) في «غ» والمنار: (ساق العبودية).

وعلاوة هذا<sup>(١)</sup>: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحبُّ منها وإقبال ما يكره؛ لأنَّ اعتماده على الله، وسكونه إليه، واستناده إليه - قد حصَّنه من خوفها ورجائها، فحالُه حال من خرج عليه عدوٌّ عظيمٌ لا طاقة له به، فرأى حصناً مفتوحاً، فأدخله ربُّه إليه، وأغلق عليه باب الحصن؛ فهو يشاهد عدوّه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوّه في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك من أعطاه ملكٌ درهمًا، فسرق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه؛ فلا تهتمَّ، متى جئت إليَّ أعطيتك من خزائني أضعافه، فإذا علم صحَّة قول الملك، ووثق به، واطمأنَّ إليه، وعلم أنَّ خزائنه مليئةٌ بذلك - لم يحزنه فوته.

وقد مثل ذلك بحال الطِّفل الرِّضيع في اعتماده وسكونه، وطمأننته بثدي أمِّه لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفاتٌ إلى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكِّل كالطِّفل؛ لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلاَّ ثدي أمِّه، كذلك المتوكِّل لا يأوي إلاَّ إلى ربِّه سبحانه.

## فصل

الدرجة الخامسة: حسن الظنِّ بالله ﷻ.

فعلى قدر حسن ظنِّك بربِّك ورجائك له يكون توكلُّك عليه؛ ولذلك فسَّر بعضهم التَّوَكَّلَ بحسن الظنِّ بالله.

والتَّحْقِيقُ: أنَّ حسن الظنِّ به يدعو إلى التَّوَكُّلِ عليه؛ إذ لا يتصوَّر التَّوَكُّلُ على من ساء<sup>(٢)</sup> ظنُّك به، ولا التَّوَكُّلُ على من لا ترجوه، والله أعلم.

## فصل

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلِّها إليه، وقطع منازعاته<sup>(٣)</sup>.

وبهذا فسَّرَه من قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلِّبه كيف أراد، لا يكون له حركةٌ ولا تدبيرٌ.

(١) في «غ» والمنار: (وعلى هذا).

(٢) في «غ»: (تسيء).

(٣) في «غ»: (منازعته).

وهذا معنى قول بعضهم: التَّوَكُّلُ إسقاط التَّدْبِيرِ؛ يعني: الاستسلام لتدبير الرَّبِّ لك، وهذا في غير باب الأمر والنَّهْيِ، بل فيما يفعله بك، لا فيما أمرك بفعله.  
فالاستسلام كتسليم العبد الدَّلِيل نفسه لسيِّده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيِّده، والله ﷻ أعلم.

## فصل

### الدرجة السابعة: التفويض.

وهو روح التَّوَكُّل ولبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كُلِّها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرها واضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضَّعِيف (المغلوب على أمره كُلِّ أموره إلى أبيه)<sup>(١)</sup>، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له؛ فهو يرى أنَّ تدبير أبيه له خيرٌ من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتولِّيه لها خيرٌ من قيامه هو بمصالح نفسه وتولِّيه لها؛ فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كُلِّها إلى أبيه، وراحته من حمل كُلِّها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوَّض إليه، وقدرته وشفقته.

## فصل

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة الرِّضا.

وهي ثمرة التَّوَكُّل، ومن فسَّر التَّوَكُّل بها فإنَّما فسَّره بأجلِّ ثمراته، وأعظم فوائده؛ فإنَّه إذا تَوَكَّل حقَّ التَّوَكُّل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا ﷺ يقول: «الْمَقْدُورُ يَكْتَنِفُهُ أَمْرَانِ: التَّوَكُّلُ قَبْلَهُ، وَالرِّضَا بَعْدَهُ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيَّ اللهُ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَرَضِيَ بِالْمَقْضِيِّ لَهُ بَعْدَ الْفِعْلِ - فَقَدْ قَامَ بِالْعُبُودِيَّةِ. أَوْ مَعْنَى هَذَا. قلت: وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة<sup>(٢)</sup>: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ،

(١) في «غ» والمنار: (المغلوب أموره إلى أبيه).

(٢) تقدم تخريجه (٥١/١).

وَأَسْتَدْرِكُ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ». فهذا تَوَكُّلٌ وتفويضٌ.  
 ثمَّ قال: «فَإِنَّكَ تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَتَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ». فهذا تبرُّؤٌ إلى الله من العلم والحوال والقوَّة، وتوسُّلٌ إليه سبحانه بصفاته التي هي أحبُّ ما توسَّلُ إليه بها المتوسِّلون، ثمَّ سأل ربَّه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته، عاجلاً أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته، عاجلاً أو آجلاً، فهذا هو حاجته التي سألتها، فلم يبق عليه إلَّا الرِّضا بما يقضيه له. فقال: «وَأَقْدُرُ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ».

فقد اشتمل هذا الدُّعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها التَّوَكُّلُ والتَّفويض قبل وقوع المقدور، والرِّضا بعده، وهو ثمرة التَّوَكُّل، والتَّفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له فتفويضه معلولٌ فاسدٌ.

فباستكمال هذه الدَّرجات الثماني يستكمل العبد مقام التَّوَكُّل، وتثبت قدمه فيه.  
 وهذا معنى قول بشر الحافي: «يَقُولُ أَحَدُهُمْ: تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ؛ لَوْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَرَضِيَ بِمَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ بِهِ».

وقول يحيى بن معاذٍ وقد سئل: «متى يكون الرَّجل متوكِّلاً؟» فقال: إِذَا رَضِيَ بِاللَّهِ وَكَيْلًا».

## فصل

وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمودُ الكاملُ بالمذموم النَّاقصُ.  
 فيشتبه التَّفويض بالإضاعة: فيضيع العبد حظه ظناً منه أن ذلك<sup>(١)</sup> تفويضٌ وتوَكُّلٌ، وإنَّما هو تضييعٌ لا تفويضٌ؛ فالتضييع في حقِّ الله، والتَّفويض في حقِّك.  
 ومنه اشتباه التَّوَكُّلِ بالرَّاحة: وإلقاء حمل الكلِّ؛ فيظنُّ صاحبه أنه متوكِّلٌ، وإنَّما هو عاملٌ على عدم الرَّاحة.

وعلاوة ذلك: أن المتوكِّلَ مجتهدٌ في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد، مستريحٌ من غيرها لتعبه بها، والعامل على الرَّاحة آخذٌ من الأمر مقدار ما تندفع به الصُّرورة، وتسقط به عنه مطالبة الشرع؛ فهذا لونٌ، وهذا لونٌ.

ومنه اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها: فخلعها توحيدٌ، وتعطيلها إحداٌ وزندقةٌ؛ فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها، وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

(١) في «غ» والمنار: (أن ذلك منه).

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغرور<sup>(١)</sup> والعجز.

والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته، وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض، والمعتز العاجز قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه: اشتباه<sup>(٢)</sup> الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه، ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة.

كما يذكر عن أبي سليمان الداراني: «أنه رأى رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربته من ماء زمزم، فمضى عليه أيام، فقال له أبو سليمان يوماً: أرايت لو غارت زمزم، أي شيء كنت تشرب؟ فقام وقبل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً؛ حيث أرسدتني؛ فإنني كنت أعبد زمزم منذ أيام، ثم تركه ومضى».

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأننتهم إلى المعلوم، وهم يظنون أنه إلى الله. وعلامة ذلك: أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره هممه وبثه وخوفه، فعلم أن طمأننته وسكونه لم يكن إلى الله.

ومنه: اشتباه الرضا عن الله بكل ما يفعل بعبد مِمَّا يحبُّه ويكرهه بالعزم على ذلك، وحديث النفس به<sup>(٣)</sup>: وذلك شيءٌ والحقيقة شيءٌ آخر.

كما يحكى عن أبي سليمان أنه قال: «أرجو أن أكون أعطيت طرفاً من الرضا، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً».

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «هذا عزمٌ منه على الرضا وحديث نفسٍ به<sup>(٤)</sup>، ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيءٌ، وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته».

ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل: فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفصيله، فيظن أنه<sup>(٥)</sup> متوكلٌ، وليس من أهل التوكل، فحال التوكل أمرٌ آخر من وراء العلم به، وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها، وحال المحب العاشق وراء ذلك، وكمعرفة علم الخوف، وحال الخائف وراء ذلك، وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوي فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة

(١) في «غ» والمنار: (بالغرة).

(٢) كلمة: (اشتباه) ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) كلمة: (به) ساقطة من «غ».

(٤) كلمة: (به) ساقطة من «غ».

(٥) في «غ» والمنار: (أنه بذلك).



بِالْأَسْبَابِ الْمَوْصُلةِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ<sup>(١)</sup>.

## فصل

التَّوَكُّلُ مِنْ أَعْمِ الْمَقَامَاتِ تَعَلُّقًا بِالْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى.

فَإِنَّ لَهُ تَعَلُّقًا خَاصًّا بِعَامَّةِ أَسْمَاءِ الْأَفْعَالِ، وَأَسْمَاءِ الصِّفَاتِ.

فَلَهُ تَعَلُّقٌ بِاسْمِ «الْغَفَّارِ، وَالتَّوَّابِ، وَالْعَفْوِ، وَالرَّءُوفِ، وَالرَّحِيمِ» وَتَعَلُّقٌ بِاسْمِ «الْمُنْتَهَى، وَالرَّافِعِ، الْمَانِعِ»، وَتَعَلُّقٌ بِاسْمِ «الْمُعَزِّ، الْمُدِّلِّ، الْخَافِضِ، الرَّافِعِ، الْمَانِعِ»، مِنْ جِهَةِ تَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ فِي إِذْلَالِ أَعْدَاءِ دِينِهِ، وَخَفْضِهِمْ وَمَنْعِهِمْ أَسْبَابَ النَّصْرِ، وَتَعَلُّقٌ بِأَسْمَاءِ «الْقُدْرَةِ، وَالْإِزَادَةِ»، وَلَهُ تَعَلُّقٌ عَامٌّ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى؛ وَلِهَذَا فَسَّرَهُ مِنْ فَسَّرَهُ مِنَ الْأَيْمَةِ بِأَنَّهُ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ<sup>(٢)</sup> بِحَسَبِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ يَصِحُّ لَهُ مَقَامُ التَّوَكُّلِ، وَكَلَّمَا كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ تَوَكُّلُهُ عَلَيْهِ أَقْوَى.

## فصل

وَكثِيرٌ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ يَكُونُ مَغْبُونًا فِي تَوَكُّلِهِ، وَقَدْ تَوَكَّلَ حَقِيقَةَ التَّوَكُّلِ وَهُوَ مَغْبُونٌ، كَمَنْ صَرَفَ تَوَكُّلَهُ إِلَى حَاجَةٍ جَزَائِيَّةٍ اسْتَفْرَغَ فِيهَا قُوَّةَ تَوَكُّلِهِ، وَيُمْكِنُهُ نَيْلُهَا بِأَيْسَرِ شَيْءٍ، وَتَفْرِغَ قَلْبَهُ لِلتَّوَكُّلِ فِي زِيَادَةِ

(١) وللإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلام جميل حول هذه المعاني في كتابه النفيس «طريق الهجرتين» عندما كان يتحدث عن القوة العلمية والقوة العملية، وهي مسألة مهمة يجب أن يعتني بها المربون مع أنفسهم ومع من يربونهم من الناس، ولقد كان من مضي من العلماء الصالحين يخافون على أنفسهم من الضعف العملي وضعف الحال؛ ولا يركنون لشهرتهم العلمية، بل يكرهون أشد الكراهية أن يتضحوا علمياً أو يشتهروا أو يعظمهم الناس، وليس في قلوبهم ما يكافئ ذلك من الأعمال الصالحة والأحوال الشريفة.

ولنا أن نتساءل ونفكر: أيهما أسعد حالاً عند الله ﷻ... رجل أوتي من العلم ما يتمكن به من حشد النصوص الدالة على فضل قيام الليل والأسباب المعينة على ذلك ثم هو لا يقوم الليل، وآخر لا يعلم من ذلك إلا أن قيام الليل مستحب فاجتهد ليلة بين يدي الله تعالى ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه؟! فالمرء لا يكون قائماً الليل بمجرد العلم بقيام الليل وفوائده وأحكامه، ولا يكون ورعاً بمجرد علمه بالورع ولا يكون صابراً بمجرد معرفته للصبر وتعريفه وأقسامه ولا يكون غاضباً لبصره بمجرد حديثه عن أسباب غض البصر وأمره للناس به، فالعلم بهذه الأمور شيء وأحوال هذه الأمور والعمل بها شيء آخر وراء العلم بها.

(٢) كلمة: (أنه) غير موجودة في «غ».

الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيرًا؛ فهذا توكل العاجز القاصر الهمة، كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعائه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين، والله أعلم.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «التوكل: كلة الأمر إلى ماله، والتعويل على وكالته، وهو من أصعب منازل العامة عليهم، وأوهى السبل عند الخاصة؛ لأن الحق تعالى قد وكل الأمور كلها إلى نفسه، وأياس العالم من ملك شيء منها».

قوله: «كلة الأمر إلى ماله». أي تسليمه إلى من هو بيده.  
«والتعويل على وكالته»: أي: الاعتماد على قيامه بالأمر، والاستغناء بفعله عن فعلك، وإرادته عن إرادتك.

و«الوكالة» يراد بها أمران:

- أحدهما: التوكيل، وهو الاستنابة والتفويض.  
- والثاني: التوكل، وهو التعرف<sup>(١)</sup> بطريق النبابة عن الموكل، وهذا من الجانبين؛ فإن الله تبارك وتعالى يوكل العبد ويقومه في حفظ ما وكله فيه، والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه.

فأما وكالة الرب عبده: ففي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا

يَكْفُرِينَ ﴿٨٩﴾ [الأنعام: ٨٩].

قال قتادة: «وكلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم» يعني: قبل هذه الآية.  
وقال أبو رجاء العطاردي: «معناه: إن يكفر بها أهل الأرض فقد وكلنا بها أهل السماء وهم الملائكة».

وقال ابن عباس ومجاهد: «هم الأنصار أهل المدينة».  
والصواب: أن المراد من قام بها إيمانًا، ودعوةً وجهادًا ونصرةً، فهؤلاء هم الذين وكلهم الله بها.

(١) في «غ»: (التصرف)، ولعلها هي الصواب.

فإن قلت: فهل يصحُّ أن يقال: إن أحدًا وكيل الله؟

قلت: لا؛ فإنَّ الوكيل من يتصرّف عن موكله بطريق النيابة، والله عَزَّوَجَلَّ لا نائب له، ولا يخلفه أحدٌ، بل هو الَّذي يخلف عبده، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ»<sup>(١)</sup>.

على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمورٌ بحفظ ما وكله فيه، ورعايته والقيام به.

وأما توكيل العبد ربّه: فهو تفويضه إليه، وعزل نفسه عن التصرف، وإثباته لأهله ووليّه.

ولهذا قيل في التَّوَكُّلِ: إنه عزل النَّفْسَ عن الرُّبُوبِيَّةِ، وقيامها بالعبوديَّةِ.

وهذا معنى كون الرَّبِّ وكيل عبده؛ أي: كافيّه، والقائم بأموره ومصالحه؛ لأنّه نائبه في التصرف،

فوكالة الرَّبِّ عبده أمرٌ وتعبُدٌ وإحسانٌ له، وخلعةٌ منه عليه، لا عن حاجةٍ منه وافتقارٍ إليه كمولاته، وأمّا

توكيل العبد ربّه فتسليمٌ لربوبيّته، وقيامٌ بعبوديّته.

وقوله: «وَهُوَ مِنْ أَصْعَابِ مَنَازِلِ الْعَامَّةِ عَلَيْهِمْ»: لأنَّ العامّة لم يخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم،

ولم يشاهدوا الحقيقة التي شهدها الخاصّة، وهي التي تشهد التَّوَكُّلِ<sup>(٢)</sup>، فهم في<sup>(٣)</sup> رِقِّ الأسباب؛

فيصعب عليهم الخروج عنها، وخلوُّ القلب منها، والاشتغال بملاحظة المسبّب وحده.

وأما كونه: «أَوْهَى السَّبِيلِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ»: فليس على إطلاقه، بل هو من أجلِّ السَّبِيلِ عندهم

وأفضلها، وأعظمها قدرًا؛ وقد تقدّم في صدر الباب أمر الله رسوله بذلك، وحضّه عليه هو والمؤمنين،

ومن أسمائه ﷺ «الْمُتَوَكَّلُ»، وتوكله أعظم توكلٍ؛ وقد قال الله له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ

الْمُبِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل: ٧٩].

وفي ذكر أمره بالتَّوَكُّلِ مع إخباره بأنّه على الحقِّ دلالةٌ على أنّ الدِّينَ بمجموعه في هذين

الأمريّن: أن يكون العبد على الحقِّ في قوله وعمله، واعتقاده ونيّته، وأن يكون متوكِّلاً على الله واثقًا به،

فالدِّينُ كلّهُ في هذين المقامين.

وقال رسل الله وأنبياءه: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نُنَوِّكَلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ٦٢]، فالعبد آفته:

إمّا من عدم الهداية، وإمّا من عدم التَّوَكُّلِ، فإذا جمع التَّوَكُّلُ إلى الهداية فقد جمع الإيمان كلّهُ.

(١) هو جزء من دعاء السفر، ورواه مسلم في الحج، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (١٣٤٢)، وأبو داود في

الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا سافر (٢٥٩٨).

(٢) في «غ» والمنار: (التوكل).

(٣) كلمة: (في) ساقطة من «غ» والمنار.

نعم؛ التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِي مَعْلُومِ الرِّزْقِ الْمَضْمُونِ، وَالِاشْتِغَالِ بِهِ عَنِ التَّوَكُّلِ فِي نَصْرَةِ الْحَقِّ وَالَّذِينَ مِنْ أَوْهَىٰ مَنَازِلِ الْخَاصَّةِ، أَمَّا التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ فِي حَصُولِ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ فِيهِ وَفِي الْخَلْقِ، فَهَذَا تَوَكُّلَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ﷺ، فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَوْهَىٰ مَنَازِلِ الْخَاصَّةِ؟

قوله: «لِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ وَكَّلَ الْأُمُورَ إِلَىٰ نَفْسِهِ، وَأَيَّاسَ الْعَالَمِ مِنْ مَلِكٍ شَيْءٍ مِنْهَا».

جوابه: أَنَّ الَّذِي تَوَلَّىٰ ذَلِكَ أَسْنَدَ إِلَىٰ عِبَادِهِ كَسْبًا وَفِعْلًا وَإِقْدَارًا، وَاخْتِيَارًا، وَأَمْرًا وَنَهْيًا، وَاسْتِعْبَادَهُمْ بِهِ، وَامْتَحَنَ بِهِ مَنْ يَطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْبُدُهُ، وَمَنْ يُؤَثِّرُهُ مِمَّنْ يُؤَثِّرُهُ عَلَيْهِ، وَأَمْرًا بِتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ فِيمَا أَسْنَدَهُ إِلَيْهِمْ وَأَمْرَهُمْ بِهِ، وَتَعْبُدَهُمْ بِهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ، كَمَا يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، وَكَمَا يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَكَمَا يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، وَكَمَا يُحِبُّ التَّوَّابِينَ.

وَأَخْبَرَ أَنَّ كِفَايَتَهُ لَهُمْ مَقْرُونَةٌ بِتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ كَافٍ مِنْ تَوَكُّلِ عَلَيْهِ وَحَسْبِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَمَقَامٍ (١) مِنْ مَقَامَاتِهِ جِزَاءً مَعْلُومًا.

وَجَعَلَ نَفْسَهُ جِزَاءَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ وَكِفَايَتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق: ٢].

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنَّا سَيِّئَاتِهِ﴾ [الطلاق: ٥].

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٤].

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

ثُمَّ قَالَ فِي التَّوَكُّلِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

فَانظُرْ إِلَىٰ هَذَا الْجِزَاءِ الَّذِي حَصَلَ لِلْمُتَوَكِّلِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ لِغَيْرِهِ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ التَّوَكُّلَ أَقْوَىٰ السُّبُلِ عِنْدَهُ وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ، وَلَيْسَ كُونُهُ وَكُلُّ الْأُمُورِ إِلَىٰ نَفْسِهِ (بِمَنَافِئِ التَّوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَيْهِ، بَلْ هَذَا تَحْقِيقُ كُونِ الْأُمُورِ كُلِّهَا مَوْكُولَةً إِلَىٰ نَفْسِهِ) (٢)؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَلِمَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ مَعْرِفَةً صَارَتْ حَالُهُ التَّوَكُّلَ قِطْعًا عَلَىٰ مِنْ هَذَا شَأْنِهِ، لَعَلَّمَهُ بِأَنَّ الْأُمُورَ كُلِّهَا مَوْكُولَةٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْهَا؛ فَهُوَ لَا يَجِدُ بَدَأً مِنْ اعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ، وَتَفْوِيضِهِ إِلَيْهِ، وَثِقْتَهُ بِهِ مِنَ الْوَجْهِينَ: مِنْ جِهَةِ فَقْرِهِ وَعَدَمِ مَلَكَه شَيْئًا أَلْبَتَّةَ، وَمِنْ جِهَةِ كُونِ (٣) الْأَمْرِ كُلِّهِ بِيَدِهِ وَإِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلَ يَنْشَأُ مِنْ هَذَيْنِ الْعَلَمِينَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؛ فَكَيْفَ يُوَكَّلُ الْمَالِكُ عَلَىٰ مَلَكَه؟ وَكَيْفَ يَسْتَنْبِيهِ فِيمَا هُوَ مَلِكٌ لَهُ دُونَ هَذَا الْمَوْكُولِ؟ فَالْخَاصَّةُ لَمَّا تَحَقَّقُوا هَذَا نَزَلُوا عَنْ مَقَامِ التَّوَكُّلِ، وَسَلَّمُوهُ إِلَىٰ الْعَامَّةِ، وَبَقِيَ الْخِطَابُ بِالتَّوَكُّلِ، لَهُمْ دُونَ الْخَاصَّةِ؟

(١) كلمة: (ومقام) ساقطة من نسخة «غ».

(٢) ما بين القوسين ساقط من «غ».

(٣) كلمة: (كون) غير موجودة في «غ».

قيل: لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كُلَّهُ لِلَّهِ ﷻ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيهِ شَيْءٌ أَلْبَتَّةَ كَانَ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللَّهِ تَسْلِيمَ الْأَمْرِ إِلَى مَنْ هُوَ لَهُ، وَعَزَلَ نَفْسَهُ عَنِ مَنَازِعَاتِ مَالِكِهِ، وَاعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ فِيهِ، وَخُرُوجِهِ عَنِ تَصَرُّفِهِ بِنَفْسِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَكَوْنِهِ بِهِ إِلَى تَصَرُّفِهِ بِرَبِّهِ، وَكَوْنِهِ بِهِ سَبْحَانَهُ دُونَ نَفْسِهِ، وَهَذَا مَقْصُودُ التَّوَكُّلِ.

وَأَمَّا عَزَلَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ عَنِ مَقَامِ التَّوَكُّلِ: فَهُوَ عَزَلَ لَهَا عَنِ حَقِيقَةِ الْعِبُودِيَّةِ. وَأَمَّا تَوَجُّهُ الْخَطَابِ بِهِ إِلَى الْعَامَّةِ: فَسَبْحَانَ اللَّهِ! هَلْ خَاطَبَ اللَّهُ بِالتَّوَكُّلِ فِي كِتَابِهِ إِلَّا خَوَاصَّ خَلْقِهِ، وَأَقْرَبِهِمْ إِلَيْهِ، وَأَكْرَمِهِمْ عَلَيْهِ؟ وَشَرَطَ فِي إِيمَانِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مَتَوَكِّلِينَ، وَالْمَعْلَقَ عَلَى الشَّرْطِ يَعْدَمُ عِنْدَ عَدَمِهِ.

وهذا يدلُّ على انتفاء الإيمان عند انتفاء التَّوَكُّلِ، فمن لا تَوَكَّلَ له لا إيمان له؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وهذا يدلُّ على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصِّفَةِ.

وأخبر تعالى عن رسله بأنَّ التَّوَكُّلَ ملجؤهم ومعادهم، وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه، وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [٨٤] فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴿يونس: ٨٤، ٨٥﴾، فكيف يكون من أوهى السُّبُلِ وهذا شأنه؟ والله ﷻ أعلم.

## فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، كُلُّهَا تَسِيرٌ مَسِيرَ الْعَامَّةِ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: التَّوَكُّلُ مَعَ الطَّلَبِ، وَمُعَاطَاةُ السَّبَبِ عَلَى نِيَّةِ شُغْلِ (١) النَّفْسِ (بِالسَّبَبِ مَخَافَةً) (٢)، وَنَفْعُ الْخَلْقِ، وَتَرْكُ الدَّعْوَى».

يقول: إنَّ صاحب هذه الدَّرَجَةِ يتوَكَّلَ على الله، ولا يترك الأسباب، بل يتعاطاها على نِيَّةِ شُغْلِ (٣) النَّفْسِ بِالسَّبَبِ؛ مخافة أن تفرغ فتشتغل بالهوى والحظوظ؛ فإن لم يشغل نفسه بما ينفعها شغلته بما يضرُّه، لاسيما إذا كان الفراغ مع حِدَّةِ الشَّبَابِ، ومِلْكِ الجِدَّةِ، وميل النَّفْسِ إلى الهوى،

(١) في «غ» والمنار: (تشتغل).

(٢) جملة: (بالسبب مخافة) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (تشتغل).

وتوالي الغفلات، كما قيل:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاعَ وَالْجِدَّةَ  
مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَةٍ

ويكون أيضًا قيامه بالسبب على نية نفع النفس، ونفع الناس بذلك؛ فيحصل له نفع نفسه ونفع غيره.

وأما تضمّن ذلك لترك الدعوى؛ فإنه إذا اشتغل بالسبب تخلّص من إشارة الخلق إليه، الموجبة لحسن ظنه بنفسه، الموجب لدعواه؛ فالسبب سترٌ لحاله ومقامه، وحجابٌ مسبّلٌ عليه. ومن وجهٍ آخر: وهو أن يشهد به فقره وذله، وامتھانه امتھان العبيد والفعلّة، فيتخلّص من رعونة دعوى النفس، فإنه إذا امتھن نفسه بمعاطاة الأسباب سلم من هذه الأمراض. فيقال: إذا كانت الأسباب مأمورًا بها ففيها فائدةٌ أجلُّ من هذه الثلاث، وهي المقصودة بالقصد الأوّل، وهذه مقصودةٌ قصد الوسائل، وهي القيام بالعبوديّة والأمر الذي خلق له العبد، وأرسلت به الرُّسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السّموات والأرض، وله وجدت الجنة والنار. فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبوديّة، وحقُّ الله على عبده الذي توجّهت به نحوه المطالب، وترتّب عليه الثواب والعقاب، والله سبحانه أعلم.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: التَّوَكُّلُ مَعَ إِسْقَاطِ الطَّلَبِ، وَغَضِّ الْعَيْنِ عَنِ السَّبَبِ؛ اجْتِبَادًا لِتَصْحِيحِ التَّوَكُّلِ، وَقَمْعًا لِشَرَفِ النَّفْسِ، وَتَفَرُّغًا إِلَى حِفْظِ الْوَاجِبَاتِ».

قوله: «مَعَ إِسْقَاطِ الطَّلَبِ»؛ أي: من الخلق لا من الحق؛ فلا<sup>(١)</sup> يطلب من أحدٍ شيئًا، وهذا من أحسن الكلام وأنفعه للمريد؛ فإنَّ الطَّلَبَ من الخلق في الأصل محظورٌ، وغايته: أن يباح للضرورة، كإباحة الميتة للمضطرّ، ونصَّ أحمد على أنه لا يجب، وكذلك كان شيخنا يشير إلى أنه لا يجب الطَّلَبُ والسُّؤال.

وسمعه يقول في السُّؤال: «هُوَ ظُلْمٌ فِي حَقِّ الرَّبُّوبِيَّةِ، وَظُلْمٌ فِي حَقِّ الْخَلْقِ، وَظُلْمٌ فِي حَقِّ النَّفْسِ».

(١) في «غ» والمنار: (ولا).

- أَمَّا فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ: فلما فيه من الدُّلِّ لغير الله، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه، (والتَّعَوُّضُ عَنْ سُؤَالِهِ بِسُؤَالِ الْمَخْلُوقِينَ، وَالتَّعَرُّضُ لِمَقْتِهِ إِذَا سَأَلَ، وَعِنْدَهُ مَا يَكْفِيهِ يَوْمَهُ) (١).

- وَأَمَّا فِي حَقِّ النَّاسِ: فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسُّؤَالِ، واستخراجه منهم، وأبغض ما إليهم من يسألهم ما في أيديهم، وأحب ما إليهم مَنْ لَا يَسْأَلُهُمْ؛ فَإِنَّ أَمْوَالَهُمْ مَحْبُوبَاتُهُمْ، وَمَنْ سَأَلَكَ مَحْبُوبَكَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِمَقْتِكَ وَبَغْضِكَ.

- وَأَمَّا ظَلَمَ السَّائِلِ نَفْسَهُ: فحيث امتهنتها، وأقامها في (٢) مقام ذلِّ السُّؤَالِ، ورضي لها بذلِّ الطَّلَبِ مِمَّنْ هُوَ مِثْلُهُ، أَوْ لَعَلَّ السَّائِلَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَعْلَى قَدْرًا، وَتَرَكَ سُؤَالَ مَنْ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ فَقَدْ أَقَامَ السَّائِلُ نَفْسَهُ مَقَامَ الدُّلِّ، وَأَهَانَهَا بِذَلِكَ، وَرَضِيَ أَنْ يَكُونَ شَحَاذًا مِنْ شَحَاذِ مِثْلِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ تَشَحَّدَهُ (٣) فَهُوَ أَيْضًا شَحَاذٌ مِثْلَكَ (٤)، وَاللَّهُ وَحْدَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٥).

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير، والرَّبُّ تَعَالَى كَلَّمَا سَأَلْتَهُ كَرُمْتَ عَلَيْهِ، وَرَضِيَ عَنْكَ، وَأَحْبَبَكَ، وَالْمَخْلُوقُ كَلَّمَا سَأَلْتَهُ هِنْتَ عَلَيْهِ، وَأَبْغَضَكَ وَمَقْتَكَ وَقَلَاكَ، كَمَا قِيلَ:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكَتَ سُؤَالَهُ      وَبُنَى آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقبيح بالعبد المرید أن يتعرَّض لسؤال العبيد وهو يجد عند مولاه كل ما يريد.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِسْعَةَ أَوْ ثَمَانِيَةَ، أَوْ سَبْعَةَ فَقَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» وَكُنَّا حُدَيْثِيَّ عَهْدٍ بَبِيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ فَقَالَ: «أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَاةَ الْخَمْسَ» وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً: «وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا». قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلَادِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا أَنْ يَنَالَهُ إِيَّاهُ (٦).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُرْعَةٌ لَحْمٍ» (٧).

(١) في «ع» والمنار: (والتعرض لمقتته إذا لم يسأل).

(٢) كلمة: (في) ساقطة من «ع» والمنار.

(٣) في «ع»: (يشحذه).

(٤) في «ع»: (مثله).

(٥) كلمة: (الحميد) غير موجودة في «ع» والمنار.

(٦) رواه مسلم في الزكاة، باب: كراهية المسألة للناس (١٤٤٣)، وأبو داود في الزكاة، باب: البيعة على الصلوات الخمس (١٦٤٤).

(٧) رواه البخاري في الزكاة، باب: من سأل الناس تكثراً (١٤٧٤)، ورواه مسلم في الزكاة، باب: كراهية المسألة للناس (١٤٤٥).

وفيهما أيضًا عنه: أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر، وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة -: «وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» (١). وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفَعَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ» (٢).

وفي الترمذي عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ كَدُّ يَكْدُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا، أَوْ فِي الْأَمْرِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ» (٣). قال الترمذي: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ». وفيه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدِّ فَاقَتَهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ» (٤).

وفي «السنن» و«المُسْنَدِ» عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَلَّا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، أَتَكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» فقلت: أنا. فكان لا يسأل أحدًا شيئًا (٥).

وفي «صحيح مسلم» عن قبيصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكَ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَا حَتَّ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَا (٦) مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فَلَانًا فَاقَةً؛ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ -، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ فَسُحَّتْ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا» (٧).

فالتَّوَكَّلُ مع إسقاط هذا الطَّلَبِ والسُّؤَالِ هو (٨) محض العبودية.

قوله: «وَعَضُّ الْعَيْنِ عَنِ التَّسَبُّبِ، اجْتِهَادًا فِي تَصْحِيحِ التَّوَكُّلِ». معناه: أنه يعرض عن الاشتغال بالسبب لتصحيح التوكل بامتحان النفس؛ لأن المتعاطي للسبب قد يظن أنه حصل التوكل، ولم

(١) البخاري في الزكاة، باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١٤٢٩)، ورواه مسلم في الزكاة، باب: بيان أن اليد العلي خير من اليد السفلى (١٣٣).

(٢) رواه مسلم في الزكاة، باب: كراهية المسألة للناس (١٤١)، وابن ماجه في الزكاة، باب: من سأل عن ظهر غنى (١٨٣٨). (٣) الترمذي في الزكاة، باب: ما جاء في النهي عن المسألة وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود بلفظ آخر في الزكاة، باب: كم يعطى الرجل الواحد من الزكاة (١٦٣٩).

(٤) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في الهم بالدنيا وحبها، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وأبو داود في الزكاة، باب: في الاستعفاف (١٦٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٤٤٨).

(٥) أبو داود في الزكاة، باب: كراهية المسألة (١٦٤٣)، والنسائي في الزكاة، باب: فضل من لا يسأل الناس شيئًا، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٤٤٦).

(٦) الحجاء: العقل.

(٧) مسلم في الزكاة، باب: من تحل له المسألة (١٤٤)، وأبو داود في الزكاة، باب: ما تجوز فيه المسألة (١٦٥٠).

(٨) في «ع» والمنار: (عن)، ولعل المثبت في ط. (الفاقي) هو الصواب.



يحصِّله لثقتَه بمعلومه، فإذا أعرَضَ عن السَّبَبِ صحَّ له التَّوَكُّلُ.

وهذا الَّذِي أشار إليه مذهب قومٍ من العَبَادِ والسَّالِكِينَ، وكثيرٌ منهم كان يدخل البادية بلا زادٍ، ويرى حمل الزَّادِ قدحًا في التَّوَكُّلِ، ولهم في ذلك حكاياتٌ مشهورةٌ، وهؤلاء في خفارة صدقهم، وإلَّا فدرجتهم ناقصةٌ عن العارفين، ومع هذا فلا يمكن بشرًا ألبتَّةَ ترك الأسبابِ جملةً.

فهذا إبراهيم الخواص كان (١) مجردًا في التَّوَكُّلِ يدقُّ فيه، ويدخل البادية بغير زادٍ، وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والرُّكوة والمقراض، فقليل له: لم تحمل هذا وأنت تمنع من كلِّ شيءٍ؟

فقال: مثل هذا لا ينقص من التَّوَكُّلِ؛ لأنَّ الله علينا فرائض، والفقير لا يكون عليه إلَّا ثوبٌ واحدٌ، فربَّما تخرَّق ثوبه، فإذا لم يكن معه إبرةٌ وخيوطٌ تبدو عورته، فتفسد عليه صلاته، وإذا لم يكن معه ركوةٌ فسدت عليه طهارته، وإذا رأيت الفقير بلا ركوةٍ ولا إبرةٍ ولا (٢) خيوطٍ فاتَّهمه في صلاته.

أفلا تراه لم يستقم له دينه إلَّا بالأسباب؟ أوليست حركة أقدامه ونقلها في الطَّريق والاستدلال على أعلامها - إذا خفيت عليه - من الأسباب؟

فالتَّجَرُّدُ من الأسبابِ جملةً ممتنعٌ عقلاً وشرعًا وحسًّا.

نعم؛ قد تعرض للصادق أحيانًا قوَّةٌ ثقةٌ بالله، وحالٌ مع الله تحمله على ترك كلِّ سببٍ مفروضٍ عليه، كما تحمله على إلقاء نفسه في (مواضع الهلكة) (٣)، ويكون ذلك الوقت بالله لا به، فيأتيه مددٌ من الله على مقتضى حاله، ولكن لا تدوم له هذه الحال، وليست في مقتضى الطبيعة؛ فإنَّها كانت هجمةً هجمت عليه بلا استدعاءٍ فحمل عليها، فإذا استدعى مثلها وتكلَّفها لم يُجِبْ إلى ذلك، وفي تلك الحال (٤) إذا ترك السَّبَبِ (٥) يكون معذورًا لقوَّةِ الوارد، وعجزه عن الاشتغال بالسَّبَبِ، فيكون في وارده عونٌ له، ويكون حاملاً له، فإذا أراد تعاطي تلك الحال بدون ذلك الوارد وقع في المحال.

وكلُّ تلك الحكايات الصَّحيحة التي تُحكى عن القوم فهي جزئيةٌ حصلت لهم أحيانًا، ليست طريقًا مأمورًا بسلوكها، ولا مقدورةً، وصارت فتنةً لطائفتين:

- طائفةٌ: ظنَّتها طريقًا ومقامًا، فعملوا عليها، فمنهم من انقطع، ومنهم من رجع، ولم يمكنه الاستمرار عليها، بل انقلب (٦) على عقبه.

(١) كلمة: (كان) سقطت من نسخة «غ».

(٢) كلمة: (لا) سقطت من «غ».

(٣) في «غ» والمنار: (غير مفروض عليه).

(٤) كلمة: (الحال) غير موجودة في «غ».

(٥) كلمة: (السبب) غير موجودة في «غ».

(٦) في «غ»: (انقلبت).

- وطائفة: قدحوا في أربابها، وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل، مدّعين لأنفسهم حالاً أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه؛ إذ لم يكن فيهم أحدٌ قطُّ يفعل<sup>(١)</sup> ذلك، ولا أُخِلَّ بشيءٍ من الأسباب، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد<sup>(٢)</sup>، ولم يحضر الصّفّ قطُّ عرياناً<sup>(٣)</sup>، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه، يدلُّه على طريق الهجرة<sup>(٤)</sup>، وقد هدى الله به العالمين، وعصمه من النَّاسِ أجمعين، وكان يدّخر لأهله قوت سنة<sup>(٥)</sup>، وهو سيّد المتوكّلين، وكان إذا سافر في جهادٍ أو حجٍّ أو عمرةٍ حمل<sup>(٦)</sup> الزّاد والمزاد، وجميع أصحابه، وهم أولو التّوكّل حقّاً.

وأكمل المتوكّلين بعدهم هو من اشتتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثرًا من غبارهم. فحال النّبِيِّ ﷺ وحال أصحابه محكّ الأحوال وميزانها؛ بها يعلم صحيحها من سقيمها؛ فإنّ هممهم كانت في التّوكّل أعلى من همم من بعدهم؛ فإنّ توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يُعبّد الله في جميع البلاد، وأن يوحدّه جميع العباد، وأن تشرق شمس الدين الحقّ على قلوب العباد، فملئوا بذلك التّوكّل القلوب هدىً وإيماناً، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان، وهبّت رياح روح نسيمات التّوكّل على قلوب أتباعهم فملأها يقيناً وإيماناً، فكانت همم الصّحابة رَافِعَةً أعلى وأجلّ من أن يصرف أحدهم قوّة توكله واعتماده على الله في شيءٍ يحصل بأدنى حيلةٍ وسعيٍ، فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوّة توكله<sup>(٧)</sup>.

قوله: «وَقَمَعًا لَشَرِّ النَّفْسِ». يريد أنّ المتسبّب قد يكون متسبّباً بالولايات الشّريفة في العبادة، أو التّجارات الرّفيعة، والأسباب التي لها بها جاهٌ وشرفٌ في النَّاسِ، فإذا تركها يكون تركها قمعاً لشرف نفسه، وإيثاراً للتّواضع.

وقوله: «وَتَفَرُّغًا لِحِفْظِ الْوَأَجِبَاتِ»؛ أي: يتفرّغ بتركها لحفظ واجباتها التي تزاومها تلك الأسباب، والله أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (فعل).

(٢) أبو داود في الجهاد في لبس الدروع (٢٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد، باب: السلاح (٢٨٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٦٤).

(٣) أي: عارياً من الدرع التي تتقى بها السهام والسيوف.

(٤) البخاري في الإجارة، باب: إذا استأجر أجيرًا ليعمل له بعد ثلاثة أيام أو بعد شهر رقم (٢٢٦٣).

(٥) جاء ذلك في حديث: «كان ﷺ يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم». رواه البخاري في النفقات، باب: حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهله (٢٩٠٤)، ورواه مسلم في الجهاد، باب: حكم الفيء، مطولاً رقم (١٧٥٧).

(٦) في «غ»: (حمل معه).

(٧) رضي الله عن الشيخ الإمام ابن القيم! فما أبصره بالحق وأهداه إلى سبيله وغفر الله لنا وله، وما أحلى كلامه هذا، وأبلغه في النفوذ إلى قلوب المؤمنين. (الفي).

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: التَّوَكُّلُ مَعَ مَعْرِفَةِ التَّوَكُّلِ، النَّازِعَةُ إِلَى الْخَلَاصِ مِنْ عِلَّةِ التَّوَكُّلِ، وَهِيَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَلَكَهَ الْحَقَّ تَعَالَى لِلْأَشْيَاءِ هِيَ مَلَكَهَ عِزَّةً، لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا مُشَارِكٌ، فَيَكِلُ شِرْكَتَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ مِنْ ضَرُورَةِ الْعُبُودِيَّةِ أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ هُوَ مَالِكُ الْأَشْيَاءِ وَحْدَهُ».

يريد: أن صاحب هذه الدرجة متى قطع الأسباب والطلب، وتعدى تينك<sup>(١)</sup> الدرجتين، فتوكله فوق توكل من قبله، وهو إنما<sup>(٢)</sup> يكون بعد معرفته بحقيقة التوكل، وأنه دون مقامه، فتكون معرفته به وبحقيقته نازعة -أي: باعثة وداعية- إلى تخلُّصه من علة التوكل؛ أي: لا يعرف علة التوكل حتى يعرف حقيقته<sup>(٣)</sup>، فحينئذ يعرف التوكل المعرفة التي تدعوه إلى التخلُّص من علته.

ثم بين المعرفة التي يعلم بها علة التوكل، فقال: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَلَكَهَ الْحَقَّ لِلْأَشْيَاءِ مَلَكَهَ عِزَّةً»؛ أي: ملكة امتناع وقوة وقهر<sup>(٤)</sup>، تمنع أن يشاركه في ملكه لشيء من الأشياء مشارك؛ [فهو العزيز في ملكه، الذي لا يشاركه غيره في ذرة منه، كما هو المنفرد بعزته التي لا يشاركه فيها مشارك]<sup>(٥)</sup>.

فالتوكل يرى أن له شيئاً قد وكل الحق فيه، وأنه سبحانه صار وكيله عليه، وهذا مخالف<sup>(٦)</sup> لحقيقة الأمر؛ إذ ليس لأحد من الأمر مع الله شيء؛ فلهذا قال: «لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ مُشَارِكٌ، فَيَكِلُ شِرْكَتَهُ إِلَيْهِ».

فلسان الحال يقول لمن جعل الربَّ تعالى وكيله: في ماذا وكلت ربك؟ أفيما هو له وحده؟ أو لك وحدك؟ أو بينكما؟ فالثاني والثالث ممتنع بتفرده بالملك وحده، والتوكيل في الأول ممتنع، فكيف توكله فيما ليس لك منه شيء ألبتة؟

فيقال: ها هنا أمران: توكل، وتوكيل. فالتوكل: محض الاعتماد والثقة والسكون إلى من له

(١) في «غ» والمنار: (تلك).

(٢) في «غ» والمنار: (أن).

(٣) في «غ» والمنار: (حتى يعرف به حقيقته).

(٤) في «غ» والمنار: (يمنع).

(٥) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ» والمنار.

(٦) في «غ»: (يخالف).

الأمر كله، وعلم العبد بتفرد الحق تعالى وحده بملك الأشياء كلها، وأنه ليس له مشارك في ذرة من ذرات الكون - من أقوى أسباب توكله، وأعظم دواعيه.

فإذا (١) تحققت ذلك علماً ومعرفةً، وباشر قلبه حالاً - لم يجد بداً من اعتماد قلبه على الحق وحده، وثقته به، وسكونه إليه وحده، وطمأنينته به وحده؛ لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته، وجميع مصالحه كلها بيده وحده، لا بيد غيره، فأين يجد قلبه مناصاً من التوكل بعد هذا؟

فعلة (٢) التوكل حينئذ: التفات قلبه إلى من ليس له شركة في ملك الحق، ولا يملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، هذه علة توكله، فهو يعمل على تخليص توكله من هذه العلة.

نعم؛ ومن علة أخرى: وهي رؤية توكله؛ فإنه التفات إلى عوالم نفسه.

وعلة ثالثة: وهي صرفه قوة توكله إلى شيء غيره أحب إلى الله منه.

فهذه العلة الثلاث: هي علل التوكل (٣).

وأما التوكل: فليس المراد منه إلا مجرد التفويض، وهو من أخص مقامات العارفين، كما كان

النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك» (٤).

وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

فكان جزاء هذا التفويض قوله: ﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَعِياتِ مَأْمُورًا﴾ [غافر: ٤٥]، فإن كان التوكل معلولاً بما ذكره، فالتفويض أيضاً كذلك، وليس؛ فليس (٥).

ولولا أن الحق لله ورسوله، وأن كل ما عدا الله ورسوله فمأخوذ من قوله ومتروك، وهو عرضة الوهم والخطأ، لما اعترضنا على من لا نلحق غبارهم، ولا نجري معهم في مضمارهم، ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان، ومنازل السائرين، كالنجوم الدراري، ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه، ومن رأى في كلامنا زيغاً، أو نقصاً (٦) وخطأً، فليهد إلينا الصواب، نشكر له سعيه، ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم، والله أعلم، وهو الموفق.

(١) في «غ» والمنار: (وإذا).

(٢) العلة هنا: (الآفة).

(٣) في «غ»: (التوكل).

(٤) البخاري (٦٣١٣) (٦٣١٥)، ومسلم (٢٧١٠).

(٥) كلمة: (فليس) ساقطة من نسخة المنار.

(٦) كلمة: (أو نقصاً) ساقطة من «غ» والمنار.

## فصل [منزلة التفويض]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة التفويض.

□ قال صاحب «المنازل»: «وَهُوَ أَلْطَفُ إِشَارَةٍ، وَأَوْسَعُ مَعْنَى مِنَ التَّوَكُّلِ؛ فَإِنَّ التَّوَكُّلَ بَعْدَ وُقُوعِ السَّبَبِ، وَالتَّفْوِيضَ قَبْلَ وُقُوعِهِ وَبَعْدَهُ، وَهُوَ عَيْنُ الْإِسْتِسْلَامِ، وَالتَّوَكُّلُ شُعْبَةٌ مِنْهُ».

يعني: أن المفوض يتبرأ من الحول والقوة، ويفوض الأمر إلى صاحبه، ومن غير أن يقيمه مقام نفسه في مصالحه، بخلاف التوكُّل؛ فإن الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكل. فالتفويض: براءة وخروج من الحول والقوة، وتسليم الأمر كله إلى مالكه. فيقال: وكذلك التوكُّل أيضًا، وما قدحتم به في التوكُّل يرد عليكم نظيره في التفويض سواء؛ فإنك كيف تفوض شيئًا لا تملكه ألبتة إلى مالكه؟ وهل يصح أن يفوض واحدًا من آحاد الرعية الملك إلى ملك زمانه؟

فالعلة إذن في التفويض أعظم منها في التوكُّل، بل لو قال القائل: التوكُّل فوق التفويض وأجلُّ منه وأرفع لكان مصيبًا؛ ولهذا كان (١) القرآن مملوءًا به أمرًا وإخبارًا عن خاصّة الله وأوليائه، وصفوة المؤمنين: بأنّ حالهم التوكُّل، وأمر الله به رسوله في أربعة مواضع من كتابه (٢)، وسمّاه «المُتَوَكِّل» كما في «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «قَرَأْتُ فِي التَّوْرَةِ صِفَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، سَمِيئُهُ الْمُتَوَكِّلُ، لَيْسَ يَفْظُ، وَلَا عَلِيظٌ، وَلَا سَخَّابٌ بِأَلْسِنَاتٍ» (٣).

(١) كلمة: (كان) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) بل أكثر من ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: ﴿فَاعْرِضْ عَنَّهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [النمل: ٧٩]، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وقال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]، وقال: ﴿وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. (الفتحي).

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، باب: كراهية السخب في السوق رقم (٢١٢٥).

وأخبر عن رسله بأن حالهم كان التَّوَكُّلَ، وبه انتصروا على قومهم، وأخبر النَّبِيُّ ﷺ عن السَّبَّعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: «أَنَّهُمْ أَهْلُ مَقَامِ التَّوَكُّلِ» (١).

ولم يَجْعِ التَّفْوِيضُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِيمَا حَكَاهُ عَنْ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]. وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يتَّخِذَهُ وَكِيلاً؛ فَقَالَ: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩].

وهذا يبطل قول من قال من جهلة القوم: إنَّ توكيل الرَّبِّ فِيهِ جَسَارَةٌ عَلَى الْبَارِي؛ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ يَقْتَضِي إِقَامَةَ الْوَكِيلِ مَقَامَ الْمَوْكَلِّ؛ وَذَلِكَ عَيْنُ الْجَسَارَةِ.

قال: ولولا أن الله أباح ذلك وندب إليه لما جاز للعبد تعاطيه. وهذا من أعظم الجهل؛ فإنَّ اتِّخَاذَهُ وَكِيلاً هُوَ مُحَضُّ الْعِبُودِيَّةِ، وَخَالِصُ التَّوْحِيدِ، إِذَا قَامَ بِهِ صَاحِبُهُ حَقِيقَةً.

ولله دُرٌّ سَيِّدُ الْقَوْمِ، وَشَيْخُ الطَّائِفَةِ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيُّ؛ إِذْ يَقُولُ: «الْعِلْمُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ التَّعَبُّدِ، وَالتَّعَبُّدُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ الْوَرَعِ، وَالْوَرَعُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ الزُّهْدِ، وَالزُّهْدُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ التَّوَكُّلِ».

فَالَّذِي نَذَبَ إِلَيْهِ: أَنَّ التَّوَكُّلَ أَوْسَعُ مِنَ التَّفْوِيضِ، وَأَعْلَى وَأَرْفَعُ. قَوْلُهُ: «فَإِنَّ التَّوَكُّلَ بَعْدَ وُقُوعِ السَّبَبِ، وَالتَّفْوِيضَ قَبْلَ وُقُوعِهِ وَبَعْدَهُ». يَعْنِي بِالسَّبَبِ: الْاِكْتِسَابَ؛ فَالْمَفْوضُ قَدْ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ (٢) قَبْلَ اِكْتِسَابِهِ وَبَعْدَهُ، وَالتَّوَكُّلَ قَدْ قَامَ بِالسَّبَبِ، وَتَوَكَّلَ فِيهِ عَلَى اللَّهِ، فَصَارَ التَّفْوِيضُ أَوْسَعُ.

فيقال: وَالتَّوَكُّلُ قَدْ يَكُونُ قَبْلَ السَّبَبِ وَمَعَهُ وَبَعْدَهُ، فَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَقِيمَهُ فِي سَبَبٍ يُوَصِّلُهُ إِلَى مَطْلُوبِهِ، فَإِذَا قَامَ بِهِ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ حَالِ مَبَاشَرَتِهِ، فَإِذَا أَتَمَّهُ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي حَصُولِ ثَمَرَاتِهِ، فَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ قَبْلَهُ، وَمَعَهُ، وَبَعْدَهُ؛ فَعَلَى هَذَا هُوَ أَوْسَعُ مِنَ التَّفْوِيضِ عَلَى مَا ذَكَرَ.

قَوْلُهُ: «وَهُوَ عَيْنُ الْاِسْتِسْلَامِ»؛ أَي: التَّفْوِيضِ عَيْنُ الْاِنْقِيَادِ بِالْكَلْبِيَّةِ إِلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، وَلَا يَبَالِي أَمَا كَانَ مَا يَقْضِي لَهُ الْخَيْرَ، أَمْ خِلَافَهُ؟ وَالتَّوَكُّلُ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فِي مَصَالِحِهِ.

وهذا القدر هو الذي لحظه القوم في هضم مقام التَّوَكُّلِ، وَرَفَعَ مَقَامَ التَّفْوِيضِ عَلَيْهِ. وَجَوَابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

— أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَفْوضَ لَا يَفْوضُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا لِإِرَادَتِهِ أَنْ يَقْضِي لَهُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْضِيُّ لَهُ خِلَافَ مَا يَظُنُّهُ خَيْرًا، فَهُوَ رَاضٍ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُ، وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْهِ

(١) تقدم تخريجه (ص ١٩٣).

(٢) جملة: (إلى الله) غير موجودة في «ع» والمنار.

جهة المصلحة فيه، وهذا حال المتوكل سواءً، بل هو أرفع من المفوض؛ لأنَّ معه من عمل القلب ما ليس مع المفوض؛ فإنَّ المتوكل مفوضٌ وزيادةً، فلا يستقيم مقام «التوكل» إلا بالتفويض؛ فإنَّه إذا فوّض أمره إليه اعتمد بقلبه كلُّه عليه بعد تفويضه.

ونظير هذا: أن من فوّض أمره إلى رجل، وجعله إليه - فإنَّه يجد من نفسه - بعد تفويضه - اعتماداً خاصاً، وسكوناً وطمأنينةً إلى المفوض إليه أكثر ممَّا كان قبل التفويض، وهذا هو حقيقة التوكل.

- الوجه الثاني: أن أهمَّ مصالح المتوكل حصول مرضي محبوبه ومحابَّه؛ فهو يتوكل عليه في تحصيلها له، فأبى مصلحةً أعظم من هذه؟

وأما التفويض: فهو تفويض حاجات العبد المعيشية وأسبابها إلى الله؛ فإنَّه لا يفوض إليه محابَّه، والمتوكل يتوكل عليه في محابَّه.

والوهم إنَّما دخل من حيث يظنُّ الظانُّ أن التوكل مقصورٌ على معلوم الرزق، وقوَّة البدن، وصحة الجسم، ولا ريب أن هذا التوكل ناقصٌ بالنسبة إلى التوكل في إقامة الدين والدعوة إلى الله.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الأول<sup>(١)</sup>: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ قَبْلَ عَمَلِهِ اسْتِطَاعَةً، فَلَا يَأْمَنُ مِنْ مَكْرٍ، وَلَا يَبْتَئِسُ مِنْ مَعُونَةٍ، وَلَا يُعْوَلُ عَلَى نِيَّةٍ».

أي: يتحقَّق أن استطاعته بيد الله، لا بيده، فهو مالِكها دونه؛ فإنَّه إن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجزٌ، فهو لا يتحرَّك إلا بالله، لا بنفسه، فكيف يأمن المكر، وهو محرَّكٌ لا محرَّكٌ؟! يحركه من حركته بيده، فإن شاء ثبَّطه وأقعده مع القاعدين، كما قال فيمن منعه هذا التوفيق: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

فهذا مكر الله بالعبد: أن يقطع عنه موادَّ توفيقه؛ ويخلِّي بينه وبين نفسه، ولا يبعث دواعيه، ولا يحركه إلى مرضيه ومحابَّه، وليس هذا حقاً على الله فيكون ظالماً بمنعه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل هو مجرد فضله الذي يحمده<sup>(٢)</sup> على بذله لمن بذله، وعلى منعه لمن منعه إيَّاه، فله الحمد على هذا وهذا.

ومن فهم هذا فهم باباً عظيماً من سرِّ القدر، وانجلت له إشكالاتٌ كثيرةٌ، فهو سبحانه لا يريد من نفسه فعلاً يفعلُه بعبدِه يقع منه ما يحبُّه ويرضاه، فيمنعه فعل نفسه به، وهو توفيقه؛ [لا أنه]<sup>(٣)</sup>

(١) كلمة: (الأول) ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (يحمد).

(٣) في ط. الفقي وفي نسخة «غ»: (لأنه) وفي نسخة المنار (لا أنه)، ولعلها هي الصواب إن شاء الله تعالى، ولذلك أثبتناها في الأصل.

يكرهه ويقهره على فعل مسأخطه، بل يكله إلى نفسه وحواله وقوته، ويتخلى عنه، فهذا هو المكر.  
 قوله: «وَلَا يِيَّاسُ مِنْ مَعُونَةٍ». يعني: إذا كان المحرك له هو الرَّبُّ ﷻ، وهو أقدر القادرين، وهو  
 الَّذِي تَفَرَّدَ بِخَلْقِهِ وَرِزْقِهِ، وهو أرحم الرَّاحِمِينَ - فكيف ييأس من معونته له؟!  
 قوله: «وَلَا يُعَوَّلُ عَلَى نَيْتَةٍ»؛ أي: لا يعتمد على نَيْتِهِ وعزمه، ويثق بها؛ فَإِنَّ نَيْتَهُ وعزمه بيد الله تعالى لا  
 بيده، وهي إلى الله لا إليه، فلتكن ثقته بمن هي في يده حقًا، لا بمن هي جارية عليه حكمًا.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: مُعَايِنَةُ الْإِضْطِرَارِ؛ فَلَا يَرَى عَمَلًا مُنْجِيًا، وَلَا ذَنْبًا مُهْلِكًا، وَلَا سَبَبًا حَامِلًا».

أي: يعاين فقره وفاقته وضرورته التامة إلى الله، بحيث إنه يرى في كل ذرة من ذراته الباطنة  
 والظاهرة ضرورة وفاقة تامة إلى الله؛ فنجاته إنما هي بالله لا بعمله.  
 وأما قوله: «وَلَا ذَنْبًا مُهْلِكًا»؛ فإن أراد به: أن هلاكه بالله لا بسبب ذنوبه فباطل، معاذ الله من ذلك،  
 وإن أراد به: أن فضل الله وسعته ومغفرته ورحمته، ومشاهدة شدة ضرورته وفاقته إليه يوجب له ألا يرى ذنبا  
 مهلكًا؛ فإن افتقاره وفاقته وضرورته تمنعه من الهلاك بذنوبه، بل تمنعه من اقتحام الذنوب المهلكة؛ إذ  
 صاحب هذا المقام لا يصرُّ على ذنوب تهلكه، وهذا حاله - فهذا حقُّ، وهو من مشاهد أهل المعرفة.  
 وقوله: «وَلَا سَبَبًا حَامِلًا»؛ أي: يشهد أن الحامل له هو الحقُّ تعالى، لا الأسباب التي يقوم بها؛ فإنه  
 وإياها محمولان بالله وحده.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: شُهُودُ انْفِرَادِ الْحَقِّ بِمِلْكِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَالْقَبْضِ  
 وَالْبَسْطِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِتَصْرِيْفِ التَّفْرِقَةِ وَالْجَمْعِ».

هذه الدرجة تتعلق بشهود وصف الله تبارك وتعالى وشأنه، والتي قبلها تتعلق بشهود حال العبد  
 ووصفه؛ أي: يشهد حركات العالم وسكونه صادرة عن الحقِّ تعالى في كل متحرك وساكن، فيشهد تعلق  
 الحركة باسمه «الْبَاسِطِ» وتعلق السكون باسمه «الْقَابِضِ»، فيشهد تفرده سبحانه بالبسط والقبض.



وأما «مَعْرِفَتُهُ بِتَضْرِيْفِ التَّفْرِقَةِ وَالْجَمْعِ» فإن<sup>(١)</sup> يكون المشاهد عارفاً بمواضع التَّفْرِقَةِ والجمع، والمراد بالتَّفْرِقَةِ: نظر الاعتبار، ونسبة الأفعال إلى الخلق.

والمراد بالجمع: شهود الأفعال منسوبة إلى موجدتها الحقُّ تعالى. وقد يريدون بالتَّفْرِقَةِ والجمع معنًى وراء هذا الشُّهود، وهو حال التَّفْرِقَةِ والجمع. فحال التَّفْرِقَةِ: تفرُّق القلب في أودية الإرادات وشعابها. وحال الجمع: جمعيته على مراد الحقِّ وحده. فالأول: علم التَّفْرِقَةِ والجمع. والثاني: حالهما، والله أعلم.

## فصل [منزلة الثقة]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الثقة بالله تعالى. □ قال صاحب «المنازل»: «الثِّقَّةُ: سَوَادُ عَيْنِ التَّوَكُّلِ، وَنُقْطَةُ دَائِرَةِ التَّفْوِيضِ، وَسُوَيْدَاءُ قَلْبِ التَّسْلِيمِ».

وصدَّر الباب بقوله تعالى لأمِّ موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّبِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧]؛ فإنَّ فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى؛ إذ لولا كمال ثقتها برَّبِّها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء، تتلاعب به أمواجه وجرياته<sup>(٢)</sup> إلى حيث ينتهي أو يقف.

ومراده: أن الثِّقَّةَ خلاصة التَّوَكُّلِ ولبُّه، كما أن سواد العين أشرف ما في العين. وأشار بأنَّه «نُقْطَةُ دَائِرَةِ التَّفْوِيضِ» إلى أن مدار التَّوَكُّلِ عليه، وهو في وسطه كحال النُّقْطَةِ من الدَّائِرَةِ؛ فإنَّ النُّقْطَةَ هي المركز الذي عليه استدارة المحيط، ونسبة جهات المحيط إليها نسبةً واحدةً، وكلُّ جزءٍ من أجزاء المحيط مقابلٌ لها، كذلك الثِّقَّةُ هي النُّقْطَةُ التي يدور عليها التَّفْوِيضُ. وكذلك قوله: «سُوَيْدَاءُ قَلْبِ التَّسْلِيمِ»؛ فإنَّ القلب أشرف ما فيه سويدائه، وهي المهجة التي

(١) في «غ» والمنار: (أن).

(٢) في «غ» والمنار: (وجريانه).

تكون بها الحياة، وهي في وسطه، فلو كان التّفويض قلباً لكانت الثّقة سويداءه، ولو كان عيناً لكانت سوادها، ولو كان دائرةً لكانت نقطتها.  
وقد تقدّم أنّ كثيراً من النّاس يفسّر التّوكّل بالثّقة، ويجعله حقيقتها، ومنهم من يفسّره بالتّفويض، ومنهم من يفسّره بالتّسليم.  
فعلمت أنّ مقام التّوكّل يجمع ذلك كلّه.  
فكأنّ الثّقة عند الشّيخ هي روح، و<sup>(١)</sup>«التّوكّل» كالبدن الحامل لها، ونسبتها إلى التّوكّل كنسبة الإحسان إلى الإيمان، والله أعلم.

## فصل

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: دَرَجَةُ الْإِيَّاسِ، وَهُوَ إِيَّاسُ الْعَبْدِ عَنِ مُقَاوَمَاتِ الْأَحْكَامِ؛ لِيَقْعُدَ عَنِ مُنَازَعَةِ الْأَقْسَامِ، لِيَتَخَلَّصَ مِنْ قِحَةِ الْإِفْدَامِ».

يعني: أنّ الواثق بالله لا اعتقاده أنّ الله تعالى إذا حاكم بحكمٍ وقضى أمراً فلا مردّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، فمن حكم الله له بحكمٍ، وقسم له بنصيبٍ من الرّزق، أو الطّاعة أو الحال، أو العلم أو غيره - فلا بدّ من حصوله له، ومن لم يقسم له ذلك فلا سبيل له إليه ألبتّة، كما لا سبيل له إلى الطّيران إلى السّماء، وحمل الجبال، فبهذا القدر يقعد عن منازعة الأقسام؛ فما كان له منها فسوف يأتيه على ضعفه، وما لم يكن له منها فلن يناله بقوّته<sup>(٢)</sup>.

والفرق بين قوله: «مُقَاوَمَةُ الْأَحْكَامِ» و«مُنَازَعَةُ الْأَقْسَامِ»: أنّ مقاومة الأحكام: أن تتعلّق إرادته بعين<sup>(٣)</sup> ما في حكم الله وقضائه، فإذا تعلّقت إرادته بذلك جاذب الخلق الأقسام ونازعهم فيها.  
وقوله: «يَتَخَلَّصُ مِنْ قِحَةِ الْإِفْدَامِ»؛ أي: يتخلّص بالثّقة بالله من هذه القحّة والجرأة على إقدامه على ما لم يُحكّم له به ولا قُسم له، والله سبحانه أعلم.

(١) الواو ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) كلمة: (بقوته) سقطت من نسخة «غ» والمنار.

(٣) في هامش نسخة «غ» قال: لعله (بغير).

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: دَرَجَةُ الْأَمْنِ، وَهُوَ أَمْنُ الْعَبْدِ مِنْ فَوْتِ الْمُقْدُورِ، وَأَنْتِقَاضِ الْمُسْطُورِ، فَيُظْفَرُ بِرُوحِ الرَّضَا، وَإِلَّا فَبِعَيْنِ الْيَقِينِ، وَإِلَّا فَبِلُطْفِ الصَّبْرِ».

يقول: من حصل له الإياس المذكور حصل له الأمان؛ وذلك أن من تحقق بمعرفة الله، وأن ما قضاه الله فلا مرد له ألبتة - أمن من فوّت نصيبه الذي قسمه الله له، وأمن<sup>(١)</sup> أيضًا من نقصان ما كتبه الله له وسطره في الكتاب المسطور؛ فيظفر بروح الرضا؛ أي: براحته ولذته ونعيمه؛ لأن صاحب الرضا في راحة ولذة وسرور، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ اللَّهَ بَعْدَ لِهِ وَقَسْطِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الْيَقِينِ وَالرَّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسُّخْطِ»<sup>(٢)</sup>.

فإن لم يقدر العبد على روح الرضا ظفر بعين اليقين؛ وهو قوة الإيمان، ومباشرته للقلب؛ بحيث لا يبقى بينه وبين العيان إلا كشف الحجاب المانع من مكافحة البصر.

فإن لم يحصل له هذا المقام حصل على لطف الصبر وما فيه من حسن العاقبة، كما في الأثر المعروف: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرَّضَا مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّهُ النَّفْسُ خَيْرًا كَثِيرًا»<sup>(٣)</sup>.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: مُعَايَنَةُ أَرْزَلِيَّةِ الْحَقِّ، لِيَتَخَلَّصَ مِنْ مِحَنِ الْقُصُودِ»<sup>(٤)</sup>، وَتَكَالِيفِ الْجَمَايَاتِ، وَالتَّعْرِيجِ عَلَى مَدَارِجِ الْوَسَائِلِ».

قوله: «مُعَايَنَةُ أَرْزَلِيَّةِ الْحَقِّ»؛ أي: متى شهد قلبه تفرد الرب صلى الله عليه وآله بالأزلية غاب بها عن الطلب؛

(١) في «ع» والمنار: (ويأمن).

(٢) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧١/٤)، وعزاه إلى الطبراني في «الكبير» وقال: فيه خالد بن يزيد العبدي، واتهم بالوضع.

(٣) قوله: «فإن في الصبر على ما تكره النفس خيرًا كثيرًا». رواه الإمام أحمد، وهو جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما المشهور «يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك...» (٣٧/١)، وحكم له أحمد شاكر بصحة السند برقم (١٨٤).

(٤) في «ع» والمنار: (المقصود).

لتيقنه فراغ الربّ تعالى من المقادير، وسبق الأزل بها، وثبوت حكمها هناك، فيتخلّص من المحن التي تعرض له دون القصور<sup>(١)</sup>، ويتخلّص أيضًا من تعريجه والتفاته، وحبس مطيته على طرق الأسباب التي يتوسّل بها إلى المطالب.

وهذا ليس على إطلاقه؛ فإنّ مدارج الوسائل قسمان: وسائل موصلة إلى عين الرضا؛ فالتعريج على مدارجها - معرفة وعملاً وحالاً وإيثاراً - هو محض العبودية، ولكن لا يجعل تعريجه كلّ على مدارجها؛ بحيث ينسى بها الغاية التي هي وسائل إليها.

وأما تخلّصه<sup>(٢)</sup> من تكاليف الحمايات: فهو تخلّصه<sup>(٣)</sup> من طلب ما حماه الله تعالى عنه قدرًا، فلا يتكلّف طلبه وقد حمى عنه.

ووجه آخر: وهو أن يتخلّص بمشاهدة سبق الأزلية من تكاليف احترازاته، وشدة احتمائه من المكاره؛ لعلمه بسبق الأزل بما كُتب له منها؛ فلا فائدة في تكلف الاحتماء؛ نعم يحتمي ممّا نهي عنه، وما لا ينفعه في طريقه، ولا يعينه على الوصول.

## فصل

### [منزلة التسليم]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ تَبَدُّ وَإِيَّاكَ نَتَعَبُ﴾ ﴿منزلة التسليم.

وهي نوعان:

- تسليم لحكمه الدينيّ الأمرّي.

- وتسليم لحكمه الكونيّ القدرّي.

فأمّا الأوّل: فهو تسليم المؤمنين العارفين؛ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا فَضَلْتَ وَيُسَلِّمُوا أَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج، والتسليم.

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) في «غ» والمنار: (تخليته).

(٣) في «غ» والمنار: (تخليصه).

وأما التسليم للحكم الكوني: فمزلة أقدام، ومضلة أفهام، حير الأنام، وأوقع الخصام، وهي مسألة الرضا بالقضاء، وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية، وبيننا أن التسليم للقضاء يُحمد إذا لم يؤمر العبد بمنازعة ودفعه<sup>(١)</sup>، ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لا قدرة له على دفعها. وأما الأحكام التي أمر بدفعها: فلا يجوز له التسليم إليها<sup>(٢)</sup>، بل العبودية مدافعتها بأحكام آخر أحب إلى الله منها.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «وَفِي التَّسْلِيمِ وَالثَّقَةِ وَالتَّفْوِيزِ مَا فِي التَّوَكُّلِ مِنَ الْعِلَلِ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ سُبُلِ (٣) الْعَامَّةِ».

يعني: أن العلة التي في التوكل من معاني الدعوى، ونسبته الشيء إلى نفسه أولاً؛ حيث زعم أنه وكل ربه فيه، وتوكل عليه فيه، وجعله وكيله القائم عنه بمصالحه التي كان يحصلها لنفسه بالأسباب والتصرفات، وغير ذلك من العلة المتقدمة، وقد عرفت ما في ذلك.

وليس في التسليم إلا علة واحدة: وهي ألا يكون تسليمه صادراً عن محض الرضا والاختيار، بل يشوبه كره وانقباض، فيسلم على نوع إغماض، فهذه علة التسليم المؤثرة؛ فاجتهد في الخلاص منها. وإنما كان للعامّة عنده؛ لأن الخاصة في شغل عنه باستغراقهم بالفناء في عين الجمع، وجعل الفناء غاية الاستغراق في عين الجمع هو الذي أوجب ما أوجب، والله المستعان.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: تَسْلِيمُ مَا يُزَاجِمُ الْعُقُولَ مِمَّا سَبَقَ عَلَى الْأَوْهَامِ مِنَ الْغَيْبِ، وَالْإِذْعَانُ لِمَا يُغَالِبُ الْقِيَاسَ مِنْ سَيْرِ الدُّوَلِ وَالْقِسَمِ، وَالْإِجَابَةُ لِمَا يُفْزَعُ الْمُرِيدَ مِنْ رُكُوبِ الْأَحْوَالِ».

اعلم أن التسليم هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة

(١) كلمة: (ودفعه) غير موجودة في «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (لها).

(٣) كلمة: (سبل) غير موجودة في «غ» والمنار.

تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشَّرع.

وصاحب هذا التَّخْلُص هو صاحب القلب السَّليم الَّذِي لا ينجو يوم القيامة<sup>(١)</sup> إِلَّا من أتى الله به، فَإِنَّ التَّسْلِيمَ ضِدُّ المَنَازَعَةِ.

- والمنازعة إمَّا بشبهة فاسدة، تعارض الإيمان بالخبر عمَّا وصف الله به نفسه من صفاته وأفعاله، وما أخبر به عن اليوم الآخر، وغير ذلك، فالتَّسْلِيم له: ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة.

- وإمَّا بشهوة تعارض أمر الله ﷻ، فالتَّسْلِيم للأمر بالتَّخْلُص منها.

- أو إرادة تعارض مراد الله من عبده، فتعارضه إرادة تتعلَّق بمراد العبد من الرَّبِّ؛ فالتَّسْلِيم بالتَّخْلُص منها.

- أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره، بأن يظنَّ أَنَّ مقتضى الحكمة خلاف ما شرع، وخلاف ما قضى وقدر.

فالتَّسْلِيم: التَّخْلُص من هذه المنازعات كلِّها.

وبهذا يتبيَّن أَنَّهُ من أجَلِّ مقامات الإيمان، وأعلى طرق الخاصَّة، وأنَّ «التَّسْلِيم» هو محض الصِّدِّيقِيَّة، الَّتِي هي بعد درجة النُّبُوَّة، وأنَّ أكمل النَّاس تسليماً أكملهم صِدِّيقِيَّةً. فلنرجع إلى شرح كلام الشَّيخ.

فأمَّا قوله: «تَسْلِيمٌ مَا يَزَاحِمُ الْعُقُولَ مِمَّا سَبَقَ عَلَى الْأَوْهَامِ».

فيعني: أَنَّ التَّسْلِيمَ يقتضي ما ينهى عنه العقل ويزاحمه؛ فَإِنَّهُ يقتضي التَّجْرِيدَ عن الأسباب، والعقل يأمر بها، فصاحب التَّسْلِيم يسلم إلى الله ﷻ ما هو غيبٌ عن العبد؛ فَإِنَّ فعله ﷻ لا يتوقَّف على هذه الأسباب الَّتِي ينهى العقل عن التَّجْرُد عنها، فإذا سلَّم لله لم يلتفت إلى السَّبَب في كلِّ ما غاب عنه.

فالأوهام يسبق عليها: أَنَّ ما غاب عنها من الحكم لا يحصل إِلَّا بالأسباب، والتَّسْلِيم يقتضي

التَّجْرُد عنها، والعقل ينهى عن ذلك، والوهم قد سبق عليه أَنَّ الغيب موقوفٌ عليها.

فهاهنا أمورٌ سَتَّةٌ: عقلٌ، ومزاحمٌ له، ووهمٌ، وسائقٌ<sup>(٢)</sup> إليه، وغيبٌ، وتسليمٌ لهذا المزاحم.

- فالعقل: هو الباعث له على الأسباب، الدَّاعي له إليها، الَّتِي إذا خرج الرَّجُل عنها عُدَّ

(١) جملة: (يوم القيامة) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ»: (وسابق).

خروجه<sup>(١)</sup> قدحًا في عقله.

- والمزاحم له: التَّجَرُّد عنها بكمال التسليم إلى مَنْ بيده أزمّة الأمور؛ مواردّها ومصادرّها.  
- والوهم: اعتقاده توقُّف حصول السَّعادة والنَّجاة، وحصول المقدور كائنًا ما كان عليها، وأنّه لولاها لما حصل المقدور، وهذا هو السَّائق<sup>(٢)</sup> إلى الوهم.

والغيب: هو الحكم الَّذي غاب عنه، وهو فعل الله.

والتَّسليم: تسليم هذا المزاحم إلى نفس الحكم.

مع أنّ في تنزيل عبارته على هذا المعنى<sup>(٣)</sup>، وإفراغ هذا المعنى في قوالب ألفاظه نظرًا.

وفيه وجهٌ آخر: وهو أن يكون المراد: التَّسليم لما يبدو للعبد من معاني الغيب ممَّا يزاحم معقوله في بادئ الرَّأي، لما يسبق إلى وهمه أنّ الأمر بخلافه؛ فيسبق على الأوهام من الغيب الَّذي أخبرت به شيءٌ يزاحم معقولها فتقع المنازعة بين حكم العقل وحكم الوهم؛ فإنَّ كثيرًا من الغيب قد يزاحم العقل بعض المزاحمة، ويسبق إلى الوهم خلافه، فالتَّسليم: تسليم هذا المزاحم إلى وليّه، ومَنْ هو أخبر به، والتَّجَرُّد عمَّا يسبق إلى الوهم ممَّا يخالفه.

وهذا أولى المعنيين بكلامه إن شاء الله.

فالأوّل: تسليم منازعات الأسباب لتجريد التَّوْحِيد العمليّ<sup>(٤)</sup> القصدِيّ الإراديّ، وهذا تجريد

منازعات الأوهام المخالفة للخبر لتجريد التَّوْحِيد العلميّ الخبرِيّ الاعتقاديّ، وهذا حقيقة التَّسليم.

قوله: «وَالْإِدْعَانُ لِمَا يُغَالِبُ الْقِيَّاسَ مِنْ سَيْرِ الدُّوَلِ وَالْقِسْمِ».

أي: الانقياد لما يقاوي عقله وقياسه، ممَّا جرى به حكم الله في الدُّوَل قديمًا وحديثًا: من طَيِّ دولةٍ، ونشر دولةٍ، وإعزاز هذه، وإذلال هذه، والقسم الَّذي قَسَمَهَا على خلقه، مع شدَّة تفاوتها، وتباين مقاديرها، وكيفياتها وأجناسها، فيذعن لحكمة الله في كلّ ذلك، ولا يعترض على ما وقع منها بشبهةٍ وقياسٍ.

ويحتمل أن يكون مراده بـ«الدُّوَلِ وَالْقِسْمِ» الأحوال الَّذي تتداول على السَّالك ويختلف سيرها، والقسم الَّذي نالته من الله: ما كان قياس سعيه واجتهاده أن يحصل له أكثر منها، فيذعن لما غالب قياسه منها، ويسلّم للقاسم<sup>(٥)</sup> المعطي بحكمته وعدله؛ فإنَّ من عباده مَنْ لا يصلحه إلَّا الفقر، ولو أغناه لأفسده ذلك، ومنهم مَنْ لا يصلحه إلَّا الغنى، ولو أفقره لأفسده ذلك، ومنهم من لا يصلحه

(١) كلمة: (خروجه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ»: (السابق).

(٣) كلمة: (المعنى) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (العلمي)، ولعل الصواب ما في ط. الفقي المثبتة في الأصل.

(٥) في «غ»: (القاسم)، وفي المنار: (للقسم).

إلا المرض، ولو أصحَّه لأفسده ذلك، ومنهم من لا يصلحه إلا الصَّحَّة، ولو أمرضه لأفسده ذلك.  
 قوله: «وَالْإِجَابَةُ لِمَا يُفْرِغُ الْمُرِيدَ مِنْ رُكُوبِ الْأَحْوَالِ».  
 يقول: إنَّ صاحب هذه الدَّرَجَة من قوَّة التَّسْلِيم يهجم على الأمور المفزعة، ولا يلتفت إليها،  
 ولا يخاف معها من ركوب الأحوال، واقتحام الأهوال؛ لأنَّ قوَّة تسليمه تحميه من خطرهما، فلا ينبغي  
 له أن يخاف؛ فإنَّه في حصن التَّسْلِيم ومنعته وحمايته، والله ﷻ الموقِّق بحوله وقوَّته.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَة الثَّانِيَّةُ: تَسْلِيمُ الْعِلْمِ إِلَى الْحَالِ: وَالْقَصْدُ إِلَى الْكَشْفِ، وَالرَّسْمُ إِلَى الْحَقِيقَةِ»<sup>(١)</sup>.

أمَّا «تَسْلِيمُ الْعِلْمِ إِلَى الْحَالِ» فليس المراد منه: تحكيم الحال على العلم، حاشى الشَّيْخ من ذلك، وإنَّما أراد: الانتقال من الوقوف عند صور العلم الظَّاهِرة إلى معانيها وحقائقها الباطنة، وثمراتها المقصودة منها، مثل الانتقال من محض التَّقْلِيد والخبر إلى العيان واليقين، حتَّى كأنَّه يرى ويشاهد ما أخبر به الرَّسُول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

وينتقل من الحجاب إلى الكشف، فينتقل من العلم إلى اليقين، ومن اليقين إلى عين اليقين، ومن علم الإيمان إلى ذوق طعم الإيمان ووجدان حلاوته؛ فإنَّ هذا قدرٌ زائدٌ على مجرد علمه، ومن علم التَّوَكُّل إلى حاله، وأشبه ذلك.

فيسلِّم العلم الصَّحِيح إلى الحال الصَّحِيح؛ فإنَّ سلطان الحال أقوى من سلطان العلم، فإذا كان الحال مخالفاً للعلم فهو ملكٌ ظالمٌ، فليخرج عليه بسيف العلم، وليحكِّمه فيه.

وأمَّا «تَسْلِيمُ الْقَصْدِ إِلَى الْكَشْفِ» فليس معناه: أن يترك القصد عن معاينة الكشف؛ فإنَّه متى ترك القصد خلع ربة العبوديَّة من عنقه، ولكن يجعل قصده سائراً طالباً لكشفه يؤمُّه، فإذا وصل إليه سلَّمه إليه،

(١) ما بين القوسين سقط من نسخة «غ».



وصار الحكم للكشف؛ إذ القصد<sup>(١)</sup> آلةٌ ووسيلةٌ إليه؛ فإن كان كشفًا صحيحًا مطابقًا للحقّ في نفسه كشف له عن آفات القصد، ومفسداته، ومصحّحاته، وعيوبه، فأقبل على تصحيحه بنور الكشف، لا أنّ صاحب القصد ترك القصد لأجل الكشف فهذا سير<sup>(٢)</sup> أهل الإلحاد، الناكبين عن سبيل الحقّ والرّشاد.

وأما «ترك الرّسم إلى الحقيقة» فإنّه يشير به إلى الفناء، فإنّ من جملة تسليم صاحب الفناء تسليم ذاته ليفنى في شهود الحقيقة؛ فإنّ ذات العبد هي رسمٌ، والرّسم تفنيه الحقيقة، كما يفني النور الظلمة؛ لأنّ عند أصحاب الفناء أنّ الحقّ سبحانه لا يراه سواه، ولا يشاهده غيره، لا بمعنى الاتّحاد، ولكن بمعنى: أنّه<sup>(٣)</sup> لا يشاهده العبد حتّى يفنى عن إنّيته ورسمه، وجميع عوالمه، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، هذا كإجماع من الطائفة، بل هو إجماعٌ منهم.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: تَسْلِيمُ مَا دُونَ الْحَقِّ إِلَى الْحَقِّ، مَعَ السَّلَامَةِ مِنْ رُؤْيَةِ

التَّسْلِيمِ، بِمَعَايِنَةِ تَسْلِيمِ الْحَقِّ إِيَّاكَ إِلَيْهِ».

(هذه الدرّجة تكملة الدرّجة التي قبلها؛ فإنّ التسليم في التي قبلها بداية لها)<sup>(٤)</sup>، وهي واسطة بين الدرّجة الأولى والثالثة؛ فالأولى: بداية، والثانية: وسط<sup>(٥)</sup>، والثالثة: نهاية.

قوله: «تَسْلِيمُ مَا دُونَ الْحَقِّ إِلَى الْحَقِّ». يريد به: اضمحلال رسوم الخلق في شهود الحقيقة، وكلّ ما دون الحقّ رسومٌ، فإذا سلّم رسمه الخاصّ إلى ربّه حصل له حقيقة الفناء.

وهذا التسليم نوعان:

- أحدهما: تسليم رسمه الخاصّ به.

- والثاني: تسليم رسوم الكائنات، ورؤية تلاشيها وضمحلالتها في عين الحقيقة، وهذا علمٌ ومعرفةٌ، والأوّل حالٌ.

قوله: «وَالسَّلَامَةُ مِنْ رُؤْيَةِ التَّسْلِيمِ»؛ أي: ينسلب أيضًا من رسم رؤية التسليم؛ فإنّ «الرؤية» أيضًا رسمٌ من جملة الرسوم، فما دام مستصحبًا لها: لم يسلم التسليم التام، وقد بقيت عليه بقية من منازعات رسمه.

ثمّ عرّف كيفية هذا التسليم، فقال: «بِمَعَايِنَةِ تَسْلِيمِ الْحَقِّ إِيَّاكَ إِلَيْهِ»؛ أي: ينكشف لك - حين

(١) في المنار: (الكشف)، ولعل الصواب ما هو مثبت في الأصل، وهو قوله: (القصد) وهو الذي في نسخة «غ».

(٢) في «غ»: (مسير).

(٣) كلمة: (أنه) غير موجودة في المنار.

(٤) اختلفت العبارة التي بين القوسين عن عبارة المنار ونسخة «غ»، فعبارة المنار «غ» هي قوله: (هذه الدرّجة تكملة، والدرّجة التي قبلها بداية لها).

(٥) في «غ» والمنار: (توسط).

تسلم ما دون الحق إلى الحق - أن الحق تعالى هو الذي سلم إلى نفسه ما دونه، فالحق تعالى هو الذي سلمك إليه، فهو المسلم وهو المسلم إليه، وأنت آلة التسليم، فمن شهد هذا المشهد وجد ذاته مسلمة إلى الحق، وما سلمها إلى الحق غير الحق، فقد سلم العبد من دعوى التسليم، والله أعلم.

## فصل [منزلة الصبر]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الصبر.  
قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>: «الصبر<sup>(٢)</sup> في القرآن في نحو تسعين موضعاً». وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان؛ فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً.

﴿الْأَوَّلُ: الْأَمْرُ بِهِ: نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقوله: ﴿أَصْبِرْ وَأَوْصِرْ وَرَأَى﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

﴿الثَّانِي: النَّهْيُ عَنْ ضِدِّهِ: كَقَوْلِهِ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾

[الأحقاف: ٣٥].

وقوله: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْكَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]؛ فإن تولية الأذكار ترك للصبر والمصابرة.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]؛ فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها.

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ فإن الوهن من عدم الصبر.

﴿الثَّالِثُ: الشُّنَاءُ عَلَى أَهْلِهِ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧] الآية.

(١) جملة: (رحمه الله تعالى) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (ذكر الله تعالى الصبر).

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وهو كثيرٌ في القرآن.

الرَّابِع: إيجابه سبحانه محبته لهم: كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم: وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم، ليست معية عامة، وهي معية العلم والإحاطة، كقوله<sup>(١)</sup>: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

السادس: إخباره بأن الصبر خيرٌ لأصحابه: كقوله: ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهَوْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم: كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه<sup>(٢)</sup> الجزاء لهم بغير حساب: كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشري لأهل الصبر: كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]<sup>(٣)</sup>.

العاشر: ضمان النصر<sup>(٤)</sup> والمدد لهم: كقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

ومنه قول النبي ﷺ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّابِرِ»<sup>(٥)</sup>.

(١) في «غ»: (كقوله تعالى).

(٢) كلمة: (سبحانه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (لم يذكر من الآية إلا قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾).

(٤) في «غ» والمنار: (النصرة).

(٥) هو جزء من إحدى روايات حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «يا غلام إني أعلمك كلمات...» وقد تقدم تخريجه (ص ٢٢٣).

﴿الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم: كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عِزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿٤٢﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقي الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر: كقوله تعالى: ﴿وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ [الفصص: ٨٠].

وقوله: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣٥﴾ [فصلت: ٣٥].

﴿الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر: كقوله تعالى لموسى: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿٥٠﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقوله في أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿١٩﴾ [سبأ: ١٩].

وقوله في سورة الشورى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ﴿٣٢﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

﴿الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب<sup>(٢)</sup> المحبوب، والنجاة من المكروه<sup>(٣)</sup> المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر: كقوله تعالى: ﴿وَأَلْمَلِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿٢٦﴾ [الرعد: ٢٦، ٢٤].

﴿الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة.

[سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين»، ثم تلا<sup>(٤)</sup>، قوله<sup>(٥)</sup> تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (بالمطلوب).

(٣) كلمة: (المكروه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ» والمنار.

(٥) في «غ» والمنار: (كقوله).

السَّادِسَ عشر: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان: كما قرنه الله (١) سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر (٢) والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه (٣) لا جسد لمن لا رأس له.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خَيْرُ عَيْشٍ أَدْرَكْنَاهُ بِالصَّبْرِ».

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «أنه ضياء» (٤).

وقال: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ» (٥).

وفي الحديث الصحيح: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (٦).

وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع، فسألتها أن يدعو لها: «إِنْ شِئْتَ صَبِرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَاقِبِكَ». فقالت: إنني أتكشّف، فادع الله ألا أتكشّف؛ فدعا لها (٧).

وأمر الأنصار -رضي الله تعالى (٨) عنهم- بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض (٩).

وأمر عند ملاقاته العدو بالصبر (١٠).

(١) لفظ الجلالة غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (والشكر).

(٣) في «غ» والمنار: (أن).

(٤) هو جزء من حديث: «الطهور شرط الإيمان... والصبر ضياء». رواه مسلم في الطهارة، باب: فضل الوضوء (٢٢٣)، والترمذي في الدعوات، باب (٨٦).

(٥) هو جزء من حديث: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم...». رواه البخاري في الزكاة، باب: الاستعفاف في المسألة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر (١٠٥٣).

(٦) رواه مسلم في الزهد، باب: المؤمن من أمره كله خير (٢٩٩٩)، وأحمد (٣٣٢/٤).

(٧) رواه البخاري في المرض، باب: فضل من يصرع من الريح (٥٦٥٢)، ومسلم في البر والصلة، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه (٢٥٧٦).

(٨) كلمة: (تعالى) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٩) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» (٣٧٩٢)، ومسلم في الإمارة، باب: الأمر بالصبر عند ظلم الولاة (١٨٤٥).

(١٠) يعني: قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا لقيتموهم فاصبروا». رواه البخاري في الجهاد، باب: لا تتموا لقاء العدو... (٣٠٢٦)، ومسلم في الجهاد، باب: كراهة تمني لقاء العدو رقم (١٧٤١).

وأمر بالصَّبْر عند المصيبة، وأخبر أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى<sup>(١)</sup>.  
وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصَّبْر والاحتساب<sup>(٢)</sup>؛ فإنَّ ذلك يخفِّف مصيبتَه،  
ويوفِّر أجره، والجزع والتَّسَخُّط والتَّشَكِّي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر.  
وأخبر ﷺ أن الصَّبْر خيرٌ كلُّه، فقال: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا لَهُ وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»<sup>(٣)</sup>.

## فصل

والصَّبْر في اللُّغَة: الحبس والكفُّ، ومنه: قُتِلَ فلانٌ صبراً؛ إذا أمسك وحبس.  
ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾  
[الكهف: ٢٨]؛ أي: احبس نفسك معهم.  
فالصَّبْر: حبس النَّفْس عن الجزع والتَّسَخُّط، وحبس اللِّسَان عن الشُّكْوَى، وحبس الجوارح عن  
التَّشْوِيش.

وهو ثلاثة أنواع:

- صبرٌ على طاعة الله.

- وصبرٌ عن معصية الله.

- وصبرٌ على امتحان الله.

فالاولان: صبرٌ على ما يتعلَّق بالكسب.

والثالث: صبرٌ على ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «كَانَ صَبْرُ يُوسُفَ عَن مُطَاوَعَةِ امْرَأَةِ  
الْعَزِيزِ عَلَى<sup>(٤)</sup> شَأْنِهَا: أَكْمَلَ مِنْ صَبْرِهِ عَلَى إِلْقَاءِ إِخْوَتِهِ لَهُ فِي الْجُبِّ، وَبَيْعِهِ وَتَفْرِيقِهِمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ؛  
فَإِنَّ هَذِهِ أُمُورٌ جَرَتْ عَلَيْهِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، لَا كَسَبَ لَهُ فِيهَا، لَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيهَا حِيلَةٌ غَيْرُ الصَّبْرِ، وَأَمَّا صَبْرُهُ

(١) البخاري في الجنائز، باب: الصبر عند الصدمة الأولى (١٢٨٣)، ومسلم في الجنائز، باب: الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٩٢٦).

(٢) وذلك كقوله ﷺ لابنته وقد احتضر ابنها: «... فلتصبر ولتحتسب». رواه البخاري في الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: «يعذب الميت بيباء أهله» (١٢٨٤)، ومسلم في الجنائز، باب: البكاء على الميت (٩٢٣).

(٣) هو جزء من حديث ابن عباس «يا غلام...»، وقد تقدم تخريجه (ص ٢٢٣).

(٤) في «ع» والمنار: (عن).

عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَصَبْرٌ اخْتِيَارٍ وَرِضًا وَمُحَارَبَةً لِلنَّفْسِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَقْوَى مَعَهَا دَوَاعِي الْمُوَافَقَةِ؛ فَإِنَّهُ كَانَ شَابًّا، وَدَاعِيَةُ الشَّبَابِ إِلَيْهَا قَوِيَّةٌ، وَعَزَبًا لَيْسَ لَهُ مَا يُعْوِضُهُ وَيُرُدُّ شَهْوَتَهُ، وَغَرِيبًا وَالْغَرِيبُ لَا يَسْتَحِي فِي بَلَدِ غُرْبَتِهِ مِمَّا يَسْتَحِي مِنْهُ مَنْ (١) بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَمَعَارِفِهِ وَأَهْلِهِ، وَمَمْلُوكًا وَالْمَمْلُوكُ أَيْضًا لَيْسَ وَازِعُهُ كَوَازِعِ الْحُرِّ، وَالْمَرْأَةُ جَمِيلَةٌ، وَذَاتُ مَنْصِبٍ، وَهِيَ سَيِّدَتُهُ، وَقَدْ غَابَ الرَّقِيبُ، وَهِيَ الدَّاعِيَةُ لَهُ إِلَى نَفْسِهَا، وَالْحَرِيصَةُ عَلَى ذَلِكَ أَشَدُّ الْحَرِصِ، وَمَعَ ذَلِكَ تَوَعَّدْتُهُ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ بِالسَّجْنِ وَالصَّغَارِ، وَمَعَ هَذِهِ الدَّوَاعِي كُلِّهَا صَبَرَ اخْتِيَارًا، وَإِيثَارًا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ صَبْرِهِ فِي الْجُبِّ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ كَسْبِهِ؟!».

وكان يقول (٢): «الصَّبْرُ عَلَى أَدَاءِ الطَّاعَاتِ أَكْمَلُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى اجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ وَأَفْضَلُ؛ فَإِنَّ مَضْلِحَةَ فِعْلِ الطَّاعَةِ أَحَبُّ إِلَى الشَّارِعِ مِنْ مَضْلِحَةِ تَرْكِ الْمَعْصِيَةِ، وَمُفْسِدَةٌ عَدَمِ الطَّاعَةِ أَبْغَضُ إِلَيْهِ وَأَكْرَهُ مِنْ مُفْسِدَةِ وُجُودِ الْمَعْصِيَةِ».

وله رَضِيَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مَصْنُفٌ قَرَّرَهُ فِيهِ بِنَحْوِ مِنْ عَشْرِينَ وَجْهًا، لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهَا. والمقصود: الكلام على الصبر وحقائقه ودرجاته ومراتبه، والله الموفق.

## فصل

\* وهو على ثلاثة أنواع:

- صبر بالله.

- وصبر لله.

- وصبر مع الله.

﴿فَالأَوَّلُ: أول (٣) الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما

قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] يعني: إن لم يصبرك هو لم تصبر.

﴿والثاني: الصبر لله: وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب

إليه، لا لإظهاره قوة النفس، والاستحمام إلى الخلق، وغير ذلك من الأعراض.

(١) كلمة: (من) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) الكلام لا زال لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

(٣) كلمة: (أول) غير موجودة في «غ»، ولعل هذا هو الصواب إن شاء الله تعالى.

والثالث: الصبر مع الله: وهو دوران العبد مع مراد الله الدنيي منه، ومع أحكامه الدنيية، صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استقلت مضاربها. فهذا معنى كونه صابراً مع الله؛ أي: قد جعل نفسه وفقاً على أوامره ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين.

قال الجنيد: «المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الله شديد، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد». وسئل عن الصبر؟ فقال: «تجرع المرارة من غير تعبس». قال ذو النون المصري: «الصبر: التباعد من المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة».

وقيل: الصبر: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقيل: هو الفناء في البلوى بلا ظهور ولا شكوى.

وقيل: تعويد النفس الهجوم على المكاره.

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة، كالمقام مع العافية.

وقال عمرو بن عثمان: «هو الثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرّحب والدعة».

وقال الخواص: «هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة».

وقال يحيى بن معاذ: «صبر المحييين أشد من صبر الزاهدين، وا عجباً! كيف يصبرون؟ وأنشد:

وَالصَّبْرُ يَجْمَلُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا      إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَجْمَلُ

وقيل: الصبر هو الاستعانة بالله.

وقيل: هو ترك الشكوى.

وقيل:

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقُهُ      لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

وقيل: الصبر أن ترضى بتلف نفسك في رضا من تحبه، كما قيل:

سَأَصْبِرُ كَيْ تَرْضَى وَأَتَلَفَ حَسْرَةً      وَحَسْبِي أَنْ تَرْضَى وَيُثْلِفَنِي صَبْرِي

وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومصطبر، ومنتصبر، وصبور، وصابر.

فالصابر: أعمها.

والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به.



والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه.

والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره.

والصبار: الكثير الصبر، فهذا في القدر والكم<sup>(١)</sup>، والذي قبله في الوصف والكيف<sup>(٢)</sup>.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: «الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُؤُ».

«وَقَفَ رَجُلٌ عَلَى السَّبِيلِ، فَقَالَ: أَيُّ صَبْرٍ أَشَدُّ عَلَى الصَّابِرِينَ؟ فَقَالَ: الصَّبْرُ فِي اللَّهِ. قَالَ السَّائِلُ: لَا. فَقَالَ: الصَّبْرُ لِلَّهِ. فَقَالَ: لَا. فَقَالَ: الصَّبْرُ مَعَ اللَّهِ. فَقَالَ: لَا. قَالَ السَّبِيلِيُّ: فَايْشُ هُوَ؟ قَالَ: الصَّبْرُ عَنِ اللَّهِ، فَصَرَخَ السَّبِيلِيُّ صَرْخَةً كَادَتْ رُوحُهُ تَتَلَفُّ».

وقال الجريبي: «الصَّبْرُ أَلَّا يُفَرَّقَ بَيْنَ حَالِ النُّعْمَةِ وَحَالِ المِحْنَةِ، مَعَ سُكُونِ الخَاطِرِ فِيهِمَا، وَالتَّصَبُّرُ: هُوَ السُّكُونُ مَعَ البَلَاءِ، مَعَ وَجْدَانِ أَثْقَالِ المِحْنَةِ».

قال أبو علي الدقاق: «فَازَ الصَّابِرُونَ بِعِزِّ الدَّارِينَ؛ لِأَنَّهُمْ نَالُوا مِنَ اللَّهِ مَعِيَّتَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

وقيل في قوله تعالى: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى؛ فالصبر دون المصابرة والمصابرة دون المرابطة، والمرابطة مفاعلة من الربط وهو الشد، وسمي المرابط مرابطاً؛ لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع، ثم قيل لكل منتظرٍ قد ربط نفسه لطاعةٍ ينتظرها: مرابطٌ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»<sup>(٣)</sup>.

[وقال: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»<sup>(٤)</sup>]-<sup>(٥)</sup>.

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله، وربطوا بأسراركم على الشوق إلى الله.

(١) كلمة: (والكم) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (في الوصف والكم والكيف).

(٣) رواه مسلم في الطهارة، باب: فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١)، والترمذي في الطهارة، باب: ما جاء في إسباغ الوضوء.

(٤) رواه البخاري في الجهاد، باب: فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل الرباط.

(٥) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ»، والمنار.

وقيل: اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله.

وقيل: اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسّماء؛ لعلكم تفلحون في دار البقاء.

فالصّبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك، والمرابطة الثبات وإعداد العدة، وكما أنّ الرّباط لزوم الثغر لئلاّ يهجم منه العدو، فكذلك الرّباط أيضًا لزوم ثغر القلب لئلاّ يهجم عليه الشيطان، فيملكه ويخرّبه أو يشعّته.

وقيل: تجرّع الصّبر، فإن قتلك قتلك شهيدًا، وإن أحياك أحياك عزيزًا.

وقيل: الصّبر (١) لله غناء، وبالله تعالى بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء، والصّبر

على الطّلب عنوان الظّفر، وفي المحن عنوان الفرج.

وقيل: حال العبد مع الله رباطه، وما دون الله أعداؤه.

وفي كتاب «الأدب» للبخاري: سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: «الصّبر والسّماحة» (٢).

ذكره عن موسى بن إسماعيل، قال: حدّثنا سويدٌ قال: حدّثنا عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جدّه فذكره.

وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهانًا، وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها.

فإنّ النّفس يراد منها شيثان:

- بذل ما أمرت به، وإعطاؤه، فالحامل عليه: السّماحة.

- وترك ما نهيت عنه، والبعد منه؛ فالحامل عليه: الصّبر.

وقد أمر الله ﷻ في كتابه بالصّبر الجميل، والصّفح الجميل، والهجر الجميل.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: «الصّبرُ الجَمِيلُ هُوَ الَّذِي لَا شَكْوَى فِيهِ

وَلَا مَعَهُ، وَالصّفْحُ الجَمِيلُ هُوَ الَّذِي لَا عِتَابَ مَعَهُ، وَالهُجْرُ الجَمِيلُ هُوَ الَّذِي لَا أَدَى مَعَهُ».

وفي أثرٍ إسرائيليٍّ: «أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ: أَنْزَلْتُ بِعَبْدِي بَلَائِي، فَدَعَانِي، فَمَا طَلْتُهُ

بِالْإِجَابَةِ، فَشَكَانِي، فَقُلْتُ: عَبْدِي، كَيْفَ أَرْحَمُكَ مِنْ شَيْءٍ بِهِ أَرْحَمُكَ؟!».

(١) في «غ» والمنار: (فناء الصبر).

(٢) رواه أبو يعلى في «مسنده» (١٨٥٤)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٩/١)، وقال: «رواه أبو يعلى وفيه يوسف بن

محمد بن المنكدر وهو متروك». وقال محقق «مسند أبي يعلى» حسين أسد: إسناده ضعيف (٣/٣٨٠). وقد عزاه ابن

القيم هنا لكتاب «الأدب المفرد»، ولكنني لم أقف عليه، وإنما رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢٥/٥) (٤١).

وقال ابن عيينة في (١) قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قال: «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء».

وقيل: صبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحببين أحسنه: أن يكون مرفوضاً، كما

قيل:

تَبَيَّنَ يَوْمَ الْبَيْنِ أَنْ اعْتِزَامَهُ عَلَى الصَّبْرِ مِنْ إِحْدَى الظُّنُونِ الْكَوَاذِبِ

والشكوى إلى الله ﷻ لا تنافي للصبر؛ فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل، والنبى إذا وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك أيوب أخبر الله عنه أنه وجد صابراً مع قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله (٢)، كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقه وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟! ثم أنشد:

وَإِذَا عَرَّتْكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَا صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ  
وَإِذَا شَكَّوتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَعَقْلُ اللِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَى، وَهُوَ مِنْ أَصْعَبِ الْمُنَازِلِ عَلَى الْعَامَّةِ، وَأَوْحَشُهَا فِي طَرِيقِ الْمُحَبَّةِ، وَأَنْكَرُهَا فِي طَرِيقِ التَّوْحِيدِ».

وإنما كان صعباً على العامة: لأن العامي مبتدئ في الطريق، وما له دُرْبَةٌ في السلوك، ولا تهذيب المرتاض بقطع المنازل؛ فإذا أصابته المحن أدركه الجزع، وصعب عليه احتمال البلاء، وعزَّ عليه وجدان الصبر؛ لأنه ليس من أهل الرياضة فيكون مستوطناً للصبر، ولا من أهل المحبة فيلتدُّ بالبلاء في رضا محبوبه.

(١) كلمة: (في) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (لا الشكوى إليه).

وأما كونه وحشة<sup>(١)</sup> في طريق المحبة: فلا تها تقتضي التناذ المحبّ بامتحان محبوبه له، والصبر يقتضي كراهيته لذلك، وحبس نفسه عليه كرها؛ فهو وحشة في طريق المحبة.

وفي الوحشة نكتة لطيفة؛ لأنّ الالتناذ بالمحنة في المحبة هو من موجبات أنس القلب بالمحسوب، فإذا أحسّ بالألم - بحيث يحتاج إلى الصبر - انتقل من الأنس إلى الوحشة<sup>(٢)</sup>، ولولا الوحشة لما أحسّ بالألم المستدعي للصبر.

وإنما كان أنكرها في طريق التوحيد؛ لأنّ فيه قوّة الدعوى؛ لأنّ الصابر يدعي بحاله قوّة الثبات، وذلك ادعاءً منه لنفسه قوّة عظيمة، وهذا مصادمة لتجريد التوحيد؛ إذ ليس لأحد قوّة البتة، بل لله القوّة جميعاً، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

فهذا سبب كون الصبر منكرًا في طريق التوحيد، بل من أنكر المنكر كما قال؛ لأنّ التوحيد يرُدّ الأشياء إلى الله، والصبر يرُدّ الأشياء إلى النفس، وإثبات النفس في التوحيد منكرٌ.

هذا حاصل كلامه محرراً مقرّراً، وهو من منكر كلامه.

بل الصبر من أكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين، وهم أحوج إلى منزلته من كلّ منزلة، وهو من أعرّف المنازل في طريق التوحيد وأبينها، وحاجة المحبّ إليه ضروريةٌ.

فإن قيل: كيف تكون حاجة المحبّ إليه ضروريةً، مع منافاته لكمال المحبة؛ فإنه لا يكون إلا

مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟

قيل: هذه النكتة التي لأجلها كان من أكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها، وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها، وصادقها من كاذبها، فإنّ بقوّة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحّة محبّته.

ومن هاهنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة؛ لأنّهم كلّهم ادّعوا محبة الله تعالى، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمّل المشاقّ وتحشّم المكاره بالصبر لما ثبتت صحّة محبتهم، وقد<sup>(٣)</sup> تبين بذلك أنّ أعظمهم محبةً أشدّهم صبراً.

ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصّة أوليائه وأحبابه<sup>(٤)</sup>؛ فقال عن حبيبه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ

صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] ثمّ أثنى عليه، فقال: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿ص: ٤٤﴾.

(١) في «غ» والمنار: (وأما وحشته).

(٢) في «غ» والمنار: (الوحشة).

(٣) كلمة: (قد) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (وأحبابه).

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به، وأثنى على الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوبًا، وأجرهم بغير حساب، وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان والإحسان - كما تقدّم -، فجعله قرين اليقين، والتوكل، والإيمان، والأعمال، والتقوى.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر، وأخبر أن الصبر خير لأهله، وأن الملائكة تسلّم عليهم في الجنة بصبرهم، كما تقدّم ذلك.

وليس في استكراه النفوس لألم ما تصبر عليه، وإحساسها به ما يقدر في محبتها ولا توحيدها؛ فإن إحساسها بالألم، ونفرتها منه أمرٌ طبيعيٌّ لها، كاقترانها للغذاء من الطعام والشراب، وتألمها بفقدته، فلوازم النفس لا سبيل إلى إعدامها أو (١) تعطيلها بالكليّة، وإلا لم تكن نفسًا (٢) إنسانيةً، ولا ارتفعت (٣) المحنة، وكانت عالمًا آخر.

والصبر والمحبة لا يتناقضان، بل يتواخيان ويتصاحبان، والمحبة صبورةٌ، بلى علة الصبر في الحقيقة المناقضة للمحبة، المزاحمة للتوحيد: أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضا المحبوب، بل إرادة غيره، أو مزاحمته بإرادة غيره، أو المراد منه، لا مراده، هذه هي وحشة الصبر ونكارته. وأمّا من رأى صبره بالله، وصبره لله (٤)، وصبر مع الله، مشاهدًا أن صبره به تعالى لا بنفسه، فهذا لا تلحق محبته وحشته، ولا توحيدته نكارةً.

ثم لو استقام له هذا لكان في نوع واحد من أنواع الصبر، وهو الصبر على المكاره. فأما الصبر على الطاعات - وهو حبس النفس عليها، وعن المخالفات؛ وهو منع النفس منها طوعًا واختيارًا والتذاذًا فأبى وحشة في هذا؟ وأبى نكارةً فيه؟ فإن قيل: إذا كان يفعل ذلك طوعًا ومحبةً، ورضًا وإيثارًا لم يكن الحامل له على ذلك الصبر، فيكون صبره في هذا الحال ملزوم الوحشة والنكارة (٥)؛ لمنافاتها لحال المحب.

قيل: لا منافاة في ذلك بوجه؛ فإن صبره حينئذٍ قد اندرج في رضاه، وانطوى فيه، وصار الحكم للرضا، لا أن الصبر عدم، بل لقوة وارد الرضا والحب، وإيثار مراد المحبوب، صار المشهد والمنزل للرضا بحكم الحال، والصبر جزء منه ومنطوي فيه، ونحن لا ننكر هذا القدر، فإن كان هو المراد،

(١) في «غ» والمنار: (و).

(٢) كلمة: (نفسًا) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (وارتفعت).

(٤) في «غ» والمنار: (وصبره به)، ولعل المثبت في ط. الفقي هو الصواب، والله أعلم.

(٥) في «غ»: (ملزوم الوحشة فيه وإنكاره).

فحبذا<sup>(١)</sup> الوفاق<sup>(٢)</sup>، وليس المقصود القيل والقال، ومنازعات الجدل. وإن كان غيره؛ فقد عرف ما فيه، والله ﷻ أعلم.

## فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الصَّبْرُ عَنِ الْمُعْصِيَةِ، بِمُطَالَعَةِ الْوَعِيدِ: إِبْقَاءً عَلَى الْإِيمَانِ، وَحَذْرًا مِنَ الْحَرَامِ، وَأَحْسَنُ مِنْهَا: الصَّبْرُ عَنِ الْمُعْصِيَةِ حَيَاءً».

\* ذكر للصبر عن المعصية سببين وفائدتين:  
أَمَّا السَّبَبَانِ:

- فالخوف من لحوق الوعيد المترتب عليها.
- والثاني: الحياء من الربِّ تبارك وتعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه، وأن يبارز بالعظام.
- وأما الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان، والحذر من الحرام.
- فأما<sup>(٣)</sup> مطالعة الوعيد، والخوف منه: فيبعث عليه قوة الإيمان بالخبر، والتصديق بمضمونه.
- وأما الحياء: فيبعث عليه قوة المعرفة، ومشاهدة معاني الأسماء والصفات.
- وأحسن من ذلك: أن يكون الباعث عليه وازع الحبِّ؛ فيترك معصيته محبةً له، كحال الصُّهَيْبِيِّينَ<sup>(٤)</sup>.

وَأَمَّا الْفَائِدَتَانِ:

- فالإبقاء على الإيمان: يبعث على ترك المعصية؛ لأنها لا بدَّ أن تنقصه، أو تذهب به، أو تذهب رونقه، وبهجته، أو تطفئ نوره، أو تضعف قوته، أو تنقص ثمرته، هذا أمرٌ ضروريٌّ بين المعصية وبين

(١) في «غ»: (حينئذ).

(٢) في «غ» والمنار: (بالوفاق).

(٣) في «غ» والمنار: (وأما).

(٤) نسبة إلى الصحابي الجليل (صهيب الرومي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) حيث نسب إلى النبي ﷺ أنه قال فيه: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه». ولكن ضعف هذا الحديث كثير من أهل العلم، بل ذهب بعضهم إلى أنه موضوع لا أصل له. انظر: «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة للقاري» بتحقيق محمد الصباغ (٣٥٦-٣٥٧)، وانظر: «كشف الخفا» (٤٢٨-٤٢٩).

الإيمان يعلم بالوجود والخبر والعقل، كما صحَّ عنه ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً دَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ»<sup>(١)</sup>.

- وأما الحذر عن الحرام: فهو الصبر عن كثيرٍ من المباح، حذرًا من أن يسوقه إلى الحرام. ولَمَّا كان «الحياء» من<sup>(٢)</sup> شيم الأشراف وأهل الكرم والنُفوس الرّكّية كان صاحبه أحسن حالًا من أهل الخوف.

ولأنَّ في الحياء من الله ما يدلُّ على مراقبته وحضور القلب معه.

ولأنَّ<sup>(٣)</sup> فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف.

فمن وازعه الخوف قلبه حاضرٌ مع العقوبة، ومن وازعه الحياء قلبه حاضرٌ مع الله، والخائف مراعٍ جانب نفسه وحمائتها، والمستحي مراعٍ جانب ربِّه، وملاحظٌ عظمته. وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان.

غير أنَّ الحياء أقرب إلى مقام الإحسان، وألصق به، إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله؛ فنبتعت ينباع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الطَّاعَةِ، بِالمَحَافَظَةِ عَلَيمًا دَوَامًا، وَبِرِعَايَتِهَا إِخْلَاصًا، وَبِتَحْسِينِهَا عَلَمًا».

هذا يدلُّ على أنَّ عنده: أن فعل الطَّاعَةِ آكَدُ من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدَّرَجَةِ.

وهذا هو الصَّواب كما تقدَّم؛ فإنَّ ترك المعصية إنَّما كان لتكميل الطَّاعَةِ، والنَّهي مقصودٌ للأمر؛ فالمنهْيُ عنه لَمَّا كان يُضَعِفُ المأمور به وينقصه نهي عنه حمايةً وصيانةً لجانب الأمر، فجانب الأمر<sup>(٤)</sup> أقوى وأكَد، وهو بمنزلة الصَّحَّةِ (والحياة)، والنَّهي بمنزلة الحِمِّية التي تراد لحفظ الصَّحَّةِ<sup>(٥)</sup> وأسباب الحياة.

(١) البخاري في المظالم، باب: النهب بغير إذن صاحبه (٢٤٧٥)، ورواه مسلم في الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية (٥٧).

(٢) كلمة: (من) ساقطة من «غ».

(٣) في «غ» والمنار: (لأن).

(٤) جملة: (فجانب الأمر) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٥) ما بين القوسين ساقط من «غ».

وذكر<sup>(١)</sup> الشيخ: أن الصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء: دوام الطاعة، والإخلاص فيها، ووقوعها على مقتضى العلم، وهو تحسينها علمًا.

فإن الطاعة تتخلف من فوات واحدٍ من هذه الثلاثة؛ فإنَّ العبد إن لم يحافظ عليها دوامًا عطَّلها، وإن حافظ عليها دوامًا عرض لها آفتان:

- إحداهما: ترك الإخلاص فيها: بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله، وإرادته والتَّقَرُّب إليه، فحفظها من هذه الآفة برعاية الإخلاص.

- الثانية: ألا تكون مطابقةً للعلم: بحيث لا تكون على اتِّباع السنَّة، فحفظها من هذه الآفة بتجريد المتابعة، كما أنَّ حفظها من تلك الآفة بتجريد القصد والإرادة؛ فلذلك قال: «بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا دَوَامًا، وَرِعَايَتِهَا إِخْلَاصًا، وَتَحْسِينِهَا عِلْمًا».

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: الصَّبْرُ فِي الْبَلَاءِ، بِمُلاحَظَةِ حُسْنِ الْجَزَاءِ، وَانْتِظَارِ رُوحِ الْفَرَجِ، وَتَهْوِينِ الْبَلِيَّةِ بَعْدَ أَيَادِي الْمُنِّ، وَبِذِكْرِ سَوَالِفِ النِّعَمِ».

هذه ثلاثة أشياء تبعث المتلبس بها<sup>(٢)</sup> على الصبر في البلاء.

✍ إحداهما: ملاحظة حسن الجزاء: وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعه يخفف حمل البلاء، لشهود العوض، وهذا كما يخفُّ على كلِّ متحمِّل مشقَّةٍ عظيمةٍ حملها؛ لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة، وما أقدم أحدٌ على تحمُّل مشقَّةٍ عاجلةٍ إلا لثمرةٍ مؤجَّلةٍ، فالنفس مولعةٌ بحبِّ العاجل، وإنَّما خاصَّةُ العقل: تلُمح العواقب، ومطالعة<sup>(٣)</sup> الغايات.

وأجمع عقلاء كلِّ أمةٍ على أنَّ النعيم لا يدرك بالنعيم، وأنَّ من رافق الرَّاحة فارق الرَّاحة،

(١) في «غ» والمنار: (ذكر).

(٢) جملة: (المتلبس بها) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ»: (ومطالعات).



(وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة)<sup>(١)</sup>، فإن [على]<sup>(٢)</sup> قدر التعب تكون الراحة.  
 عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ      وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكَرِيمِ<sup>(٣)</sup> الْكَرَائِمُ  
 وَيَكْبُرُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صَغِيرُهَا<sup>(٤)</sup>      وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمّله باختيارك وغير اختيارك.  
 والثاني: انتظار روح الفرج: يعني: راحته ونسيمه ولدّته؛ فإنّ انتظاره ومطالعه وترقّبه يخفّف حمل المشقة، ولاسيما عند قوّة الرّجاء، أو القطع بالفرج؛ فإنّه يجد في حشو البلاء من رُوح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفيّ الألف، وما هو فرجٌ معجّلٌ، وبه وبغيره يفهم معنى اسمه «اللّطيف».

والثالث: تهوين البليّة: بأمرين:

- أحدهما: أن يعدّد نعم الله عليه وأياديه عنده؛ فإذا عجز عن عدّها، وأيس من حصرها هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه - بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه - كقطرة من بحر.<sup>(٥)</sup>  
 - الثاني: تذكّر سوائف النعم التي أنعم الله بها عليه؛ فهذا يتعلّق بالماضي، وتعداد أيادي المنن يتعلّق بالحال، وملاحظة حسن الخبراء وانتظار رُوح الفرج يتعلّق بالمستقبل، وأحدهما في الدُّنيا، والثاني يوم الجزاء.

ويحكى عن امرأة من العابدات: «أَنَّهَا عَثَرَتْ، فَانْقَطَعَتْ إِصْبُعُهَا، فَصَحِيحَتْ، فَقَالَ لَهَا بَعْضُ مَنْ مَعَهَا: أَنْصَحِكِينَ وَقَدْ انْقَطَعَتْ إِصْبُعُكِ؟! فَقَالَتْ: أُخَاطِبُكَ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ: حَلَاوَةٌ أَجْرَهَا أَنْسَنِي مَرَارَةَ ذِكْرُهَا. إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عَقْلَهُ لَا يَحْتَمِلُ مَا فَوْقَ هَذَا الْمَقَامِ مِنْ مَلَاخِظَةِ الْمُبْتَلِي، وَمُشَاهَدَةِ حُسْنِ اخْتِيَارِهِ لَهَا فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ، وَتَلَذُّدِهَا بِالشُّكْرِ لَهُ، وَالرِّضَا عَنْهُ، وَمُقَابَلَةِ مَا جَاءَ مِنْ قِبَلِهِ بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، كَمَا قِيلَ:

لَئِنْ سَاءَ نَبِيٌّ أَنْ نَلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ      فَقَدْ سَرَّنِي أَنْبِيَّ خَطَرْتُ بِإِلْكَا

(١) ما بين القوسين ساقط من «غ» والمنار.

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي ومثبت في «غ» والمنار.

(٣) في ديوان المتنبي المطبوع: (الكرام).

(٤) في الديوان المطبوع: (صغارها).

(٥) في «غ» والمنار: (في).

## فصل

□ قال: «وَأَضْعَفُ الصَّبْرِ: الصَّبْرُ لِلَّهِ، وَهُوَ صَبْرُ الْعَامَّةِ، وَفَوْقَهُ: الصَّبْرُ بِاللَّهِ، وَهُوَ صَبْرُ الْمُرِيدِينَ، وَفَوْقَهُ: الصَّبْرُ عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ صَبْرُ السَّالِكِينَ».

معنى كلامه: أن صبر العامة لله؛ أي: رجاء ثوابه، وخوف عقابه، وصبر المریدين بالله؛ أي: بقوة الله ومعونته؛ فهم لا يرون لأنفسهم صبراً، ولا قوة لهم<sup>(١)</sup> عليه، بل حالهم التَّحَقُّقُ بـ«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» علماً ومعرفةً وحالاً.

وفوقهما: الصبر على الله؛ أي: على أحكامه؛ إذ صاحبه يشهد المتصرف فيه، فهو يصبر على أحكامه الجارية عليه، جالبةً عليه ما جلبت من محبوبٍ ومكروهٍ، فهذه درجة صبر السالكين. وهؤلاء الثلاثة عنده من العوام؛ إذ هو في مقام الصبر، وقد ذكر أنه للعامة وأنه من أضعف منازلهم، هذا تقرير كلامه.

والصواب: أن الصبر لله فوق الصبر بالله وأعلى درجةً منه وأجل؛ فإن الصبر لله متعلقٌ بالهيئته، والصبر به متعلقٌ بربوبيته، وما تعلق بالهيئته أكمل وأعلى ممَّا تعلق بربوبيته. ولأن الصبر له عبادةٌ، والصبر به استعانةٌ، والعبادة غايةٌ، والاستعانة وسيلةٌ، والغاية مرادةٌ لنفسها، والوسيلة مرادةٌ لغيرها.

ولأن الصبر به مشتركٌ بين المؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر، فكُلٌّ من شهد الحقيقة الكونية صبر به. وأمَّا الصبر له فمنزلة الرُّسل والأنبياء والصَّديقين، وأصحاب<sup>(٢)</sup> مشهد: ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولأن الصبر له صبرٌ فيما هو حقٌّ له، محبوبٌ له مرضيٌّ له. والصبر به قد يكون في ذلك، وقد يكون فيما هو مسخوطٌ له، وقد يكون في مكروهٍ أو مباحٍ، فأين هذا من هذا؟

وأمَّا تسمية الصبر على أحكامه صبراً عليه: فلا مشاحة في العبارة بعد معرفة المعنى، فهذا هو الصبر على أقداره، وقد جعله الشيخ في الدرّجة الثالثة، وقد عرفت بما تقدّم أن الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره - كما ذكرنا في صبر يوسف عليه السلام؛ فإن الصبر فيها

(١) كلمة: (لهم) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (أصحاب).

صبر اختيار وإيثار ومحبة، والصبر على أحكامه الكونية صبر ضرورة، وبينهما من البون ما قد عرفت. وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم - أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله.

وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح، وصبر أبيه إبراهيم عليه السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف.

فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله، والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإن قلت: الصبر بالله أقوى من الصبر لله؛ فإن ما كان بالله كان بحوله وقوته، وما كان به لم يقاومه شيء، ولم يقم له شيء<sup>(١)</sup>، وهو صبر أرباب الأحوال والتأثير، والصبر لله صبر أهل العبادة والزهد؛ ولهذا هم - مع إخلاصهم وزهدهم وصبرهم لله - أضعف من الصابرين به؛ فلهذا قال: «وَأَضْعَفُ الصَّابِرِ: الصَّابِرُ لِلَّهِ».

قيل: المراتب أربعة:

- إحداها: مرتبة الكمال؛ وهي مرتبة أولي العزائم، وهي الصبر لله وبالله.

(فيكون في صبره)<sup>(٢)</sup> مبتغياً وجه الله، صابراً به، متبرئاً من حوله وقوته، فهذا أقوى المراتب

وأرفعها وأفضلها.

- الثانية: ألا يكون فيه لا هذا ولا هذا، فهو أحسن المراتب، وأردأ الخلق، وهو جدير بكلّ خذلان، وبكلّ حرمان.

- الثالثة: مرتبة<sup>(٣)</sup> من فيه صبر بالله وهو مستعين متوكّل على حوله وقوته، متبرئ من حوله هو

وقوته، ولكن صبره ليس لله؛ إذ ليس صبره فيما هو مراد الله الدني منه؛ فهذا ينال مطلوبه، ويظفر به، ولكن لا عاقبة له، وإنما كانت عاقبته شرّ العواقب.

وفي هذا المقام خفاء<sup>(٤)</sup> الكفار وأرباب الأحوال الشيطانية؛ فإن صبرهم بالله لا لله، ولا في الله،

ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة أحوالهم، وهم من جنس الملوك الظلمة؛ فإن الحال كالملك يعطاه البرّ والفاجر، والمؤمن، والكافر.

(١) كلمة: (شيء) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) جملة: (فيكون في صبره) ساقطة من نسخة «غ».

(٣) كلمة: (مرتبة) ساقطة من نسخة «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (صبر)، ولعل هذا هو الصواب، والله أعلم.

- الرَّابِع: من فيه صبرٌ لله، لكنّه ضعيف النَّصيب من الصَّبر به والتَّوَكُّل عليه، والثِّقَّة به، والاعتماد عليه؛ فهذا له عاقبةٌ حميدةٌ، ولكنّه ضعيفٌ عاجزٌ، مخذولٌ في كثيرٍ من مطالبه؛ لضعف نصيبه من: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فنصيبه من الله أقوى من نصيبه بالله، فهذا حال المؤمن الضَّعيف. وصابرٌ بالله، لا لله: حال الفاجر القويِّ.

وصابرٌ لله وبالله: حال المؤمن القويِّ، والمؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف (١).

فصابرٌ لله وبالله عزيزٌ حميدٌ، ومن ليس لله ولا بالله مذمومٌ مخذولٌ، ومن هو بالله لا الله قادرٌ مذمومٌ، ومن هو لله لا بالله عاجزٌ محمودٌ.

فهذا التَّفصيل يزول الاشتباه في هذا الباب، ويتبيَّن فيه الخطأ من الصَّواب، والله ﷻ أعلم.

## فصل

### [منزلة الرضا]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الرضا. وقد أجمع العلماء على أنه مستحبٌ، مؤكِّدٌ استحبابه، واختلفوا في وجوبه (٢)، على قولين: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يحكيهما على قولين لأصحاب أحمد، وكان يذهب إلى القول باستحبابه.

قال: «وَلَمْ يَجِئِ الْأَمْرُ بِهِ كَمَا جَاءَ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ، وَإِنَّمَا جَاءَ الثَّنَاءُ عَلَى أَصْحَابِهِ وَمَدْحُهُمْ». قال: «وَأَمَّا مَا يُرْوَى مِنَ الْأَثَرِ: «مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِي، وَلَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي - فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَايَ» (٣). فَهَذَا أَثَرُ إِسْرَائِيلِيٍّ، لَيْسَ يَصِحُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ». قلت: ولا سيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسبة، بل هو موهبة محضه، فكيف يؤمر به وليس مقدورًا عليه؟!

(١) جاء هذا المعنى في الحديث الذي رواه الإمام مسلم برقم (٢٦٦٤)، في كتاب القدر، باب: الأمر بالقوة وترك العجز من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جملة: (في وجوبه) غير موجودة في «غ».

(٣) في «غ» والمنار: سواي، وقد تقدم تخريج هذا الأثر (١/١٢٧).

وهذه مسألةٌ اختلف فيها أرباب السُّلوك على ثلاث طرق:

فالخراسانيون قالوا: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التَّوَكُّل، فعلى هذا: يمكن أن يتوصَّل إليه العبد باكتسابه.

والعراقيون قالوا: هو من جملة الأحوال، وليس كسبياً للعبد، بل هو نازلةٌ تحلُّ بالقلب كسائر الأحوال.

والفرق بين المقامات والأحوال: أنَّ المقامات عندهم من المكاسب، والأحوال مجرد المواهب.

وحكمت فرقةٌ ثالثةٌ بين الطائفتين: منهم القشيري<sup>(١)</sup> صاحب «الرَّسَالَةِ» وغيره، فقالوا: يمكن الجمع بينهما بأن يقال: بداية الرضا مكتسبةٌ للعبد، وهي من جملة المقامات، ونهايته من جملة الأحوال، وليست مكتسبةً؛ فأوله مقامٌ، ونهايته حالٌ.

واحتجَّ من جعله من جملة المقامات: بأن الله مدح أهله، وأثنى عليهم وندبهم إليه؛ (فدَلَّ ذلك على أنَّه) (٢) مقدورٌ لهم.

وقال النَّبِيُّ ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا» (٣).  
وقال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النَّدَاءَ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا؛ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ» (٤).

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما يتتهي، وقد تضمَّنَّا (٥) الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصِّدِّيقُ حَقًّا، وهي سهلةٌ بالدَّعْوَى واللِّسَانِ، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولاسيما إذا جاء ما يخالف هوى النَّفْسِ ومرادها، من ذلك تبيَّن أنَّ الرضا كان لسانه به ناطقاً؛ فهو على لسانه لا على حاله.

(١) كلمة: (القشيري) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ»: (يدل على أنه) وفي المنار: (فذلك يدل على أنه).

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٥٠).

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه (٣٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٥٢٥)، وابن ماجه في الأذان، باب: ما يقال إذا أذن المؤذن (٧٢١).

(٥) في «غ» والمنار: (تضمنها).

فالرِّضَا بِالِهَيْئَةِ: يتضمَّن الرِّضَا بمحبَّته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتَّبَتُّلُ إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحبِّ كُلِّها إليه، فعل الرَّاظِي بمحبوبه كلَّ الرِّضَا، وذلك يتضمَّن عبادته والإخلاص له.

والرِّضَا بِرَبِوَيْتِهِ: يتضمَّن الرِّضَا بتدبيره لعبده، ويتضمَّن إفراده بالتَّوَكُّلِ عليه، والاستعانة به، والثِّقَّةُ به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكلِّ ما يفعل به.

- فالأوَّل: يتضمَّن رضاه بما يؤمر به.

- والثَّاني: يتضمَّن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرِّضَا بِنَبِيِّهِ رَسُولًا: فيتضمَّن كمالاً<sup>(١)</sup> الانقياد له، والتَّسْلِيمُ المطلق إليه، بحيث يكون<sup>(٢)</sup>

أولى به من نفسه، فلا يتلقَّى الهدى إلَّا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلَّا إليه، ولا يحكِّم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتَّة، لا في شيءٍ من أسماء الرَّبِّ وصفاته وأفعاله، ولا في شيءٍ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيءٍ من أحكام ظاهره وباطنه، (لا يرضى في ذلك بحكم غيره)<sup>(٣)</sup>، ولا يرضى إلَّا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطرِّ إذا لم يجد ما يُقيته<sup>(٤)</sup> إلَّا من الميتة والدم، وأحسن أحواله: أن يكون من باب التُّراب الَّذِي إِنَّمَا يُتَمِّمُ به عند العجز عن استعمال الماء الطَّهور.

وأما الرِّضَا بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى - رضي كلَّ الرِّضَا، ولم يبق في قلبه حرجٌ من حكمه، وسلَّم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلِّده وشيخه وطائفته. وهاهنا يوحشك النَّاسُ كُلُّهم إلَّا الغرباء في العالم؛ فإيَّاك أن تستوحش من الاغتراب والتَّفَرُّد؛ فإنَّه والله عين العزَّة، والصُّحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به، والرِّضَا به ربًّا، وبمحمَّدٍ ﷺ رسولًا، وبالإسلام دينًا.

بل الصَّادق كلُّما وجد مسَّ الاغتراب، وذاق حلاوته، وتنسَّم<sup>(٥)</sup> روحه قال: اللَّهُمَّ زدني اغترابًا ووحشةً من العالم وأنسا بك، وكلُّما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التَّفَرُّد رأى الوحشة عين الأنس بالنَّاس، والذُّلَّ عين العزِّ بهم، والجهل عين الوقوف مع آرائهم وزبالة أذهانهم، والانتقطاع عين التَّقْيُّد

(١) كلمة: (كمال) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (أن يكون).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «غ».

(٤) في «غ» والمنار: (ما يغنيه).

(٥) كلمة: (تنسَّم) غير موجودة في «غ» والمنار.

برسومهم وأوضاعهم؛ فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يبع حظّه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان، وغايته: مودة بينهم في الحياة الدنيا، فإذا انقطعت الأسباب، وحقّت الحقائق، وبعث ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وبلت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحقّ من قوّة ولا ناصر - تبين له حينئذٍ مواقع الرّيح والخسران، وما الذي يخفُّ أو يرجح به الميزان، والله المستعان، وعليه التّكلان.

والتّحقيق في المسألة: أنّ الرضا كسبيّ باعتبار سببه، موهبيّ باعتبار حقيقته؛ فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه، فإذا تمكّن في أسبابه وغرس شجرته اجتنى منها ثمرة الرضا؛ فإنّ الرضا آخر التّوكل؛ فمن رسّخ قدمه في التّوكل والتّسليم والتّفويض - حصل له الرضا ولا بدّ.

ولكن لعزّته وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها - لم يوجهه الله على خلقه رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم، لكن نديهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أنّ ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجلّ من الجنان وما فيها؛ فمن رضي عن ربّه رضي الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه، فهو محفوفٌ بنوعين من رضاه عن عبده، رضا قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضا بعده هو ثمرة رضاه عنه؛ ولذلك<sup>(١)</sup> كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومُسْتَرَح العارفين، وحياة المحبّين، ونعيم العابدين، وقرّة عيون المشتاقين.

ومن أعظم أسباب حصول الرضا: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه؛ فإنّه يوصله إلى مقام الرضا ولا بدّ.

قال ليحيى بن معاذ: «مَنْ يَبْلُغُ الْعَبْدُ إِلَى مَقَامِ الرِّضَا؟ فَقَالَ: إِذَا أَقَامَ نَفْسَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصُولٍ فِيمَا يُعَامَلُ بِهِ رَبَّهُ، فَيَقُولُ: إِنَّ أَعْطَيْتَنِي قَبْلْتُ، وَإِنْ مَنَعْتَنِي رَضِيتُ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي عَبَدْتُ، وَإِنْ دَعَوْتَنِي أَجَبْتُ». وقال الجنيد: «الرِّضَا هُوَ صِحَّةُ الْعِلْمِ الْوَاصِلِ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِذَا بَاشَرَ الْقَلْبَ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ أَذَاهُ إِلَى الرِّضَا».

وليس الرضا والمحبّة كالرّجاء والخوف؛ فإنّ الرضا والمحبّة حالان من أحوال أهل الجنة، لا يفارقان المتلبّس بهما في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة، بخلاف الخوف والرّجاء؛ فإنّهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأنهم ممّا كانوا يخافونه، وإن كان رجاءهم لما ينالون من كرامته دائماً، لكنّه ليس رجاءً مشوباً بشكّ، بل هو رجاء واثقٍ بوعدٍ صادقٍ من حبيبٍ قادرٍ، فهذا لونه ورجاؤهم في الدنيا لونه.

(١) في «غ»: (وكذلك).

وقال ابن عطاء: «الرِّضَا سُكُونُ الْقَلْبِ إِلَى قَدِيمِ اخْتِيَارِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ أَنَّهُ اخْتَارَ لَهُ الْأَفْضَلَ؛ فَيَرْضَى بِهِ». قلت: وهذا رِضًا بما منه، وأما الرِّضَا به فأعلى من هذا وأفضل، ففرق بين من هو راضٍ بمحبوبه، وبين من هو راضٍ بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه، والله أعلم.

## فصل

وليس من شرط الرِّضَا ألا يُحَسَّ بالألم والمكاره، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه؛ ولهذا أشكل على بعض النَّاسِ الرِّضَا بالمكروه، وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنع على الطَّبيعة، وإنما هو الصَّبْر، وإلا فكيف يجتمع الرِّضَا والكره؟ وهما ضدَّان.

والصَّواب: أنه لا تناقض بينهما، وأنَّ وجود التَّأَلُّمِ (١) وكرهه النَّفس له لا ينافي الرِّضَا، كرضا المريض بشرب الدَّواء الكريه، ورضا الصَّائم في اليوم الشَّدِيد الحرِّ بما يناله من ألم الجوع والظَّمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

وطريق الرِّضَا طريقٌ مختصرةٌ، قريبةٌ جدًّا، موصلةٌ إلى أجلِّ غايةٍ، ولكن فيها مشقَّةٌ، ومع هذا فليست مشقَّتُها بأصعب من مشقَّةِ طريقِ المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتهَا همَّةٌ عاليةٌ، ونفسٌ زكيَّةٌ، وتوطين النَّفس على كلِّ ما يرد عليها من الله.

ويسهِّل ذلك على العبد: علمه بضعفه وعجزه، ورحمته به، وشفقته عليه، وبرِّه به، فإذا شهد هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه، ويرض به وعنه، وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلُّها إليه - فنفسه نفسٌ مطرودةٌ عن الله، بعيدةٌ عنه، ليست مؤهَّلةٌ لقربه وموالاته، أو نفسٌ ممتحنةٌ مبتلاةٌ بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرِّضَا والمحبة تسير العبد وهو مستلقٍ على فراشه، فيصبح أمام الرِّكب بمراحل.

وثمره الرِّضَا: الفرح والسُّرور بالرَّبِّ تبارك وتعالى.

ورأيت شيخ الإسلام ابن تيميَّة قدَّس الله روحه في المنام، وكأني ذكرت له شيئًا من أعمال القلب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته - لا أذكره الآن - فقال: أمَّا أنا فطريقتي (٢): الفرح بالله، والسُّرور به. أو نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حاله في الحياة؛ يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله.

(١) في «غ» والمنار: (البلاء).

(٢) في «غ» والمنار: (فطريقي).



لكن قد قال الواسطي<sup>(١)</sup>: «استعمل الرضا جهداً، ولا تدع الرضا يستعملك، فتكون محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع».

وهذا الذي أشار إليه الواسطي هو عقبة عظيمة عند القوم، ومقطع لهم؛ فإن مساكنة الأحوال، والشكون إليها، والوقوف عندها استلذاً ومحبة - حجاب بينهم وبين ربهم بحفظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم، وهي عقبة لا يحوزها إلا أولو العزائم.

وكان الواسطي كثير التحذير من هذه العقبة، شديد التنبيه عليها.

ومن كلامه: «إياكم واستحلاء الطاعات؛ فإنها سؤوم قاتلة».

فهذا معنى قوله: «استعمل الرضا جهداً، ولا تدع الرضا يستعملك»؛ أي: لا يكون عملك لأجل حصول حلاوة الرضا؛ بحيث تكون هي الباعثة لك عليه، بل اجعله آله لك وسبباً موصلاً إلى قصدك ومطلوبك، فتكون مستعملاً له، لا أنه مستعمل لك.

وهذا لا يختص بالرضا، بل هو عام في جميع الأحوال والمقامات القلبية التي يسكن إليها القلب، حتى إنه أيضاً لا يكون عاملاً على المحبة لأجل المحبة، وما فيها من اللذة والشور والنعيم به، بل يستعمل المحبة في مرضاة المحبوب، لا يقف عندها، فهذا من علل المحبة.

وقال ذو النون: «ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء».

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: «إن أبا ذر رضي الله عنه يقول: الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختار الله له».

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته».

وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ: «أسألك الرضا بعد القضاء»<sup>(٢)</sup>. فقال: «لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرضا».

وقيل: الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان.

وقيل: رفع الاختيار.

وقيل: استقبال الأحكام بالفرح.

(١) في «غ» والمنار: (الواسطي رضي الله عنه).

(٢) سيأتي تخريجه بعد ذكر ابن القيم له بطوله إن شاء الله تعالى.

وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقيل: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، وهو ترك الشُّخْط.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي الرِّضَا، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَرْضَى وَإِلَّا فَاصْبِرْ».

وقال أبو علي الدَّقَّاق: «الْإِنْسَانُ خَزَفٌ»<sup>(١)</sup>، وَلَيْسَ لِلْخَزَفِ مِنَ الْخَطَرِ مَا يُعَارِضُ فِيهِ حُكْمَ الْحَقِّ تَعَالَى».

وقال أبو عثمان الحِيرِيُّ: «مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا أَقَامَنِي اللَّهُ فِي حَالٍ فَكَّرَهُتُهُ، وَمَا نَقَلَنِي إِلَى غَيْرِهِ فَسَخَطَهُ».

والرِّضَا ثلاثة أقسام: رضا العوأم بما قسمه الله وأعطاه، ورضا الخواص بما قدره وقضاه، ورضا خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾<sup>(٢٧)</sup> أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً<sup>(٢٨)</sup> فَادْخُلِي فِي عِبَادِي<sup>(٢٩)</sup> وَادْخُلِي جَنَّتِي<sup>(٣٠)</sup>» [الفجر: ٢٧-٣٠]. لَمْ يَدْعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْمُتَسَخِّطِ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَشَرَطُ الْقَاصِدِ الدُّخُولُ فِي الرِّضَا، وَالرِّضَا اسْمٌ لِلْوُقُوفِ الصَّادِقِ، حَيْثُمَا وَقَفَ الْعَبْدُ، لَا يَلْتَمِسُ مُتَقَدِّمًا وَلَا مُتَأَخَّرًا، وَلَا يَسْتَزِيدُ مَزِيدًا، وَلَا يَسْتَبْدِلُ حَالًا، وَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ مَسَالِكِ أَهْلِ الْخُصُوصِ، وَأَشَقَّهَا عَلَى الْعَامَّةِ».

أَمَّا قَوْلُهُ: «لَمْ يَدْعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْمُتَسَخِّطِ إِلَيْهِ سَبِيلًا»؛ فَلَأَنَّهُ قَيَّدَ رَجُوعَهَا إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ بِحَالٍ، وَهُوَ وَصَفَ الرِّضَا، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهِ مَعَ سَلْبِ ذَلِكَ الْوَصْفِ عَنْهَا، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ نُوْفِّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣١)</sup> [النحل: ٣٢]، فَإِنَّمَا أَوْجِبَ لَهُمْ هَذَا السَّلَامَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَارَةَ بِقَيْدٍ، وَهُوَ وَفَاتِهِمْ طَيِّبِينَ، فَلَمْ تَبْقِ الْآيَةُ لِغَيْرِ الطَّيِّبِ سَبِيلًا

(١) الخزف: ما عمل من الطين وشوي بالناس فصار فخارًا، ولعله يقصد أن الإنسان ضعيف الخلقة مثل الخزف، فكيف يغتر بنفسه ويضعها في مواجهة أحكام الله عَزَّ وَجَلَّ؟!

إلى هذه البشارة.

والحاصل: أن الدخول في الرضا شرط في رجوع النفس إلى ربها، فلا ترجع إليه إلا إذا كانت راضية.

قلت: هذا تعلق بإشارة الآية، لا بالمراد منها؛ فإن المراد منها: رضاها بما حصل لها من كرامته، وبما نالته منها<sup>(١)</sup> عند الرجوع إليه، فحصل لها رضاها، والرضا عنها، وهذا يقال لها عند خروجها من دار الدنيا، وقدمها على الله.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «إِذَا تَوَفَّى الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكَينَ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بِتُحْفَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ: أَخْرَجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، أَخْرَجِي إِلَيَّ رَوْحَ وَرَيْحَانٍ، وَرَبِّ عَنْكَ رَاضٍ».

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوالٍ للسلف:

- أحدها: أنه عند الموت، وهو الأشهر.

قال الحسن: «إِذَا أَرَادَ<sup>(٢)</sup> قَبْضَهَا اطْمَأَنَّتْ إِلَى رَبِّهَا، وَرَضِيَتْ عَنِ اللَّهِ، فَيَرْضَى اللَّهُ عَنْهَا».

وقال آخرون: «إِنَّمَا يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ عِنْدَ الْبَعْثِ». هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة.

وقال آخرون: الكلمة الأولى - وهي: ﴿أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾<sup>(٣٨)</sup> تقال لها عند الموت،

والكلمة الثانية - وهي: ﴿فَادْخُلِي فِي عِندِي﴾<sup>(٣٩)</sup> و﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾<sup>(٤٠)</sup> تقال لها يوم القيامة.

قال أبو صالح: «﴿أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾<sup>(٣٨)</sup> هَذَا عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنَ الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ

الْقِيَامَةِ قِيلَ لَهَا: ﴿فَادْخُلِي فِي عِندِي﴾<sup>(٣٩)</sup> و﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾<sup>(٤٠)</sup>».

والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ويوم القيامة؛ فإن أول بعثها عند

مفارقتها الدنيا، وحينئذٍ فهي في الرفيق الأعلى، إن كانت مطمئنة إلى الله، وفي جنته، كما دلت عليه

الأحاديث الصحيحة؛ فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك، وحينئذٍ فيكون تمام الرجوع إلى الله ودخول

الجنة، فأول ذلك عند الموت، وتمامه ونهايته يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة.

ولكن الشيخ أخذ من إشارة الآية: أن رجوعها إلى الله من الخلق في هذا العالم إنما يحصل

برضاها، ولكن لو استدلل بالآية في مقام الطمأنينة لكان أولى؛ فإن هذا الرجوع الذي حصل لها فيه

رضاها والرضا عنها إنما نالته بالطمأنينة، وهو حظ الكسب من هذه الآية، وموضع التنبيه على موقع

الطمأنينة، وما يحصل لصاحبها، فلنرجع إلى شرح كلامه.

(١) كلمة: (منها) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (أراد الله).

قوله: «الرِّضَا هُوَ الْوُقُوفُ الصَّادِقُ». يريد به الوقوف مع مراد الرَّبِّ تبارك وتعالى الدِّيْنِي حقيقَةً، من غير تردُّدٍ في ذلك ولا معارضةٍ، وهذا مطلوب القوم السَّابِقِينَ، وهو الوقوف الصَّادِق مع محابِّ الرَّبِّ تعالى، من غير أن يشوب ذلك تردُّدٌ، ولا يزاخمه مرادٌ.

قوله: «حَيْثُمَا وَقَفَ الْعَبْدُ». يصحُّ أن يكون «العبد»<sup>(١)</sup> فاعلاً؛ أي: حيثما وقف بإذن ربِّه لا يلتبس تقدُّماً ولا تأخُّراً، ويصحُّ أن يكون مفعولاً، وهو أظهر؛ أي: حيثما وقف الله العبد - فإنَّ وقف يستعمل لازماً ومتعدِّياً - أي: حيثما وقفه ربُّه، لا يطلب تقدُّماً ولا تأخُّراً، وهذا إنَّما يكون فيما يقفه<sup>(٢)</sup> فيه من مراده الكونيِّ الَّذِي لا يتعلَّق بالأمر والنَّهي، وأمَّا إذا وقفه في مرادٍ دينيِّ، فكماله بطلب<sup>(٣)</sup> التَّقَدُّم فيه دائماً؛ فإنَّه إن لم تكن همَّته التَّقَدُّم إلى الله في كلِّ لحظةٍ رجع من حيث لا يدري؛ فلا وقف<sup>(٤)</sup> في الطَّرِيقِ ألبتَّة، ولكن إذا وقف في مقام - من الغنى، والفقر، والرَّاحة والتَّعب، والعافية، والسَّقم، والاستيطان، ومفارقة الأوطان - يقف حيث وقفه، لا يطلب غير تلك الحالة الَّتِي أقامه الله<sup>(٥)</sup> فيها؛ وهذا لتصحیح رضاه باختيار الله له، والفناء به عن اختياره لنفسه.

وكذلك قوله: «لَا يَسْتَزِيدُ مَزِيدًا، لَا يَسْتَبْدِلُ حَالًا».

هذا المعنى الَّذِي ذكره الشَّيْخُ فردُّ من أفراد الرِّضَا، وهو الرِّضَا بالأقسام والأحكام الكونيَّة الَّتِي لم يؤمر بمدافعتها.

وقوله: «وَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ مَسَالِكِ أَهْلِ الْخُصُوصِ».

يعني: أنَّ سلوك أهل الخصوص هو بالخروج عن النَّفس، والخروج عن الإرادة هو مبدأ الخروج عن النَّفس؛ فإذا الرِّضَا بهذا الاعتبار من أوائل مسالك الخاصَّة.

وهذا على أصله في كون الفناء غايةً مطلوبةً فوق الرِّضَا.

والصَّواب: أنَّ الرِّضَا أجلُّ منه وأعلى، وهو غايةٌ لا بدايةً.

نعم؛ فوقه مقام الشُّكر؛ فهو منزلةٌ بينه وبين منزلة<sup>(٦)</sup> الصَّبْرِ.

وقوله: «وَأَشَقَّهَا عَلَى الْعَامَّةِ»؛ وذلك لمشقَّة الخروج عن الحظوظ على العامَّة، والرِّضَا أوَّل ما

فيه الخروج عن الحظوظ، والله ﷻ أعلم.

(١) كلمة: (العبد) غير موجودة في «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (يقضيه).

(٣) في «غ» والمنار: (أن يطلب).

(٤) في «غ»: (ولا وَقَفَ حَافٍ).

(٥) لفظ الجلالة غير موجود في «غ» والمنار.

(٦) كلمة: (منزلة) غير موجودة في «غ» والمنار.

## فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: رِضَا الْعَامَّةِ، وَهُوَ الرِّضَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَتَسَخُّطُ عِبَادَةِ مَا دُونَهُ. وَهَذَا قُطْبُ رَحَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ يُطَهِّرُ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ».

الرضا بالله ربًّا: ألا يتخذ ربًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدييره، وينزل به حوائجه؛ قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سَيِّدًا وَإِلَهًا».

يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو ربُّ كلِّ شيءٍ؟!

وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَحْتَدُّ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، يعني: معبودًا

وانصرا ومعينًا وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحبَّ والطاعة.

وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]؛

أي: أغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيّد الحكام،

فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً، مبيّنًا كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حقَّ التأمل رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا،

وبمحمدٍ صلى الله عليه وآله رسولًا، ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله <sup>(١)</sup> ربًّا،

ولا يبغي ربًّا سواه، لكنّه لا يرضى به وحده وليًّا وانصرا <sup>(٢)</sup>، بل يوالي من دونه أولياء ظنًّا منه أنّهم

يقربونه إلى الله، وأنّ موالاتهم كموالاة خواصّ الملك، وهذا عين الشُّرك، بل التَّوحيد: ألا يتخذ من

دونه أولياء، والقرآن مملوءٌ من وصف المشركين بأنّهم اتَّخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه؛ فإنّ هذا من تمام الإيمان، ومن تمام

موالاته؛ فموالاة أوليائه لونٌ واتّخاذ الوليِّ من دونه لونٌ، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التَّوحيد

من أساسه؛ فإنّ هذه المسألة أصل التَّوحيد وأساسه.

(١) في «غ» والمنار: (به).

(٢) كلمة: (وانصرا) غير موجودة في «غ» والمنار.

وكثيرٌ من النَّاسِ يبتغي غيره حكماً يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التَّوحيد: ألاَّ يتَّخذ سواه ربًّا، ولا إلهاً، ولا غيره حكماً. وتفسير الرِّضا بالله ربًّا: أن يسخط عبادة ما دونه، (هذا هو الرِّضا بالله إلهاً، وهو من تمام الرِّضا بالله ربًّا، فمن أعطي الرِّضا به ربًّا حقُّه سخط عبادة ما دونه) (١) قطعاً؛ لأنَّ الرِّضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أنَّ العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

وقوله: «وَهُوَ قُطْبُ رَحَى الْإِسْلَامِ» يعني: أن مدار رحى الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة ربِّه وحده (٢)، وأن (٣) يسخط عبادة غيره، وقد تقدَّم أنَّ العبادة هي الحبُّ مع الدُّلِّ، فكلُّ من ذللت له وأطعته وأحبيته دون الله (٤)، فأنت عابدٌ (٥) له.

وقوله: «وَهُوَ يُطَهِّرُ مِنَ الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ». يعني: أن الشُّرك نوعان: أكبر، وأصغر، فهذا الرِّضا يطهِّر صاحبه من الأكبر، وأمَّا الأصغر: فيطهِّر (٦) منه نزوله منزلة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

## فصل

□ قال: «وَهُوَ يَصِحُّ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ﷻ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْعَبْدِ، وَأَوْلَى الْأَشْيَاءِ بِالْتَّعْظِيمِ، وَأَحَقَّ الْأَشْيَاءِ بِالطَّاعَةِ».

يعني: أن هذا النوع من الرِّضا إنَّما يصحُّ بثلاثة أشياء أيضاً:

- أحدها: أن يكون الله ﷻ أحبَّ شيءٍ إلى العبد، وهذه تعرف بثلاثة أشياء أيضاً:
- أحدها: أن تسبق محبته إلى القلب كلِّ محبةٍ؛ فتتقدَّم محبته المحابَّ كلِّها.
- الثاني: أن تقهر محبته كلِّ محبةٍ؛ فتكون محبته إلى القلب سابقةً قاهرةً، ومحبته غيره متخلِّفةً مقهورةً مغلوبةً منطويةً في محبته.

(١) ما بين القوسين ساقط من «غ»، وذكر صاحب المنار هذا السقط في هامش نسخته، لكنه أثبتته من النسخة البغدادية.

(٢) في «غ» والمنار: (يرضى بعبادته وحده).

(٣) كلمة: (أن) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ»: (من دون الله).

(٥) في «غ» والمنار: (عبد).

(٦) في «غ» والمنار: (فيطهره).

- الثالث: أن تكون محبة غيره تابعة لمحبتته؛ فيكون هو المحبوب بالذات والقصد الأول، وغيره محبوباً تبعاً لحبه، كما يطاع تبعاً لطاعته، فهو في الحقيقة المطاع المحبوب. وهذه الثلاثة في كونه أولى الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضاً. فالحاصل: أن يكون الله<sup>(١)</sup> وحده المحبوب المعظم المطاع، فمن لم يحبه ولم يطعه، ولم يعظمه - فهو متكبر عليه، ومتى أحب معه سواه، وعظم معه سواه، وأطاع معه سواه - فهو مشرك، ومتى أفرد وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبدٌ موحدٌ، والله تعالى أعلم.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الرِّضَا عَنِ اللَّهِ، وَهَذَا<sup>(٢)</sup> نَطَقَتْ آيَاتُ التَّنْزِيلِ، وَهُوَ الرِّضَا عَنْهُ فِي كُلِّ مَا قَضَى وَقَدَّرَ، وَهَذَا مِنْ أَوَائِلِ مَسَالِكِ أَهْلِ الْخُصُوصِ».

الشيخ جعل هذه الدرجة أعلى من الدرجة التي قبلها. ووجه قوله: أنه لا يدخل في الإسلام إلا بالدرجة الأولى، فإذا استقرَّ قدمه عليها دخل في مقام الإسلام. وأما هذه الدرجة: فمن معاملات القلوب، وهي لأهل الخصوص، وهي الرضا عنه في أحكامه وأفضيته.

وإنما كان من أول مسالك أهل الخصوص لأنه مقدمة للخروج عن النفس، والذي هو طريق أهل الخصوص، فمقدمته بداية سلوكهم؛ لأنه يتضمن خروج العبد عن حظوظه، ووقوفه مع مراد الله تعالى، لا مع مراد نفسه.

هذا تقرير كلامه، وفي جعله هذه الدرجة أعلى من التي قبلها نظراً لا يخفى، وهو نظير جعله الصبر بالله أعلى من الصبر لله.

والذي ينبغي: أن تكون الدرجة الأولى أعلى شأنًا وأرفع قدرًا؛ فإنها مختصة، وهذه الدرجة مشتركة؛ فإن الرضا بالقضاء يصح من المؤمن والكافر، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره، فأين هذا من الرضا به ربًا وإلهاً ومعبودًا؟

وأيضًا: فالرضا به ربًا فرض، بل هو من أكد الفروض باتفاق الأمة، فمن لم يرض به ربًا لم يصح له إسلامٌ ولا عملٌ ولا حالٌ.

(١) لفظ الجلالة غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (وهذا الرضا).

وأما الرضا بقضائه: فأكثر النَّاسِ على أَنَّهُ مستحبٌّ، وليس بواجبٍ، وقيل: بل هو واجبٌ، وهما قولان في مذهب أحمد.

فالفرق بين الدرَجَتين فرق ما بين الفرض والنَّدب.

وفي الحديث الإلهيِّ الصَّحيح<sup>(١)</sup>: «يَقُولُ اللهُ ﷻ: مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>. فدلَّ على أَنَّ التَّقَرُّبَ إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلى من التَّقَرُّبِ إليه بالتَّوَالفِ.

وأيضًا: فَإِنَّ الرُّضَا به رَبًّا يَتَضَمَّنُ الرُّضَا عنه، ويستلزمه؛ فَإِنَّ الرُّضَا برَبِّوَيْتِهِ هو رضا العبد بما يأمره به، وينهاه عنه، ويقسمه له ويقدره عليه، ويعطيه إيَّاه، ويمنعه منه، فمتى لم يرض بذلك كلُّه لم يكن قد رضي به رَبًّا من جميع الوجوه، وإن كان راضيًّا به رَبًّا من بعضها، فالرُّضَا به رَبًّا من كلِّ وجهٍ يستلزم الرُّضَا عنه، ويتضمَّنُه بلا ريبٍ.

وأيضًا: فالرُّضَا به رَبًّا متعلِّقٌ بذاته، وصفاته، وأسمائه، وربوبيَّته العامَّة والخاصَّة، فهو الرُّضَا به خالقًا ومدبِّرًا، وأمْرًا وناهيًّا، وملكًا، ومعطيًّا ومانعًا، وحكمًا، ووكيلًا ووليًّا، وناصرًا ومعينًا، وكافيًّا وحسيًّا ورفيًّا، ومبتليًّا، ومعافيًّا، وقابضًا، وباسطًا، إلى غير ذلك من صفات ربوبيَّته.

وأما الرُّضَا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيه إيَّاه؛ ولهذا لم يجرى إلَّا في الثَّوَاب والجزاء، كقوله تعالى: ﴿يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾<sup>(٤)</sup> [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهذا برضاها عنه<sup>(٥)</sup> لما حصل لها من كرامته، كقوله تعالى: ﴿خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾<sup>(٦)</sup> [البينة: ٨].

والرُّضَا به: أصل الرُّضَا عنه.

والرُّضَا عنه: ثمرة الرُّضَا به.

وسرُّ المسألة: أَنَّ الرُّضَا به متعلِّقٌ بأسمائه وصفاته، والرُّضَا عنه متعلِّقٌ بثوابه وجزائه.

وأيضًا: فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ علَّقَ ذوقَ طعمِ الإيمانِ بمن رضي بالله رَبًّا، ولم يعلِّقه بمن رضي عنه، كما قال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»<sup>(٧)</sup>. فجعل الرُّضَا به قرين الرُّضَا بدينه ونبيِّه، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلَّا بها وعليها<sup>(٨)</sup>.

(١) في «غ»: (في الحديث الصحيح الإلهي).

(٢) تقدم تخريجه (٣٦/٢).

(٣) في «غ» والمنار: (برضاها بالله).

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٥٠، ص ٢٤٩).

(٥) كلمة: (وعليها) غير موجودة في «غ» والمنار.



وأيضًا: فالرُّضا به ربًّا يتضمَّن توحيدَه وعبادته، والإنابة إليه، والتَّوَكُّلُ عليه، وخوفه ورجاءه ومحَبَّته، والصَّبْرُ له وبه، والشُّكْرُ على نعمه يتضمَّن (١) رؤية كلِّ ما منه نعمة وإحسانًا، وإن ساء عبده؛ فالرُّضا به يتضمَّن شهادة أن لا إله إلاَّ الله، والرُّضا بمحمَّدٍ رسولًا يتضمَّن شهادة أن محمَّدًا رسول الله، والرُّضا بالإسلام دينًا يتضمَّن التزام عبوديَّته، وطاعته وطاعة رسوله؛ فجمعت هذه الثلاثة الدِّين كلاً.

وأيضًا: فالرُّضا به ربًّا يتضمَّن اتِّخاذه معبودًا دون ما سواه، واتِّخاذه وليًّا ومعبودًا، وإبطال عبادة (٢) كلِّ ما سواه؛ وقد قال تعالى لرسوله: ﴿أَغْيِرَ اللَّهُ آخِذِي حَكْمًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال: ﴿أَغْيِرَ اللَّهُ آخِذِي وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١١٤]، فهذا هو عين الرُّضا به ربًّا.

وأيضًا: فإنَّه جعل حقيقة الرُّضا به ربًّا (٣) أن يسخط عبادة ما دونه، فمتى سخط العبد عبادة ما سوى الله من الآلهة الباطلة، حبًّا وخوفًا، ورجاءً وتعظيمًا، وإجلالًا؛ فقد تحقَّق بالرُّضا به ربًّا، الَّذِي هو قطب رحي الإسلام.

وإنَّما كان قطب رحي الدِّين؛ لأنَّ جميع العقائد والأعمال والأحوال، إنَّما تنبني على توحيد الله ﷻ في العبادة، وسخط عبادة ما سواه، فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحي تدور عليه، ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرُّحي، ودارت على ذلك القطب، فيخرج حينئذٍ من دائرة الشُّرك إلى دائرة الإسلام، فتدور (٤) رحي إسلامه وإيمانه على قطبها الثَّابت اللَّازم.

وأيضًا: فإنَّه جعل حصول هذه الدَّرَجَة من الرُّضا موقوفًا على كون المرضيِّ به ربًّا سبحانه أحبَّ إلى العبد من كلِّ شيءٍ، وأولى الأشياء بالتَّعظيم، وأحقَّ الأشياء بالطَّاعة، ومعلومٌ أنَّ هذا يجمع قواعد العبوديَّة، وينتظم فروعها وشعبها.

ولمَّا كانت المحبَّة التَّامة ميل القلب بكليَّته إلى المحبوب، كان ذلك الميل حاملاً على طاعته وتعظيمه، وكلِّما كان الميل أقوى كانت الطَّاعة أتمَّ، والتَّعظيم أوفر، وهذا الميل يلازم الإيمان، بل هو روح الإيمان ولبُّه؛ فأَيُّ شيءٍ يكون أعلى من أمرٍ يتضمَّن أن يكون الله سبحانه أحبَّ الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتَّعظيم، وأحقَّ الأشياء بالطَّاعة؟

وهذا يجد العبد حلاوة الإيمان، كما في الصَّحيح عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ

(١) في «غ» والمنار: (بل ويتضمن).

(٢) كلمة: (عبادة) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) كلمة: (ربًّا) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (فيدور).

حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، مَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ» (١).

فعلق ذوق الإيمان بالرضا بالله ربًّا، وعلق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه، ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله.

ولمَّا كان هذا الحب التَّامُّ، والإخلاص -الذي هو ثمرته- أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه كانت ثمرته أعلى، وهو وجد حلاوة الإيمان، وثمره الرضا: ذوق طعم الإيمان، فهذا وجد حلاوة، وذلك (٢) ذوق طعم، والله المستعان.

وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده ربًّا، والبراءة من عبودية ما سواه، وميل القلب بكلية إليه، وانجذاب قوى المحبِّ كلها إليه، ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به، فمن رضي بالله ربًّا رضي به الله له عبدًا، ومن رضي عنه في عطاءه ومنعه وبلائه وعافيته لم ينل بذلك درجة رضا الربِّ عنه إن لم يرض به ربًّا، وبنبيِّه رسولًا، وبالإسلام دينًا، فإنَّ العبد قد يرضى (عن الله ربه) (٣) فيما أعطاه وفيما منعه، ولكن لا يرضى به وحده معبودًا وإلهًا؛ ولهذا إنَّما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضي به ربًّا، كما قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ كُلَّ يَوْمٍ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا. إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيَّ اللَّهُ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٤).

## فصل

إذا عرف هذا فلنرجع إلى شرح كلامه.

قال: «وَبِهَذَا الرِّضَا نَطَقَ التَّنْزِيلُ». يشير إلى قوله ﷻ: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ نَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى في آخر سورة المجادلة: ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(١) تقدم تخريجه (١٥٠).

(٢) كلمة: (وذلك) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (عنه).

(٤) رواه أبو داود في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٢)، وابن ماجه في الدعاء، باب: ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى (٣٨٧٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» برقم (١٠٧٨).

وفي آخر سورة «لَمْ يَكُنْ»: ﴿خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

فتمننت هذه الآيات: جزاءهم على صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه، وعدم ولايتهم، بأن رضي الله عنهم فأرضاهم، فرضوا عنه، وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به ربًا، وبمحمدٍ نبيا، وبالإسلام دينًا.

قوله: «وَهُوَ الرِّضَا عَنْهُ فِي كُلِّ مَا قَضَى».

هاهنا ثلاثة أمور: الرضاء بالله<sup>(١)</sup>، والرضاء عن الله، والرضاء بقضاء الله.

فالرضاء به فرض، والرضاء عنه - وإن كان من أجل الأمور وأشرف أنواع العبودية - فلم يطالب به العموم؛ لعجزهم ومشقته عليهم، وأوجبه طائفة كما أوجبوا الرضاء به، واحتجوا بحجج:

- منها: أنه إذا لم يكن راضيًا عن ربه فهو ساخطٌ عليه؛ إذ لا واسطة بين الرضاء والسخط، وسخط العبد على ربه منافٍ لرضاه به ربًا.

- قالوا: وأيضا فعدم رضاه عنه يستلزم سوء ظنه به، ومنازعته له في اختياره لعبده، وأنَّ الربَّ تبارك وتعالى يختار شيئا ويرضاه فلا يختاره العبد ولا يرضاه، وهذا منافٍ للعبودية.

- قالوا: وفي بعض الآثار الإلهية: «مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَيَّ بِلَايِي فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَايَ»<sup>(٢)</sup>. ولا حجة في شيء من ذلك.

أما قوله: إنه لا يتخلص من السخط على ربه إلا بالرضاء عنه؛ إذ لا واسطة بين الرضاء والسخط. فكلامٌ مدخولٌ؛ لأنَّ السخط بالمقضي لا يستلزم السخط على من قضاه، كما أن كراهة المقضي وبغضه والثفرة عنه لا تستلزم<sup>(٣)</sup> تعلق ذلك بالذي قضاه وقدره؛ فالمقضي قد يسخطه العبد وهو راضٍ عمَّن قضاه وقدره، بل قد<sup>(٤)</sup> يجتمع تسخطه والرضاء بنفس القضاء، كما سيأتي إن شاء الله.

وأما قولكم: «إِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ سُوءَ ظَنِّ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ وَمُنَازَعَتَهُ لَهُ فِي اخْتِيَارِهِ». فليس كذلك، بل هو حسن الظنِّ بربه في الحاليتين؛ فإنه<sup>(٥)</sup> إنما يسخط المقدور وينازعه بمقدورٍ آخر، كما ينازع القدر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه، فينازع قدر الله بقدر الله، بالله الله، كما يستعيد برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، ويستعيد به منه.

(١) في «غ» والمنار: (الرضا بالله ربًا).

(٢) تقدم تخريجه (١/١٢٧).

(٣) في «غ» والمنار: (لا يستلزم).

(٤) كلمة: (قد) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٥) في «غ» والمنار: (وإنه).

فأما كونه يختار لنفسه خلاف ما يختاره الرب؛ فهذا موضع تفصيل لا يسحب عليه ذيل النفي والإثبات، فاختيار الربّ تعالى لعبده نوعان:

- أحدهما: اختيارٌ دينيٌّ شرعيٌّ؛ فالواجب على العبد ألا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيّده؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فاختيار العبد خلاف ذلك منافٍ لإيمانه وتسليمه، ورضاه بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ رسولًا.

- النوع الثاني: اختيارٌ كونيٌّ قدريٌّ، لا يسخطه الربُّ، كالمصائب التي يتبلي الله بها عبده، فهذا لا يضرُّه فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها، ويكشفها، وليس في ذلك منازعةٌ للربوبية، وإن كان فيه منازعةٌ للقدر بالقدر.

فهذا يكون تارةً واجبًا، وتارةً يكون مستحبًّا، وتارةً يكون مباحًا مستوي الطرفين، وتارةً يكون مكروهًا، وتارةً يكون حرامًا.

وأما القدر الذي لا يحبُّه ولا يرضاه - مثل قدر المعائب والذنوب - فالعبد مأمورٌ بسخطها، ومنهيٌّ عن الرضا بها.

وهذا هو التفصيل الواجب في الرضا بالقضاء.

وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابًا عظيمًا، ونجا منه أصحاب الفرق والتفصيل. فإن لفظ «الرضا بالقضاء» لفظٌ محمودٌ مأمورٌ به، وهو من مقامات الصديقين، فصارت له حرمةٌ أوجبت لطائفته قبوله من غير تفصيل، وظنُّوا أنّ كلّ ما كان مخلوقًا للربّ تعالى فهو مقضيٌّ مرضيٌّ له، ينبغي له الرضا به، ثمّ انقسموا على فرقتين:

فقال فرقةٌ: إذا كان القضاء والرضا متلازمين، فمعلومٌ أنّا مأمورون ببغض المعاصي، والكفر والظلم، فلا تكون مقضيةً مقدّرةً.

وفرقةٌ قالت: قد دلّ العقل والشّرع على أنّها واقعةٌ بقضاء الله وقدره، فنحن نرضى بها. والطائفتان منحرفتان<sup>(١)</sup>، جائرتان عن قصد السبيل، فأولئك أخرجوها عن قضاء الربّ وقدره، وهؤلاء رضوا بها ولم يسخطوها، هؤلاء خالفوا الربّ تعالى في رضاه وسخطه، وخرجوا عن شرعه ودينه، وأولئك أنكروا تعلق قضائه وقدره بها.

واختلفت طرق أهل الإثبات للقدر والشّرع في جواب الطائفتين.

(١) كلمة: (منحرفتان) غير موجودة في «غ».

فقال طائفة: لم يقدّم دليل من الكتاب ولا السنّة ولا الإجماع على جواز الرضا بكلّ قضاء، فضلاً عن وجوبه واستحبابه، فأين أمر الله عباده أو رسوله أن يرضوا بكلّ ما قضاه الله وقدره؟ وهذه طريقة كثير من أصحابنا وغيرهم، وبه أجاب القاضي أبو يعلى وابن الباقلاني.

قال: «فإن قيل: أفترضون بقضاء الله وقدره؟»

قيل له: نرضى بقضاء الله الذي هو خلقه، الذي أمرنا أن نرضى به، ولا نرضى من ذلك ما نهانا عنه أن نرضى به، ولا نتقدّم بين يدي الله تعالى، ولا نعترض على حكمه.

وقالت طائفة أخرى: يطلق الرضا بالقضاء في الجملة، دون تفاصيل المقضيّ المقدّر، فنقول: نرضى بقضاء الله جملةً ولا نسخطه، ولا نطلق الرضا على كلّ واحد من تفاصيل المقضيّ، كما يقول المسلمون: كلّ شيء يبيد ويهلك ولا يقولون: حجج الله تبيد وتهلك، ويقولون: الله ربّ كلّ شيء، ولا يضيفون ربوبيته إلى الأعيان المستخبثة المستقدرة بخصوصها.

وقالت طائفة أخرى: نرضى بها من جهة إضافتها إلى الرّبّ خلقاً ومشيةً، ونسخطها من جهة إضافتها إلى العبد كسباً له وقياماً به.

وقالت طائفة أخرى: بل نرضى بالقضاء ونسخط المقضيّ؛ فالرضا والسخط لم يتعلّقا بشيء واحد.

وهذه الأجوبة لا يتمشى شيء منها على أصول من يجعل محبة الرّبّ تعالى ورضاه ومشيته واحدة، كما هو أحد قولي الأشعريّ، وأكثر أتباعه.

فإن هؤلاء يقولون: إنّ كلّ ما شاء وقضاه فقد أحبه ورضيه، وإذا كان الكون محبوباً له مرضياً، فنحن نحب ما أحبه، ونرضى ما رضيه.

وقولكم: إنّ الرضا بالقضاء يطلق جملةً ولا يطلق تفصيلاً؛ فذلك لا يمنع دخوله في جملة المرضي به، فيعود الإشكال.

وقولكم: نرضى بها من جهة كونها خلقاً لله، ونسخطها من جهة كونها كسباً للعبد؛ فكسب العبد إن كان أمراً وجودياً فهو خلق لله، فنرضى به، وإن كان أمراً عدمياً فلا حقيقة له نرضى ولا نسخط.

وأما قولكم: نرضى بالقضاء دون المقضيّ؛ فهذا إنّما يصحّ على قول من يجعل القضاء غير المقضيّ، والفعل غير المفعول، وأمّا من لم يفرّق بينهما فكيف يصحّ هذا على أصله؟!

وقد أورد القاضي أبو بكر الباقلاني<sup>(١)</sup> على نفسه هذا السؤال، فقال:

«فإن قيل: القضاء عندكم هو المقضيّ، أو غيره؟»

(١) كلمة: (الباقلاني) غير موجودة في «غ» والمنار.

قِيلَ: هُوَ عَلَى صَرِيحَيْنِ:

فَالْقَضَاءُ بِمَعْنَى الْخَلْقِ هُوَ الْمَقْضِيُّ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ هُوَ الْمَخْلُوقُ.  
وَالْقَضَاءُ الَّذِي هُوَ الْإِلْزَامُ وَالْإِعْلَامُ وَالْكِتَابَةُ غَيْرُ الْمَقْضِيِّ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ غَيْرَ الْمَأْمُورِ، وَالْخَبَرَ غَيْرَ الْمُخْبَرِ عَنْهُ».

وهذا الجواب لا يخلّصه أيضًا؛ لأنّ الكلام ليس في الإلزام والإعلام والكتابة، وإنّما الكلام في نفس الفعل المقدور، المعلم به المكتوب: هل مقدّره وكتابه سبحانه راضٍ به أم لا؟ وهل العبد مأمورٌ بالرضا به نفسه أم لا؟ هذا هو حرف المسألة.

وقد أنكر الله ﷻ على مَنْ جعل مشيئته وقضاه مستلزما لمحَبّته ورضاه، فكيف بمن جعل ذلك شيئًا واحدًا؟ قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسْكَافٍ هَلَّ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُمْ لِنَا أَنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَحْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠].  
فهم استدلّوا على محَبّته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك، وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه، وفيه أبين الردّ لقول من جعل مشيئته [غير<sup>(١)</sup>] محَبّته ورضاه، فالإشكال إنّما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبّة، ثمّ زادوه بجعلهم الفعل نفس المفعول، والقضاء عين المقضيّ؛ فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالى راضيًا محببًا لذلك، والتزام رضاهم به.

والَّذِي يكشف هذه الغمّة، ويبيّن من هذه العماية، وينجّي من هذه الورطة - إنّما هو التّفريق بين ما فَرَّقَ اللهُ بينه، وهو المشيئة والمحَبّة؛ فإنّهما ليسا واحدًا، ولا هما متلازمين، بل قد يشاء ما لا يحبّه، ويحبُّ ما لا يشاء كونه.

- فالأوّل: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده، ومشيئته العامّة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه.

- والثّاني: كمحبّته إيمان الكفّار، وطاعات الفجّار، وعدل الظّالمين، وتوبة الفاسقين، ولو شاء ذلك لوجد كلّهُ وكان جميعه؛ فإنّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

فإذا تقرّر هذا الأصل، وأنّ الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضيّ، وأنّ الله سبحانه لم يأمر

(١) هكذا في جميع النسخ، ولعل الصواب (عين) لمناسبتها للسياق.

عباده بالرّضا بكلّ ما خلقه وشاءه - زالت الشُّبهات، وانحلت الإشكالات، والله الحمد، ولم يبق بين شرع الرّبّ وقدره تناقض، بحيث يظنُّ إبطال أحدهما للآخر، بل القدر ينصر الشّرع، والشّرع يصدّق القدر، وكلّ منهما يحقّق الآخر.

إذا عرف هذا؛ فالرّضا بالقضاء الدّينيّ الشّرعّي واجبٌ، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج، ولا منازعةٍ ولا معارضةٍ، ولا اعتراضٍ؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم: أنّهم لا يؤمنون حتّى يحكّموا رسوله، وحتّى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتّى يسلموا حكمه تسليمًا، وهذا حقيقة الرّضا بحكمه.

فالتّحكيم: في مقام الإسلام.

(وانتفاء الحرج)<sup>(١)</sup>: في مقام الإيمان.

والتّسليم: في مقام الإحسان.

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيّ بروح الوحي، وتمهّدت طبيعته، وانقلبت النّفس الأمارة مطمئنّة راضيةً وادعةً، وتلقّى أحكام الرّبّ تعالى بصدورٍ واسعٍ منشرحٍ مسلمٍ - فقد رضي كلّ الرّضا بهذا القضاء الدّينيّ المحبوب لله ولرسوله.

والرّضا بالقضاء الكونيّ القدريّ الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه - من الصّحة، والغنى، والعافية، واللذّة - أمرٌ لازمٌ بمقتضى الطّبيعة؛ لأنّه ملائمٌ للعبد، محبوبٌ له، فليس في الرّضا به عبوديّةٌ، بل العبوديّة في مقابلته بالشّكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النّعمة مواضعها التي يحبُّ الله أن توضع فيها، وألّا يعصى المنعم بها، وأن<sup>(٢)</sup> يرى التّقصير في جميع ذلك.

والرّضا بالقضاء الكونيّ القدريّ الجاري على خلاف مراد العبد ومحبّته - ممّا لا يلائمه، ولا يدخل تحت اختياره - مستحبٌ، وهو من مقامات أهل الإيمان، وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحرّ والبرد، والآلام ونحو ذلك.

والرّضا بالقدر الجاري عليه باختياره ممّا يكرهه الله ويسخطه، وينهى عنه، كأنواع الظلم والفسوق والعصيان - حرامٌ يعاقب عليه، وهو مخالفةٌ لرّبّه تعالى؛ فإنّ الله لا يرضى بذلك ولا يحبّه،

(١) في نسخة «غ»: (والرضا).

(٢) كلمة: (أن) غير موجودة في «غ» والمنار.

فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟! فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء. فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكرهيته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت عنده (١) طرقهم وأقوالهم. فاعلم أن المراد نوعان: مراداً لنفسه، ومراداً لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير؛ فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد. والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة مقصودة ومرادة؛ فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراداً له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهية، إذا علم تناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟ فهو ﷺ يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سبباً إلى ما هو أحب إليه من فوته.

مثال ذلك: أنه سبحانه خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة، فهو مبغوض للرب ﷻ، مسخوط له، لعنه الله ومقته، وغضب عليه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، وجودها أحب إليه من عدمها:

- منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات؛ فخلق هذه الذات التي هي أحبب الذوات وشرها، وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل (٢)، التي هي أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك الله خالق هذا وهذا، كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقيبح، والأرض والسما، والذكر والأنثى، والماء والنار، والخير والشر.

(١) في «غ» والمنار: (عنه).

(٢) في «غ» والمنار: (جبريل ﷺ).



وذلك من أدلِّ الدلائل على كمال قدرته وعزَّته، وسلطانه وملكوته؛ فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعضٍ، وسلَّط بعضها على بعضٍ، وجعلها محالَّ تصرُّفه وتدييره وحكمته؛ فخلوُّ الوجود عن بعضها بالكليَّة تعطيُّلٌ لحكمته، وكمال تصرُّفه وتدييره مملكته.

- ومنها: ظهور آثار أسمائه القهريَّة، مثل «القَهَّارِ، وَالْمُنْتَقِمِ، وَالْعَدْلِ، وَالضَّارِّ، وَشَدِيدِ الْعِقَابِ، وَسَرِيعِ الْحِسَابِ، وَذِي الْبَطْشِ الشَّدِيدِ، وَالْخَافِضِ، وَالْمُدَلِّ»؛ فإنَّ هذه الأسماء والأفعال كمالٌ، فلا بدُّ من وجود متعلِّقها، ولو كان الخلق كلُّهم على طبيعة الملك لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

- ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمَّنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقِّه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطَّلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النَّبِيُّ ﷺ إلى هذا بقوله: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»<sup>(١)</sup>.

- ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة؛ فإنه سبحانه «الْحَكِيمُ، الْخَبِيرُ» الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وينزلها منازلها اللَّائِقَةَ بها، فلا يَضَعُ الشَّيْءَ فِي غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته الَّتِي يقتضيتها كمال علمه وحكمته وخبرته؛ فلا يَضَعُ الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثَّوَابَ موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثَّوَابِ، ولا الخفض موضع الرَّفْعِ، ولا الرَّفْعَ موضع الخفض، ولا العزَّ مكان الدُّلِّ، ولا الدُّلَّ مكان العزِّ، ولا يأمر بما ينبغي النَّهْيَ عنه، ولا ينهى عمَّا ينبغي الأمر به.

فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأمله، وأحكم من أن يمنعها أهلها، وأن يضعها عند غير أهلها. فلو قدَّر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطَّلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم<sup>(٢)</sup> والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شرٌّ من حصول تلك الأسباب.

فلو عطَّلت تلك الأسباب -لما فيها من الشَّرِّ- لتعطَّلت الخير الَّذِي هو أعظم من الشَّرِّ الَّذِي فِي تلك الأسباب، وهذا كالشَّمْسِ والمطر والرِّيح الَّتِي فِيهَا من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشَّرِّ والضَّرر، فلو قدَّر تعطيلها -لثلاً يحصل منها ذلك الشَّرُّ الجزئيُّ- لتعطَّلت من الخير ما هو أعظم من ذلك الشَّرِّ بما لا نسبة بينه وبينه.

(١) تقدم تخريجه (١/٢١٣، ٢٨٩).

(٢) في «غ» والمنار: (الحكمة).

## فصل

- ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، وكان الحاصل بعضها، لا كلها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها؛ من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محابب الرب على محابب النفس.

- ومنها: عبودية التوبة، والرَّجوع إليه واستغفاره؛ فإنه سبحانه يحب التوابين، ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

- ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه، وهي من أحب أنواع العبودية إليه؛ فإنه سبحانه يحب من وليه أن يعيظ عدوه ويراعمه ويسوءه، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

- ومنها: أن يتعبّد له بالاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيدته وأذاه.

- ومنها: أن عبده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلّ بعدوه بمخالفته، وسقوطه من المرتبة الملكية<sup>(١)</sup> إلى المرتبة الشيطانية؛ فلا يخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك.

- ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروطاً بالمعاداة والمخالفة، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته.

- ومنها: أن نفس اتّخاذ عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلّها؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ

رَعِيْدٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]؛ فاتّخاذ عدواً أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب.

- ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمنون النار في الزناد، فخلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسلت

(١) ليس المقصود أنه من جنس الملائكة، وإنما المقصود أنه كان في مرتبة الملائكة قبل أن يعصي ربه سبحانه، أما من حيث أصل الخلقة؛ فإن إبليس من الجن لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

الرُّسُلَ تَسْتَخْرِجُ مَا فِي طَبِيعَةِ أَهْلِ الْخَيْرِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، فَاسْتَخْرِجَ أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ مَا فِي قُوَى هَؤُلَاءِ مِنَ الْخَيْرِ الْكَامِنِ فِيهَا؛ لِيَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ آثَارُهُ، وَمَا فِي قُوَى أَوْلَئِكَ مِنَ الشَّرِّ، لِيَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ آثَارُهُ، وَتَظْهَرُ حِكْمَتُهُ فِي الْفَرِيقَيْنِ، وَيَنْفَذُ حَكْمَهُ فِيهِمَا، وَيُظْهِرُ مَا كَانَ مَعْلُومًا لَهُ مُطَابِقًا لِعِلْمِهِ السَّابِقِ.

وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [البقرة: ٣٠]، فَظَنَّتِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّ وَجُودَ مَنْ يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَيُطِيعُهُ وَيَعْبُدُهُ أَوْلَى مِنْ وَجُودِ مَنْ يَعِصِيهِ وَيُخَالِفُهُ، فَأَجَابَهُمْ سَبْحَانَهُ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنَ الْحَكْمِ وَالْمَصَالِحِ وَالْغَايَاتِ الْمَحْمُودَةِ فِي خَلْقِ هَذَا النَّوعِ مَا لَا تَعْلَمُهُ الْمَلَائِكَةُ.

- ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه حصل بسبب وقوع الكفر والشرك من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الرِّيح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم بردًا وسلامًا، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ [الشعراء: ٨، ٩]؛ فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلًا بعد جيل إلى الأبد.

- ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضًا، ويكسر بعضها بعضًا هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل - وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه، ولو لم تخلق (١) هذه الأسباب - لكن خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته، فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة تحقيقٌ لذلك الكمال، وموجبٌ من موجباته؛ فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته. وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيتته أحبُّ إليه (٢) ﷻ من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها.

فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟ قلت: هذا سؤال باطل؛ إذ هو فرض وجود الملزوم (٣) بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

(١) في «غ» والمنار: (يخلق).

(٢) في «غ» والمنار: (إلى الله).

(٣) في «غ»: (اللزوم).

فإن قلت: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضي إليه من الحكم، فهل تكون مرضيةً محبوبةً من هذا الوجه، أم هي مسخوطةٌ من جميع الوجوه؟  
قلت: هذا السؤال يورد على وجهين.

- أحدهما: من جهة الربِّ ﷻ، وهل يكون محبباً لها من جهة إفضائها إلى محبوه، وإن كان ييغضها لذاتها؟  
- الثاني: من جهة العبد، وهو أنه هل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضاً؟ فهذا سؤال له شأنٌ.

فاعلم أن الشرَّ كله يرجع إلى العدم - أعني: عدم الخير وأسبابه المفضية إليه - وهو من هذه الجهة شرٌّ، وأمّا من جهة وجوده المحض فلا شرٌّ فيه.  
مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خيرٌ من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشرُّ بقطع مادة الخير عنها؛ فإنها<sup>(١)</sup> خلقت في الأصل متحركة لا تسكن، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه، وحركتها من حيث هي حركةٌ خير، وإنما تكون شرّاً بالإضافة، لا من حيث هي حركةٌ، والشرُّ كله ظلمٌ، وهو وضع الشيء في غير موضعه، فلو وضع في موضعه لم يكن شرّاً.

فعلم أن جهة الشرِّ فيه: نسبةٌ إضافيةٌ؛ ولهذا كانت العقوبات الموضوعات في محالّها خيراً في نفسها، وإن كانت شرّاً بالنسبة إلى المحلّ الذي حلّت به؛ لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلةً لضده من اللذة، مستعدةً له، فصار ذلك الألم شرّاً بالنسبة إليها، وهو خيرٌ بالنسبة إلى الفاعل، حيث وضعه موضعه؛ فإنه سبحانه لا يخلق شرّاً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات؛ فإن حكمته تأبى ذلك، بل قد يكون ذلك المخلوق شرّاً ومفسدةً ببعض الاعتبارات، وفي خلقه مصالح وحكمٌ باعتبارٍ آخر، أرجح من اعتبارات مفسده، بل الواقع منحصرٌ في ذلك، فلا يمكن في جناب الحقّ ﷻ أن يريد شيئاً يكون فساداً من كلّ وجهٍ بكلّ اعتبارٍ، لا مصلحة في خلقه بوجهٍ ما، هذا من أبين المحال؛ فإنه سبحانه بيده الخير، والشرُّ ليس إليه، بل كلّ ما إليه فخيرٌ، والشرُّ إنّما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرّاً، فتأمّله؛ فانقطع نسبته إليه هو الذي صيرّه شرّاً.

فإن قلت: لم تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشيةً؟

قلت: هو من هذه الجهة ليس بشرٌّ؛ فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشرٌّ، والشرُّ الذي فيه: من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيءٍ، حتّى ينسب إلى من بيده الخير.

(١) في «غ» والمنار: (فإنها به).

فإن أردت مزيد إيضاحٍ لذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد، والإعداد، والإمداد، فهذه هي الخيرات وأسبابها.

فإيجاد السبب<sup>(١)</sup> خيرٌ؛ وهو إلى الله، وإعداده خيرٌ، وهو إليه أيضًا، وإمداده خيرٌ؛ وهو إليه أيضًا<sup>(٢)</sup>.

فإذا لم يحدث فيه إعدادٌ ولا إمدادٌ حصل فيه الشرُّ بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل، وإنما إليه ضده.

فإن قلت: فهل أمده إذ أوجده؟

قلت: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده فإنه سبحانه يوجد ويمدّه، وما اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده أوجده بحكمته ولم يمدّه بحكمته؛ فإيجاده خيرٌ، والشرُّ وقع من عدم إمداده.

فإن قلت: فهل أمدّ الموجودات كلها؟

قلت<sup>(٣)</sup>: فهذا سؤالٌ فاسدٌ، يظنُّ مُورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة، وهذا عين الجهل، بل الحكمة كلُّ الحكمة في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها، وليس في خلق كلِّ نوعٍ منها تفاوتٌ، فكلُّ نوعٍ منها ليس في خلقه من تفاوتٍ، والتفاوت إنما وقع بأمورٍ عدميةٍ، لم يتعلّق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوتٍ.

فإن اعتاص ذلك عليك، ولم تفهمه حقَّ الفهم، فراجع قول القائل:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعُهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

كما ذكر: «أَنَّ الْأَصْمَعِيَّ اجْتَمَعَ بِالْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، وَحَرَّصَ عَلَيْهِ فَهَمَّ الْعَرُوضِ مِنْهُ، فَأَعْيَاهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الْخَلِيلُ يَوْمًا: فَطَّعْ لِي هَذَا الْبَيْتِ، وَأَنْشُدْهُ: «إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا»<sup>(٤)</sup>...» البيت، ففهم ما أراد، فأمسك عنه، ولم يشتغل به».

وسرُّ المسألة: أن الرضا بالله يستلزم الرضا بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه، ولا يستلزم الرضا بمفعولاته كلها، بل حقيقة العبودية: أن يوافق عبده في رضاه وسخطه؛ فيرضى منها بما يرضى به، ويسخط منها ما سخطه.

(١) في «غ» والمنار: (هذا السبب).

(٢) كلمة: (أيضًا) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) كلمة: (قلت) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) كلمة: (شيئًا) غير موجودة في «غ» والمنار.

فإن قيل: فهو سبحانه يرضى عقوبة من يستحق العقوبة، فكيف يمكن العبد أن يرضى بعقوبته له (١)؟

قيل: لو وافقه في رضاه بعقوبته لانقلبت لذّة وسرورًا، ولكن لا يقع منه (٢) ذلك. فإن لم يوافق في محبته وطاعته، التي هي سرور النفس، وقرّة العين، وحياة القلب، فكيف يوافق في محبته للعقوبة، التي هي أكره شيء إليه، وأشق شيء عليه؟! بل كان كارهاً لما يحبه من طاعته وتوحيده، فلا يكون راضياً بما يختاره من عقوبته، ولو قبل (٣) ذلك لارتفعت عنه العقوبة.

فإن قلت: فكيف يجتمع الرضا بالقضاء الذي يكرهه العبد؛ من المرض والفقر والألم، - مع كراهته؟ قلت: لا تنافي في ذلك؛ فإنه يرضى به من جهة إفضائه إلى ما يحب، ويكرهه من جهة تألمه به، كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه، فإنه يجتمع فيه رضاه به، وكراهته له.

فإن قلت: كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟ قلت: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضىها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمّن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة؛ بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة، ومفوّتاً لمصلحة راجحة.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَمَا يَتَّبِعُونَ لَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧].

فأخبر سبحانه: أنه كره انبعاثهم مع رسوله ﷺ للغزو، وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به، فلمّا كرهه منهم ثبّطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله ﷺ، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾؛ أي: فساداً وشرّاً (٤)، ﴿وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ﴾؛ أي: سعوا فيما بينكم بالفساد والشر؛ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ فَمَا يَتَّبِعُونَ لَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾؛ أي: قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولّد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشرّ ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرّحمة أن منعهم من الخروج، وأقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلاً لهذا الباب، وقس عليه.

(١) كلمة: (له) غير موجودة في «ع».

(٢) كلمة: (منه) ساقطة من «ع» والمنار.

(٣) في «ع» والمنار: (فعل).

(٤) كلمة: (وشرّاً) غير موجودة في «ع» والمنار.

فإن قلت: قد يتصور لي هذا في رضا الربّ تعالى لبعض ما يخلقه من وجهٍ وكراهته من وجهٍ آخر<sup>(١)</sup>، فكيف لي بأن يجتمع الأمران في حقّي بالنسبة إلى المعاصي والفسوق؟ قلت: هو متصورٌ ممكنٌ، بل واقعٌ؛ فإنّ العبد يسخط ذلك ويبغضه، ويكرهه من حيث هو فعل له بسببه، وواقعٌ بكسبه وإرادته، واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيته، وإذنه الكونيّ فيه، فيرضى بما من الله، ويسخط ما هو منه. فهذا مسلك طائفةٍ من أهل العرفان. وطائفةٌ أخرى: رأوا كراهة ذلك مطلقاً، وعدم الرضا به من كلّ وجهٍ. وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون أولئك؛ فإنّ العبد إذا كرهها مطلقاً فإنّ الكراهة إنّما تقع على الاعتبار المكروه منها، وهؤلاء لم يكرهوا علم الربّ وكتابه ومشيته، وإلزامه حكمه الكونيّ، وأولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها الربّ وأبغضها لأجله. وسرُّ المسألة: أنّ الذي إلى الربّ منها غير مكروه، والذي إلى العبد منها هو المكروه والمسخوط.

فإن قلت: ليس إلى العبد شيءٌ منها؟

قلت: هذا هو الجبر الباطل، الذي لا يمكن صاحبه التخلّص من هذا المقام الضيق، والقدريّ أقرب إلى التخلّص منه من الجبريّ، وأهل السنّة المتوسّطون بين القدريّة والجبريّة هم أسعد بالتخلّص منه من الفريقين.

فإن قلت: كيف يتأتّى الندم والتّوبة مع شهود الحكمة في التّقدير، ومع شهود القيوميّة والمشية النّافذة؟

قلت: هذا الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على خلاف ما هو عليه؛ فأرى تلك الأفعال طاعاتٍ، لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته في ذلك، وقيل:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ مِنِّْي فَفَعَلِي كُلُّهُ طَاعَاتٌ

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدنيّة والكونيّة؛ فإنّ الطاعة هي موافقة الأمر، لا موافقة القدر والمشية، ولو كانت موافقة القدر طاعةً لله لكان إبليس من أعظم المطيعين لله، وكان قوم نوح وعاذ وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون كلّهم مطيعين له<sup>(٢)</sup>؛ فيكون قد عدّهم أشدّ العذاب على طاعته، وانتقم منهم لأجلها، وهذا غاية الجهل بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله.

(١) كلمة: (آخر) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة: (له) غير موجودة في «غ».

فإن قلت: ومع ذلك، فاجمع لي بين الندم والتوبة، وبين مشهد القيومية والحكمة!  
قلت: العبد إذا شهد عجز نفسه، ونفوذ الأقدار فيه، وكمال فقره إلى ربه، وعدم استغنائه عن  
عصمته وحفظه طرفه عين - كان بالله في هذه الحال، لا بنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال  
ألبتة؛ فإن عليه حصناً حصيناً من: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»<sup>(١)</sup>، فلا يتصور منه  
الذنب في هذه الحال، فإذا حجب عن هذا المشهد، وسقط إلى وجوده الطبيعي، وبقي بنفسه - استولى  
عليه حكم النفس والطبع والهوى، وهذا الوجود الطبيعي قد نصبت فيه الشباك والأشراك، وأرسلت  
عليه الصيادون، فلا بد أن يقع في شبكة من تلك الشباك، وشرك من تلك الأشراك، وهذا الوجود هو  
حجاب بينه وبين ربه، فعند ذلك يقع الحجاب، ويقوى المقتضي، ويضعف المانع، وتشتد الظلمة،  
وتضعف القوى، فأتى له بالخلاص من تلك الأشراك والشباك؟ فإذا انقشع ضباب ذلك الوجود  
الطبيعي، وانجاب ظلامه، وزال قمامه، وصرت برتك ذاهباً عن نفسك وطبعك:

بَدَا لَكَ سِرُّ طَالَ عَنكَ اِكْتِنَامُهُ      وَوَلَا حَ صَبَاحُ كُنْتَ أَنْتَ ظَلَامُهُ  
فَإِنْ غَبْتَ عَنْهُ حَلَّ فِيهِ وَطَنَبْتَ      عَلَيَّ مَنَكِبِ الْكُشْفِ الْمَصُونِ خِيَامُهُ  
فَأَنْتَ حِجَابُ الْقَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ      وَلَوْلَاكَ لَمْ يُطْبَعْ عَلَيْهِ خِتَامُهُ  
وَجَاءَ حَدِيثٌ لَا يَمَلُّ سَمَاعُهُ      شَهِيٍّ إِلَيْنَا نَثْرُهُ وَنَظَامُهُ  
إِذَا ذَكَرْتَهُ النَّفْسُ زَالَ عَنَا وَهَا      وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْمَعْنَى قَتَامُهُ

فهناك يحضره الندم والتوبة والإنابة؛ فإنه كان في المعصية بنفسه، محجوباً فيها عن ربه، وعن  
طاعته، فلماً فارق ذلك الوجود، وصار في وجود آخر - بقي بربه لا بنفسه.

وإذا عرف هذا؛ فالتوبة والندم يكونان في هذا الوجود الذي هو فيه بربه، وذلك لا ينافي مشهد  
الحكمة والقيومية، بل يجامعه ويستمد منه، وبالله التوفيق.

□ قوله: «وَيَصِحُّ بِثَلَاثَةِ شَرَائِطَ: بِاسْتِوَاءِ الْحَالَاتِ عِنْدَ الْعَبْدِ، وَسُقُوطِ الْخُصُومَةِ  
مَعَ الْخَلْقِ، وَالْخَلَاصِ»<sup>(٢)</sup> مِنَ الْمَسْأَلَةِ وَالْإِلْحَاحِ.

يعني: أن الرضا عن الله إنما يتحقق بهذه الأمور الثلاثة؛ فإن الراضي الموافق تستوي عنده  
الحالات - من النعمة والبليّة - في رضاه بحسن اختيار الله له.

(١) هذا جزء من حديث قدسي أوله: «من عادني لي ولياً...». وتقدم تخريجه (١/ ٢٥٨، ٢/ ٣٦).

(٢) في «غ» والمنار: (وبالخلاص).



وليس المراد استواؤها عنده في ملاءمته ومنافرته؛ فإنَّ هذا خلاف الطَّبع البشريِّ، بل خلاف الطَّبع الحيوانيِّ.

وليس المراد أيضًا استواء الحالات عنده في الطَّاعة والمعصية؛ فإنَّ هذا منافٍ للعبوديَّة من كلِّ وجهٍ، وإنَّما تستوي النُّعمة والبلية عنده في الرُّضا بهما لوجوهٍ:

﴿أحدها: أنه مفوَّض، والمفوَّض راضٍ بكلِّ ما اختاره له من فوَّض إليه، ولا سيَّما إذا علم كمال حكمته ورحمته، ولطفه وحسن اختياره له.

﴿الثاني: أنه جازمٌ بأنَّه لا تبديل لكلمات الله، ولا رادًّا لحكمه، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ فهو يعلم أن كلاً من البلية والنُّعمة بقضاء سابقٍ، وقدرٍ حتمٍ.

﴿الثالث: أنه عبدٌ محضٌ، والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيِّده المشفق البارِّ النَّاصح المحسن، بل يتلقَّاهما كلَّها بالرُّضا به وعنه.

﴿الرابع: أنه محبٌ، والمحبُّ الصَّادق من رضي بما يعامله به حبيبه.

﴿الخامس: أنه جاهلٌ بعواقب الأمور، وسيِّده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

﴿السادس: أنه لا يريد (مصلحة نفسه) (١) من كلِّ وجهٍ، ولو عرف أسبابها؛ فهو جاهلٌ

ظالمٌ، وربُّه تعالى يريد مصلحته، ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد؛ فإنَّ مصلحته (فيما يكره) (٢) أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحبُّ؛ قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ

وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

﴿السابع: أنه مسلمٌ، والمسلم من قد سلَّم نفسه لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه

عليه (٣)، ولم يسخط ذلك.

﴿الثامن: أنه عارفٌ بربِّه. حسن الظَّنُّ به، لا يتهمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره،

فحسن ظنُّه به يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيِّده سبحانه.

﴿التاسع: أنه يعلم أنَّ حظَّه من المقدور ما يتلقَّاه به من رُضا وسخطٍ، فلا بدَّ له منه؛ فإنَّ

رضي فله الرُّضا، وإن سخط فله السُّخط.

(١) في «غ» والمنار: (مصلحته).

(٢) في المنار: (فيها) وفي نسخة «غ» سقطت جملة: (فيما يكره).

(٣) كلمة: (عليه) غير موجودة في «غ» والمنار.

﴿ العاشر: علمه بأنه إذا رضي انقلب في حقه نعمةً ومنحةً، وخفَّ عليه حملة، وأعين عليه، وإذا سخطه تضاعف عليه ثقله وكلُّه، ولم يزد إلا شدةً، فلو أن السُّخْطَ يجدي عليه شيئاً لكان له فيه راحةٌ أنفع له من الرضا به.

ونكتة المسألة: إيمانه بأن قضاء الرَّبِّ تعالى خيرٌ له، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»<sup>(١)</sup>.

﴿ الحادي عشر: أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه، ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحبُّ لكان أبعد شيءٍ عن عبوديته ربِّه، فلا تتمُّ له عبوديته - من الصبر، والتوكل، والرِّضا، والتَّضَرُّع، والافتقار، والذلُّ، والخضوع، وغيرها - إلا بجريان القدر له بما يكرهه، وليس الشَّانُ في الرِّضا بالقضاء (الملائم للطبيعة، إنما الشَّانُ في القضاء)<sup>(٢)</sup> المؤلم المنافر للطبع.

﴿ الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربِّه ﷻ في جميع الحالات يثمر رضا ربِّه عنه، فإذا رضي عنه بالقليل من الرِّزق رضي ربُّه عنه بالقليل من العمل، وإذا رضي عنه في جميع الحالات واستوت عنده - وجده أسرع شيءٍ إلى رضاه إذا ترصَّاه وتملَّقه.

﴿ الثالث عشر: أن يعلم أن أعظم راحته وسروره ونعيمه: في الرِّضا عن ربِّه (تعالى وتقدَّس)<sup>(٣)</sup> في جميع الحالات؛ فإنَّ الرِّضا باب الله الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا؛ فجديرٌ بمن نصح نفسه أن تشتدَّ رغبته فيه، وأن<sup>(٤)</sup> لا يستبدل بغيره منه.

﴿ الرابع عشر: أن السُّخْطَ باب الهمِّ والغمِّ والحزن، وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والظنُّ بالله خلاف ما هو أهله، والرِّضا يخلصه من ذلك كلِّه، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

﴿ الخامس عشر: أن الرِّضا يوجب له الطمأنينة، وبرِّد القلب، وسكونه وقراره، والسُّخْطَ يوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه، وعدم قراره<sup>(٥)</sup>.

﴿ السادس عشر: أن الرِّضا ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة استقام، وصلحت أحواله، وصلح باله، والسُّخْطَ يبعده منها بحسب قلته وكثرته، وإذا ترحلت عنه

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٣٣).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «غ» والمنار.

(٣) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) كلمة: (أن) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٥) في «غ»: (إقراره).

السكينة ترحل عنه الشورور والأمن والدعة والراحة، وطيب العيش، فمن أعظم نعم الله على عبده تنزل (١) السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضا عنه في جميع الحالات.

كلمة السابع عشر: أن الرضا يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدغل والغل، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم، كذلك (٢) وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد (٣) أشدّ رصاً كان قلبه أسلم، فالخبث والدغل والغش قرين السخط، وسلامة القلب وبره (٤) ونصح قرين الرضا، وكذلك الحسد (٥): هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا.

كلمة الثامن عشر: أن السخط يوجب تلون العبد، وعدم ثباته مع الله؛ فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه؛ فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات، استقرت قدمه في مقام العبودية، فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضا.

كلمة التاسع عشر: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، وقضائه وقدره، وحكمته، وعلمه؛ فقل أن يسلم السائح من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به، فلو فتش نفسه (٦) غاية التفثيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً؛ فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان، والشك والسخط قرينان، وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي أو غيره: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالرِّضَا مَعَ الْيَقِينِ فَاَفْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ النَّفْسُ خَيْرًا كَثِيرًا» (٧).

كلمة العشرون: أن الرضا بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، كما في «المُسْنَد» والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ - اسْتِحَارَةُ اللَّهِ ﷻ، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاؤُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ سُخْطُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُ اسْتِحَارَةِ اللَّهِ» (٨).

(١) في «غ» والمنار: (تنزيل).

(٢) كلمة: (كذلك) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) كلمة: (العبد) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (ويرده).

(٥) في «غ» والمنار: (الخبث).

(٦) كلمة: (نفسه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٧) تقدم تخريجه (ص ٢٢٣).

(٨) رواه الترمذي في القدر، باب: ما جاء في الرضا بالقدر وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد

فالرّضا بالقضاء من أسباب السّعادة، والتّسخّط على القضاء من أسباب الشّقاوة.  
 كـ الحادي والعشرون: أنّ الرّضا يوجب له ألاّ يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، وذلك من أفضل الإيمان<sup>(١)</sup>.

أمّا عدم أساه على الفائت: فظاهر.  
 وأمّا عدم فرحه بما آتاه: فلائنه يعلم أنّ المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله، فكيف يفرح بشيء يعلم أنّ له فيه مصيبةً متظّرة ولا بدّ؟!  
 كـ الثّاني والعشرون: أنّ من ملأ قلبه من الرّضا بالقدر ملأ الله صدره غنىً وأماناً وقناعةً، وفرّغ قلبه لمحبتّه، والإنابة إليه، والتّوكّل عليه، ومن فاته حظّه من الرّضا امتلأ قلبه بضدّ ذلك، واشتغل عمّا فيه سعادته وفلاحه.

فالرّضا يفرّغ القلب لله، والسّخّط يفرّغ القلب من الله.  
 كـ الثّالث والعشرون: أنّ الرّضا يثمر الشّكر، الّذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسّخّط يثمر ضده، وهو كفر النّعم، وربّما أثمر له كفر المنعم، فإذا رضي العبد<sup>(٢)</sup> عن ربّه في جميع الحالات أوجب له ذلك شكره، فيكون من الرّاضين الشّاكرين، وإذا فاته الرّضا كان من السّاخطين، وسلك سبيل الكافرين.

كـ الرّابع والعشرون: أنّ الرّضا ينفي عنه آفات الحرص والكلب على الدّنيا، وذلك رأس كلّ خطيئة، وأصل كلّ بليّة، وأساس كلّ رزية؛ فرضاه عن ربّه في جميع الحالات ينفي عنه مادّة هذه الآفات.  
 كـ الخامس والعشرون: أنّ الشّيطان إنّما يظفر بالإنسان غالباً عند السّخّط والشّهوة، فهناك يصطاده، ولا سيّما إذا استحكّم سخطه؛ فإنّه يقول ما لا يرضي الرّب، ويفعل ما لا يرضيه، وينوي ما لا يرضيه؛ ولهذا قال النّبى ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: «يَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَتَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبَّ»<sup>(٣)</sup>. فإنّ موت البنين من العوارض الّتي توجب للعبد السّخّط على القدر؛ فأخبر النّبى ﷺ أنّه لا يقول في مثل هذا المقام -الّذي يسخطه أكثر النّاس، فيتكلّمون بما لا يرضي الله، ويفعلون ما لا يرضيه- إلّا ما يرضي ربّه تبارك وتعالى؛ ولهذا: «لَمَّا مَاتَ ابْنُ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ رُؤْيِي

ابن أبي حميد، ويقال له أيضاً حماد بن أبي حميد وهو إبراهيم المدني، وليس بالقوي عند أهل الحديث. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٣٨١).

(١) في «غ» والمنار: (خصال الإيمان).

(٢) كلمة: (العبد) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) رواه مسلم في الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٥)، ورواه أحمد (٣/١٩٤).

فِي الْجِنَازَةِ صَاحِكًا، فَقِيلَ لَهُ: أَتَضْحَكُ وَقَدْ مَاتَ ابْنُكَ؟! فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَضَى بِقَضَاءٍ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَرْضَى بِقَضَائِهِ».

فأنكرت طائفة هذه المقالة على الفضيل، وقالوا: رسول الله ﷺ بكى<sup>(١)</sup> يوم مات ابنه، وأخبر أن: «الْقَلْبُ يَحْزَنُ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ»، وهو في أعلى مقامات الرضا، فكيف يعدُّ هذا من مناقب الفضيل؟! والتَّحْقِيقُ: أن قلب رسول الله ﷺ اتَّسع لتكميل جميع المراتب، من الرضا عن الله، والبكاء رحمةً للصَّبِيِّ؛ فكان له مقام الرضا، ومقام الرَّحْمَةِ وَرَقَّةِ الْقَلْبِ، (والفضيل لم يتَّسع قلبه لمقام الرضا ومقام الرَّحْمَةِ)<sup>(٢)</sup>؛ فلم يجتمع له الأمران، والنَّاسُ في ذلك على أربع مراتب:

- أحدها: من اجتمع له الرضا بالقضاء ورحمة الطُّفْلِ؛ فدمعت عيناه رحمةً والقلب راضٍ.
- الثَّانِي: من غيَّبه الرضا عن الرَّحْمَةِ؛ فلم يتَّسع للأمرين، بل غيَّبه أحدهما عن الآخر.
- الثَّالِث: من غيَّبه الرَّحْمَةَ وَرَقَّةَ الْقَلْبِ عن الرضا فلم يشهده، بل فني عن الرضا.
- الرَّابِع: من لا رضا عنده ولا رحمة، وإنَّما يكون حزنه لفوات حظِّه من الميِّت، وهذا حال أكثر الخلق؛ فلا إحسان، ولا رضا عن الرَّحْمَنِ، والله المستعان.

فالأوَّل في أعلى مراتب الرضا، والثَّانِي دونه، والثَّالِث دون الثَّانِي، والرَّابِع هو السَّاخِط.

﴿السَّادِسُ وَالْعَشْرُونَ: أَنَّ الرُّضَا هُوَ اخْتِيَارُ مَا اخْتَارَهُ اللَّهُ لِعَبْدِهِ، وَالسُّخْطُ كِرَاهَاةُ مَا اخْتَارَهُ اللَّهُ لَهُ﴾<sup>(٣)</sup>، وهذا نوع محادَّةٍ، فلا يتخلَّص منه إلَّا بالرُّضَا عن الله في جميع الحالات.

﴿السَّابِعُ وَالْعَشْرُونَ: أَنَّ الرُّضَا يَخْرُجُ الْهُوَى مِنَ الْقَلْبِ؛ فَالرَّاضِي هُوَ تَبِعٌ لِمَرَادِ رَبِّهِ مِنْهُ - أَعْنِي: الْمَرَادُ الَّذِي يَحِبُّهُ رَبُّهُ وَيَرْضَاهُ؛ فَلَا يَجْتَمِعُ الرُّضَا وَاتِّبَاعُ الْهُوَى فِي الْقَلْبِ أَبَدًا، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ شَعْبَةٌ مِنْ هَذَا وَشَعْبَةٌ مِنْ هَذَا، فَهُوَ لِلْغَالِبِ عَلَيْهِ مِنْهُمَا.

﴿الثَّامِنُ وَالْعَشْرُونَ: أَنَّ الرُّضَا عَنِ اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ يَثْمُرُ لِلْعَبْدِ رِضَا اللَّهِ عَنْهُ - كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي الرُّضَا بِهِ - فَإِنَّ الْجِزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

وَفِي أَثَرِ إِسْرَائِيلِيٍّ: «أَنَّ مُوسَى ﷺ سَأَلَ رَبَّهُ ﷻ: مَا يُدْنِي مِنْ رِضَاةٍ؟ فَقَالَ: إِنَّ رِضَايَ فِي رِضَاكَ بِقَضَائِي».

﴿الثَّاسِعُ وَالْعَشْرُونَ: أَنَّ الرُّضَا بِالْقَضَاءِ أَشَقُّ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ، بَلْ هُوَ ذَبْحُهَا فِي الْحَقِيقَةِ؛ فَإِنَّهُ مَخَالَفَةٌ هَوَاهَا وَطَبْعُهَا وَإِرَادَتِهَا، وَلَا تَصِيرُ مَطْمَئِنَّةً قَطُّ حَتَّى تَرْضَى بِالْقَضَاءِ، فَحِينَئِذٍ تَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَالَ لَهَا:

(١) في «غ» والمنار: (قد بكى)، والأثر أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٢) في «غ» والمنار: (والفضيل لم يتسع له مقام الرضا عن مقام الرحمة).

(٣) كلمة: (له) غير موجودة في «غ» والمنار.

﴿يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عَبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنِّي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٣٠-٢٧].

﴿الثلاثون﴾: أنَّ الرَّاضِيَّ متلقٍّ أو امرئٌ به - الدِّينِيَّةُ والقَدْرِيَّةُ - بالانْشراح والتَّسليم، وطيب النَّفس، والاستسلام، والسَّخاط يتلقَّاهَا بضدِّ ذلك إلَّا ما وافق طبعه وإرادته منها.

وقد بيَّنَّا أنَّ الرِّضَا بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه، فإنَّه لم يرض به لكون الله قدَّره وقضاه وأمر به، وإنَّما رضي به لموافقته هواه وطبعه، فهو إنَّما رضي لنفسه وعن نفسه، لا بربه<sup>(١)</sup>، لا عن ربه.

﴿الحادي والثلاثون﴾: أنَّ المخالفات كلَّها أصلها من عدم الرِّضَا، والطَّاعات كلَّها أصلها من الرِّضَا، وهذا إنَّما يعرفه حقُّ المعرفة من عرف صفات نفسه، وما يتولَّد عنها من الطَّاعات والمعاصي.

﴿الثاني والثلاثون﴾: أنَّ عدم الرِّضَا يفتح باب البدعة، والرِّضَا يغلق عنه ذلك الباب، ولو تأملت بدع الروافض، والنَّوَّاصب، والخوارج - لرأيتها ناشئةً من عدم الرِّضَا بالحكم الكونيِّ، أو الدِّينيِّ، أو كليهما.

﴿الثالث والثلاثون﴾: أنَّ الرِّضَا معقد نظام الدِّين ظاهره وباطنه؛ فإنَّ القضايا لا تخلو من خمسة أنواع:

- فتنقسم قسمين: دينيَّة، وكونيَّة، وهي مأمورات، ومنهيَّات، ومباحات، ونعمٌ ملذَّة، وبلايا مؤلِّمة.

فإذا استعمل العبد<sup>(٢)</sup> الرِّضَا في ذلك كلِّه فقد أخذ بالحظِّ الوافر من الإسلام، وفاز بالقدح المعلى.

﴿الرابع والثلاثون﴾: أنَّ الرِّضَا يخلِّص العبد من مخاصمة الرَّبِّ تعالى في أحكامه وأقضيته؛ فإنَّ السُّخط عليه مخاصمةٌ له فيما لم يرض به العبد، وأصل مخاصمة إبليس لرَّبه من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدِّينيَّة والكونيَّة، فلو رضي لم يمسخ من الحقيقة الملكيَّة إلى الحقيقة الشَّيطانيَّة الإبليسيَّة.

﴿الخامس والثلاثون﴾: أنَّ جميع ما في الكون أوجبه (مشيئة الله، وحكمته)<sup>(٣)</sup>، وملكه؛ فهو موجب أسمائه وصفاته، فمن لم يرض بما رضي به ربه، لم يرض بأسمائه وصفاته؛ فلم يرض به ربًّا.

﴿السادس والثلاثون﴾: أنَّ كلَّ قدرٍ يكرهه العبد ولا يلائمه لا يخلو: إمَّا أن<sup>(٤)</sup> يكون عقوبةً على الدُّنْب؛ فهو دواءٌ لمرضٍ لولا تدارك الحكيم إيَّاه بالدَّواء لترامى به المرض إلى الهلاك، أو يكون

(١) كلمة: (لا بربه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة: (العبد) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (مشيئته وحكمته).

(٤) في «غ» والمنار: (لا يخلو أن).

سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه، فالمكروه ينقطع ويتلاشى، وما يترتب<sup>(١)</sup> عليه من التَّعْمَة دائمة لا ينقطع، فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضا عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدره.

السَّابِع والثَّلَاثُونَ: أَنَّ حَكْمَ الرَّبِّ تَعَالَى مَاضٍ فِي عِبْدِهِ، وَقَضَاءُ عَدْلٍ فِيهِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ»<sup>(٢)</sup>، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِالْعَدْلِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ.

□ وقوله: «عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ».

يَعْنِي قَضَاءَ الذَّنْبِ، وَقَضَاءَ أَثَرِهِ وَعَقُوبَتِهِ، فَإِنَّ الْأَمْرَيْنِ مِنْ قَضَائِهِ عِبَادَتِهِ، وَهُوَ أَعْدِلُ الْعَادِلِينَ فِي قَضَائِهِ بِالذَّنْبِ، وَفِي قَضَائِهِ بِعَقُوبَتِهِ. أَمَّا عَدْلُهُ فِي الْعُقُوبَةِ: فَظَاهِرٌ.

وَأَمَّا عَدْلُهُ فِي قَضَائِهِ بِالذَّنْبِ: فَلِأَنَّ الذَّنْبَ عَقُوبَةٌ عَلَى غَفْلَتِهِ عَنِ رَبِّهِ، وَإِعْرَاضٍ قَلْبِهِ عَنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا غَفَلَ قَلْبَهُ عَنِ رَبِّهِ وَوَلِيَّهِ، وَنَقَصَ إِخْلَاصَهُ - اسْتَحَقَّ أَنْ يُضْرَبَ بِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ؛ لِأَنَّ قُلُوبَ الْغَافِلِينَ مَعْدَنُ الذُّنُوبِ، وَالْعُقُوبَاتُ وَارِدَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَإِلَّا فَمَعَ كَمَالُ الْإِخْلَاصِ وَالذِّكْرُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَذَكَرَهُ يَسْتَحِيلُ صُدُورُ الذَّنْبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [يوسف: ٢٤].

فإن قلت: قضاؤه على عبده بإعراضه عنه، ونسيانه إيَّاه، وعدم إخلاصه - عقوبة على ماذا؟ قلت: هذا طبع النفس وشأنها؛ فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلى بينه وبين نفسه وطبعه وهواه، وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان، وعدم الإخلاص واتباع الهوى، وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام، وفوات الخيرات واللذات، كاقْتِضَاءِ سَائِرِ الْأَسْبَابِ لِمُسَبِّبَاتِهَا وَأَثَارِهَا<sup>(٣)</sup>.

(١) في «غ» والمنار: (ينزل).

(٢) هذا جزء من حديث: دعاء الهم والحزن، أخرجه أحمد في «مسنده» (١/٣٩١، ٤٥٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩).

(٣) تدبر قول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وقوله: ﴿بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٠﴾ وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرَهُ ﴿١١﴾﴾ [القيامة: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿أَمَّنْ يَمِشِي مَكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمِشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٢، ٢٣]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿١١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿هُم قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

فإن قلت: فهلاً خلقه على غير تلك الصفة؟

قلت: هذا سؤال فاسدٌ، ومضمونه: هلاً خلقه ملكاً لا إنساناً.

فإن قلت: فهلاً أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه، وظلمة طبعه؟

قلت: مضمون هذا السؤال: هلاً سوى بين جميع (١) خلقه، ولم يخلق المتضادات

والمختلفات؟ وهذا من أفسد الأسئلة، وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكه لخلق ذلك.

﴿الثامن والثلاثون﴾: أن عدم الرضا إما أن يكون لفوات ما أخطأه ممّا يحبّه ويريده، وإمّا

لإصابة ما يكرهه ويسخطه، فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن لينخطئه - فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا لفوات ما ينفعه وحصول ما يضره.

﴿التاسع والثلاثون﴾: أن الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح؛ فإن كل

واحدٍ منهما ذروة سنام الإيمان.

قال أبو الدرداء: «ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِيمَانِ: الصَّبْرُ لِلْحُكْمِ، وَالرِّضَا بِالْقَدَرِ» (٢).

﴿الأربعون﴾: أن أول معصية عصي الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرضا؛ فإبليس

لم يرض بحكم الله الذي حكم به كوناً، من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الدنيوي، من أمره بالسجود لآدم، وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة، حتى ضم إليه الأكل من شجرة الحمى، ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضا.

﴿الحادي والأربعون﴾: أن الراضي واقفٌ مع اختيار الله له، معرضٌ عن اختياره لنفسه، وهذا

من قوة معرفته بربه تعالى، ومعرفته بنفسه.

أَصْلُ أَوْلَيْكَ هُمُ الْغَنَفَلُونَ ﴿١٧٧﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكُنَّا بِحَقِّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: ١٢-١٤]، فإنك إذا تلوت هذه الآيات وغيرها - في هذا الموضوع الخطير - حق التلاوة، وتدبرتها حق التدبر - سلم القلب من التقليد الأعمى، والتأثر بأي مؤثر، إلا الرغبة الصادقة في فهم مراد الله، لتهدي به إلى سبيل الرشاد - إذن لفهمت أن الجميع عبيد لله رب العالمين، وأنه ربهم يرببهم جميعاً بكل ما آتاهم من النعم والآيات في أنفسهم وفي الآفاق، فمن شكر وأحسن الانتفاع ووضع النعم في مواضعها: زاده الله الشكور هدى ونعمة. ومن كفر فلا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً. (الفقهي).

(١) كلمة: (جميع) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) «الحلية» لأبي نعيم (١/٢١٦).



«وَقَدْ اجْتَمَعَ وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ، وَسَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ، فَقَالَ الثَّوْرِيُّ: قَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ مَوْتَ الْفُجَاءَةِ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَوَدِدْتُ أَنِّي مَيِّتٌ. فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ: وَلِمَ؟ فَقَالَ: لِمَ أَتَخَوَّفُ مِنَ الْفِتْنَةِ. فَقَالَ يُوسُفُ: لِكِنِّي لَا أَكْرَهُ طَوْلَ الْبَقَاءِ. فَقَالَ الثَّوْرِيُّ: وَلِمَ تَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ قَالَ: لِعَلِّي أَصَادِفُ يَوْمًا أَتُوبُ فِيهِ وَأَعْمَلُ صَالِحًا. فَقِيلَ لَوْهَيْبٍ: أَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا لَا أَخْتَارُ شَيْئًا، أَحَبُّ ذَلِكَ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَيَّ اللَّهُ.

فَقَبَّلَ الثَّوْرِيُّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: رُوحَانِيَّةٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ».

فهذا حال عبدٍ قد استوت عنده حالة الحياة والموت، وقف مع اختيار الله له منهما، وقد كان وهيبٌ رَضِيَ اللهُ له المقام العالي من الرضا وغيره.

الثاني والأربعون: أن يعلم أن منع الله ﷻ لعبده المؤمن المحب عطاءً، وابتلاءه إيَّاه عافيةٌ. قال سفيان الثوري: «مَنْعُهُ عَطَاءً؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ عَنِ بُخْلِ وَلَا عَدَمٍ، وَإِنَّمَا نَظَرَ فِي خَيْرِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَمَنَعَهُ اخْتِيَارًا وَحَسَنَ نَظَرٍ».

وهذا كما قال، فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، ساء ذلك القضاء أو سره؛ فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاءً، وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافيةً، وإن كان في صورة بليَّةٍ، ولكن لجعل العبد وظلمه لا يعدُّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذبه في العاجل، وكان ملائمًا لطبعه، ولو رزق من المعرفة حظًا وافرًا لعدَّ المنع نعمةً، والبلاء رحمةً، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية<sup>(١)</sup>، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى<sup>(٢)</sup>، وكان في حال القلة أعظم شكرًا من حال الكثرة<sup>(٣)</sup>، وهذه كانت حال السلف.

(١) في «غ» والمنار: (لذة العافية).

(٢) في «غ» والمنار: (من لذة الغنى).

(٣) هذا مناف للفطرة وسننها التي لا تتبدل، ومناف كذلك لما كان عليه رسل الله، وخاتمهم محمد ﷺ، فقد كانوا وكان ﷺ يسأل الله العافية، ويتعوذ به من البلاء ومن الجوع والفقر إلا إليه. (الفتي) بتصرف. تعليق: إنكار الشيخ (الفتي) -يرحمه الله- التلذذ بالبلاء غير سديد؛ فإن التلذذ بالبلاء واقع من كثير، وذلك بملاحظة ما يترتب على البلاء والصبر عليه من الثمرات العظيمة، والعواقب الحميدة، فتنسيه ملاحظة ذلك ما يجده من ألم المكروه، كحال طالب الشهادة؛ فإنه يستعذب الموت في سبيل مطلوبه؛ بل إن طلاب الحظوظ الدنيوية يَسْتَحْلُونَ ما يصيبهم من المشاق والآلام ما دامت تفضي بهم إلى مطالبهم المحبوبة. وليس معنى التلذذ بالبلاء والمكروه: التجرد من مقتضى الطبع وهو الشعور بالألم والمكروه، فيجتمع للمبتلى اللذة والألم، وقد تقوى اللذة فلا يشعر بالألم كالمريض إذا حصل ما يوجب فرحه فرحًا شديدًا فإن ذلك ينسيه ما يقاسيه من حالة مرضه.

وأما ما ورد في السنة من سؤال العافية فلا ريب أنه مشروع قبل البلاء كما قال ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية» [البخاري (٣٠١٦)]، وفي فتوى النبي ﷺ: «وعافني فيمن عافيت» [أبو داود (١٤٢٥)]، وأما بعد نزول البلاء

فالعاقِل الرَّاضِي: من يعدُّ البلاء عافيةً، والمنع نعمةً، والفقر غنىً.  
وأوحى اللهُ إلى بعض أنبيائه: «إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلًا، فَقُلْ: مَرْحَبًا بِشِعَارِ الصَّالِحِينَ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلًا، فَقُلْ: ذَنْبٌ عَجَلَتْ عُقُوبَتُهُ».  
فالرَّاضِي: هو الَّذِي يعدُّ نعم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نعمه عليه فيما يحبُّه.  
كما قال بعض العارفين: «يَا بَنَ آدَمَ، نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ فِيمَا تَكْرَهُهُ أَعْظَمُ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فِيمَا تُحِبُّ».

وقد قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقد قال بعض العارفين: «ارْضَ عَنِ اللهِ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ بِكَ<sup>(١)</sup>؛ فَإِنَّهُ مَا مَنَعَكَ إِلَّا لِيُعْطِيكَ، وَلَا ابْتِلَاكَ إِلَّا لِيُعَافِيكَ، وَلَا أَمْرَ صَكَ إِلَّا لِيَسْفِيكَ، وَلَا أَمَاتَكَ إِلَّا لِيُحْيِيكَ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُفَارِقَ الرِّضَا عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَتَسْقُطَ مِنْ عَيْنِهِ».

الثَّالِثُ والأربعون: أن يعلم أنه سبحانه هو الأوَّل قبل كلِّ شيءٍ، والآخر بعد كلِّ شيءٍ، والمظهر لكلِّ شيءٍ، والمالك لكلِّ شيءٍ، وهو الَّذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحدٍ معه اختيارٌ، ولا يشرك في حكمه أحدًا، والعبد لم يكن شيئًا مذكورًا؛ فهو سبحانه الَّذي اختار وجوده، واختار أن يكون كما قدره له وقضاه: من عافيةً وبلاءً، وغنىً وفقرٍ، وعزٍّ وذلٍّ، ونباهةٍ وخمولٍ، فكما تفرَّد سبحانه بالخلق<sup>(٢)</sup>، تفرَّد بالاختيار والتدبير، وليس للعبد شيءٌ من ذلك؛ فإنَّ الأمر كله لله، (وقد قال تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فإذا تيقَّن العبد أنَّ الأمر كله لله<sup>(٣)</sup>، وليس له من الأمر قليلٌ ولا كثيرٌ؛ لم يكن له معوَّلٌ بعد ذلك غير الرِّضا بمواقع الأقدار، وما يجري به من ربِّه الاختيار.

الرَّابِعُ والأربعون: أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها؛ لأنَّ الرِّضا صفة الله

فسؤال العافية من ذلك جائز وقد يكون الدعاء بكشفه أفضل بحسب مقصود الداعي، وقد يكون التفويض والتسليم بقدر الله أفضل، وكذلك قد يكون الصبر مع اختيار ترك الدعاء أفضل كما في قصة المرأة التي كانت تصرع فسألته أن يدعو لها فقال لها الرسول ﷺ: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيك». فقالت: إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف فدعا لها [البخاري (٥٦٥٢)].

وهذا التقسيم يحصل الجمع بين ما ورد في النصوص من الدعاء وتركه، والله أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (لك).

(٢) جملة: (تفرَّد سبحانه بالخلق) ساقطة من نسخة المنار.

(٣) الجملة من قوله: (وقد قال تعالى لِنَبِيِّهِ...) (إلى قوله: كله لله) ساقطة من «غ» والمنار.

والجنة خلقه؛ قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] بعد قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١) [التوبة: ٧٢]. وهذا الرضا جزاءً على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال.

الخامس والأربعون: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات لم يتخير عليه المسائل، وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك، وجعل ذكره في محل سؤاله، بل يكون من (٢) سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه؛ فهذا يعطى أفضل ما يعطاه سائل، كما جاء في الحديث: «مَنْ سَأَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ» (٣). فإن السائلين سألوه؛ فأعطاهم الفضل الذي سألوه، والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا، بل أصحابه ملحون في سؤاله ذلك.

السادس والأربعون: أن النبي ﷺ كان يندب إلى أعلى المقامات، فإن عجز العبد عنه: حطه إلى المقام الوسط، كما قال: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» (٤). فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، ثم قال: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (٥). فحطه عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني، وهو العلم باطلاع الله عليه ورؤيته له، ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء.

وكذا الحديث الآخر: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرِّضَا مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا» (٦). فرفعه إلى أعلى المقامات، ثم رده إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى.

فالأول: مقام الإحسان.

والذي حطه إليه: مقام الإيمان، وليس دون ذلك إلا مقام الخسران.

(١) في «غ» والمنار لم تتم الآية، وإنما نهايتها عند قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثم قال: إلى قوله: ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(٢) كلمة: (من) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) عزاه الحافظ العراقي في «تخريج إحياء علوم الدين» للبخاري في «التاريخ الكبير»، والبزار في «مسنده»، والحديث ضعيف. انظر: «اللائع المصنوعة» (٢/٣٤٢).

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٤٧).

(٥) تقدم تخريجه (ص ١٤٧).

(٦) تقدم تخريجه (ص ٢٢٣).

﴿السَّابِعُ وَالْأَرْبَعُونَ﴾: أَنَّهُ ﷺ أَتَى عَلَى الرَّاضِينَ بِمَرِّ الْقَضَاءِ بِالْحَكْمِ وَالْعِلْمِ وَالْفِقْهِ، وَالْقُرْبِ مِنْ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْوَفْدِ الَّذِينَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ؟». فَقَالُوا: مُؤْمِنُونَ. فَقَالَ: «مَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ؟». فَقَالُوا: الصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمَرِّ الْقَضَاءِ، وَالصَّدْقُ فِي مَوَاطِنِ اللَّقَاءِ، وَتَرْكُ الشَّمَاتَةِ بِالْأَعْدَاءِ. فَقَالَ: «حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ»<sup>(١)</sup>.

﴿الثَّامِنُ وَالْأَرْبَعُونَ﴾: أَنَّ الرِّضَا آخِذٌ بِزَمَانِ مَقَامَاتِ الدِّينِ كُلِّهَا، وَهُوَ رُوحَهَا وَحَيَاتُهَا؛ فَإِنَّهُ رُوحُ التَّوَكُّلِ وَحَقِيقَتُهُ، وَرُوحُ الْيَقِينِ، وَرُوحُ الْمَحَبَّةِ، وَصَحَّةُ الْمَحَبِّ، وَدَلِيلُ صَدَقِ الْمَحَبَّةِ، وَرُوحُ الشُّكْرِ وَدَلِيلُهُ.

قال الربيع بن أنس: «عَلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ: كَثْرَةُ ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تُحِبُّ شَيْئًا إِلَّا أَكْثَرْتَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَعَلَامَةُ الدِّينِ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَعَلَامَةُ الشُّكْرِ: الرِّضَا بِقَدْرِ اللَّهِ وَالتَّسْلِيمُ لِقَضَائِهِ». وقال أحمد بن أبي الحواري: «ذَكَرْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ فِي الْخَبَرِ الْمَرْوِيِّ: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الْحَمَّادُونَ»<sup>(٢)</sup>. فقال: ويحك! ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصى عليك، إذا كنت كذلك فارجع إلى الصَّابرين، إنما الحمد: أن تحمده وقلبك مسلمٌ راضٍ».

فصار الرِّضَا كَالرُّوحِ لِهَذِهِ الْمَقَامَاتِ، وَالْأَسَاسُ الَّذِي تَنْبَنِي عَلَيْهِ، وَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْهَا بَدُونَهُ أَلْبَتَّةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿التَّاسِعُ وَالْأَرْبَعُونَ﴾: أَنَّ الرِّضَا يَقُومُ مَقَامَ كَثِيرٍ مِنَ التَّعَبُّدَاتِ الَّتِي تَشَقُّ عَلَى الْبَدَنِ، فَيَكُونُ رِضَاهُ أَسْهَلَ عَلَيْهِ، وَأَلْذَلَّهُ، وَأَرْفَعُ فِي دَرَجَتِهِ.

وقد ذكر في أثرٍ إسرائيليٍّ: «أَنَّ عَابِدًا عَبَدَ اللَّهَ دَهْرًا طَوِيلًا، فَأَرِيَ فِي الْمَنَامِ: أَنَّ فَلَانَةَ الرَّاعِيَةَ رَفِيقَتُكَ فِي الْجَنَّةِ، فَسَأَلَ عَنْهَا، إِلَى أَنْ وَجَدَهَا، فَاسْتَصَافَهَا ثَلَاثًا لِيَنْظُرَ إِلَى عَمَلِهَا، فَكَانَ يَبِيتُ قَائِمًا وَتَبِيتُ نَائِمَةً، وَيَطَّلُ صَائِمًا وَتَطَّلُ مُفْطِرَةً، فَقَالَ لَهَا: أَمَا لَكَ عَمَلٌ غَيْرُ مَا رَأَيْتُ؟ قَالَتْ: مَا هُوَ وَاللَّهِ غَيْرُ مَا رَأَيْتُ - أَوْ قَالَتْ: إِلَّا مَا رَأَيْتُ - لَا أَعْرِفُ غَيْرَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ لَهَا: تَذَكَّرِي. حَتَّى قَالَتْ: خُصِيْلَةٌ»

(١) عزاه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» إلى أبي نعيم في «الحلية»، والخطيب في «التاريخ» من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف (٥٤/١)، وذكره ابن حجر في «الإصابة» في ترجمة سويد بن الحارث (١٥١/٣)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٢٧٩/٩).

(٢) رواه الحاكم (٥٠٢/١)، وقال: على شرط مسلم وأقره الذهبي، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٨/١٠)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٦٣٢).

وَاحِدَةٌ هِيَ فِيّ، وَذَلِكَ: أَنِّي إِنْ كُنْتُ فِي شِدَّةٍ لَمْ أَتَمَنَّ أَنِّي فِي رَحَاءٍ، وَإِنْ كُنْتُ فِي مَرَضٍ لَمْ أَتَمَنَّ أَنِّي فِي صِحَّةٍ، وَإِنْ كُنْتُ فِي شَمْسٍ لَمْ أَتَمَنَّ أَنِّي فِي الظِّلِّ. قَالَ: فَوَضَعَ الْعَابِدُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ: أَهَذِهِ حُصَيْلَةٌ؟ هَذِهِ وَاللَّهِ حُصَلَةٌ عَظِيمَةٌ يَعْجِزُ عَنْهَا الْعِبَادُ» (١).

وقد روى ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ رَضِيَ بِمَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ غُفِرَ لَهُ».

وفي أثر مرفوع: «خَيْرٌ مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ» (٢).

وفي أثر آخر: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ، فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ، فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ» (٣).

وفي أثر: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلُوا مُوسَى أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ أَمْرًا إِذَا هُمْ فَعَلُوهُ رَضِيَ عَنْهُمْ، فَقَالَ مُوسَى: رَبِّ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ. فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ: يَرْضَوْنَ عَنِّي حَتَّى أَرْضَى عَنْهُمْ» (٤).

وفي أثر آخر عن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَنْظُرْ مَا لِلَّهِ عِنْدَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ يُنَزِّلُهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ» (٥).

وفي أثر آخر: «مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ، رَضِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ» (٦).

وقال بعض العارفين: «أَعْرِفْ فِي الْمَوْتَى عَالِمًا يَنْظُرُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَانِ فِي قُبُورِهِمْ، يُغْدَى عَلَيْهِمْ وَيُرَاحُ بَرَزِقِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، وَهُمْ فِي غُومٍ وَكُرُوبٍ فِي الْبَرَزَخِ، لَوْ قَسَمْتَ عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ لَمَاتُوا أَجْمَعِينَ».

(١) هذه قصة إسرائيلية، ومثلها لا يعول عليه في إثبات شيء من أمور الدين، وقد جاءت الرخصة في التحديث عن بني إسرائيل في قوله صلى الله عليه وآله: «حدثوا عن نبي إسرائيل ولا حرج». [صحيح أبي داود] (٣١١٠)، ولهذا درج العلماء على الاستشهاد بالأخبار الإسرائيلية مما لم يعلم كذبه، ولا سيما إذا دلت على معان صحيحة، وقد أورد ابن القيم رحمه الله تعالى هذه القصة للاستشهاد بها على فضل الرضا بقضاء الله تعالى، ورجحانه على كثير من الأعمال البدنية الشاقة، ولا ريب أن الرضا عن الله تعالى في تدبيره مقام شريف قد يبلغ به العبد من المنزلة عند الله صلى الله عليه وآله ما لم يبلغه بكثير من الطاعات مع الغفلة عن هذا المقام، وهذا المعنى هو أحسن ما يحمل عليه حال تلك المرأة، وهو رضاها عن ربها في تقديره وتدبيره، وأما ما تشعر به القصة من تركها للدعاء والمدافعة فلا يسلم ذلك على الإطلاق؛ فإن الله صلى الله عليه وآله قد أخبر عن أنبيائه أنهم دعوه لكشف ضرهم، وكرؤوبهم كما ذكر ذلك عن أيوب ويونس عليهما السلام.

(٢) لم أجده.

(٣) عزاه العراقي في «تخريج إحياء علوم الدين» (٩٩/٥) إلى الطبراني من حديث ابن عيينة الخولاني بلفظ: «إذا أراد الله بعبد خيرا ابتلاه، وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا». بسند ضعيف. انظر: تخريج الحديث في «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» للحداد رقم (٣٧٠٨)، (٣٧٥٨)، (٣٧٧٠).

(٤) انظر: «الحلية» (١/١٣٢).

(٥) روا الحاكم (١/٤٩٤)، وقال الذهبي: عمر بن عبد الله مولى عفرة: ضعيف. وانظر: «الحلية» (٧/٢٧١).

(٦) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء»: رويناه في أمالي המחاملي بإسناد ضعيف. (٥/٢٦٦٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٥٦٠١).

قِيلَ: وَمَا كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ؟ قَالَ: كَانُوا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ التَّوَكُّلِ وَلَا مِنَ الرِّضَا نَصِيبٌ».

وفي وصية لقمان لابنه: «أوصيك بخصال تُقربك من الله، وتبعدك من سخطه: أن تعبد الله لا تُشرك به شيئاً، وأن ترضى بقدر الله فيما أحببت وكرهت».

وقال بعض العارفين: «من يتوكل على الله، ويرض بقدر الله فقد أقام الإيمان، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التي تصلح للعبد أمره».

كلمة الخمسون: أن الرضا يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس؛ فإن حسن الخلق من الرضا وسوء الخلق من السخط، وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

كلمة الحادي والخمسون: أن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واعتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته، ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأفضيته؛ ولهذا سمى بعض العارفين الرضا: حسن الخلق مع الله؛ فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه؛ فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر! ولا يقول: هذا يوم شديد الحر، أو شديد البرد<sup>(١)</sup>. ولا يقول: الفقر بلاء، والعيال هم وغم، ولا يسمي شيئاً قضاة الله وقدره باسم مذموم إذا لم يذمه الله ﷻ؛ فإن هذا كله ينافي رضاء.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القدر». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل».

وقال ابن أبي الحواري - أو قيل له -: «إن فلاناً قال: وددت أن الليل أطول مما هو. فقال: قد أحسن، وقد أساء، أحسن حيث تمنى طوله للعبادة والمناجاة، وأساء حيث تمنى ما لم يرده الله،

(١) وصف اليوم بأنه حار أو بارد أو ممطر على وجه الإخبار لا ينافي الرضا بقضاء الله ﷻ، وهذا لوط رضي الله عنه قال عن اليوم الذي جاءه قومه يريدون الشر بأضيافه: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧)، ولا ريب أن الاعتراض على الله سبحانه في تدبير ملكه ينافي الرضا بحكمه والإيمان بحكمته، وما ذكر من العبارات إن كانت على وجه الاعتراض على الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا وكذا، فهذا هو المحذور، وإن كانت على وجه الإخبار بالواقع الذي قدره الله فهذا لا شيء فيه، وتسمية الأشياء المكروهة بأسمائها كالمرض والجوع والعطش والحر والبرد، وكرهاتها الطبيعية لا ينافي الرضا عن الله ﷻ في خلقها وتقديرها.

وَأَحَبَّ مَا لَمْ يُحِبَّهُ اللَّهُ».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَا أَبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتُ وَأَمْسَيْتُ مِنْ شِدَّةِ أَوْ رَخَاءِ». وقال يوماً لامرأته عاتكة، أخت سعيد بن زيد - وقد غضب عليها: «وَاللَّهِ لَأَسْوَأَنَّكَ. فَقَالَتْ: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْرِفَنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لَهُ<sup>(١)</sup>؟ قَالَ: لَا. فَقَالَتْ: فَأَيُّ شَيْءٍ تَسْؤُنِي بِهِ إِذَنْ؟!».

تريد أنها راضية بمواقع القدر، لا يسوءها منه شيء إلا صرفها عن الإسلام، ولا سبيل له إليه. وقال الثوري يوماً عند رابعة: «اللَّهُمَّ ارْضَ عَنَّا. فَقَالَتْ: أَمَا تَسْتَجِي أَنْ تَسْأَلَ الرَّضَا عَنْكَ<sup>(٢)</sup> وَأَنْتَ غَيْرُ رَاضٍ عَنْهُ؟ فَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ. ثُمَّ قَالَ لَهَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ: مَتَى يَكُونُ الْعَبْدُ رَاضِيًا عَنِ اللَّهِ؟ فَقَالَتْ: إِذَا كَانَ سُرُورُهُ بِالْمُصِيبَةِ مِثْلَ سُرُورِهِ بِالنِّعْمَةِ»<sup>(٣)</sup>.

وفي أثر إلهي: «مَا لِأَوْلِيَائِي وَالْهَمِّ بِالْدُنْيَا؟ إِنَّ اللَّهَ بِالْدُنْيَا يُدْهَبُ حَلَاوَةً مُنَاجَاتِي مِنْ قُلُوبِهِمْ». وقيل: أكثر الناس همًا بالدنيا أكثرهم همًا في الآخرة، وأقلهم همًا بالدنيا<sup>(٤)</sup> أقلهم همًا في الآخرة.

فالإيمان بالقدر والرضا به يذهب عن العبد الهم والغم والحزن.

«وَذَكِّرْ عِنْدَ رَابِعَةٍ وَلِيَّيَ اللَّهِ قُوَّتُهُ مِنَ الْمَزَابِلِ، فَقَالَ رَجُلٌ عِنْدَهَا: مَا ضَرَّ هَذَا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ رِزْقَهُ فِي غَيْرِ هَذَا؟ فَقَالَتْ: اسْكُتْ يَا بَطَّالُ؛ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ أَرْضَى عَنْهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلُوهُ أَنْ يَنْقُلَهُمْ إِلَى مَعِيشَةٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَخْتَارُ لَهُمْ؟»<sup>(٥)</sup>.

(١) كلمة: (له) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة: (عنك) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) سبحان الله! كيف لا يسأل العبد رضاء ربه وهذا غاية وأشرف ما سأله السائلون؟ وكيف لا يبلغ رضا ربه إلا إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة؟! أليس في هذا مصادمة للطبيعة البشرية التي خلقها الله تعالى في الإنسان، وهل في حزن الرسول صلى الله عليه وآله على موت ابنه إبراهيم يعد سرورًا أم حزنًا، إن الخير كل الخير في اتباع هديه صلى الله عليه وآله، وفي ثبوت ذلك عن الإمام الثوري نظر؛ فإنه يبعد عن مثله رحمه الله تعالى أن يستغفر من سؤاله الرضا من ربه تعالى، بل إن صحت القصة فإن استغفاره يكون عن تقصيره في الرضا عن ربه، وأما ما ذكر عن رابعة فلا يستبعد ولا يستغرب.

(٤) في «غ»: (في الدنيا).

(٥) ما أصدق هذا في التعبير عن دين وطريق الصوفية المبتدعة، وعن حياتهم المخالفة لطريقة الرسول صلى الله عليه وآله، أما المؤمنون المتقون؛ فيأخذون طريق رسول الله صلى الله عليه وآله الذي أرسله الله ليرحم به الإنسانية، ويرفعها من ترهات الصوفية إلى درجات شكر الله بتحري أخذ وتعاطي الطيبات الكريمة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ولذلك وصف الله رسوله الداعي إلى الطيبات: بأنه يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. اهـ (الفتي) بتصرف يسير.

وفي أثر إسرائيلي: «أَنَّ مُوسَى ﷺ سَأَلَ رَبَّهُ عَمَّا فِيهِ رِضَاهُ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّ رِضَاهُ فِي كُرْهِكَ، وَأَنْتَ لَا تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا تَكْرَهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، ذَلَّنِي عَلَيْهِ. فَقَالَ: إِنَّ رِضَاهُ فِي رِضَاكَ بِقَضَائِي».

وفي أثر آخر: «أَنَّ مُوسَى ﷺ قَالَ: يَا رَبِّ، أَيُّ خَلْقِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: مَنْ إِذَا أَخَذْتُ مِنْهُ مَحْبُوبَهُ سَأَلْتَنِي. قَالَ: فَأَيُّ خَلْقِكَ أَنْتَ عَلَيْهِ سَاخِطٌ؟ قَالَ: مَنْ اسْتَحَارَنِي فِي أَمْرٍ فَإِذَا قَضَيْتَهُ لَهُ سَخِطْتُ قَضَائِي».

وفي أثر آخر: «أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، فَذَرْتُ التَّقَادِيرَ، وَدَبَّرْتُ التَّدَابِيرَ، وَأَحْكَمْتُ الصَّنْعَ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِي، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ حَتَّى يَلْقَانِي».

﴿الثاني والخمسون: أن أفضل الأحوال: الرغبة في الله ولوازمها، وذلك لا يتم إلا باليقين، والرضا عن الله.

ولهذا قال سهل: «حَظُّ الْخَلْقِ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى قَدْرِ حَظِّهِمْ مِنَ الرِّضَا، وَحَظُّهُمْ مِنَ الرِّضَا عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِهِمْ فِي اللَّهِ».

﴿الثالث والخمسون: أن الرضا يخلصه من عيب ما لم يعبه الله، ومن ذم ما لم يذمه الله؛ فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعاييب، وذمه بأنواع المذام، وذلك منه قلة حياء من الله، وذم لما ليس له ذنب، وعيب لخلقه، وذلك يسقط العبد من عين ربه، ولو أن رجلاً صنع لك طعاماً، وقدمه إليك فعبته وذمته، لكنت متعرّضاً لمقتته وإهانته، ومستدعيًا منه أن يقطع ذلك عنك.

وقد قال بعض العارفين: «إِنَّ ذَمَّ الْمَصْنُوعِ وَعَيْبَهُ إِذَا لَمْ يَذُمَّهُ صَانِعُهُ غِيْبَةٌ لَهُ وَقَدْحٌ فِيهِ».

﴿الرابع والخمسون: أن النبي ﷺ سأل الله الرضا بالقضاء، كما في «المُسْنَدِ» و«السُّنَنِ»: «اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْبَبْتَنِي إِذَا كَانَتْ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّيْتَنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتِكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْعُضْبِ وَالرِّضَا، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَيَّ وَجْهَكَ الْكَرِيمِ، وَأَسْأَلُكَ الشُّوقَ إِلَيَّ

هذا وليس كل ما ينسب إلى رابعة وغيرها من أعلام الصوفية يكون صحيحًا، وقد جرت العادة في الأخبار أن ينسب إلى كل من اشتهر بشيء ما يناسبه لما عرف من حاله، وإذا وجد وليٌّ من أولياء الله قوته من المزابيل فذلك راجع إلى بتلائمه بالفقر ولا يلزم من ذلك اختياره لذلك، ولا أنه لم يسأل الله أن يغنيه بسبيل عيش كريم لا مذلة فيه وتعليق الشيخ (الفقي) ﷺ وورد على قول رابعة في أن الولي لا يسأل ربه حالاً غير الحال التي هو فيها وانظر إلى التعليق (ص ٢٨٩).



لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيْنًا بَزِينَةَ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ» (١).  
 سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه (٢) يقول: «سَأَلَهُ الرَّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ؛ لِأَنَّهُ حِينِيذٍ تَبَيَّنَ حَقِيقَةُ الرَّضَا، وَأَمَّا الرَّضَا قَبْلَهُ: فَإِنَّمَا هُوَ عَزْمٌ عَلَى أَنَّهُ يَرْضَى إِذَا أَصَابَهُ، وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ الرَّضَا بَعْدَهُ».

قال البيهقي: وَرَوَيْنَا فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الصَّحَّةَ، وَالْعِفَّةَ، وَالْأَمَانَةَ، وَحُسْنَ الْخُلُقِ، وَالرِّضَا بِالْقَدْرِ» (٣).

الخامس والخمسون: أَنَّ الرِّضَا بِالْقَدْرِ يَخْلُصُ الْعَبْدَ مِنْ أَنْ يَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ يَذْمَهُمْ عَلَى مَا لَمْ يَأْتِهِ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يَحْمَدَهُمْ عَلَى مَا هُوَ عَيْنُ فَضْلِ اللَّهِ؛ فَيَكُونُ ظَالِمًا لَهُمْ فِي الْأَوَّلِ - وَهُوَ رِضَاهُمْ وَذَمُّهُمْ - مَشْرُكًا بِهِمْ فِي الثَّانِي - وَهُوَ حَمْدُهُمْ - فَإِذَا رَضِيَ بِالْقَضَاءِ تَخَلَّصَ مِنْ ذَمِّهِمْ وَحَمْدِهِمْ، فَخَلَّصَهُ الرَّضَا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وقد روى عمرو بن قيس الملائني عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ: أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ؛ إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ جِرْضٌ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ بِحِكْمَتِهِ جَعَلَ الرِّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرَّضَا وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسُّخْطِ» (٤). وقد رواه الثوري عن منصور عن خيثمة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ.

السادس والخمسون: أَنَّ الرِّضَا يَفْرِّغُ قَلْبَ الْعَبْدِ، وَيَقْلِلُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ، فَيَتَفَرَّغُ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ بِقَلْبٍ خَفِيفٍ مِنْ أَثْقَالِ الدُّنْيَا وَهَمومِهَا وَغَمومِهَا.

كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن بشر المجاشعي - وكان من العلماء - قال: «قُلْتُ لِعَابِدِ: أَوْصِنِي. قَالَ: أَلْتَقِيَ نَفْسَكَ مَعَ الْقَدْرِ حَيْثُ أَلْفَاكَ؟ فَهُوَ أَحْرَى أَنْ يُفْرَغَ قَلْبُكَ، وَيَقْلِلَ هَمُّكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَسْخَطَ ذَلِكَ فَيَحِلَّ بِكَ السُّخْطُ وَأَنْتَ عَنْهُ فِي غَفْلَةٍ لَا تَشْعُرُ بِهِ، فَيَلْقَبَكَ مَعَ الَّذِي سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

(١) رواه النسائي في السهو، باب: نوع آخر من الدعاء (٥٤/٣) عن عمار بن ياسر رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (١٢٣٧).

(٢) جملة: (قدس الله روحه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٣/١٠)، وعزاه إلى الطبراني والبخاري، وقال: «أسألك العصمة» بدل «الصحة»، وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وهو ضعيف الحديث وقد وثق، وبقية رجال أحد الإسنادين رجال الصحيح. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (١١٩١).

(٤) عزاه السيوطي في «الجامع الصغير» لأبي نعيم في «الحلية» والبيهقي مرفوعاً إلى الرسول ﷺ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» برقم (٢٠٠٩).

وقال بعض السلف: «ذَرُوا التَّدْبِيرَ وَالْإِخْتِيَارَ تَكُونُوا فِي طَيْبٍ مِنَ الْعَيْشِ؛ فَإِنَّ التَّدْبِيرَ وَالْإِخْتِيَارَ يُكَدِّرُ عَلَى النَّاسِ عَيْشَهُمْ».

وقال أبو العباس بن عطاء: «الْفَرَحُ فِي تَدْبِيرِ اللَّهِ لَنَا، وَالشَّقَاءُ كُلُّهُ فِي تَدْبِيرِنَا».

وقال سفيان بن عيينة: «مَنْ لَمْ يَصْلُحْ عَلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ لَمْ يَصْلُحْ عَلَى تَقْدِيرِ نَفْسِهِ».

وقال أبو العباس الطوسي: «مَنْ تَرَكَ التَّدْبِيرَ عَاشَ فِي رَاحَةٍ».

وقال بعضهم: «لَا تَجِدِ السَّلَامَةَ حَتَّى تَكُونَ فِي التَّدْبِيرِ كَأَهْلِ الْقُبُورِ»<sup>(١)</sup>.

وقال: «الرِّضَاءُ تَرَكَ الْخِلَافِ عَلَى الرَّبِّ فِيمَا يُجْرِيهِ عَلَى الْعَبْدِ».

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ تَرَكَتَنِي هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتُ، وَمَا لِي فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ كُلِّهَا

أَرْبُ، إِلَّا فِي مَوَاقِعِ قَدْرِ اللَّهِ». وكان كثيرا ما يدعو: «اللَّهُمَّ رَضِّنِي بِقَضَائِكَ، وَبَارِكْ لِي فِي قَدْرِكَ؛ حَتَّى لَا أُحِبَّ تَعْجِيلَ شَيْءٍ أَخْرَجْتَهُ، وَلَا تَأْخِيرَ شَيْءٍ عَجَلْتَهُ».

وقال: «مَا أَصْبَحَ لِي هَوَى فِي شَيْءٍ سِوَى مَا فَضَى اللَّهُ عَبْدَهُ».

وقال شعبة: «قَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: مَا تَمَنَيْتُ شَيْئًا قَطُّ».

وقال الفضيل بن عياض<sup>(٢)</sup>: «الرَّاضِي لَا يَتَمَنَّي فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ».

وقال ذو النون: «ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ التَّسْلِيمِ: مُقَابَلَةُ الْقَضَاءِ بِالرِّضَا، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرُ

عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ التَّفْوِيضِ: تَعْطِيلُ إِزَادَتِكَ لِمُرَادِهِ، وَالنَّظَرُ إِلَى مَا يَقَعُ مِنْ تَدْبِيرِهِ لَكَ، وَتَرَكَ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى الْحُكْمِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ التَّوْحِيدِ: رُؤْيَةُ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ اللَّهِ، وَقَبُولُ كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ، وَإِضَافَةُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ».

(١) فلماذا خلقنا الله نسمع ونبصر ونعقل، وابتلانا بهذه الحياة وما فيها من العقبات، ورضنا على اقتحامها؟ وفطرنا على أن نكدح إليه كدحا، فنلاقيه، ونرجع إليه بما كسبت أيدينا، من أحد السبيلين: إما شاكرًا، وإما كفورًا، وأعطانا من الإرادة والمشيئة والاختيار ما يقوم عليه ميزان الحساب والجزاء في الأولى والأخرى؟ أليس الله أحكم الحاكمين؟ سبحانه ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الْأَخْرَجَةِ نَزَدَ لَهُ، فِي حَرَّتِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الدُّنْيَا نُؤِيَهُ وَمَهَا لَهُ، فِي الْأَخْرَجَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، والله الهادي إلى سواء السبيل. (الفقهي).

تعليق: هذا الكلام من الشيخ (الفقهي) رحمه الله تعالى يدل على أنه لم يفهم مراد القائل منه، وجاء بهذا التعقيب على ظاهر اللفظ، ومعلوم أن من يطلق هذا من أهل التصوف إنما يريد كمال التسليم للقدر كقول بعضهم: (العارف من يكون كالميت بين يدي الغاسل). ومعناه ألا يكون له إرادة لا في طلب ولا في دفع، وهذا على الإطلاق لا يمكن ولا يحمده، وإنما يحمده من ذلك ترك العبد الإرادة التي لم يؤمر بها، وترك حظه الذي لم يؤمر به، أو دفع ما لم يؤمر بدفعه، ومعنى ذلك: أن التسليم المحمود هو التسليم للشرع والتسليم للقدر في ضوء التسليم للشرع وتحكيمه. (انظر: «التدمرية» (ص ٢٢٠)، ت: د. محمد السعوي).

(٢) جملة: (ابن عياض) غير موجودة في «غ» والمنار.

وقال بعض العارفين: أصل العبادة ثلاثة: لا ترد من أحكامه شيئاً، ولا تسأل غيره حاجة، ولا تدخر عنه شيئاً.

وسئل ابن شمعون عن الرضا؟ فقال: «أَنْ تَرْضَى بِهِ مُدَبَّرًا وَمُخْتَارًا، وَتَرْضَى عَنْهُ قَاسِمًا وَمُعْطِيًا وَمَانِعًا، وَتَرْضَاهُ إِلَهًا وَمَعْبُودًا وَرَبًّا».

وقال بعض العارفين: «الرَّضَا تَرْكُ الْإِخْتِيَارِ، وَسُرُورُ الْقَلْبِ بِمُرِّ الْقَضَاءِ، وَإِسْقَاطُ التَّدْبِيرِ مِنَ النَّفْسِ، حَتَّى يَحْكَمَ اللَّهُ لَهَا أَوْ عَلَيْهَا» (١).

وقيل: الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا، ولم يتأسف عليها.

ولله درُّ القائل:

وَالدَّهْرُ ذُو دُولٍ وَالرَّزْقُ مَقْسُومٌ      الْعَبْدُ ذُو صَجَرٍ وَالرَّبُّ ذُو قَدَرٍ  
وَفِي اخْتِيَارِ سِوَاهُ اللُّومُ وَالشُّومُ      وَالْحَيْرُ أَجْمَعُ فِيمَا اخْتَارَ خَالِقُنَا

السابع والخمسون: أنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لوم المقادير، إمّا بقالبه، وإمّا بقلبه وحاله، ولوم المقادير لومٌ لمقدّرها، وكذلك يقع في لوم الخلق، والله والناس يلومونه، فلا يزال لائمًا ملومًا، وهذا منافٍ للعبودية.

قال أنس رضي الله عنه خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي لشيء فعلته؟ لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ ولا قال لي لشيء كان: ليته لم يكن، ولا لشيء لم يكن: ليته كان، وكان بعض أهله إذا لامني يقول: «دَعُوهُ؛ فَلَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ» (٢).

وقوله: «لَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ». يتناول أمرين:

- أحدهما: ما لم يوجد من مراد العبد.

- والثاني: ما وجد ممّا يكرهه.

وهو (٣) يتناول فوات المحبوب، وحصول المكروه، فلو قضى الأوّل لكان، ولو قضى خلاف الآخر لكان، فإذا استوت الحالتان بالنسبة إلى القضاء، فعبودية العبد: أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلى رضاه، وهذا موجب العبودية ومقتضاها.

يوضح:

الثامن والخمسون: أنه إذا استوى الأمران بالنسبة إلى رضا الربّ تعالى؛ فهذا رضيه لعبده

(١) في «غ» والمنار: (وعليها).

(٢) تقدم تخريجه (١/٢٠٢).

(٣) كلمة (هو): غير موجودة في «غ».

فقدَّره، وهذا لم يرضه له فلم يقدره، فكمال الموافقة: أن يستويا بالنسبة إلى العبد؛ فيرضى ما يرضيه له ربُّه في الحالين.

﴿التَّاسِعُ وَالْخَمْسُونَ﴾: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى عَنِ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَدِي رَسُولِهِ فِي حُكْمِهِ الدِّيْنِيِّ الشَّرْعِيِّ، وَذَلِكَ عِبُودِيَّةٌ هَذَا الْأَمْرُ؛ فِعْبُودِيَّةٌ أَمْرُهُ الْكُونِيُّ الْقَدْرِيُّ: أَلَّا يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا حَيْثُ كَانَتِ الْمَصْلِحَةُ الرَّاجِحَةُ فِي ذَلِكَ، فَيَكُونُ التَّقَدُّمُ أَيْضًا بِأَمْرِهِ (١) الْكُونِيُّ وَالدِّيْنِيُّ، فَإِذَا كَانَ فَرْضُهُ الصَّبْرَ أَوْ نَدْبَهُ، أَوْ فَرْضُهُ الرِّضَا حَتَّى تَرَكَ ذَلِكَ - فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ.

﴿السُّتُونَ﴾: أَنَّ الْمَحَبَّةَ وَالْإِخْلَاصَ وَالْإِنَابَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى سَاقِ الرِّضَا. فَاَلْمَحَبُّ رَاضٍ عَنِ حَبِيبِهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ.

«وَقَدْ كَانَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتُسْقِيَ بِطُنْجِهِ، فَبَقِيَ مُلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ مُدَّةً طَوِيلَةً، لَا يَقُومُ وَلَا يَقْعُدُ، وَقَدْ نَقِبَ لَهُ فِي سَرِيرِهِ مَوْضِعٌ لِحَاجَتِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ مُطَرَفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الشَّخِيرُ (٢)، فَجَعَلَ يَبْكِي لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِ، فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ: لِمَ تَبْكِي؟ فَقَالَ: لِأَنِّي أَرَاكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْفَظِيحَةِ (٣). فَقَالَ: لَا تَبْكْ؛ فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَيَّ أَحَبَّهُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَخْبِرْكَ بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِ، وَاکْتُمَ عَلَيَّ حَتَّى أَمُوتَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَزُورُنِي فَأَنْسُ بِهَا، وَتُسَلِّمُ عَلَيَّ فَأَسْمَعُ تَسْلِيمَهَا» (٤).

«وَلَمَّا قَدِمَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى مَكَّةَ - وَقَدْ كُفَّ بَصْرُهُ - جَعَلَ النَّاسُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ لِيَدْعُو لَهُمْ، فَجَعَلَ يَدْعُو لَهُمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ السَّائِبِ: فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا غَلَامٌ، فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ، فَعَرَفَنِي، فَقُلْتُ: يَا عَمُّ، أَنْتَ تَدْعُو لِلنَّاسِ فَيُشْفَوْنَ، فَلَوْ دَعَوْتَ لِنَفْسِكَ لَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ بَصْرَكَ! فَتَبَسَّسَ، ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِيَّ، فَضَاءَ اللَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَصْرِي».

وقال بعض العارفين: «ذَنْبٌ أَذْنَبْتُهُ أَنَا أَبُجِي عَلَيْهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً. قِيلَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: قُلْتُ لَشَيْءٍ فَضَاءَ اللَّهُ: لَيْتَهُ لَمْ يَقْضِهِ، أَوْ لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ».

وقال بعض السلف: «لَوْ قَرَضَ لِحِمِي بِالْمَقَارِضِ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ لَشَيْءٍ فَضَاءَ اللَّهُ: لَيْتَهُ لَمْ يَقْضِهِ».

وقيل لعبد الواحد بن زيد: «هَاهُنَا رَجُلٌ قَدْ تَعَبَّدَ خَمْسِينَ سَنَةً. فَصَدَّهُ، فَقَالَ لَهُ: حَبِيبِي، أَخْبِرْنِي عَنْكَ، هَلْ قَنَعْتَ بِهِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ أَنْسَتَ بِهِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ رَضِيتَ عَنْهُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَإِنَّمَا

(١) في «غ» والمنار: (بأمره أيضًا).

(٢) في «غ»: (ابن الشخير).

(٣) في «غ» والمنار: (العظيمة).

(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/٥١٠، ٥١١)، وانظر: «طبقات ابن سعد» (٤/٢٩٠).

مَزِيدَكَ مِنْهُ الصَّوْمُ وَالصَّلَاةُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَوْلَا أَنِّي أَسْتَحِي مِنْكَ لَأَحْبَبْتُكَ أَنْ مُعَامَلْتِكَ خَمْسِينَ سَنَةً مَدْخُولَةً».

يعني أنه لم يقربه فيجعله في مقام المقرَّبين، فيوجده مواجيد العارفين، بحيث يكون مزیده لديه: أعمال القلوب، التي يستعمل بها كلَّ محبوبٍ مطلوبٍ؛ لأنَّ القناعة: حال الموقِّق، والأنس به: مقام المحبِّ، والرِّضا: وصف المتوكِّل، يعني: أنت عنده في طبقات أصحاب اليمين، فمزیدك عنده مزید العموم من أعمال الجوارح.

□ وقوله: «إِنَّ مُعَامَلَتَهُ مَدْخُولَةٌ».

يحتمل وجهين:

- أحدهما: أنها ناقصة عن معاملة المقرَّبين التي أوجبت لهم هذه الأحوال.  
- الثاني: أنها لو كانت صحيحة سالمة، لا علة فيها ولا غش لأثمرت له الأنس والرِّضا والمحبة، والأحوال العلية؛ فإنَّ الرَّبَّ تعالى شكورٌ، إذا وصل إليه عمل عبده جمَّل به ظاهره وباطنه، وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحسب عمله، فحيث لم يجد أثرًا في قلبه، من الأنس والرِّضا والمحبة استدلَّ على أنه مدخولٌ، غير سالمٍ من الآفات.

كالحادي والسُّتون: أن أعمال الجوارح تضاعف إلى حدِّ معلوم محسوبٍ، وأمَّا أعمال القلب فلا ينتهي تضعيفها؛ وذلك لأنَّ أعمال الجوارح لها حدُّ تنتهي إليه، وتقف عنده، فيكون جزاؤها بحسب حدِّها، وأمَّا أعمال القلوب فهي دائمة متصلة، وإن توارى شهود العبد لها.

مثاله: أن المحبة والرِّضا حال المحبِّ الرَّاضي، لا تفارقه<sup>(١)</sup> أصلاً، وإن توارى حكمها، فصاحبها في مزید متصل، فمزید المحبِّ الرَّاضي متصل بدوام هذه الحال له، فهو في مزید، ولو فترت جوارحه، بل قد يكون مزیده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزید كثيرٍ من أهل النَّوافل بما لا نسبة بينهما، ويبلغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزیده في حال نومه أكثر من مزید كثيرٍ من أهل القيام، وأكله أكثر من مزید كثيرٍ من أهل الصَّيام والجوع.

فإن أنكرت هذا فتأمل مزید نائمٍ بالله، وقيام غافلٍ عن الله، فالله سبحانه إنَّما ينظر إلى القلوب، والههم والعزائم، لا إلى صور الأعمال.

وقيمة العبد: همته وإرادته، فمن لا يرضيه غير الله - ولو أعطي الدنيا بحذافيرها - له شأنٌ، ومن يرضيه أدنى حظٍّ من حظوظها له شأنٌ، وإن كانت أعمالهما في الصُّورة واحدة، وقد تكون أعمال

(١) في «غ» والمنار: (لا يفارقه).

الميلتفت إلى الحظوظ أكثر وأشقَّ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقد اختلف أرباب هذا الشأن في مسألة، وهي: هل للرِّضا حدُّ ينتهي إليه؟

فقال أبو سليمان الدَّارانيُّ: «ثَلَاثُ مَقَامَاتٍ لَا حَدَّ لَهَا: الزُّهْدُ، وَالْوَرَعُ، وَالرِّضَا».

وخالفه سليمان ابنه - وكان عارفاً، حتَّى إنَّ من (١) النَّاسِ من كان يقدِّمه على أبيه - فقال: «بَلْ

مَنْ تَوَرَّعَ فِي كُلِّ شَيْءٍ: فَقَدْ بَلَغَ حَدَّ الْوَرَعِ، وَمَنْ زَهَدَ فِي غَيْرِ اللَّهِ، فَقَدْ بَلَغَ حَدَّ الزُّهْدِ، وَمَنْ رَضِيَ عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ: فَقَدْ بَلَغَ حَدَّ الرِّضَا».

وقد اختلفوا في مسألة تتعلَّق بذلك، وهي: أهل مقاماتٍ ثلاثة:

- أحدهم: يحبُّ (٢) الموت شوقاً إلى الله ولقائه.

- والثاني: يحبُّ البقاء للخدمة والتَّقَرُّبِ.

- وقال الثالث: لا أختار. بل أَرْضَى بما يختار لي مولاي، إن شاء أحياني، وإن شاء أماتني.

فتحاكموا إلى بعض العارفين، فقال: «صَاحِبُ الرِّضَا أَفْضَلُهُمْ؛ لِأَنَّهُ أَقْلُهُمْ فُضُولًا، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيَّ

السَّلَامَةِ».

ولا ريب أن مقام الرِّضا فوق مقام الشُّوق والزُّهد في الدُّنيا.

بقي النَّظَرُ في مقامي الآخرين: أَيُّهُمَا أَعْلَى؟

فَرَجَّحت طائفةٌ: مقام من أحبَّ الموت؛ لأنَّه في مقام الشُّوق إلى لقاء الله ومحبة لقاءه، ومن

أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه.

ورجَّحت طائفةٌ: مقام مرید (٣) البقاء لتنفيذ أوامر الرَّبِّ تعالى.

واحتجُّوا بأنَّ الأوَّلَ محبٌّ لحظِّه من الله، وهذا محبٌّ لمراد الله منه، لم يشبع منه، ولم يقض منه

وطراً.

قالوا: وهذا حال موسى - صلوات الله وسلامه عليه - حين لطم وجهه ملك الموت، ففقأ

عينه (٤)، لا محبةً للدُّنيا، ولكن لينفِذ أوامر ربِّه ومراضيه في النَّاسِ؛ فكأنَّه قال: أنت عبده، وأنا عبده،

وأنت في طاعته، وأنا في طاعته وتنفيذ أوامره.

(١) في «غ» والمنار: (في).

(٢) في «غ» والمنار: (أن يحب).

(٣) في «غ» والمنار: (مزید).

(٤) الحديث متفق عليه رواه البخاري في الجنائز، باب: من أحبَّ الدفن في الأرض المقدسة (١٣٣٩)، ورواه مسلم في

الفضائل، باب: من فضائل موسى ﷺ (٢٣٧٢).

كحجته وحيثيذ فنقول في الوجه الثاني والسّتين: إنّ حال الرّاضي المسلّم يتنظم حالهما جميعاً، مع زيادة التّسليم، وترك الاختيار؛ فإنّه قد غاب بمراد ربّه منه - من إحيائه وإماتته - عن مراده هو من هذين الأمرين، وكلّ محبّ فهو مشتاق إلى لقاء حبيبه، مؤثّر لمراضيه؛ فقد أخذ بزمام كلّ من المقامين، وأنّصف بالحالين، وقال: «أحبّ ذلك إليّ أحبّه إليّ لا أتمنّى غير رضاءه، ولا أتخير عليه إلاّ ما يحبّه ويرضاءه».

وهذا القدر كافٍ في هذا الموضوع، وبالله التّوفيق.

فلنرجع إلى شرح كلامه، قال: «الثاني: سقوط الخصومة عن الخلق».

يعني: أنّ الرضا إنّما يصحّ بسقوط الخصومة مع الخلق؛ فإنّ الخصوم تنافي حال الرضا، وتنافي نسبة الأشياء كلّها إلى من بيده أزمة القضاء والقدر؛ ففي الخصومة آفات:

- أحدها: المنازعة التي تضادّ الرضا.

- الثاني: نقص التّوحيد بنسبة ما يخاصم فيه إلى عبدٍ دون الخالق لكلّ شيء.

- الثالث: نسيان الموجب والسبب الذي جرّ إلى الخصومة، فلو رجع العبد إلى السبب

والموجب لكان اشتغاله بدفعه أجدى عليه، وأنفع له من خصومة من جرى على يديه؛ فإنّه - وإن كان ظالماً - فهو الذي سلطه على نفسه بظلمه؛ قال الله تعالى: ﴿أولمّا أصببكم مّصيبته قدّ أصببتم مّثلها قلنم أنّ هذا قل هو من عند أنفسكم﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فأخبر أنّ أذى عدوهم لهم، وغلبيتهم لهم: إنّما هو بسبب ظلمهم. وقال الله تعالى: ﴿ومّا أصببكم من مّصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير﴾ (٣٠) [الشورى: ٣٠].

فإذا اجتمعت بصيرة العبد على مشاهد القدر والتّوحيد والحكمة والعدل: انسدّ عنه باب خصومة الخلق، إلاّ فيما كان حقاً لله ورسوله؛ فالرّاضي لا يخاصم ولا يعاتب إلاّ فيما يتعلّق بحقّ الله، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ؛ فإنّه لم يكن يخاصم أحداً ولا يعاتبه إلاّ فيما يتعلّق بحقّ الله، كما أنّه كان لا يغضب لنفسه، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتّى ينتقم لله، فالمخاصمة لحظّ النّفس تطفئ نور الرضا، وتذهب بهجته، وتبدّل بالمرارة حلاوته<sup>(١)</sup>، وتكدر صفوه.

□ قال: «الشّرط الثالث: الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح».

وذلك: لأنّ المسألة<sup>(٢)</sup> فيها ضربٌ من الخصومة، والمنازعة والمحاربة، والرّجوع عن مالك

(١) في «غ» والمنار: (وتبدل حلاوته بالمرارة).

(٢) في «غ» والمنار: (لأنّ المسألة والإلحاح).

الصَّرِّ والنَّفْعِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا بِرَبِّهِ، وَفِيهَا (١) الْغِيْبَةُ عَنِ الْمَعْطِيِّ الْمَانِعِ.  
وَالْإِلْحَاحُ يَنَافِي حَالَ الرِّضَا وَوَصْفَهُ، وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا؛  
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ  
إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَسْأَلُونَ النَّاسَ مَا تَدْعُو حَاجَتَهُمْ إِلَى سُؤَالِهِ، وَلَكِنْ لَا يَلْحَفُونَ، فَنَفَى اللَّهُ عَنْهُمْ  
سُؤَالَ الْإِلْحَافِ، لَا مَطْلُقَ السُّؤَالِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِذَا كَانَ عِنْدَهُ عَدَاءٌ لَمْ يَسْأَلْ عَشَاءً، وَإِذَا كَانَ عِنْدَهُ عَشَاءٌ لَمْ يَسْأَلْ عَدَاءً».  
وَقَالَتْ طَائِفَةٌ - مِنْهُمْ الرَّجَّاحُ، وَالْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُمَا -: «بَلِ الْآيَةُ افْتَضَّتْ تَرْكَ السُّؤَالِ مُطْلَقًا؛ لِأَنََّّهُمْ  
وُصِفُوا بِالتَّعَفُّفِ، وَالمَعْرِفَةِ بِسِيمَاهُمْ، دُونَ الْإِفْصَاحِ بِالمَسْأَلَةِ؛ لِأَنََّّهُمْ لَوْ أَفْصَحُوا - بِالسُّؤَالِ لَمْ  
يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ».

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي وَجْهِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.  
فَقَالَ الرَّجَّاحُ: «المَعْنَى: لَا يَكُونُ مِنْهُمْ سُؤَالٌ، فَيَقَعُ إِلْحَافٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَتُهُ  
الشَّفِيعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أَي: لَا تَكُونُ شَفَاعَةٌ فَتَنْفَعُ، وَكَمَا فِي (٢) قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]  
أَي: لَا يَكُونُ عَدْلٌ فَيُقْبَلُ، وَنَظَائِرُهُ؛ قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

عَلَى لِاحِبٍ (٣) لَا يُهْتَدَى لِمَنَارِهِ

أَي: لَيْسَ لَهُ مَنَارٌ يَهْتَدَى بِهِ.

قَالَ ابْنُ الْأَبْيَارِيِّ: «وَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: لَا يَسْأَلُونَ أَلْبَتَّةَ، فَيُخْرِجُهُمُ السُّؤَالُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ إِلَى  
الْإِلْحَافِ، فَيَجْرِي هَذَا مَجْرَى قَوْلِكَ: فَلَانَ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ؛ أَي: لَيْسَ لَهُ خَيْرٌ فَيُرْجَى».  
وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: «لَمْ يَثْبُتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَسْأَلَةٌ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ المَعْنَى: لَيْسَ مِنْهُمْ مَسْأَلَةٌ، فَيَكُونُ مِنْهُمْ  
إِلْحَافٌ، قَالَ: وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

لَا يُفْزَعُ الْأَرْزَبَ أَهْوَالُهَا وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجِحِرُ

(١) فِي «غ» وَالمَنَارِ: (وَفِيهِمَا).

(٢) جُمْلَةٌ: (كَمَا فِي) سَاقِطَةٌ مِنْ «غ» وَالمَنَارِ.

(٣) اللّاحِبِ: الطَّرِيقِ الوَاسِعِ الوَاضِحِ.



أَي: لَيْسَ بِهَا<sup>(١)</sup> أَرْتَبْتُ فَتُفْرَعُ لِهَوْلِهَا، وَلَا ضَبُّ فَيَنْجَحِرَ». وقال الفراء: «نَفَى الْإِلْحَافَ عَنْهُمْ، وَهُوَ يُرِيدُ نَفَى جَمِيعِ السُّؤَالِ».

## فصل<sup>(٢)</sup>

و«المسألة» في الأصل حرام، وإنما أبيحت للحاجة والضرورة؛ لأنها ظلم في حق الربوبية، وظلم في حق المسئول، وظلم في حق السائل.

كلمة **أَمَّا الْأَوَّلُ**: فلأنه بذل سؤاله وقره وذلك واستعطاءه لغير الله، وذلك نوع عبودية، فوضع المسألة في غير موضعها، وأنزلها بغير أهلها، وظلم توحيد وإخلاصه، وقره إلى الله، وتوكله عليه ورضاه بقسمه، واستغنى بسؤال الناس عن مسألة رب الناس، وذلك كله يهضم من حق التوحيد، ويطغى نوره ويضعف قوته.

وأما ظلمه للمسئول: فلأنه سأله ما ليس عنده، فأوجب له بسؤاله عليه حقاً لم يكن له عليه، وعرضه لمشقة البذل، أو لوم المنع، فإن أعطاه أعطاه على كراهية، وإن منعه منعه على استحياء وإغماض، هذا إذا سأله ما ليس عليه، وأما إذا سأله حقاً هو له عنده فلم يدخل في ذلك، ولم يظلمه بسؤاله.

وأما ظلمه لنفسه: فإنه أراق ماء وجهه، وذلك لغير خالقه، وأنزل نفسه أدنى المنزلتين، ورضي لها بأبخس الحاليتين، ورضي بإسقاط شرف نفسه، وعزة تعفُّفه، وراحة قناعته، وباع صبره ورضاه وتوكله، وقناعته<sup>(٣)</sup> بما قسم له، واستغناءه عن الناس بسؤالهم، وهذا عين ظلمه لنفسه؛ إذ وضعها في غير موضعها، وأخمل شرفها، ووضع قدرها، وأذهب عزها، وصغرها وحقرها، ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسئول، ويده تحت يده، ولولا الضرورة لم يباح ذلك في الشرع.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُرَعَةٌ لَحْمٍ»<sup>(٤)</sup>.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ

(١) كلمة: (بها) غير موجودة في «غ».

(٢) هذا الفصل سبق أن ذكر معناه في «منزلة التوكل» (ص ٣٨٣): ونسبه ابن القيم إلى شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى.

(٣) في «غ» والمنار: (وقنعه).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٢١١).

تَكْثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»<sup>(١)</sup>.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَبِطَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَى النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلُهُ، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ»<sup>(٢)</sup>.

وفي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ، فَيَحْتَبِطَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ، وَيَسْتَعْنِي بِهِ عَنِ النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ؛ ذَلِكَ بَأَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَإِنْدَا بَمَنْ تَعُولُ»<sup>(٣)</sup>. زاد الإمام أحمد: «وَلَأَنْ يَأْخُذَ تَرَابًا فَيَجْعَلَهُ فِي فِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ فِي فِيهِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ»<sup>(٤)</sup>.

وفي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُرْمَةٍ مِنَ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكْفُ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»<sup>(٥)</sup>.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ. فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفذ ما عنده، فقال لهم - حين أنفق كل شيء بيده -: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرُهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفُ يُعْفِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِيَهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»<sup>(٦)</sup>.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر، وذكر الصدقة والتعفف والمسألة -: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، فَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَالْيَدُ السُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ»<sup>(٧)</sup>. رواه البخاري ومسلم.

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةٍ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافٍ نَفْسٍ لَمْ

(١) تقدم تخريجه (٢١٢).

(٢) البخاري في الزكاة، باب: الاستغفاف عن المسألة رقم (١٤٧٠)، ورواه مسلم في الزكاة، باب: كراهية المسألة للناس (١٠٤٢)، وأحمد في «المسند» (٢/٤٤٣، ٢٥٧).

(٣) إحدى روايات الحديث السابق.

(٤) إحدى روايات الحديث السابق.

(٥) البخاري في الزكاة، باب: الاستغفاف عن المسألة رقم (١٤٧١)، وأحمد (١/١٦٤).

(٦) تقدم تخريجه (ص ٢٣٣).

(٧) تقدم تخريجه (ص ٢١١).

يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى». قال حكيمٌ: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا، وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه. فأبى أن يقبل منه شيئًا. فقال عمر: إنني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم: أنني أعرض عليه حقه من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيمٌ رضي الله عنه أحدًا من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي (١). متفقٌ على صحته.

وروي عن الشعبي قال: حدثني كاتب المغيرة بن شعبة: قال: كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: أن اكتب إلي شيئًا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتب إليه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ» (٢). رواه البخاري ومسلم.

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا تُلْحِقُوا فِي الْمَسْأَلَةِ؛ فَوَاللَّهِ لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارَهُ فَيُبَارِكُ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ» (٣).

وفي لفظ: «إِنَّمَا أَنَا خَارِزٌ، فَمَنْ أُعْطِيَتْهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ فَيُبَارِكُ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أُعْطِيَتْهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ وَشَرِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ» (٤). رواه مسلم.

وعن أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه قال: حدثني الحبيب الأمين - أمّا هو: فحبيب إليّ، وأمّا هو عندي: فأمين - عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تِسْعَةً - أَوْ ثَمَانِيَةً، أَوْ سَبْعَةً - فَقَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟». وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِيَعْتَهُ؛ فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟». فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟». قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَاةَ الْحَمْسَ، وَتُطِيعُوا اللَّهَ» وَأَسْرَرْتُ كَلِمَةً خَفِيَّةً: «وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا». فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلَادِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطَ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يَنَاوِلُهُ إِيَّاهُ (٥). رواه مسلم.

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ كَدُّ يَكْدُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا، أَوْ فِي أَمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ» (٦). رواه الترمذي، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(١) رواه البخاري في الزكاة، باب: الاستغفار عن المسألة رقم (١٤٧٢)، ورواه مسلم في الزكاة، باب: أن اليد العليا خير من اليد السفلى (١٠٣٥).

(٢) تقدم تخريجه (٢٥١/١).

(٣) ورواه مسلم في الزكاة، باب: النهي عن المسألة (١٠٣٨).

(٤) رواه مسلم في الزكاة، باب: النهي عن المسألة (١٠٣٧).

(٥) تقدم تخريجه (ص ٢١٢).

(٦) تقدم تخريجه (ص ٢١٣).

وفي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» عن زيد بن عقبة الفزاري قال: دخلت على الحجاج بن يوسف الثقفي، فقلت: أصلح الله الأمير، ألا أحدثك حديثاً سمعته من سمرة بن جندب عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى. قال: سمعته يقول: «الْمَسَائِلُ كَدُّ يَكْدُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ، فَمَنْ شَاءَ أَبْقَى عَلَى وَجْهِهِ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَ، إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ رَجُلٌ ذَا سُلْطَانٍ، أَوْ يَسْأَلَ فِي أَمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ»<sup>(١)</sup>.

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَتَقَبَّلُ لِي بِوَاحِدَةٍ وَاتَّقَبَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» قلت: أنا. قال: «لَا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا». فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكبٌ فلا يقول لأحدٍ: ناولنيه. حتى ينزل هو فيتناوله<sup>(٢)</sup>. رواه الإمام أحمد وأهل السنن.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدِّ فَاقَتَهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ بِالْغِنَى، إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ، أَوْ غِنَى عَاجِلٍ»<sup>(٣)</sup>. رواه أبو داود الترمذي، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وعن سهل بن الحنظلية قال: قدم على رسول الله ﷺ عيينة بن حصين، والأقرع بن حابس؛ فسألاه، فأمر لهما بما سألاه، وأمر معاوية فكتب لهما بما سألا، فأما الأقرع فأخذ كتابه فلفه في عمامته وانطلق، وأما عيينة فأخذ كتابه، فأتى النبي ﷺ بكتابه. فقال: يا محمد، أراني حاملاً إلى قومي كتاباً لا أدري ما فيه، كصحيفة الملتمس<sup>(٤)</sup>، فأخبر معاوية بقوله رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فَإِنَّمَا يَسْتَكْبِرُ مِنَ النَّارِ - وَفِي لَفْظٍ: مِنْ جَمْرٍ جَهَنَّمَ -». قالوا: يا رسول الله، وما يغنيه؟ - وفي لفظٍ: وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة؟ - قال: «قَدَّرَ مَا يُعَدِّيهِ وَمَا يُعَشِّيهِ». وفي لفظٍ: «أَنْ يَكُونَ لَهُ شِبَعٌ يَوْمَ وَلِيْلَةٍ». رواه أبو داود والإمام أحمد<sup>(٥)</sup>.

وعن ابن الفراسي: أن الفراسي قال لرسول الله ﷺ: أسأل يا رسول الله؟ قال: «لَا، وَإِنْ كُنْتَ سَائِلًا لَا بُدَّ فَسَلِ الصَّالِحِينَ». رواه النسائي<sup>(٦)</sup>.

(١) تقدم تخريجه (ص ٢١٢).

(٢) رواه أحمد، بلفظ: «من يتكفل» بدل: «من يتقبل»، (٢٧٥/٥)، ورواه أبو داود (١٦٤٣)، بلفظ مقارب، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٤٤٦).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢١٢).

(٤) صحيفة الملتمس: مثل يضرب للذي يحمل أسباب هلاكه من غير أن يدري، وله قصة مشهورة في كتب الأدب.  
(٥) أبو داود في الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٢٩)، وأحمد (٤/١٨٠-١٨١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٤٣٥).

(٦) رواه أبو داود في الزكاة، باب: في الاستعفاف (١٦٤٦)، والنسائي في الزكاة، باب: سؤال الصالحين (٩٥/٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٣٦١).

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي، قال: تحمّلت حمالة، فأتيت النبي ﷺ أسأله: فقال: «أقم حتى تأتي بنا الصّدقة، فأمر لك بها». ثم قال: «يا قبيصة، إنّ المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة؛ فحلّت له المسألة حتى يُصيّبها ثم يُمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتى يُصيّب قوامًا من عيش - أو قال: سدادًا من عيش - ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة. فحلّت له المسألة حتى يُصيّب قوامًا من عيش - أو قال: سدادًا من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحّت يأكلها صاحبها سُحّتاً»<sup>(١)</sup>. رواه مسلم.

وعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فسأله، فأعطاه، فلما وضع رجله على أسكفة الباب، قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمون ما في المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله شيئاً»<sup>(٢)</sup>. رواه النسائي.

وعن مالك بن نضلة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأيدي ثلاثة: فَيَدُ اللَّهِ: العُلْيَا، وَيَدُ الْمُعْطِي: التي تليها، وَيَدُ السَّائِلِ: السُّفْلَى؛ فَأَعْطِ الْفُضْلَ، وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ»<sup>(٣)</sup>. رواه الإمام أحمد وأبو داود. وعن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ<sup>(٤)</sup> قال: «مَنْ سَأَلَ مَسْأَلَةً وَهُوَ عَنْهَا عَنِي كَانَتْ شَيْئًا فِي وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٥)</sup>. رواه الإمام أحمد.

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث، والذي نفس محمد بيده، إن كنت لحالفاً عليهن: لا ينقص مال من صدقة، فتصدّقوا، ولا يعفوا عبداً عن مظلمة يتبغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها، ولا يفتح عبداً باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»<sup>(٦)</sup>. رواه الإمام أحمد. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سرّحتني أمي إلى رسول الله ﷺ أسأله، فأتيته فقعدت. قال: فاستقبلني، فقال: «مَنْ اسْتَعْنَى أَعْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَعْفَى أَعْفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيَمَةٌ أَوْ قِيَمَةٌ

(١) تقدم تخريجه (ص ٢١٢).

(٢) النسائي في الزكاة، باب: المسألة (٥/٩٤)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٢٤٢٤)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/١٠٠).

(٣) رواه أبو داود في الزكاة، باب: الاستعفاف (١٦٤٩)، وأحمد (٣/٤٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٤٥١).

(٤) في «غ» والمنار: (عن النبي).

(٥) رواه الإمام أحمد (٥/٢٨١)، وقال الهيثمي في «المجمع»: ورجال أحمد رجال الصحيح (٣/٩٩).

(٦) رواه أحمد (١/١٩٣)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/١٠٨)، وضعف إسناده أحمد شاکر في تحقيق «المسند» رقم (١٦٧٤).

فَقَدْ أَلْحَفَ». فقلت: ناقي هي خيرٌ من أوقية، ولم أسأله<sup>(١)</sup>. رواه الإمام أحمد وأبو داود.  
وعن خالد بن عديّ الجهنيّ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ جَاءَهُ مِنْ أَخِيهِ مَعْرُوفٌ مِنْ غَيْرِ  
إِشْرَافٍ وَلَا مَسْأَلَةٍ، فَلْيَقْبَلْهُ وَلَا يَرُدَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقُ سَاقَةِ اللَّهِ إِلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>. رواه الإمام أحمد.  
فهذا أحد المعنيين في قوله: «إِنَّ مِنْ شَرْطِ الرِّضَا: تَرْكُ الإِلْحَاحِ فِي الْمَسْأَلَةِ». وهو ألبق المعنيين  
وأولاهما؛ لأنّه قرنه بترك الخصومة مع الخلق، فلا يخاصمهم في حقّه، ولا يطلب منهم حقوقه.  
والمعنى الثّاني: أنّه لا يلحّ في الدّعاء، ولا يباليغ فيه؛ فإنّ ذلك يقدر في رضاه، وهذا يصحّ في وجه  
دون وجه؛ فيصحّ إذا كان الدّاعي يلحّ في الدّعاء بأغراضه وحظوظه العاجلة، وأمّا إذا ألحّ على الله في  
سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه - فإنّ ذلك لا يقدر في مقام الرّضا أصلاً.  
وفي الأثر: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدَّعَاءِ»<sup>(٣)</sup>.  
وقال أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه يوم بدرٍ للنبيّ صلى الله عليه وسلم: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَلْحَحْتَ عَلَيَّ رَبِّكَ. كَفَاكَ  
بَعْضُ مُنَاشِدَتِكَ لِرَبِّكَ»<sup>(٤)</sup>. فهذا الإلحاح عين العبوديّة.  
وفي «سنن ابن ماجه» من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ  
لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»<sup>(٥)</sup>.

فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه.  
وحقيقة الرّضا: موافقته سبحانه في رضاه، بل الذي ينافي الرّضا أن يلحّ عليه متحكماً عليه،  
متخييراً عليه ما لم يعلم: هل يرضيه أم لا؟ كمن يلحّ على ربّه في ولاية شخص، أو إغنائه، أو قضاء  
حاجته، فهذا ينافي الرّضا؛ لأنّه ليس على يقين أنّ مرضاة الرّبّ في ذلك.

(١) أبو داود في الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٢٨)، والنسائي في الزكاة، وحسنه الألباني في «صحيح  
سنن أبي داود» رقم (١٤٣٤).

(٢) رواه أحمد (٤/٢٢٠)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/١٠٣)، وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح. ورواه  
الحاكم (٢/٦٢).

(٣) العقبلي في «الضعفاء» (٤/٤٥٢)، وقال الألباني: الحديث موضوع. ذكر ذلك في «الإرواء» (٦٧٧)، وقال في «السلسلة  
الضعيفة» (٦٣٧): باطل.

(٤) البخاري في التفسير - تفسير سورة اقترت الساعة - باب: قوله تعالى: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ (٥٥) ﴿٢٩١٥﴾،  
ورواه مسلم في الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر رقم (١٧٦٣).

(٥) تقدم تخريجه (ص ١٣٤).

فإن قيل: فقد يكون للعبد حاجةً يباح له سؤاله إياها<sup>(١)</sup>، فيلج على ربه في طلبها حتى يفتح له من لذيذ مناجاته وسؤاله، والدّل بين يديه وتملّقه، والتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وتفريغ القلب له، وعدم تعلّقه في حاجته بغيره - ما لم يحصل له بدون الإلحاح؛ فهل يكره له هذا الإلحاح، وإن كان المطلوب حفظاً من حظوظه؟

قيل: هاهنا ثلاثة أمور.

- أحدها: أن يفنى بمطلوبه وحاجته عن مراده ورضاه، ويجعل الربّ تعالى وسيلةً إلى مطلوبه، بحيث يكون أهمّ إليه منه، فهذا ينافي كمال الرضا به وعنه.

- الثاني: أن يفتح على قلبه حال السؤال من معرفة الله ومحبّته، والدّل له، والخضوع والتملّق ما ينسيه حاجته، ويكون ما فتح له من ذلك أحبّ إليه من حاجته؛ بحيث يحبّ أن تدوم له تلك الحال، وتكون أثر عنده من حاجته، وفرحه بها<sup>(٢)</sup> أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك، فهذا لا ينافي رضاه.

وقال بعض العارفين: «إنه لتكون لي حاجة إلى الله، فأسأله إياها، فيفتح عليّ من مناجاته ومعرفته، والتدليل له، والتملّق بين يديه ما أحبّ معه أن يؤخّر عني قضاءها، وتدوم لي تلك الحال».

وفي أثر: «إن العبد لي يدعو ربه بِحاجته، فيقول الله لِمَا تَكْتَبِي: اقضوا حاجة عبدي وأخروها؛ فإنّي أحبّ أن أسمع دعاءه، ويدعوه آخر، فيقول الله لِمَا تَكْتَبِي: اقضوا حاجته وعجلوها. فإنّي أكره صوته».

وقد روى الترمذي وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحبّ أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»<sup>(٣)</sup>.

وروي أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يستحبّ الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء»<sup>(٤)</sup>.

وروي أيضًا من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليسأل أحدكم ربه حاجته، حتى

(١) في «غ» والمنار: (يباح له سؤالها).

(٢) كلمة: (بها) غير موجودة في «غ» وفي نسخة المنار: (به).

(٣) الترمذي في الدعوات، باب: في انتظار الفرج وغير ذلك، وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٤٩٢): ضعيف جداً.

(٤) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ» والمنار.

(٥) الترمذي في الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة وقال: حديث غريب، وحسنه الألباني في «الأحاديث

الصحيحة» (٥٩٣).

يَسْأَلُهُ الْمَلْحَ، وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ» (١).

وفيه أيضًا عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا سُئِلَ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ الْعَاقِبَةَ، وَإِنَّ الدُّعَاءَ لَيَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالدُّعَاءِ» (٢).  
وإذا كان هذا محبة الرب تعالى للدُّعاء، فلا ينافي الإلحاح فيه الرضا.

- الثالث: أن ينقطع طمعه من الخلق، ويتعلق بربه في طلب حاجته، وقد أفرد به بالطلب، ولا يلوي على ما وراء ذلك، فهذا قد تنشأ له المصلحة من نفس الطلب، وإفراد الرب بالطلب، والفرق بينه وبين الذي قبله: أن ذلك قد فتح عليه بما هو أحب إليه من حاجته، فهو لا يبالي بفواتها بعد ظفره بما فتح عليه (٣)، وبالله التوفيق.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: الرِّضَا بِرِضَا اللَّهِ؛ فَلَا يَرَى الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ سُخْطًا وَلَا رِضًا، فَيَبْعَثُهُ عَلَى تَرْكِ التَّحَكُّمِ، وَحَسْمِ الْإِخْتِيَارِ، وَإِسْقَاطِ التَّمْيِيزِ، وَلَوْ أَدْخَلَ النَّارَ».

إنما كانت هذه الدرجة أعلى مما قبلها من الدرجات عنده؛ لأنها درجة صاحب الجمع، الفاني بربه عن نفسه وعمّا منها، قد غيبه شاهد رضا الله بالأشياء في وقوعها على مقتضى مشيئته عن شاهد رضاه هو؛ فيشهد الرضا لله ومنه حقيقةً، ويرى نفسه فانيًا، ذاهبًا مفقودًا؛ فهو يستوحش من نفسه، ومن صفاتها، ومن رضاها، ومن سخطها، فهو عامل على التغيّب عن وجوده وعمّا منه، مترام إلى العدم المحض، قد تلاشى وجوده ونفسه وصفاتها في وجود مولاه الملك الحق وصفاته وأفعاله، كما يتلاشى ضوء السراج الضعيف في جرم الشمس، فغاب برضا ربه عن رضاه هو وعن ربه في أفضيته وأقداره، وغاب بصفات ربه عن صفاته، وبأفعاله عن أفعاله، فتلاشى وجوده وصفاته وأفعاله في جنب وجود ربه وصفاته؛ بحيث صار كالعدم المحض، وفي هذا المقام لا يرى لنفسه رضا ولا سخطًا،

(١) الترمذي في الدعوات، باب: ليسأل الحاجة مهما صغرت وقال: هذا حديث غريب. وضعفه الألباني في «الأحاديث

الضعيفة» (١٣٦٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٣٢).

(٣) في «غ»: (بما فتح الله عليه).



فيوجب له هذا الفناء ترك التَّحَكُّمِ على الله بأمرٍ من الأمور، وترك التَّخْيِيرِ عليه، فتنهدب مادة التَّحَكُّمِ وتفنى، وتنحسم مادة الاختيار وتلاشى، وعند ذلك يسقط تمييز العبد ويتلاشى، هذا تقدير كلامه.

وبعد، فهاهنا أمران:

- أحدهما: أن هذا حالٌ يعرض، لا مقامٌ يطلب، ويشمَّرُ إليه؛ فإنَّ هذه الحال متى عرضت له وارت عنه تمييزه، ولا يمكن أن يدوم له ذلك، بل يقصر زمنه ويطول، ثمَّ يرجع إلى تمييزه وعقله، وصاحب هذه الحال مغلوبٌ: إمَّا سكران بحاله، وإمَّا فإنَّ عن وجوده، والكمال وراء ذلك، وهو أن يكون فانيًا عن إرادته بإرادة ربِّه منه، فيكون باقياً بوجودٍ آخر غير وجوده الطبيعيِّ، وهو وجودٌ مطهَّرٌ كائنٌ بالله، والله ومع الله. وصاحب هذا<sup>(١)</sup> في مقام: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ». قد فني عن وجوده الطبيعيِّ والنَّفْسِيِّ، وبقي بهذا الوجود العلويِّ القدسيِّ، فيعود عليه تمييزه، وفرقانه، ورضاه عن ربِّه تعالى، ومقامات إيمانه، وهذا أكمل وأعلى من فنائه عنها كالسكران.

فإن قلت: فهل يمكن وصوله إلى هذا المقام من غير درب الفناء، وعبوره إليه على غير جسره؟ قلت: اختلف في ذلك: فطائفةٌ: ظنَّتْ أنَّه لا يصل إلى البقاء، وإلى هذا الوجود المطهَّرُ إلَّا بعد عبوره على جسر الفناء، [فعدَّوه لازماً من لوازم السَّيرِ إلى الله. وقالت طائفةٌ: بل يمكن الوصول إلى البقاء على غير درب الفناء، والفناء عندهم عارضٌ من عوارض الطَّرِيقِ، لا لازماً.

وسببه: قوَّةُ الوارد وضعف المحلِّ، واستجلابه بتعاطي أسبابه. والتَّحْقِيقُ: أنَّه لا يصل إلى هذا المقام إلَّا بعد عبوره على جسر الفناء<sup>(٢)</sup> عن مراده بمراد سيِّده، فما دام لم يحصل له هذا الفناء فلا سبيل له إلى ذلك البقاء. وأمَّا فناؤه عن وجوده: فليس شرطاً<sup>(٣)</sup> لذلك البقاء، ولا هو من لوازمه. وصاحب هذا المقام: هو في رضاه عن ربِّه لا بنفسه، كما هو في توكُّله، وتفويضه، وتسليمه، وإخلاصه، ومحَبَّتِه، وغير ذلك من أحواله برَّبِّه، لا بنفسه.

فيرى ذلك كلَّه من عين المنَّة والفضل، مستعملاً فيه، قد أقيم فيه، لا أنَّه قد قام هو به؛ فهو واقفٌ بين مشهد: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾<sup>(٢٨)</sup> [التكوير: ٢٨]، ومشهد: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٢٩)</sup> [التكوير: ٢٩]، والله المستعان.

(١) كلمة: (هذا)، ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ» والمنار.

(٣) في «غ»: (بشرط).

## فصل [ منزلة الشكر ]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الشكر. وهي من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة الرضا وزيادة؛ فالرضا مندرج في الشكر، إذ استحيل وجود الشكر بدونه. وهو نصف الإيمان - كما تقدم - والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر. وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه؛ فإنه سبحانه هو «الشكور»، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهو غاية الرب<sup>(١)</sup> من عبده، وأهله هم القليل من عباده؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِن إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [١٧] ﴿٤﴾ [العنكبوت: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [٥] ﴿٥﴾ [إبراهيم: ٥]. وسمى نفسه «شاكراً» و«شكوراً» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم من وصفه، وسمّاهم باسمه، وحسبك بهذا محبةً للشاكرين وفضلاً.

(١) في «غ» والمنار: (وهو غاية رضا الرب).

(٢) هذه الآية غير موجودة في «غ» والمنار: (ويوجد بدلاً منها) ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وإعادته للشاكر مشكورًا، كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مَشْكُورًا﴾ ﴿١٢٢﴾ [الإنسان: ٢٢].

ورضا الربِّ عن عبده به، كقوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقلة أهله في العالمين تدلُّ على أنَّهم هم خواصُّه، كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ [سبأ: ١٣].

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عن النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَامَ حَتَّى تَوَرَّمتَ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَفْعَلُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! فَقَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!»<sup>(١)</sup>.

وقال لمعاذٍ: «وَاللَّهِ يَا مُعَاذُ إِنِّي لِأُحِبُّكَ؛ فَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»<sup>(٢)</sup>.

وفي «المُسْنَدِ» والترمذيُّ من حديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (٣) كَانَ يَدْعُو بِهِؤَلَاءِ الْكَلِمَاتِ: «اللَّهُمَّ أَعْنِي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَأَمْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَأَنْصُرْنِي عَلَيَّ مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مُطَاوَعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَاهَا مُبِينًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»<sup>(٤)</sup>.

## فصل

وأصل الشُّكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بيِّنًا؛ يقال: شَكَرت الدَّابَّةُ تَشْكُرُ شَكْرًا عَلِيًّا وَزَن سَمِنَت تَسْمِنُ سِمَنًا: إِذَا ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُ الْعَلْفِ، وَدَابَّةٌ شَكُورٌ: إِذَا ظَهَرَ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَنِ فَوْقَ مَا تَأْكُلُ وَتَعْطَى مِنَ الْعَلْفِ.

(١) البخاري في التهجيد، باب: قيام النبي ﷺ الليل برقم (١١٣٠)، ورواه مسلم في صفات المنافقين، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩)، (٢٨٢٠).

(٢) أبو داود رقم (١٥٢٢)، وابن ماجه (٣٨٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٣٤٧).

(٣) في «غ» والمنار: (أن النبي).

(٤) الترمذي في الدعوات، باب: من أدعية النبي ﷺ وقال: حسن صحيح. وأبو داود في الصلاة، باب: ما يقول الرجل إذا

أسلم (١٥١٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٣٣٧).

وفي «صحيح مسلم»: «حَتَّىٰ إِنَّ الدَّوَابَّ لِتَشْكُرَ مِنْ لُحُومِهِمْ»<sup>(١)</sup> أي: لتسمن من كثرة ما تأكل منها. وكذلك حقيقته في العبودية، وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً.

والشكر مبنيٌّ على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافه بنعمته، وثنائه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبنائه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختلَّ من قواعد الشكر قاعدةٌ. وكلُّ من تكلم في الشكر وحده، فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور. فقول: حذِّه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه. وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه.

وقيل: هو مشاهدة المنَّة، وحفظ الحرمة.

وما أَلطف ما قال حمدون القصار: «شُكْرُ النُّعْمَةِ أَنْ تَرَى نَفْسَكَ فِيهَا طُفَيْلِيًّا».

وقال أبو عثمان: «الشُّكْرُ مَعْرِفَةُ الْعَجْزِ عَنِ الشُّكْرِ».

وقيل: الشُّكْرُ إضافة النعم إلى موليتها بنعت الاستكانة له.

وقال الجنيد: «الشُّكْرُ أَلَّا تَرَى نَفْسَكَ أَهْلًا لِلنُّعْمَةِ».

هذا معنى قول حمدون: «أَنْ يَرَى نَفْسَهُ فِيهَا طُفَيْلِيًّا».

وقال رويم: «الشُّكْرُ اسْتِفْرَاحُ الطَّاقَةِ».

وقال الشُّبلي: «الشُّكْرُ رُؤْيَةُ الْمُنْعِمِ لَا رُؤْيَةَ النُّعْمَةِ».

قلت: يحتمل كلامه أمرين.

- أحدهما: أن يفنى برؤية المنعم عن رؤية نعمه.

(١) لم أقف عليه في «صحيح مسلم»، وإنما رواه الترمذي في التفسير - تفسير سورة الكهف -، وقال: حسن غريب. ورواه ابن ماجه في الفتن، باب: فتنة الدجال وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (٣٢٩٨).

- والثاني: ألا تحجبه رؤية نعمه ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها، وهذا أكمل، والأول أقوى عندهم.

والكمال: أن تشهد النعمة والمنعم؛ لأن شكره بحسب شهود النعمة، فكلما كان أتم كان الشكر أكمل، والله يحب من عبده أن يشهد نعمه، ويعترف له بها، ويشني عليه بها، ويحبّه عليها، لا أن يفنى عنها، ويغيب عن شهودها.

وقيل: الشكر قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة.

وشكر العامة: على المطعم والمشرب والملبس<sup>(١)</sup>، وقوت الأبدان.

وشكر الخاصة: على التوحيد والإيمان وقوت القلوب.

وقال داود عليه السلام: «يا رب، كيف أشكرك؟ وشكري لك نعمة علي من عندك تستوجب بها شكرا. فقال: الآن شكرتني يا داود».

وفي أثر آخر إسرائيلي: «أن موسى عليه السلام قال: يا رب، خلقت آدم بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسجدت له ملائكتك، وعلمته أسماء كل شيء، وفعلت وفعلت، فكيف أطاق شكرك؟ قال الله عليه السلام: علم أن ذلك مني، فكانت معرفته بذلك شكرا لي».

وقيل: الشكر التلذذ بشئائه، على ما لم تستوجب من عطائه.

وقال الجنيد - وقد سأله سري عن الشكر، وهو صبي - «الشكر: ألا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ قال: من مجالستك».

وقيل: من قصرت يدها عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر.

والشكر معه المزيد أبدا؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ فمتى لم تر حالك في مزيد فاستقبل الشكر.

وفي أثر إلهي يقول الله عليه السلام: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أفنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيهم، أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعائب».

وقيل: من كتّم النعمة فقد كفرها، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

(١) كلمة: (والملبس) غير موجودة في «ع».

وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ أَحَبَّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا قيل:

وَمِنَ الرَّزِيَّةِ أَنَّ شُكْرِي صَامِتٌ  
وَأَرَى الصَّنِيعَةَ مِنْكَ ثُمَّ أَسْرَهَا  
عَمَّا فَعَلْتَ وَأَنَّ بِرِّكَ نَاطِقٌ  
إِنِّي إِذْنُ لِنَدَى الْكَرِيمِ لَسَارِقٌ

### فصل

وتكلم النَّاسُ في الفرق بين الحمد والشُّكر: أيُّهما أعلى وأفضل؟ وفي الحديث: «الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ، فَمَنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ لَمْ يَشْكُرْهُ»<sup>(٢)</sup>.

والفرق بينهما: أَنَّ الشُّكرَ أعمُّ من جهة أنواعه وأسبابه، وأخصُّ من جهة متعلقاته، و«الْحَمْدُ» أعمُّ من جهة المتعلقات، وأخصُّ من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أَنَّ الشُّكرَ يكون بالقلب خضوعاً واستكانةً، وباللسان ثناءً واعترافاً، وبالجوارح طاعةً وانقياداً، ومتعلِّقه: النُّعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعته وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها، كما هو محمودٌ على إحسانه وعدله، والشُّكرُ يكون على الإحسان والنُّعم.

فكلُّ ما يتعلَّق به الشُّكرُ يتعلَّق به الحمد من غير عكسٍ، وكلُّ ما يقع به الحمد يقع به الشُّكر من غير عكسٍ؛ فإنَّ الشُّكرَ يقع بالجوارح، والحمد يقع<sup>(٣)</sup> بالقلب واللسان.

(١) روى الترمذي نحوه في الأدب، باب: ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وقال: هذا حديث حسن.

وقال عنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٦٠): حسن صحيح.

(٢) «المصنف» لعبد الرزاق (٤٢٤/١٠) (١٩٥٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٩٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع

الصغير» (٢٧٩٠).

(٣) كلمة: (يقع) غير موجودة في «غ» والمنار.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»<sup>(١)</sup>: «الشُّكْرُ: اسْمٌ لِمَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ؛ لِأَنَّهَا السَّبِيلُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمُنْعَمِ؛ وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ فِي الْقُرْآنِ: شُكْرًا».

فمعرفة النعمة: ركنٌ من أركان الشكر، لا أنَّها جملة الشكر، كما تقدّم أنَّه الاعتراف بها، والثناء عليه بها، والخضوع له ومحبته، والعمل بما يرضيه فيها، لكن لما كان معرفتها ركن الشكر الأعظم، الذي يستحيل وجود الشكر بدونه جعل أحدهما اسمًا للآخر.

قوله: «لِأَنَّ السَّبِيلُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمُنْعَمِ».

يعني: أنَّه إذا عرف النعمة توصل بمعرفتها إلى معرفة المنعم بها.

وهذا من جهة معرفة كونها نعمة، لا من أيِّ جهة عرفها بها، ومتى عرف المنعم أحبه، وجدَّ في طلبه؛ فإنَّ من عرف الله أحبه لا محالة، ومن عرف الدنيا أبغضها لا محالة.

وعلى هذا؛ يكون قوله: «الشُّكْرُ اسْمٌ لِمَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ» مستلزمًا لمعرفة المنعم، ومعرفته تستلزم محبته، ومحبته تستلزم شكره.

فيكون قد ذكر بعض أقسام الشكر<sup>(٢)</sup> باللفظ، ونبه على سائرها بالزوم، وهذا من أحسن اختصاره، وكمال معرفته وتصوره، قدس الله روحه.

□ قال: «وَمَعَانِي الشُّكْرِ ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءٌ: مَعْرِفَةُ النِّعْمَةِ، ثُمَّ قَبُولُ النِّعْمَةِ، ثُمَّ الثَّنَاءُ بِهَا، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ سُبُلِ الْعَامَّةِ».

- أمّا معرفتها: فهو إحضارها في الذهن، ومشاهدتها وتمييزها.

فمعرفتها: تحصيلها ذهنًا، كما حصلت له خارجًا؛ إذ كثيرٌ من النَّاسِ تحسن إليه وهو لا يدري، فلا يصحُّ من هذا الشُّكْرِ.

قوله: «ثُمَّ قَبُولُ النِّعْمَةِ».

قبولها: هو تلقّيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها، وأنَّ وصولها إليه بغير استحقاقٍ منه،

(١) في «غ» والمنار زيادة: (رحمه الله).

(٢) في «غ» والمنار: (الشكر بها).

ولا بذل ثمن، بل يرى نفسه فيها كالطُفيلي؛ فإنَّ هذا شاهدٌ بقبولها حقيقةً.

قوله: «ثُمَّ الثَّنَاءُ بِهَا».

الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة نوعان: عامٌّ، وخاصٌّ.

- فالعامُّ: وصفه بالجود والكرم، والبرُّ والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

- والخاصُّ: التَّحَدُّثُ بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وفي هذا التَّحَدِيثُ المأمور به قولان:

- أحدهما: أَنَّهُ ذَكَرَ النِّعْمَةَ، والإخبار بها، وقوله<sup>(١)</sup>: «أَنعم الله عليَّ بكذا وكذا».

قال مقاتل: «يعني: اشكُرْ مَا ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: مِنْ جَبْرِ (٢) أَيُّنَّمْ، وَأَلْهُدَى

بَعْدَ الضَّلَالِ، وَالْإِغْنَاءَ بَعْدَ الْعَيْلَةِ».

والتَّحَدُّثُ بنعمة الله شكراً، كما في حديث جابرٍ مرفوعاً: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَلْيَجْزِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ

يَجِدْ مَا يَجْزِي بِهِ فَلْيُثِّنْ، فَإِنَّهُ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ كَانَ

كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ»<sup>(٣)</sup>.

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها، والمظهر أَنَّهُ من

أهلها وليس من أهلها؛ فهو متحلٌّ بما لم يعطه.

وفي أثرٍ آخر مرفوع: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ،

والتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهُ كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»<sup>(٤)</sup>.

(١) في «غ» والمنار: (وقولك).

(٢) في «غ» والمنار: (خبر).

(٣) رواه أبو داود بلفظ مقارب في الأدب، باب: شكر المعروف (٤٨١٣)، إلى قوله: «فقد كفره» أما بعده فغير موجودة، ورواه الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في المتشعب بما لم يعطه، وقال الترمذي: حسن غريب. وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» رقم (١٦٥٦)، مع اختلاف في لفظ أول الحديث فبدل «من صنع إليه معروف» قال: «من أعطي عطاءً فوجد».

(٤) رواه أحمد (٣٧٥/٤)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨٢/٨)، وقال: رواه عبد الله، وأبو عبد الرحمن راويه عن الشعبي لم أعرفه، وبقيه رجاله ثقات. وقال الساعاتي في «الفتح الرباني»: وأورده الحافظ المنذري، وقال: رواه عبد الله بن أحمد في «زوائده» بإسناد لا بأس به.



- والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة.

قال مجاهد: «هي النبوة».

قال الزجاج: «أي: بلغ ما أرسلت به، وحَدَّثَ بِالنَّبِوءَةِ الَّتِي آتَاكَ اللَّهُ».

وقال الكلبي: «هُوَ الْقُرْآنُ، أَمْرُهُ أَنْ يَقْرَأَهُ».

والصواب: أنه يعلم النوعين؛ إذ كلُّ منهما نعمةٌ مأمورٌ بشكرها والتحدث بها، وإظهارها من شكرها.

قوله: «وَهُوَ أَيْضًا مِنْ سُبُلِ الْعَامَّةِ».

يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل؛ إذ جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السبل، بل الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أجمعين - أخص خلقه، وأقربهم إليه. ويا عجباً! أيُّ مقام أرفع من الشكر الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة والرضا، والتوكل وغيرها؟ فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها، وتالله<sup>(١)</sup> ليس لخواص أولياء الله، وأهل القرب منه سبيل أرفع من الشكر ولا أعلى؛ ولكن الشيخ وأصحاب الفناء كلهم يرون أن فوق هذا مقاماً أجلاً منه وأعلى؛ لأن الشكر عندهم يتضمّن نوع دعوى، وأنه شكر الحق على إنعامه.

ففي الشاكر بقية من بقايا رسمه لم يتخلص عنها، ويفرغ منها، فلو فني عنها - بتحقيقه أن الحق سبحانه هو الذي شكر نفسه بنفسه، وأن من لم يكن كيف يشكر من لم يزل - علم أن الشكر من منازل العامة، ولو أن السلطان كسا عبداً من عبده ثوباً من ثيابه، فأخذ يشكر السلطان على ذلك - لعدّ مخطئاً، مسيئاً للأدب؛ فإنه مدّع بذلك مكافأة السلطان بشكره؛ فإن الشكر مكافأة، والعبد أصغر قدرًا من المكافأة، والشهود للحقيقة يقتضي اتحاد نسبة الأخذ والعطاء، ورجوعها إلى وصف المعطي وقوته، فالخاصة يسقط عندهم الشكر بالشهود، وفي حقهم ما هو أعلى منه.

هذا غاية تقرير كلامهم، وكسوته أحسن عبارة؛ لئلا يتعدى عليهم بسوء التعبير الموجب

للتنفير.

(١) في «غ»: (وبالله).

ونحن معنا العصمة النَّافعة: أنَّ كلَّ أحدٍ - غير المعصوم عليه السلام - فمأخوذٌ من قوله ومتروكٌ، وكلَّ سبيلٍ لا يوافق سبيله فمهجورٌ غير مسلوکٍ.

فأمَّا تضمُّنُ الشُّكر لنوع دعوى: فإنَّ أريد بهذه الدَّعوى إضافةً (١) العبد الفعل إلى نفسه، وأنَّه كان به وغاب بذلك عن كونه بحول الله وقوَّته ومنته على عبده - فلعمر الله هذه علَّةٌ مؤثِّرةٌ، ودعوى باطلةٌ كاذبةٌ.

وإنَّ أريد: أنَّ شهوده لشكره شهوده لنعمة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وإذنه له به، ومشيئته عليه (٢) ومنته، فشهد عبوديَّته وقيامه بها، وكونها بالله؛ فأیُّ دعوى في هذا؟ وأيُّ علَّةٍ؟!

نعم، غايته: أنَّهُ لا يجامع الفناء، ولا يخوض تياره، فكان ماذا؟

فأنتم جعلتم الفناء غايةً، فأوجب لكم ما أوجب، وقدَّمتموه على ما قدَّمه الله ورسوله، فتضمَّن ذلك تقديم ما أُخر، وتأخير ما قدَّم، وإلغاء ما اعتبر، واعتبار ما ألغى.

ولولا منَّة الله على الصَّادقين منكم بتحكيم الرُّسالة، والتَّقيد بالشرع لكان أمرًا غير هذا، كما جرى لغير واحدٍ من السَّالکين على هذه الطَّريق الخطرة، فلا إله إلاَّ الله! كم فيها من قتيلٍ وسليبٍ، وجريحٍ وأسيرٍ وطريدٍ!

وأما قولكم: «إِنَّ الشَّاكِرَ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا رَسْمِهِ».

فيقال: إذا كانت هذه البقية محض العبودية ومركبها، والحاملة لها، فأیُّ نقصٍ في هذا؟! فإنَّ العبودية لا تقوم بنفسها، وإنما تقوم بهذا الرسم؛ فلا نقص في حمل العبودية عليه، والسير به إلى الله عزَّ وجلَّ.

نعم؛ النِّقصُ كلُّ النِّقص في (٣) حمل النَّفس والشَّهوة والحظُّ المخالف لمراد الرَّبِّ تعالى الدِّينيِّ على هذا الرِّسم، والسير به إلى النَّفس، ولعلَّ العامل على الفناء بهذه المثابة، وهو ملبوسٌ عليه، فالعارف يستقصي التَّفَتيش عن كائن النَّفس.

(١) كلمة: (العبد) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة: (عليه) غير موجودة في «غ».

(٣) كلمة: (في) غير موجودة في «غ» والمنار.

وأما قولكم: «من لم يكن كيف يشكر من لم يزل؟»<sup>(١)</sup> فهذا بالسطح أليق منه بالمعرفة؛ فإن «من لم يزل» إذا أمر «من لم يكن» بالشكر، ورضيه منه، وأحبّه وأثنى عليه به، واستدعاه واقتضاه منه، وأوجب له به المزيد، وأضافه إليه، واشتق منه له الاسم، وأوقع عليه به الحكم، وأخبر أنّه غاية رضاه منه، وأمره مع ذلك أن يشهد أنّ شكره به، ويأذنه ومشيتته وتوفيقه - فهذا شكر من لم يكن لمن يزل، وهو محض العبوديّة.

وأما ضربكم مثل كسوة السلطان لعبده، وأخذه في الشكر له مكافأة: فهذا من أبطل الأمثلة عقلاً ونقلاً وفطرةً، وهو الحجاب الذي أوجب لمن قال: إنّ شكر المنعم لا يجب عقلاً، ما قال ذلك حتّى زعم أنّ شكره قبيح عقلاً، ولولا الشرع لما حسن الإقدام عليه، وضرب هذا المثل الذي ضربتموه بعينه، وهذا من القياس الفاسد، المتضمّن قياس الخالق على المخلوق، وبمثله عبّدت الشمس والقمر والأوثان؛ إذ قال المشركون: جناب العظيم لا يهجم عليه بغير وسائل ووسائط، وسرت هاتان الرّقيقتان<sup>(٢)</sup> فيمن فسد من أهل التّعبد وأهل النّظر والبحث، والمعصوم من عصمه الله.

فيقال: الفرق من وجوه كثيرة جدًّا تفوت الحصر.

منها: أنّ الملك محتاجٌ فقيرٌ إلى من أنعم عليه، لا يقوم ملكه إلّا به؛ فهو محتاجٌ إلى معاوضةٍ بتلك الكسوة - مثلاً - خدمةً له، وحفظاً له، وذبّاً عنه، وسعيّاً في تحصيل مصالحه، فكسوته له من باب المعاوضة والمعاونة، فإذا أخذ في شكره فكأنّه جعل ذلك ثمناً لنعمته، وليس بثمانٍ لها. وأما إنعام الرّبّ تعالى على عبده: فأحسانٌ إليه، وتفضُّلٌ عليه، ومجرّد امتنانٍ، لا حاجةٍ منه إليه، ولا لمعاوضةٍ، ولا لاستعانةٍ به، ولا ليتكثّر به من قلةٍ، ولا ليتعزّز<sup>(٣)</sup> به من ذلّةٍ، ولا ليقوى به من ضعفٍ، سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضًا: إنعامٌ آخر عليه، وإحسانٌ منه إليه؛ إذ منفعة الشكر ترجع إلى العبد دنياً وآخرّةً، لا إلى الله، والعبد هو الذي ينتفع بشكره، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان: ١٢]، فشكر العبد إحسانٌ منه إلى نفسه دنياً وآخرى، (فلا يذمُّ ما أتى به من ذلك)<sup>(٤)</sup>، وإن كان لا

(١) في «غ» والمنار: (كيف يشكر من لم يكن من لم يزل).

(٢) هكذا في جميع النسخ ولعلها: العقيدتان، والمقاتلتان، والله أعلم.

(٣) في «غ» والمنار: (ليعتزّر).

(٤) في «غ»: (فلا يلام ما أتى به من ذلك لا إلى الله) وفي المنار: (فلا يلائم ما أتى به من ذلك لا إلى الله).

يحسن مقابلة المنعم به، ولا يستطيع شكره؛ فإنه إنما هو محسنٌ إلى نفسه بالشكر، لا أنه مكافئٌ به لنعم الربِّ؛ فالربُّ تعالى لا يستطيع أحدٌ أن يكافئَ نعمه أبداً، ولا أقلها، ولا أدنىَ نعمةٍ من نعمه؛ فإنه تعالى هو المنعم المتفضل، الخالق للشكر والشاكر، وما يشكر عليه، فلا يستطيع أحدٌ<sup>(١)</sup> أن يحصي ثناءً عليه، فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها، فشكره نعمةً من الله أنعم بها عليه، تحتاج إلى شكرٍ آخر... وهلمَّ جرّاً.

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم برّه وكرمه وجوده محبته له على هذا الشكر، ورضاه منه به، وثنائه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصةً بالعبد، لا تعود منفعة على الله، وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه، ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك، ثم يعيد إليك منفعة شكر، ويجعله سبباً لتوالي نعمه واتصالها إليك، والزيادة على ذلك منها.

وهذا الوجه وحده يكفي للبيب ليتنبه به على ما بعده.

وأما كون الشهود يسقط الشكر: فلعمر الله، إنه إسقاطٌ لحق المشكور بحظّ الشاهد، نعم بحظّ عظيم متعلّق بالحقِّ بِحَقِّكَ، لا حظّ سفليّ متعلّق بالكائنات، ولكنّ صاحبه قد سار من حرم إلى حرم<sup>(٢)</sup>.

وكان يقع لي هذا القدر منذ أزمان<sup>(٣)</sup>، ولا أتجرأ على التصريح به؛ لأن أصحابه يرون من ذكّره به بعين الفرق الأوّل، فلا يصغون إليه ألبتّة، لاسيّما وقد ذاقوا حلاوته ولذّته، ورأوا تخييط أهل الفرق الأوّل، وتلوّثهم بنفوسهم وعوالمها، وانضاف إلى ذلك: أن جعلوه غايةً، فتركّب من هذه الأمور ما تركّب، وإذا لاح الحقائق فليقل القائل ما شاء.

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ».

(٢) حاصل هذا الكلام: أن الشهود عندهم هو شهود العبد ربه بحيث يفنى عما سواه فيغيب بمشهوده عن شهوده، فإن من قام هذا المقام يغيب بهذا الشهود عن شكر المنعم، ويشغل بهذا الشهود عن شهود شكر المنعم، وشهود المنعم هو حق الرب تعالى، وشهود العبد لربه فيه حظ للعبد من حيث إنه ينعم بشهود جلال ربه وجماله وكماله، فيقال: إن هذا الشهود تضمن إسقاط حق الشكر للمنعم لغيابه بمشهوده عن ذلك، فسار صاحبه من حرم الشكر إلى حرم الشهود.

(٣) في «غ»: (زمان).

## فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الشُّكْرُ عَلَى الْمَحَابِّ، وَهَذَا شُكْرُ تَشَارِكْتِ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ  
وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسُ، وَمِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ أَنْ عَدَّهُ شُكْرًا، وَوَعَدَ  
عَلَيْهِ الزِّيَادَةَ، وَأَوْجَبَ فِيهِ الْمُثُوبَةَ».

إذا علمت حقيقة الشُّكر، وأنَّ جزء حقيقته الاستعانة بنعم المنعم على طاعته ومرضاته؛  
علمت<sup>(١)</sup> اختصاص أهل الإسلام بهذه الدرجة، وأنَّ حقيقة الشُّكر على المحابِّ ليست لغيرهم.

نعم؛ لغيرهم منها بعض أركانها وأجزائها، كالاقرار بالنعمة، والشَّاء على المنعم بها؛ فإنَّ  
جميع الخلق في نعم الله، وكلُّ من أقرَّ بالله ربًّا<sup>(٢)</sup>، وتقرَّده بالخلق والإحسان - فإنه يضيف نعمته إليه،  
لكنَّ الشَّأن في تمام حقيقة الشُّكر، وهو الاستعانة بها على مرضاته.

وقد كتبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَقْلَ مَا يَجِبُ لِلْمُنْعِمِ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ: أَلَّا  
يَجْعَلَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ سَبِيلًا إِلَى مَعْصِيَتِهِ».

وقد عرف مراد الشَّيخ، وهو أنَّ هذا الشُّكر مشتركٌ، وهو الاعتراف بنعمه سبحانه، والشَّاء عليه  
بها، والإحسان إلى خلقه منها، وهذا بلا شكَّ يوجب حفظها عليهم والمزيد منها، فهذا الجزء من  
الشُّكر مشتركٌ، وقد تكون ثمرته في الدُّنيا بعاجل الثَّواب، وفي الآخرة: بتخفيف العقاب؛ فإنَّ النَّارَ  
درجاتٌ [ودرجات أهلها]<sup>(٣)</sup> في العقوبة مختلفةٌ.

(١) في «غ» والمنار: (علم).

(٢) كلمة: (ربًّا) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة (الفاقي) وأثبتناه من «غ» والمنار.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الشُّكْرُ فِي الْمَكَارِهِ، وَهَذَا مِمَّنْ تَسْتَوِي عِنْدَهُ الْحَالَاتُ: إِظْهَارًا لِلرِّضَا، وَمِمَّنْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَحْوَالِ لِكُظْمِ<sup>(١)</sup> الْغَيْظِ، وَسِتْرِ الشُّكْوَى، وَرِعَايَةِ الْأَدَبِ، وَسَلُوكِ مَسَلِكِ الْعِلْمِ، وَهَذَا الشَّاكِرُ أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ».

يعني: أنَّ الشُّكرَ على المكاره أشدُّ وأصعب من الشُّكرِ على المحابِّ؛ ولهذا كان فوقه في الدَّرَجَةِ، ولا يكون إلا من أحدِ رجلين:

- إما رجلٍ لا يميِّز بين الحالات: بل يستوي عنده المكروه والمحبوب، فشكر هذا إظهاراً منه للرِّضا بما نزل به، وهذا مقام الرِّضا.

الرَّجُلُ<sup>(٢)</sup> الثَّانِي: من يميِّز بين الأحوال، فهو لا يحبُّ المكروه، ولا يرضى بنزوله به، فإذا نزل به مكروهٌ شكر الله تعالى عليه؛ فكان شكره كظماً للغَيْظِ الَّذِي أَصَابَهُ، وَسِتْرًا لِلشُّكْوَى، وَرِعَايَةً مِنْهُ لِلأَدَبِ، وَسَلُوكًا لِمَسَلِكِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ وَالأَدَبَ يَأْمُرَانِ بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَى السَّرِّاءِ وَالصَّرِّاءِ؛ فَهُوَ يَسْلُكُ هَذَا الشُّكْرَ مَسَلِكَ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ شَاكِرٌ لِلَّهِ شُكْرًا مِنْ رِضْيِ بَقَضَائِهِ، كَحَالِ الَّذِي قَبْلَهُ، فَالَّذِي قَبْلَهُ أَرْفَعُ مِنْهُ.

وإنَّما كان هذا الشَّاكِرُ أَوَّلَ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ، لِأَنَّهُ قَابِلٌ لِلْمَكَارِهِ الَّتِي يُقَابِلُهَا أَكْثَرُ النَّاسِ بِالْجَزَعِ وَالشُّحْطِ، وَأَوْسَاطِهِمْ بِالصَّبْرِ، وَخَاصَّتِهِمْ بِالرِّضَا، فَقَابِلُهَا هُوَ بِأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُوَ الشُّكْرُ؛ فَكَانَ أَسْبَقَهُمْ دُخُولًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَوَّلَ مَنْ يُدْعَى مِنْهُمْ إِلَيْهَا.

وَقَسَّمَ أَهْلَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ إِلَى قَسْمَيْنِ: سَابِقَيْنِ، وَمَقَرَّيْنِ بِحَسَبِ انْقِسَامِهِمْ إِلَى مَنْ يَسْتَوِي عِنْدَهُ الْحَالَاتُ، مِنَ الْمَكْرُوهِ وَالْمَحْبُوبِ، فَلَا يُوَثِّرُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، بَلْ قَدْ فَنِيَ بِإِثَارِهِ مَا يَرْضَى لَهُ بِهِ رَبُّهُ عَمَّا يَرْضَاهُ هُوَ لِنَفْسِهِ، وَإِلَى مَنْ يُوَثِّرُ الْمَحْبُوبَ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْمَكْرُوهُ قَابِلُهُ بِالشُّكْرِ.

(١) في «غ»: (ككضم)، وفي المنار: (كظم).

(٢) في «غ» والمنار: (الوجه).

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: أَلَّا يَشْهَدَ الْعَبْدُ إِلَّا الْمُنْعِمَ، فَإِذَا شَهِدَ الْمُنْعِمَ عُبُودِيَّةً اسْتَعْظَمَ مِنْهُ النِّعْمَةَ، وَإِذَا شَهِدَهُ حُبًّا اسْتَحْلَى مِنْهُ الشَّدَّةَ، وَإِذَا شَهِدَهُ تَفْرِيدًا لَمْ يَشْهَدْ مِنْهُ نِعْمَةً وَلَا شَدَّةً».

هذه الدرّجة يستغرق صاحبها بشهود المنعم عن النعمة، فلا يتسع شهوده للمنعم وغيره.

وقسم أصحابها إلى ثلاثة أقسام:

- أصحاب شهود العبوديّة.

- وأصحاب شهود الحبّ.

- وأصحاب شهود التّفريد.

وجعل لكلّ منهم حكماً هو أولى به.

فأما شهوده عبوديّة: فهو مشاهدة العبد للسيد بحقيقة العبوديّة والملك له؛ فإنّ العبيد إذا حضروا بين يدي سيّدهم، فإنّهم ينسون ما هم فيه من الجاه، والقرب الذي اختصّوا به عن غيرهم باستغراقهم في أدب العبوديّة وحقّها، وملاحظتهم لسيّدهم، خوفاً أن يشير إليهم بأمر، فيجدهم غافلين عن ملاحظته، وهذا أمر يعرفه من شاهد أحوال الملوك وخواصّهم.

فهذا هو شهود العبد للمنعم بوصف عبوديّته له، واستغراقه عن الإحسان بما حصل له منه من القرب الذي تميّز به عن غيره.

فصاحب هذا المشهد إذا أنعم عليه سيّده في هذه الحال - مع قيامه في مقام العبوديّة - يوجب عليه أن يستصغر نفسه في حضرة سيّده غاية الاستصغار، مع امتلاء قلبه من محبّته، فأبى إحسان ناله منه في هذه الحالة رآه عظيماً، والواقع شاهدٌ بهذا في حال المحبّ الكامل المحبّة، المستغرق في مشاهدة محبوبه، إذا ناوله شيئاً يسيراً فإنّ يراه في ذلك المقام عظيماً جداً، ولا يراه غيره كذلك.

القسم الثّاني: يشهد الحقّ شهود محبّة غالبية قاهرة له، مستغرق في شهوده كذلك؛ فإنّه يستحلي في هذه الحال الشّدّة منه؛ لأنّ المحبّ يستحلي فعل المحبوب به.

وأقلّ ما في هذا المشهد: أن يخفّ عليه حمل الشّدائد، إن لم تسمح نفسه باستحلائها، وفي هذا

من الحكايات المعروفة عند النّاس ما يغني عن ذكرها.

كحال الذي كان يضرب بالسَّيَاط ولا يتحرَّك، حتَّى ضرب آخر<sup>(١)</sup> سوطٍ، فصاح صياحًا شديدًا، فقيل له في ذلك، فقال: العين التي كانت تنظر إليَّ وقت الضَّرب كانت تمنعني من الإحساس بالألم، فلمَّا فقدتها وجدت ألم الضَّرب.

وهذه الحال عارضةٌ ليست بلازمةً؛ فإنَّ الطَّبيعة تَأبَى استحلاء المنافي كاستحلاء الموافق. نعم، قد يقوى سلطان المحبَّة حتَّى يستحلي المحبُّ ما يستمرُّه غيره، ويستخفُّ ما يستثقله غيره، ويأنس بما يستوحش منه الخليُّ، ويستوحش ممَّا يأنس به، ويستلين ما يستوعره، وقوَّة هذا وضعفه بحسب قهر سلطان المحبَّة، وغلبته على قلب المحبِّ.

القسم الثالث: أن يشهده تفريدًا؛ فإنَّه لا يشهد معه نعمةً ولا شدَّةً. يقول: إنَّ شهود التَّفريد يفني الرِّسم، وهذه حال [صاحب]<sup>(٢)</sup> الفناء المستغرق فيه، الذي لا يشهد نعمةً ولا بليَّةً؛ فإنَّه يغيب بمشهوده عن شهوده له، ويفني به عنه، فكيف يشهد معه نعمةً أو بليَّةً؟! كما قال بعضهم في هذا: «مَنْ كَانَتْ مَوَاهِبُهُ لَا تَعْدَى يَدَيْهِ فَلَا وَهَبَ وَلَا مَوْهُوبَ».

وذلك مقام الجمع عندهم، وبعضهم يحرم العبارة عنه. وحقيقته: اصطلاحٌ يرفع إحساس صاحبه برسمه، فضلًا عن رسم غيره؛ لاستغراقه في مشهوده وغيبته به عمَّا سواه، وهذا هو مطلوب القوم.

وقد عرفت أنَّ فوقه مقامًا أعلى منه، وأرفع وأجلُّ، وهو أن يصطلم بمراذه عن غيره؛ فيكون في حال مشاهدته واستغراقه منقذًا لمراسيمه ومراذه، ملاحظًا لما يلاحظ محبوبه من المرادات والأوامر<sup>(٣)</sup>.

فتأمل الآن عبيد بين يدي ملكٍ من ملوك الدُّنيا، وهما على موقفٍ واحدٍ بين يديه، أحدهما مشغولٌ بمشاهدته؛ فإنَّ استغراقه في ملاحظة الملك ليس فيه متَّسعٌ إلى ملاحظة شيءٍ من أمور الملك ألبتَّة، وآخر مشغولٌ بملاحظة حركات الملك وكلماته، وإيش<sup>(٤)</sup> أمره، ولحظاته وخواطره، ليرتَّب على كلِّ من ذلك ما هو مرادٌ للملك.

وتأمل قصَّة بعض الملوك: «الذي كان له غلامٌ يخصُّه بإقباله عليه وإكرامه، والحظوة عنده من بين سائر غلمانها، ولم يكن الغلام<sup>(٥)</sup> أكثرهم قيمةً، ولا أحسنهم صورةً؛ فقالوا له في ذلك، فأراد السلطان أن يبيِّن

(١) في «غ» والمنار: (في آخر).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة (الفاقي)، ومثبت في نسخة «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (لما محبوبه ملاحظًا له من الإرادات والأوامر).

(٤) في «غ» والمنار: (وأيسر).

(٥) كلمة: (الغلام) غير موجودة في «غ» والمنار.



لهم فضل الغلام في الخدمة على غيره، فيوماً من الأيام كان راكباً في بعض شئونه، ومعه الحشم، (وبالبعث منه جبل) (١) عليه ثلج، فنظر السلطان إلى ذلك الثلج وأطرق، فركض الغلام فرسه، ولم يعلم القوم لماذا ركض، فلم يلبث أن جاء ومعه شيء من الثلج، فقال السلطان: ما أدراك أنني أريد الثلج؟ فقال الغلام: لأنك نظرت إليه، (ونظر الملوك إلى شيء لا يكون عن غير قصد) (٢)؛ فقال السلطان: إنما أخصه بإكرامي وإقبالي لأن لكل واحدٍ منكم شغلاً، وشغله مراعاة لحظاتي، ومراقبة أحوالي، يعني في تحصيل مرادي».

وسمعت بعض الشيوخ يقول: «لو قال ملكٌ لغلامين له بين يديه، مستغرقين في مشاهدته، والإقبال عليه: اذهبوا إلى بلاد عدوي (٣)، فأوصلا إليهم هذه الكتب، وطالعاني بأحوالهم، وافعلوا كيت وكيت. فأحدهما مضى من ساعته لوجهه، وبادر ما أمره به، والآخر قال: أنا لا أدع مشاهدتك، والاستغراق فيك، ودوام النظر إليك، ولا أشغل بغيرك. لكان هذا جديراً بمقت الملك له، وبغضه إليّاه، وسقوطه من عينه؛ إذ هو واقفٌ مع مجرد حظه من الملك، لا مع مراد الملك منه، بخلاف صاحبه الأول».

وسمعته أيضاً يقول: «لو أن شخصين ادعيا محبةً محبوبٍ، فحضرنا بين يديه، فأقبل أحدهما على مشاهدته والنظر إليه فقط، وأقبل الآخر على استقراء مراداته ومراضيه وأوامره ليمثلها، فقال لهما: ما تريدان؟ فقال أحدهما: أريد دوام مشاهدتك، والاستغراق في جمالك، وقال الآخر: أريد تنفيذ أوامرك، وتحصيل مراضيك، فمرادي منك ما تريده أنت مني، لا ما أريده أنا منك، والآخر قال: مرادي منك تمتعي بمشاهدتك؛ أكانا عنده سواء؟!»

فمن هو الآن صاحب المحبة المعلولة المدخولة، الناقصة النفسانية، وصاحب المحبة الصّحيحة الصّادقة الكاملة، أهذا أم هذا؟!».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يحكي عن بعض العارفين أنه قال: «الناس يعبدون الله، والصوفية يعبدون أنفسهم» (٤).

أراد هذا المعنى المتقدم، وأنهم واقفون مع مرادهم من الله، لا مع مراد الله منهم. وهذا عين عبادة النفس، فليتأمل اللبيب هذا الموضوع حق التأمل؛ فإنه محكٌ وميزانٌ، والله المستعان.

(١) في «غ» والمنار: (بالبعث من جبل).

(٢) في «غ» والمنار: (ونظر السلطان لا يكون عن غير قصد).

(٣) في «غ» والمنار: (بلاد كذا وكذا).

(٤) في «غ» والمنار: (نفوسهم).

## فصل [منزلة الحياء]

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الحياء.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ فَقَالَ: «دَعُهُ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ»<sup>(١)</sup>.

وفيها عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»<sup>(٢)</sup>.

وفيها عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً - أَوْ: بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً - فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»<sup>(٣)</sup>.

وفيها عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا. فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفَتْهُ فِي وَجْهِهِ»<sup>(٤)</sup>.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»<sup>(٥)</sup>. وفي هذا قولان:

- أحدهما: أَنَّهُ أَمْرٌ تَهْدِيدِيٌّ، وَمَعْنَاهُ الْخَبْرُ؛ أَي: مَنْ لَمْ يَسْتَحْ صَنَعَ مَا شَاءَ.

(١) البخاري في الإيمان، باب: الحياء من الإيمان برقم (٢٤)، ورواه مسلم في الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان (٣٦).

(٢) البخاري في الأدب، باب: الحياء (٦١١٧)، ورواه مسلم في الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان (٣٧).

(٣) البخاري في الإيمان، باب: أمور الإيمان (٩)، ومسلم في الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان (٣٥).

(٤) البخاري في الأدب، باب: الحياء (٦١١٩)، ورواه مسلم في فضائل النبي ﷺ، باب: كثرة حياته (٢٣٢٠).

(٥) البخاري في الأدب، باب: إذا لم تستح فاصنع ما شئت (٦١٢٠)، ورواه أبو داود في الأدب، باب: ما جاء في الحياء (٤٧٩٧).

- والثاني: أنه أمر بإباحة؛ أي: انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله، فإن كان ممّا لا يستحيا منه فافعله، والأول أصحُّ، وهو قول الأكثرين.

وفي الترمذي مرفوعاً «استحيوا من الله حقَّ الحياء». قالوا: إننا نستحي يا رسول الله. قال: «ليس ذلكم، ولكنَّ من استحيا من الله حقَّ الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء»<sup>(١)</sup>.

## فصل

والحياء: من الحياة، ومنه الحيا للمطر، لكن هو مقصورٌ، وعلى حسب حياة<sup>(٢)</sup> القلب يكون فيه قوّة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والرُّوح؛ فكلّما كان القلب أحيًا كان الحياء أتمّ. قال الجنيد رحمه الله: «الحياء رُوِيَةُ الْأَلَاءِ، وَرُوِيَةُ التَّقْصِيرِ، فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى الْحَيَاءَ، وَحَقِيقَتُهُ: خُلِقَ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبَائِحِ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي حَقِّ صَاحِبِ الْحَقِّ».

ومن كلام بعض الحكماء: «أَحْيُوا الْحَيَاءَ بِمُجَالَسَةِ مَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ، وَعِمَارَةَ الْقَلْبِ بِالْهَيْبَةِ وَالْحَيَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَا مِنَ الْقَلْبِ لَمْ يَبْقَ فِيهِ خَيْرٌ».

وقال ذو النون: «الحياء: وجودُ الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك، والنحْبُ يُنطِقُ، والحياء يُسكِّتُ، والخوفُ يُقلِّقُ».

وقال السري: «إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْأَنْسَ يَطْرُقَانِ الْقَلْبَ، فَإِنْ وَجَدَا فِيهِ الزُّهْدَ وَالْوَرَعَ، وَإِلَّا رَحَلَا».

وفي أثرٍ إلهي: «يقول الله ﷻ: ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا اسْتَحْيَيْتَ مِنِّي أَنْسَيْتُ النَّاسَ عُيُوبَكَ، وَأَنْسَيْتُ بَقَاعَ الْأَرْضِ ذُنُوبَكَ، وَمَحَوْتُ مِنْ أُمَّ الْكِتَابِ زَلَّاتِكَ، وَإِلَّا نَاقَشْتُكَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(١) الترمذي في صفة القيامة، باب (٢٤)، وقال: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، ورواه الحاكم وصححه (٣/٣٢٣)، وأقره الذهبي وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٣٥).

(٢) في «غ»: (حال حياة).

وفي أثرٍ آخر: «أوحى اللهُ ﷻ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: عِظْ نَفْسَكَ، فَإِنْ أَعْطَتْ، وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مِنِّي أَنْ تَعْطَى النَّاسَ».

وقال الفضيل بن عياض: «خَمْسٌ مِنْ عِلَامَاتِ الشُّقْوَةِ: الْقَسْوَةُ فِي الْقَلْبِ، وَجُمُودُ الْعَيْنِ، وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا، وَطُولُ الْأَمَلِ».

وفي أثرٍ إلهيٍّ: «مَا أَنْصَفَنِي عَبْدِي؛ يَدْعُونِي فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَرُدَّهُ، وَيَعْصِيَنِي وَلَا يَسْتَحْيِي مِنِّي»<sup>(١)</sup>.  
وقال يحيى بن معاذٍ: «مَنْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ مُطِيعًا اسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ وَهُوَ مُذْنِبٌ».

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح.

ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته؛ فقلبه مطرّق بين يديه إطراق مستحٍ خجل؛ فإنه إذا وقع ذنبًا استحيا الله ﷻ من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه، فيستحي أن يرى من وليه ومن يكرم عليه ما يشينه عنده.

وفي الشاهد شاهدٌ بذلك: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا اطَّلَعَ عَلَى أَحْصَى النَّاسِ بِهِ، وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ - من صاحبٍ، أو وليدٍ، أو من يحبه - وهو يخونه؛ فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياءٌ عجيبٌ، حتى كأنه هو الجاني، وهذا غاية الكرم.

وقد قيل: إِنَّ سَبَبَ هَذَا الْحَيَاءِ أَنَّهُ يَمَثُلُ نَفْسَهُ فِي حَالِ طَاعَتِهِ كَأَنَّهُ يَعْصِي اللَّهُ ﷻ؛ فَيَسْتَحْيِي مِنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ؛ وَلِهَذَا شَرَعَ الْاسْتِغْفَارَ عَقِيبَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالْقُرْبَ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ ﷻ.  
وقيل: إِنَّهُ يَمَثُلُ نَفْسَهُ خَائِتًا، فَيَلْحَقُهُ الْحَيَاءُ، كَمَا إِذَا شَاهَدَ رَجُلًا (مَضْرُوبًا وَهُوَ صَدِيقٌ لَهُ)<sup>(٢)</sup>، أو من قد أحصر على المنبر عن الكلام، فإنه يخجل أيضًا؛ تمثيلًا لنفسه بتلك الحال.

وهذا قد يقع، ولكن حياء من اطلع على محبوبه وهو يخونه ليس من هذا؛ فإنه لو اطلع على غيره ممن هو فارغ البال منه لم يلحقه هذا الحياء ولا قريب منه، وإنما يلحقه مقتته وسقوطه من عينه، وإنما سببه - والله أعلم - شدة تعلق قلبه ونفسه به، فينزل الوهم فعله ذ، ولا سيما إن قدر حصول المكاشفة بينهما؛ فإن عند حصولها يهيج خلق الحياء منه تكرّمًا، فعند تقديرها ينبعث ذلك الحياء، هذا في حقّ الشاهد.

(١) كلمة: (مني) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (وهو صديق له مضروبًا).

وأما حياء الرَّبِّ تعالى من عبده: فذاك نوعٌ آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكيّفه العقول؛ فإنّه حياء كرمٍ وبرٍّ وجودٍ وجلالٍ؛ فإنّه تبارك وتعالى حيٌّ من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردّهما صفرًا<sup>(١)</sup>، ويستحي أن يعذب ذا شبيبةٍ شابت في الإسلام<sup>(٢)</sup>.

وكان يحيى بن معاذ<sup>(٣)</sup> يقول: «سُبْحَانَ مَنْ يُذْنِبُ عَبْدُهُ وَيَسْتَحِي هُوَ».

وفي أثرٍ: «مَنْ اسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ اسْتَحِيَ اللَّهُ مِنْهُ»<sup>(٤)</sup>.

وقد قَسَمَ الحياء على عشرة أوجهٍ:

- حياء جنائية.
- وحياء تقصير.
- وحياء إجلال.
- وحياء كرم.
- وحياء حشمة.
- وحياء استصغارٍ للنفس - واحتقارٍ لها.
- وحياء محبة.
- وحياء عبودية.
- وحياء شرفٍ وعزّة.
- وحياء المستحي من نفسه.

فأما حياء الجنائية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فرّ هاربًا في الجنة، قال الله تعالى: «أَفَرَأَى مَنِّي يَا آدَمُ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ. بَلْ حَيَاءٌ مِنْكَ».

وحياء التّقصير: كحياء الملائكة الذين يسبّحون الليل والنّهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حقّ عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد برّبّه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النّبِيِّ صلى الله عليه وآله من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطوّلوا الجلوس<sup>(٦)</sup>

(١) جاء معنى ذلك فيما رواه أبو داود (١٤٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٣٢٠).

(٢) جاء معنى ذلك فيما أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٩/٥)، وضعفه، ورواه أبو يعلى في «مسنده» (٢٧٦٤).

(٣) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٤) أورده الهيثمي نحوه في «مجمع الزوائد» (١٦٢/٥)، وقال: فيه نوح بن ذكوان وغيره من الضعفاء.

(٥) كلمة: (بل) غير موجودة في «غ».

(٦) كلمة: (الجلوس) غير موجودة في «غ» والمنار.

عنده، فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا<sup>(١)</sup>.

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب عليه السلام أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المذي لمكان ابنته منه<sup>(٢)</sup>.

وحياء الاستحغار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه، احتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها.

وفي أثر إسرائيلي: «إِنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّهُ لَتَعْرِضُ لِي الْحَاجَةُ مِنَ الدُّنْيَا، فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَكَ هِيَ يَا رَبِّ. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: سَلْنِي حَتَّى مَلَحَ عَجِيبتِكَ، وَعَلَفَ سَاتِكَ». وقد يكون لهذا النوع سببان:

- أحدهما: استحغار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياها.

- الثاني: استعظام مسئوله.

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه، ولا يدري ما سببه، وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة، ومنه قولهم: جمال رائع.

وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس، ولا ريب أن للمحبة سلطاناً قاهراً للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن، فأين من يقهر قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك؟ ولذلك تعجبت الملوك والجبارة من قهرهم للخلق وقهر المحبوب لهم، وذلك له، فإذا فاجأ المحبوب محبه، ورآه بغتة أحس القلب بهجوم سلطانه عليه، فاعتراه روعة وخوف.

وسألنا يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه عن هذه المسألة؟ فذكرت أنا هذا الجواب، فتبسّم ولم يقل شيئاً.

وأما الحياء الذي يعتريه منه، وإن كان قادراً عليه - كأتمته وزوجته - فسببه - والله أعلم - أن هذا السلطان لما زال خوفه عن القلب بقيت هيئته واحتشامه، فتولّد منها الحياء.

وأما حصول ذلك له في غيبة المحبوب: فظاهراً؛ لاستيلائه على قلبه، فوهمه يغالطه عليه ويكابره، حتى كأنه معه.

(١) رواه البخاري في تفسير سورة الأحزاب، باب: قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ برقم (٥١٦٨)، ومسلم في النكاح، باب: فضيلة إعتاقه أمة ثم بتزوجها (١٤٢٨).

(٢) رواه البخاري في الغسل، باب: غسل المذي والوضوء منه (٢٦٩)، ومسلم في الحيض رقم (٣٠٣)؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم: «... يغسل ذكره ويتوضأ».

وأما حياء العبودية: فهو حياءٌ ممتزجٌ من محبةٍ وخوفٍ، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجلُّ منها، فعبوديته له توجب استحياؤه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذلٍ أو عطاءٍ وإحسانٍ؛ فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفسٍ وعزةٍ، وهذا له سببان:

- أحدهما: هذا.

- والثاني: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل، حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياءً منه، وهذا يدخل في حياء التلوم؛ لأنه يستحي من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها<sup>(١)</sup> بالدون، فيجد نفسه مستحيًا من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحي من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر.

## فصل

□ قال صاحب «المنازل»<sup>(٢)</sup>: «الْحَيَاءُ: مِنْ أَوَّلِ مَدَارِجِ أَهْلِ الْخُصُوصِ، يَتَوَلَّدُ مِنْ تَعْظِيمِ مَنْوِطٍ بِوُدٍّ».

إنما جعل «الْحَيَاءُ» من أوَّلِ مدارجِ أهلِ الخصوص لما فيه من ملاحظة حضور من يستحيي منه، وأوَّلِ سلوكِ أهلِ الخصوص أن يروا الحقَّ سبحانه حاضرًا معهم، وعليه بناء سلوكهم.

وقوله: «إِنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِنْ تَعْظِيمِ مَنْوِطٍ بِوُدٍّ».

يعني: أن الحياء حالةٌ حاصلَةٌ<sup>(٣)</sup> من امتزاج التَّعْظِيمِ بالموَدَّةِ، فإذا اقترنا تولَّدَ بينهما الحياء.

(١) في «غ» والمنار: (وقنعها).

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٣) كلمة: (حاصلة) غير موجودة في المنار، وفي «غ»: (تحصل).

والجنيد<sup>(١)</sup> يقول: «إِنَّ تَوَلَّدَهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ النَّعْمِ، وَرُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ». ومنهم من يقول: تولَّده من شعور القلب بما<sup>(٢)</sup> يستحي منه، فيتولَّد من هذا الشعور والتَّفرَّة حالة تسمَّى الحياء. ولا تنافي بين هذه الأقوال؛ فإنَّ للحياء عدَّة أسبابٍ قد تقدَّم ذكرها، فكلُّ أشار إلى بعضها، والله أعلم.

## فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: حَيَاءٌ يَتَوَلَّدُ مِنْ عِلْمِ الْعَبْدِ بِنَظَرِ الْحَقِّ إِلَيْهِ، فَيَجْذِبُهُ إِلَى تَحْمُلِ هَذِهِ الْمُجَاهَدَةِ<sup>(٣)</sup>، وَيَحْمِلُهُ عَلَى اسْتِقْبَاحِ الْجِنَايَةِ، وَيُسْكِنُهُ عَنِ الشُّكُوفِ». يعني: أنَّ العبد متى علم أنَّ الرَّبَّ تعالى ناظرٌ إليه أورثه هذا العلم حياءً منه يجذبه إلى احتمال أعباء الطَّاعة، مثل العبد إذا عمل الشُّغل بين يدي سيِّده، فإنَّه يكون نشيطاً فيه، محتملاً لأعبائه، ولاسيَّما مع الإحسان من سيِّده إليه، ومحبتة لسيِّده، بخلاف ما إذا كان غائباً عن سيِّده، والرَّبُّ تعالى لا يغيب نظره<sup>(٤)</sup> عن عبده، ولكن يغيب نظر القلب والتفاتاته إلى نظره سبحانه إلى العبيد؛ فإنَّ القلب إذا غاب نظره، وقَلَّ التفاتاته إلى نظر الله تبارك وتعالى إليه تولَّد من ذلك قلة الحياء والقحَّة.

وكذلك يحمله على استقباح جنائته، وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قدرٌ زائدٌ على استقباح ملاحظة الوعيد، وهو فوقه.

وأرفع منه درجةٌ: الاستقباح الحاصل عن المحبَّة، فاستقباح المحبِّ أتمُّ من استقباح الخائف؛ ولذلك فإنَّ<sup>(٥)</sup> هذا الحياء يكفُّ العبد أن يشتكي لغير الله، فيكون قد شكَا الله إلى

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) في «غ»: (مما).

(٣) في «غ»: (فيجذبه إلى عمل المجاهدة). وفي المنار: (فيجذبه إلى تحمل المجاهدة).

(٤) كلمة: (نظره) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٥) كلمة: (فإن) غير موجودة في «غ» والمنار.



خلقه، ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه؛ فإنَّ الشكوى إليه سبحانه فقرٌ، وذلةٌ، وفاقةٌ، وعبوديةٌ، فالحياء منه في مثل ذلك لا ينافيها.

## فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: حَيَاءٌ يَتَوَلَّدُ مِنَ النَّظَرِ فِي عِلْمِ الْقُرْبِ، فَيَدْعُوهُ إِلَى رُكُوبِ الْمَحَبَّةِ، وَيَرْبِطُهُ بِرُوحِ الْأَنْسِ، وَيُكْرِهُ إِلَيْهِ مَلَابَسَةَ الْخَلْقِ».

- النَّظَرُ فِي عِلْمِ الْقُرْبِ: تحقُّقُ القلبِ بالمعيَّةِ الخاصَّةِ مع الله؛ فإنَّ المعية نوعان:

- عامَّةٌ: وهي معية العلم والإحاطة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ

إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وخاصَّةٌ: وهي معية القرب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

[النحل: ١٢٨].

وقوله (١): ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقوله (٢): ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه معية قربٍ تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ.

وكلا المعنيين مصاحبةٌ منه للعبد، لكنَّ هذه مصاحبة اطلّاعٍ وإحاطةٍ، وهذه مصاحبة موالاةٍ

ونصرٍ وإعانةٍ؛ فد«مع» في لغة العرب تفيد (٣) الصُّحبة (٤) اللأئمة، لا تشعر بامتزاجٍ ولا اختلاطٍ، ولا

مجاورةٍ، ولا مجانبيةٍ، فمن ظنَّ منها شيئاً من هذا فمن سوء فهمه أتي (٥).

(١) كلمة: (وقوله) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) كلمة: (تفيد) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (للصحبة).

(٥) كلمة: (أُتِيَ) غير موجودة في «غ».

وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصًا، وهو نوعان:

- وقربه من داعيه بالإجابة.

- وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولهذا نزلت جوابًا للصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وقد سألوا رسول الله ﷺ: «رَبُّنَا قَرِيبٌ فَتُنَاجِيهِ؟ أَمْ بَعِيدٌ

فَتُنَادِيهِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ» (١).

والثاني: قوله ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» (٢)، «وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ

عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ» (٣). فهذا وقربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا بِالتَّكْبِيرِ.

فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبِعُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ؛ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ

قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» (٤).

فهذا قربٌ خاصٌ بالدَّاعي دعاء العبادة والثناء والحمد، وهذا القرب لا ينافي كمال

مباينة الرَّبِّ لخلقه، واستواءه على عرشه، بل يجامعه ويلازمه؛ فإنَّه ليس كقرب الأجسام

بعضها من بعض، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ولكنَّه نوعٌ آخر، والعبد في الشَّاهد يجد

روحه قريبةً جدًّا من محبوبٍ بينه وبينه مفاوز تتقطَّع فيها أعناق المَطِيِّ، ويجده أقرب إليه

من جلسه، كما قيل.

أَلَا رَبُّ مَنْ يَدْنُو وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يُحِبُّكَ وَالنَّائِي أَحَبُّ وَأَقْرَبُ

وأهل السُّنَّة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحبَّأؤه، الَّذِينَ هُوَ عِنْدَهُمْ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ

أَنْفُسِهِمْ، وَأَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْهَا يَجِدُونَ نَفْسَهُمْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ، وَهُمْ فِي الْأَقْطَارِ النَّائِيَةِ عَنْهُ مِنْ جِيرَانِ

حَجْرَتِهِ فِي الْمَدِينَةِ، وَالْمَحْبُوبُونَ الْمُشْتَاقُونَ لِلْكَعْبَةِ وَالْبَيْتِ الْحَرَامِ يَجِدُونَ قُلُوبَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ

أَقْرَبَ إِلَيْهَا مِنْ جِيرَانِهَا وَمِنْ حَوْلِهَا؛ هَذَا مَعَ عَدَمِ تَأْتِي الْقَرْبِ مِنْهَا، فَكَيْفَ بِمَنْ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٨).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٣٣٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٣٦).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٣٦).

كيف يشاء، وهو مستوٍ على عرشه، وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطلٍ بعيدٍ من الله، خلقي من محبته ومعرفته.

والقصد: أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبة، وكلما ازداد حباً ازداد قرباً؛ فالمحبة بين قريين: قرب قبلها، وقرب بعدها، وبين معرفتين: معرفة قبلها حملت عليها، ودعت إليها، ودلت عليها، ومعرفة بعدها، هي من نتائجها وآثارها.

وأما ربطه بروح الأنس: فهو تعلق قلبه بروح الأنس بالله، تعلقاً لازماً لا يفارقه، بل يجعل بين القلب والأنس رابطةً لازمةً، ولا ريب أن هذا يكره إليه ملابسة الخلق، بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدر أنسه بربه، وقرّة عينه بحبه وقربه منه، فإنه ليس مع الله غيره، فإن لا بسهم لا بسهم برسمة دون سره وروحه وقلبه، فقلبه وروحه في ملأ، وبدنه ورسمة في ملأ.

## فصل

□ قال «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: حَيَاءٌ يَتَوَلَّدُ مِنْ شُهُودِ الْحَضْرَةِ، وَهِيَ الَّتِي لَا تَشُوهُبُهَا هَيْبَةٌ، وَلَا تُقَارِبُهَا تَفْرِقَةٌ، وَلَا يُوقَفُ لَهَا عَلَى غَايَةٍ».

شهود الحضرة: انجذاب الروح والقلب من الكائنات، وعكوفه على ربّ البريات، فهو في حضرة قربه مشاهداً لها، وإذا وصل القلب إليها غشيتته الهيبة، وزالت عنه التفرقة؛ إذ ما مع الله سواه، فلا يخطر بباله في تلك الحال سوى الله وحده، وهذا مقام الجمعية.

وأما قوله: «وَلَا يُوقَفُ لَهَا عَلَى غَايَةٍ».

فيعني<sup>(١)</sup>: أن كل من وصل إلى مطلوبه، وظفر به وصل إلى الغاية، إلا صاحب هذا المشهد؛ فإنه لا يقف بحضرة الربوبية على غاية؛ فإن ذلك مستحيل، بل إذا شهد تلك الروابي، ووقف على تلك الربوع، وعاین الحضرة التي هي غاية الغايات - شارف أمراً لا غاية له ولا نهاية، والغايات والنهيات كلها إليه تنتهي؛ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

(١) في «غ» والمنار: (يعني).

فانتهت إليه الغايات والنّهائيات، وليس له سبحانه غايةٌ ولا نهايةٌ، لا في وجوده، ولا في مزيد وجوده. إذ هو الأوّل الذي ليس قبله شيءٌ، والآخر الذي ليس بعده شيءٌ، ولا نهاية لحمده وعطائه<sup>(١)</sup>، بل كلّما ازداد له العبد شكرًا زاده فضلًا، وكلّما ازداد له طاعةً زاده لمجده مثوبةً، وكلّما ازداد منه قربًا لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك، وهكذا أبدًا لا يقف على غايةٍ ولا نهايةٍ.

ولهذا جاء أن أهل الجنة في مزيدٍ دائمٍ بلا انتهاءٍ؛ فإنّ نعيمهم متّصلٌ ممّن<sup>(٢)</sup> لا نهاية لفضله ولا لعطائه، ولا لمزيده ولا لأوصافه، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام؛ ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مَّا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يُنْقِصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»<sup>(٣)</sup>.



[تم بحمد الله تعالى المجلد الثاني من «مدارج السالكين»  
ويليه إن شاء الله تعالى المجلد الثالث وأوله: منزلة الصدق]



(١) في «غ»: (ولا نهاية لمجده وحمده وعطائه)، وفي المنار: (ولا نهاية لحمده ومجده وعطائه).

(٢) هكذا في جميع النسخ ولعل الصواب: (بمن) والله أعلم.

(٣) تقدم تخريجه (١/١١٠).

## فهرس الموضوعات

- ٥..... منزلة الإنابة، وأنواعها
- ٨..... فصلٌ: الرجوع إلى الله إصلاحًا يستقيم بثلاثة أشياء
- ٨..... فصلٌ: الرجوع إلى الله عهدًا
- ١٠..... فصلٌ: من علامات الإنابة
- ١١..... فصلٌ: في أن رجوع الحال إلى الله تعالى لا تستقيم إلا بثلاثة أشياء
- ١٢..... فصلٌ في منزلة التذكر [
- ١٣..... الناس ثلاثة بحسب تأثير الآيات المقروءة والآيات المشهودة في قلوبهم
- ١٥..... أبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع، والاستبصار، والظفر
- ١٦..... فصلٌ: الانتفاع بالعظة تحصل بثلاثة أشياء
- ١٨..... الاستبصار بثلاثة أشياء
- ٢٠..... فصلٌ في جني ثمرة الفكرة وتجنب المفسدات الخمسة
- ٢٢..... فصلٌ: فوائد تدبر القرآن والتأمل في معانيه
- ٢٤..... فصلٌ: آثار مفسدات القلب الخمسة
- ٤٠..... أولها: خلطة الناس ومعايشتهم
- ٢٧..... ثانيها: ركوب بحر التمني
- ٢٧..... ثالثها: التعلق بغير الله تعالى
- ٢٨..... رابعها: كثرة الطعام
- ٢٩..... خامسها: كثرة النوم
- ٣٠..... فصلٌ في منزلة الاعتصام
- ٣٢..... فصلٌ: الاعتصام بالله هو التوكل عليه
- ٣٣..... فصلٌ في درجات الاعتصام واعتصام العامة
- ٣٤..... فصلٌ في اعتصام الخاصة
- ٣٥..... فصلٌ في اعتصام خاصة الخاصة
- ٣٨..... فصلٌ في منزلة الفرار ودرجاته

- ٣٥ ..... فرار العامة
- ٤١ ..... فصل: فرار الخاصة من الخبر إلى الشهود
- ٤٣ ..... فصل: الفرار من حظوظ النفس إلى الله
- ٤٤ ..... فصل: فرار خاصة الخاصة
- ٤٤ ..... فصل في منزلة الرّياضة ودرجاتها
- ٤٥ ..... فصل: رياضة الخاصة
- ٤٦ ..... فصل: رياضة خاصة الخاصة
- ٤٩ ..... فصل في منزلة السّماع
- ٥٠ ..... فصل في السماع الي مدحه الله تعالى
- ٥٤ ..... فصل في السماع الذي يبغضه الله تعالى
- ٦١ ..... النزاع حول منزلة السماع بثلاث قواعد
- ٦٢ ..... الأولى: تحكيم الحال والذوق
- ٦٣ ..... الثانية: تحكيم الوحي في الأحوال والأذواق
- ٦٣ ..... الثالثة: كون المفسد علة التحريم
- ٦٤ ..... فصل في محاكمة السماع إلى عبوديتي السراء والضراء
- ٦٧ ..... فصل في درجات السماع وسماع العامة
- ٦٩ ..... فصل في سماع الخاصة
- ٧٠ ..... فصل سماع خاصة الخاصة
- ٧١ ..... فصل في منزلة الحزن
- ٧٣ ..... فصل في درجات الحزن
- ٧٧ ..... فصل في منزلة الخوف
- ٧٧ ..... تعريف الخوف والفرق بينه وبين الخشية والوجل والإشفاق
- ٧٨ ..... درجات الخوف الثلاث
- ٨٢ ..... فصل في أكمل الأحوال: اعتدال الخوف والرجاء
- ٨٢ ..... فصل في منزلة الإشفاق، ودرجاته الثلاث
- ٨٥ ..... فصل في منزلة الخشوع
- ٨٦ ..... فصل في تعريف الخشوع والدرجة الأولى منه
- ٨٧ ..... فصل في الدرجة الثانية: ترقب آفات النفس العمل

- ٨٨..... فصلُ الدرجة الثالثة في حفظ الحرمة عند المكاشفة
- ٨٩..... أبيات شعر لابن تيمية رحمه الله تعالى
- ٩٠..... فصلُ في صلاة من لم يخشع
- ٩٢..... دلائل كون صلاة الغافل صحيحة في الدنيا باطلة في الآخرة
- ٩٤..... فصلُ في منزلة الإخبات ودرجاته الثلاث
- ٩٩..... فصلُ فيمن يشتغل بالله عن ملاحظة حال غيره
- ٩٩..... فصلُ في منزلة الزُّهد، والآيات فيه وتعريفاته
- ١٠٢..... حقيقة الزهد وكونه لا ينافي التأمل والملك
- ١٠٢..... متعلق الزهد وإمكانه
- ١٠٤..... فصلُ في تعريف الزهد ودرجاته الثلاث
- ١٠٤..... الدرجة الأولى: الزهد في الشبهة
- ١٠٦..... الدرجة الثانية: الزهد في الفضول
- ١٠٧..... الدرجة الثالثة: الزهد في الزهد
- ١٠٨..... فصلُ في منزلة الورع وتعريفاته
- ١١١..... فصلُ: انتباه القلب بصون الجوارح
- ١١١..... الدرجة الأولى: تجنب القبائح لصون النفس
- ٢٠١..... الدرجة الثانية: حفظ الحدود عن ما لا بأس به
- ١١٤..... الدرجة الثالثة: التورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت
- ١١٥..... فصل: الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل
- ١١٦..... فصلُ في منزلة التبتل وتعريفه
- ١١٧..... الدرجة الأولى: تجريد الانقطاع عن الحظوظ
- ١١٨..... الدرجة الثانية: تجريد الانقطاع عن النفس
- ١١٩..... الدرجة الثالثة: تجريد الانقطاع إلى السبق
- ١٢١..... فصلُ في منزلة الرجاء، تعريفه وأنواعه
- ١٢٣..... فصلُ: انتقاد «صاحب المنازل» في نظرتة للرجاء
- ١٢٥..... الغلو في إطراء الصوفية وتقديسهم وذمهم وشطحاتهم
- ١٢٦..... الرجاء من أجلّ منازل السائرين
- ١٣٠..... الرضا والفناء بمراد الرب وبطلان كون الرجاء اعتراضياً

- ١٣١ ..... الصوفية أشد الناس عبادة لنفوسهم
- ١٣١ ..... وقاحة من يقول لربه: لا أحبك لثوابك
- ١٣٣ ..... فوائد الرجاء
- ١٣٥ ..... فصل: درجات الرجاء، الأولى: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد
- ١٣٦ ..... الثانية: رجاء أرباب الرياضات
- ١٣٦ ..... الثالثة: رجاء أرباب القلوب
- ١٣٨ ..... فصل في منزلة الرغبة
- ١٣٥ ..... الدرجة الأولى: رغبة أهل الخير
- ١٤٠ ..... التفصيل في الأخذ بالرخص
- ١٤١ ..... الثانية: رغبة أرباب الحال
- ١٤١ ..... الثالثة: رغبة أهل الشهود
- ١٤٢ ..... فصل في منزلة الرعاية
- ١٤٤ ..... درجات الرعاية
- ١٤٧ ..... فصل في منزلة المراقبة
- ١٤٩ ..... فصل: درجات المراقبة
- ١٥١ ..... أنواع الاعتراض على الحق، وأنواع المعترضين
- ١٥٤ ..... فصل في مراقبة الأزل بمطالعة عين السبق
- ١٥٦ ..... فصل في منزلة تعظيم حرمان الله ودرجاته
- ١٥٦ ..... الأولى: تعظيم الأمر والنهي عندهم ألا يخاف العقوبة، ولا يرجو المثوبة
- ١٥٨ ..... فصل: رجاء الجنة والاستعاذة من النار من سنن المرسلين
- ١٦٢ ..... حقيقة الجنة وكون النعيم الأكبر فيها رؤية وجه الله ورضوانه
- ١٦٣ ..... الناس في مقام إرادة الله وإرادة ثوابه ونعيم الآخرة أربعة أقسام
- ١٦٥ ..... فصل: المراءة المحمودة والمذمومة وعبادة النفس
- ١٦٦ ..... فصل: الدرجة الثانية إجراء الخبر في الأسماء والصفات على ظواهرها
- ١٦٩ ..... فصل: الدرجة الثالثة في الصيانة المثمرة
- ١٧٠ ..... فصل في منزلة الإخلاص، الآيات والأحاديث والآثار فيه
- ١٧٣ ..... تعريف صاحب المنازل له
- ١٧٣ ..... الدرجة الأولى: إخراج رؤية العمل من العمل



- الدرجة الثانية: الخجل من العمل مع بذل المجهود ..... ١٧٦
- الدرجة الثالثة: إخلاص العمل بالخلاص من العمل ..... ١٧٧
- فصلٌ في أركان السير ..... ١٧٨
- فصلٌ في منزلة التّهذيب والتّصفية ودرجاتها ..... ١٧٩
- الدرجة الأولى: تهذيب الخدمة وأنواعه الثلاثة ..... ١٧٩
- الدرجة الثانية: تهذيب الحال ..... ١٨١
- فصلٌ في خضوع القلب لله عَزَّوَجَلَّ ..... ١٨٢
- الدرجة الثالثة: تهذيب القصد بثلاثة أشياء ..... ١٨٣
- فصلٌ في منزلة الاستقامة وأقوال الصحابة وغيرهم في تفسيرها ..... ١٨٤
- فصلٌ في عين التفرد ..... ١٨٦
- فصلٌ في تعريف الاستقامة ودرجاتها ..... ١٨٧
- الدرجة الأولى: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد ..... ١٨٨
- الدرجة الثانية: استقامة الأحوال ..... ١٨٩
- الدرجة الثالثة: استقامة بترك رؤية الاستقامة ..... ١٩١
- فصلٌ في منزلة التّوكل، الآيات والأحاديث فيه ..... ١٩٢
- فصلٌ في معنى التوكل ودرجاته ..... ١٩٥
- فصلٌ في حقيقة التوكل والأمور التي لا يتم إلا بها ..... ١٩٨
- فصلٌ في إثبات الأسباب والمسببات ..... ١٩٨
- فصلٌ في توحيد القلب برسوخه في مقام التوكل ..... ٢٠٠
- فصلٌ في أن اعتماد القلب على الله يورث السكون ..... ٢٠٠
- فصلٌ: مفتاح التوكل: حسن الظن بالله ..... ٢٠١
- فصلٌ: استسلام القلب لله تعالى وترك المنازعة ..... ٢٠١
- فصلٌ: التفويض: روح التوكل ..... ٢٠٢
- فصلٌ: الرضا ثمرة التوكل ..... ٢٠٢
- فصلٌ: اشتباه التوكل المحمود بالتوكل المذموم ..... ٢٠٣
- فصلٌ: التوكل أعم المقامات تعلقًا بالأسماء الحسنی ..... ٢٠٥
- فصلٌ: المغبون في توكله ..... ٢٠٥
- فصلٌ: التوكل: كِلّه الأمر إلى مالكه ..... ٢٠٦

- ٢٠٩..... فصلٌ في درجات التوكلي، الأولي: التوكل مع الأسباب وعدمها.
- ٢١٠..... فصلٌ: الدرجة الثانية .....
- ٢١١..... الاستغناء بالحق عن الخلق .....
- ٢١٢..... تركك الأسباب توكلًا ممتنع شرعًا وطبعًا ووجودًا .....
- ٢١٥..... فصلٌ: الدرجة الثالثة .....
- ٢١٥..... الفرق بين التوكل والتوكيل .....
- ٢١٧..... فصلٌ في منزلة التفويض .....
- ٢١٩..... درجات التفويض الثلاث .....
- ٢٢١..... فصلٌ في منزلة الثقة بالله تعالى، تعريفها .....
- ٢٢٢..... درجات الثقة بالله تعالى: الإياس، والأمن، ومعاينة أزلية الحق .....
- ٢٢٤..... فصلٌ في منزلة التسليم .....
- ٢٢٥..... فصلٌ في التسليم لا يشوبه انقباض ولا معارضة .....
- ٢٢٥..... الدرجة الأولى: العقل ومزاحمة، والغيب والتسليم به .....
- ٢٢٨..... فصلٌ: الدرجة الثانية في تسليم العلم إلى الحال .....
- ٢٢٩..... الدرجة الثالثة تسليم ما دون الحق إلى الحق .....
- ٢٣٠..... فصلٌ في منزلة الصبر، وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعًا .....
- ٢٣٣..... الأحاديث في الصبر .....
- ٢٣٤..... فصلٌ في معنى الصبر ومراتبه .....
- ٢٣٥..... فصلٌ في أنواع الصبر .....
- ٢٣٩..... فصلٌ في تعريف الهروي للصبر، والرد عليه .....
- ٢٤٢..... درجات الصبر، الأولى الصبر عن المعصية .....
- ٢٤٤..... فصلٌ: الدرجة الثانية في الصبر على الطاعة .....
- ٢٤٦..... فصلٌ في الصبر لله وبالله .....
- ٢٤٨..... فصلٌ في منزلة الرضا .....
- ٢٥١..... كون الرضا مكسوبًا موهوبًا .....
- ٢٥٢..... فصلٌ: الإحساس بالألم لا ينافي الرضا .....
- ٢٥٤..... فصلٌ في شرط القاصد الدخول في الرضا .....
- ٢٥٧..... فصلٌ في درجات الرضا: الأولى رضا العامة، وهو الرضا بالله ربًّا .....

٢٥٩	الدرجة الثانية: الرضا عن الله في كل ما قضى وقدر .....
٢٦٠	المحبة والرضا والآيات فيهما .....
٢٦٢	فصل في أنواع الرضا .....
٢٦٤	أختيار العبد لنفسه واختيار الرب له، وتحقيق مسألة الرضا بالقضاء .....
٢٦٥	المشيئة والمحبة والقضاء والمقضي والفعل والمفعول .....
٢٦٧	الرضا بالقضاء وحكمه .....
٢٦٨	حكمة خلق إبليس .....
٢٧٠	فصل: الحكمة في خلق ما لا يحبه الله تعالى .....
٢٧٢	الشر أمر عدمي أو إضافي .....
٢٧٣	أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد والإعداد والإمداد .....
٢٧٦	فوائد الرضا عن الله في الدنيا والدين .....
٢٨١	اجتماع مقام الرضا والرحمة للرسول ﷺ .....
٢٩٠	آثار جلييلة في فوائد الرضا .....
٢٩٧	هل للرضا حدٌ ينتهي إليه .....
٢٩٩	سقوط الخصومة مع الخلق .....
٢٩٩	الخلاص من المسألة للخلق .....
٣٠١	فصل في حكم المسألة والأحاديث النبوية فيها .....
٣٠٨	فصل في الرضا برضا الله، ومناقشة «الهروي» ورد كلامه .....
٣١٠	فصل في منزلة الشكر، الآيات والأحاديث فيه .....
٣١١	فصل في معنى الشكر، لغة واصطلاحًا .....
٣١٤	فصل في الفرق بين الحمد والشكر .....
٣١٥	فصل وجه تسمية الإسلام شكرًا، ومعاني الشكر الثلاثة .....
٣١٧	استصغار أهل الفناء لمقام الشكر، ورد المصنف عليهم .....
٣١٩	خطأ تشبيه الخالق سبحانه بالملوك في الشكر له .....
٣٢١	فصل في درجات الشكر، الأولى: الشكر على المحاب .....
٣٢٢	فصل الثانية: الشكر في المكاره .....
٣٢٣	فصل الثالثة: في شكر الحال .....
٣٢٦	فصل منزلة الحياء والأحاديث فيه .....

٣٢٧.....	فصل: حياة القلب في الحياء
٣٢٩.....	أقسام الحياء العشرة وشرحها
٣٣١.....	فصل: الحياء هو الأساس
٣٣٢.....	فصل في درجات الحياء، الأولى: حياء يتولد من العلم بنظر الحق
٣٣٣.....	فصل الدرجة الثانية في معنى معية الله تعالى وقربه
٣٣٥.....	فصل الدرجة الثالثة في حياء يبعث على الهيبة
٣٣٧.....	فهرس موضوعات المجلد الثاني

